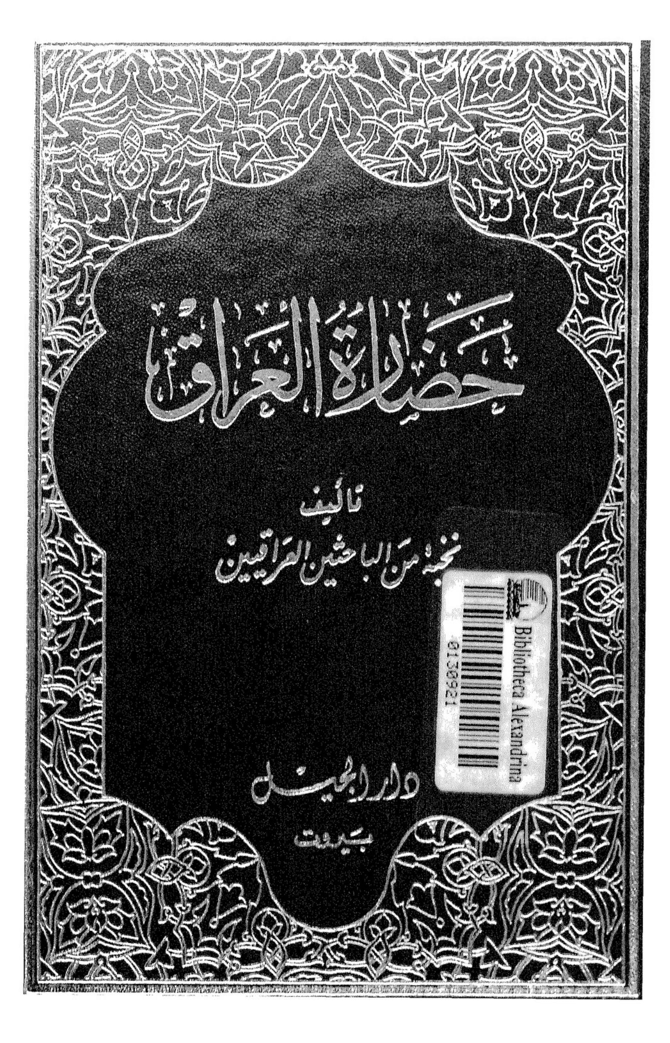

حضارة العراق
تأليف
نخبة من الباحثين العراقيين
دار الجيل
بيروت
Bibliotheca Alexandrina
0130921


حضارة العراق



تأليف

نخبة من الباحثين العراقيين

الجزء الأول

بغداد ١٩٨٥

العصور القديمة

(١)

مقدمة

د . نزار الحديثي

انها المرة الاولى في تاريخ الثقافة في الوطن العربي ، يصدر كتاب بهذا العنوان يتجه للرأي العام ، بمثل هذا الشمول ، وفي ذات الوقت يعبر عن وجهة نظر تاريخية تعرضت للحجب المستمر في التاريخ الحديث والمعاصر من اجهزة ثقافية واكاديمية كانت مدفوعة بموقف يختلط فيه الحماس للحضارة الغربية بنظرة استعلائية استعمارية هدفها فرض نظرية السيادة الاوربية على العالم ، واذا كانت الصحوة السياسية لشعوب الحضارات القديمة قد كسرت جدار الامن السياسي للهيمنة الاوربية ، فالوقت الان ملائم لكسر جدار الطمأنينة الثقافية . وكتاب حضارة العراق صاحب هذه الريادة في الثقافة يسجل الابداع الحضاري العراقي عبر زمن الوعي الانساني منذ بزوغ فجر الحضارة لاول مرة في تاريخ البشرية في بلاد وادي الرافدين ، وقد حظيت هذه الموسوعة الحضارية بجهد لمتخصصين عراقيين تعيش في ذاكرتهم صورة التخريب الذي تعرض له تاريخ العراق ودوره الحضاري بشكل خاص والكيفية التي حولت بها المبتكرات الحضارية الى مجرد

مظاهر صامتة في المتاحف ، مجردة من أي ترابط ذاتي او موضوعي يضعها في موقعها الطبيعي بأعتبارها مبتكرات شعب اعتاد العمل الحضاري ، تنتظمها منظومة متكاملة تمتاز بالتنوع والوحدة في ذات الوقت ، تقف وراءها نظرة متكاملة الى الحياة وتستند الى حوافز الارضاء الروحي والمادي لحاجة اجتماعية قائمة متجددة ، فهي لهذا مظاهر ابداع في سياق زمني متصل تملأه عملية اجتماعية متكاملة الجوانب لمجتمعات متصلة يعبر تمازجها الحضاري والتأريخي عن وحدة خصائصها ، لها مسرحها الطبيعي الذي هو العراق اولا ضمن الوطن الحضاري الاكبر الوطن العربي .

هذا الوعي هو الذي حدد منهجية موسوعة حضارة العراق بتناولها العصور التأريخية افقيا والحرص على كشف شمولية الابداع الحضاري في الحقبة المعينة ، وعموديا في كشف تواصل الحقب الحضارية بعضها بالبعض . ان هذه المنهجية تضع مظاهر الحضارة ومبتكراتها ضمن سياقها الذاتي والموضوعي ، فتكشف قدرتها على الانسياح من الوطن القائد الى عموم الوطن الحضاري ومن العقل المبتكر الى النسيج الاجتماعي الذي يحتضنه ، وتكشف ايضا قدرتها على التوالد وخلق اجيال جديدة للمبتكر الحضاري نفسه .. اذ ان قيمة الحضارة ليست في قيمتها الجمالية والابداعية حسب ، انما في قدرتها على التأثير والتوالد . ومع الوعي بأن هذه المنهجية تعنى بالسياق العام اكثر من عنايتها بتشريح المبتكر ذاته ، وتواكب استمرار العمل الحضاري واتصاله اكثر من الوقوف عند مظهر معين في عصر معين ، الا انها ايضا تعطي فرصة الوضوح الاكثر لما نريد قوله في هذا المجال ، وتثبّت الحقائق الكبيرة ، فوحدة التصور للحضارة تثير في نفس الوقت حاجات

متعددة الى البحث المتخصص للاجابة على بعض التساؤلات التي تظهر وهكذا يبدأ الهيكل يكتسي سدة الكمال ...

ان هذه المنهجية تمنحنا فرصة متابعة حضارة العراق من حيث نشأتها وعوامل النشأة ، ومواكبة تطور دور العراق الحضاري في اغناء الحياة الانسانية ، وقدرته على اداء هذا الدور القائد في الحضارة سواء في العصور القديمة أو في عصر الدولة العربية الاسلامية .

واذا كان مصطلح « الحضارة » جديداً على الفكر الغربي ، واهتماماته به ترجع الى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فأن هذا المصطلح كان أحد المفردات التي شغلت بال المفكر العربي سواء في تحديد مفهومه او بحث موضوعاته ومن البداية سجل مفكرونا الاساس النظري الموضوعي والفني لدراسة الحضارة عندما ربطوا بين الاستقرار والتحضر واعتبروا الاول اساسياً في نشأة الحضارة دون ان يهملوا ظروفه الطبيعية او تلك التي تختص بطبيعة الانسان .

هل حقيقة الحضارة في العراق هي « حلم الطبيعة » كما يقول اندريه ايمار وجانين لوبوايه ؟ ام انها شيء آخر ؟ « ارادة الانسان » الواقع ان الحضارة بنت عناصر وظروف موضوعية تقدم الطبيعة اساسياتها ، ويحوّل الانسان تلك الاساسيات من حالتها السلبية الى حالة ايجابية « حضارة » .. هكذا تبدو حضارة العراق . فالارض والماء والمناخ ليست حالة خاصة بالعراق انما حالة عامة طبيعية ، وهي عناصر تعمل وتؤثر بشكل مستقل ، ولكن الانسان الذي فرض عليها التوازن ، خلق من توازنها قاعدة للعمل الحضاري ، فحضارة العراق اذن ليست حلم الطبيعة انما ارادة الانسان ،

خاصة وان التاريخ هو محصلة ارادة الانسان ، هذا الانسان الـذي لم يستطع مقاومة اغراء الكون الممتد امامه فأصبح اسير ارتياده فأطلق العنان لخياله ولعقله ولسيفه ، لخياله يشق فضاءاته كلما ملىء فضاء اكتشـفه ، ولعقله يبتكر حاجاته في الحياة والارتياد ، ولسيفه يذلل العقبـات التي تعترض طريقه . غير ان هذا الانسان بقدر مابذل من جهد في مواكبة الكون الواسع بقدر ماكان واقعيا يدرك قيمة الحركة على الارض ، فهـو كان يدرك جيدا ان بين عظمته وبين الكون ثمة انجذاب فلم يستطع الا ان يفكر به ويبدأ به أحد ابرز ملامحه التي سجل بها خلـق الكون . « حينما في العلى لم ينبأ عن السماء وفي الاسفل لم تذكر الارض بأســم » من هنا انطلق واستطاع عبر سعيه ان يتوصل الى ذلك التوازن الرائع بين حاجته على الارض وبين ضرورات السماء هذا التوازن الذي بلغ قمته في اعتماده اداة وموضوعا للخطاب الالهي كما عبرت عنه الرسالات السماوية فيما بعد .

يقودنا هذا التتبع الى كشف عنصر آخر ساهم في تأصيل الحضـارة .ذلك العنصـر هو قدرة سكـان وادي الرافديـن على التكتل والانتظام في جماعات وبالتالي رضا الفرد بالعمل الجماعي مع الاحتفاظ بحقه في الابداع الفردي بعدما ادرك ان الاعمال الكبيرة ليست من قدرات الفرد انما مـن اختصاص الجماعات . والواقع ان هـذا الادرك يقف وراء ظهور الادارة الجماعية اولا ، ووراء ظهور فكرة الدولة الحضارية التي قطعت مسـيرة الاتساع من أول شكل من أشكال وحـدة التنظيم الاجتماعي الى دولـة المدينة الى الدولة المركزية الى الدولة القومية التي تحققت على يد الرسول القائد محمد بن عبدالله (ص) . ان هذا الاتساع يكشف لنا ان الحضارة

في العراق يعقبها ظهور دولة تشكل احدى الضرورات العضـوية لها • ان تواصل الدور الحضاري من جهة وتعاقب اشكال التعبير عنه ماديا في مجال الدولة خاصة من جهة ثانية ساعدا على أرساء اسس الخصائص والسمات المميزة لسكان وادي الرافدين ، وأكسبا هذا الاقليم ثابتية تاريخية مطلقة في كل العصور •

ساعد نجاح الانسان العراقي في احكام التوازن بين حريته الفردية في الابداع وبين ضرورة العيش في جماعة على تطوير نظرته الى الاخرين ، الى الجماعات التي تقع خارج الوطن الحضاري « الوطن العربي » خاصة ، تلك النظرة التي ارتكزت الى احساس بمسؤولية الرائـد الحضـاري اتجـاه الاخرين والتي تبلورت في شكل قاعدة ثابتة « المسؤولية الانسانية » • ان مواكبة صيغ التفاعل بين حضارة العراق والحضارات الاخرى تفصح عن نمو هذه النظرة يوم لم تكن اقوام اخرى بلغت في تطورها هذا المستوى من النضج ولعل نهاية بابل على يد الفرس الاخمينيين واحدة من صـور موقف الحضارة ازاء العنصرية ، ان صورة اخرى لهـذا نجدها في نظـرة جاحدة سادت اوربا في عصرها الحديث الى حضـارة العـراق وحضارات العالم • ان هذا الاحساس بالمسؤلية الانسانية هو الـذي اعطى حضارة العراق مزية الانتشار تأثيرا دون ان تغرق في نشوة الانتصار وتخفي تأثرها بحضارات الشعوب خاصة عندما اكتشفت فيها الشعوب قابليـة التكيف لتلائم حاجاتها ، فصناع هذه الحضارة كانوا مهتمين بتحقيق انتصار تأريخي دائم يعبّر عنه في استمرار الدور اكثر من ان يعبر عنـه بالتفوق العرقي • فالاحساس بأن تكون صاحب رسالة عبر التاريخ اكبر بكثير من ان تكـون سيدا مضطهِداً لفترة قصيرة •

ان اهداف هذه الموســوعة كثيرة غـير ان ابرزها الهـدف الدائم المستقبلي ، وهو تكوين ثقافة اجتماعية تخلـق وعيا اجتماعيا سليما لمرحلة انبعاث حضاري جديد للامة العربية يقوده العراق تلوح تباشيره عبر سنوات الحفز الجديد التي بدأت بفجر تمـوز ١٩٦٨ ٠

* * *

الفصل الأول

البيئة الطبيعية والانسان

د . تقي الدباغ

استاذ الاثار القديمة ـ جامعة بغداد

الاسم

عُرف هذا القطر بعدة اسماء خلال تاريخه الطويل ويجدر بنا ان نذكر بعض الملاحظات عنها قبل عرض وصف المزايا الطبيعية للبيئة .

ففيما يتعلق بكلمة « عراق » اختلف الباحثون في الاصل والمعنى وهناك ثلاثة اراء يقدم اصحابها اصلاً ومعنىً يختلف عما يراه اصحاب الرأي الاخر . ويعتقد البعض ان كلمة « عراق » عربية الاصل ومعناها الشاطيء فالبلاد القريبة من البحر هي عراق وهي كذلك لانها على شاطيء دجلة والفرات ، ومعناها ايضا الجبل او سفوح الجبل . ويرى آخرون ان كلمة عراق ترجع في اصلها الى لغة قديمة اما ان تكون سومرية او من قوم آخرين غير السومريين وغير الجزريين (الساميين) الذين استوطنوا السهل الرسوبي في عصور قبل التاريخ . ويرى اصحاب هذا الرأي ان الكلمة مشتقة من كلمة اوروك او انوك التي تعني المستوطن . وهذه الكلمة

سميت بها المدينة السومرية المشهورة الوركاء • كما ان الكلمة نفسها تدخل في تركيب اسماء عدة مدن قديمة مشهورة اخرى مثل مدينة اور • اما اصحاب الرأي الثالث فيقولون ان اصل هذه الكلمة اجنبي وتعني ايراء بمعنى الساحل وقد عربت الى ايراق ثم عراق • وشبيه بهذا ما ذهب اليه الباحث الاثاري هرتسفلد من ان عراق معرب من ايراك التي تعني البلاد السفلى • ويقال ان اول استعمال لكلمة عراق ورد في العهد الكشي في وثيقة ترجع في تاريخها الى حدود القرن الثاني عشر قبل الميلاد وجاء فيها اسم اقليم على هيئة اريقا الذي صار على مايرى اولمستد الاصل العربي لبلاد بابل • واوضح استعمال شاع لمصطلح عراق بدأ ما بين القرنين الخامس والسادس الميلاديين •

والعراقيون القدماء لم يطلقوا مصطلح اورك او عراق على القطر او على جزء منه بل كان ملوكهم في عصر فجر السلالات يلقب كل منهم نفسه بلقب حاكم المدينة التي يحكمها • وفي حدود ذلك الزمن ظهر مصطلحان احدهما بلاد سومر للقسم الجنوبي من السهل الرسوبي والثاني بلاد اكد للقسم الاوسط من ذلك السهل • وظهرت تسميات جغرافية سياسية اخرى منها بلاد بابل وبلاد اشور • واستعمل عدد من الكتاب اليونان والرومان واولهم هيرودوتس مصطلح بلاد بابل واشور لاطلاقه على القطر كله او على الاجزاء الوسطى والجنوبية منه كما استعملوا تسمية كالديه نسبة الى الكلدانيين الاراميين الذين اسسوا الدولة الكلدية ما بين القرن السابع والسادس قبل الميلاد • وفي الفترة مابين القرن الرابع والثاني قبل الميلاد ظهر استعمال الكتاب اليونان والرومان لمصطلح ميزوبوتامية (بلاد مابين النهرين) وهذه التسمية هي اغريقية الاصل وشاع استعمالها عند الكتاب الاوربيين لاطلاقها على هذه البلاد كلها او على بعضها ولا يزال يستعمل حتى بعد شيوع استعمال تسمية العراق • ولعل

اقدم استعمال لمصطلح ميزوبوتاميا ورد في كتاب المؤرخ الشهير بوليبوس في القرن الثاني قبل الميلاد والمؤرخ الشهير سترابو في القرن الاول قبل الميلاد لاطلاقه على الجزء المحصور مابين دجلة والفرات من الشمال الى حدود بغداد تقريبا .

وشاع استعمال هذا المصطلح الجغرافي بعد ذلك في اللغات الاوربية بعد ترجمة التوراة الى اليونانية واللغات الاوربية اذ جاء في التوراة (التكوين ، اصحاح ٢٤ : ١٠) ذكر الاقليم ارام نهرايم الذي يعني ارام النهرين اي بلاد مابين النهرين للدلالة على الاقليم المحصور بين نهري الفرات والخابور او نهري الخابور والباليخ او كلا هذين النهرين مع الفرات . ومهما يكن من امر فانه لما ترجمت التوراة الى اليونانية ترجم مصطلح ارام نهرايم بكلمة ميزوبوتامية اليونانية ثم دخل هذا المصطلح الى اللغات الاوربية واتسع مدلوله من اطلاقه على القسم الشمالي من بلاد الرافدين الى اطلاقه على القطر العراقي كله .

ولما شاعت كلمة عراق مابين القرنين الخامس والسادس الميلاديين تطورت في الاستعمال واتسع مدلولها عند الجغرافيين العرب فقد كثر ذكر اسم العراق في الشعر الجاهلي واقترن بالرخاء . واطلق العرب ايضا على بلاد الرافدين الشمالية اسم الجزيرة واطلقوا اسم العراق على الاقسام الوسطى والجنوبية مما يسمى الان عراقا كما سموا السهل الرسوبي بالسواد لخضرته وكان مصطلح السواد يرادف تسمية العراق في كثير من الاستعمالات كما سموه بلاد بابل او ارض بابل . وهذا المصطلح ظل متوارثا منذ العهد البابلي القديم في الالف الثاني قبل الميلاد . وصار مدلول العراق يتسع في استعمال البلدانيين العرب حتى صار يشمل العراق الحالي تقريبا . وتبلورت حدود العراق الحالية بوجه خاص في العهد العثماني في القرن التاسع عشر وفي فترة الاحتلال البريطاني .

الموقـــع

على الباحث في حضارة اي قطر ان يدخل في حسابه اثـر العوامـل الجغرافية في الحضارة لان الحضارة هي نتاج تفاعل الانسان مـع البيئـة الطبيعية لترويضها وتسخيرها له واسـتغلال امكاناتهـا . لا ريب في ان للانسان الدور الرئيسي في تكوين الحضارة ولكن الى جانب هـذه الحقيقة يجب ان لا يهمل دور عوامل البيئة الطبيعية لأنها تؤثر في الحوادث التاريخية وتكسب الحضـارة طابعا مميـزا وخاصـا بكل قطر ولهـذا سـنتناول فـي هـذا الفصـل ابـرز خصائصـن البيئـة الطبيعيـة فـي القطـر العـراقي وفي تطـور حضارتـه وطبعهـا بالطابع العـام المميـز لهـا . وبعبارة اخرى سيكون موضوع هذا الفصل ضمن اطار الجغرافية التاريخية كالتغييرات المهمة في بيئته الطبيعية مثل الموقع الطبيعي وتركيب السـكان والمناخ والتضاريس الطبيعية والنبات الطبيعي والانهار وتبـدل مجاريهـا وغير ذلك من العوامل الجغرافية مع ابراز تأثيرها في حياة الانسان والتركيز على دور الانسان في التعامل معها واستغلالها للاستفادة منها .

فلقد كان لموضع العراق الجغرافي اثر مهم في سير تاريخه سواء كـان ذلك من حيث الحياة الاقتصادية بوجه عام ام من حيث اهميته العسكرية ام من ناحية تركيب سكانه واتصالاته بالاقطار الاخرى والاقوام المجـاورة الى غير ذلك مما للمـوقع الطبيعي من نتائـج مؤثـرة في سـير التاريخ والحضارة . فللعراق مكانة مهمة في تاريخه القديم والحديث ليس لكونـه مهد الحضارة البشرية فقط بل لانه غني في ثروتـه الطبيعيـة ولاهميتـه العسكرية التي تجعل منه مشرفا على القسم الشرقي من الشـرق الاوسط . وهذا الجزء من الشرق مهم في موقعه لانه يقع على الجسر الارضي الـذي تلتقي فيه ثلاث قارات هي اوربا واسيا وافريقية . وكان هذا القطر خلال العصور التاريخية القديمة طريقا مهما يصل الامم الغربية بالامم الشـرقية

واستمر كذلك طيلة العصور الوسطى والحديثة تقريبا حيث كان ملتقى طرق القوافل التجارية للاتصال بين البحر المتوسط والمحيط الهندي والهند واقطار الشرق الاقصى بالطرق البرية ثم بواسطة الخليج العربي والمحيط الهندي ولكن هذه الاهمية ضعفت بعد تحول الطرق التجارية البحرية العالمية على اثر اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في القرن السادس عشر وفتح قناة السويس في القرن التاسع عشر حيث صار الاتصال التجاري مباشرة بالهند وجنوب شرق اسيا بدون الخليج العربي . ومع ذلك احتفظ جنوب العراق باهميته لان كل طرق المواصلات الجوية تتجمع في رأس الخليج العربي ولان المنطقة الواقعة في الشمال الشرقي من الخليج جبلية وعرة ولان اقصر الطرق الجوية الذي يوصل غرب اوربا بالهند والشرق الاقصى يمر منه .

ولموقع العراق أثر مهم في تركيب سكانه فهو يقع بين منطقتين تقل فيهما الموارد الطبيعية اذ تحده من الشمال والشمال الشرقي مناطق جبلية ومن الغرب والجنوب الغربي مناطق صحراوية فقيرة في مواردها الزراعية والمائية . وهذه المناطق الصحراوية هي جزء من شبه الجزيرة العربية في اقسامها الشمالية والشمالية الغربية اي بادية الشام . ومما لا شك فيه ان هذه الظاهرة هي التي جعلت البدو العرب يسمون سهل العراق الجنوبي بالسواد لخضرته مما جعله محط الانظار وهجرات الاقوام من المنطقتين المجاورتين التي تقل موارد العيش فيهما . وعلى ضوء ذلك ينبغي للمؤرخ ان ينظر الى سكان العراق .

فمن شبه الجزيرة العربية والبوادي الشمالية الغربية نزحت الى العراق في مختلف عصور التاريخ عدة اقوام كانت اخرها القبائل العربية التي يرجع الى اصولها القسم الاعظم من سكان العراق الآن . ومن الاقاليم الشرقية والشمالية الشرقية وفدت على العراق اقوام عديدة من اصول

هندية اوربية . ولقد انتشرت من شبه الجزيرة العربية منذ ازمان مختلفة اقوام على هيئة هجرات استوطنت في اطراف شبه الجزيرة ومنها بوادي الشام والعراق الغربية والعليا والفرات الاعلى وكانت تلك الاقوام تتغلغل الى المناطق الخصبة مثل وادي الرافدين وسورية وفلسطين والاردن ولبنان وحتى وادي النيل حيث دخلت جماعة جزرية منذ عصور قبل التاريخ في تركيب سكانه .

وبالنسبة الى وادي الرافدين لم ينقطع تسرب الاقوام المتاخمة له من جهاته الغربية عبر الفرات بل استمر الى العصور الحديثة وكان للفتوح العربية الاسلامية منذ القرن السابع الميلادي لاقطار الهلال الخصيب وشمال افريقية الاثر الحاسم النهائي في تركيب سكان هذه الرقعة الجغرافية الشاسعة بجعل غالبية سكانها من العرب . ففي وادي الرافدين قامت من هؤلاء الجزريين في منتصف الالف الثالث قبل الميلاد الدولة الاكدية المشهورة نسبة الى العاصمة اكد فاطلق اسم الاكديين واللغة الاكدية على الجزريين الشرقيين . واشتهرت من الجزريين الغربيين القبائل الامورية وهم الكنعانيون الشرقيون في وادي الرافدين وبلاد الشام والكنعانيون الغربيون ومنهم الفينيقيون في سورية وفلسطين ما بين الالفين الثالث والثاني قبل الميلاد . واسس الاموريون في العراق دولا كثيرة في فترتين من هجراتهم كانت اولاهما في اواخر الالف الثالث قبل الميلاد ونتج عنها تحطيم امبراطورية اور واقامة عدة دويلات على انقاضها . واعقبتها بعد مائة عام هجرة امورية ثانية قامت منها عدة دويلات اشهرها سلالة بابل الاولى (١٨٩٤ ـ ١٥٩٥ قبل الميلاد) التي اشتهرت بملكها السادس حمورابي (١٧٩٢ ـ ١٧٥٠ قبل الميلاد) كما استوطنت جماعة منهم في منطقة ماري (تل الحريري بالقرب من البو كمال) على الفرات في نهاية الالف الثالث

قبل الميلاد وقامت فيها سلالة حاكمة مستقلة في العهد البابلي القديم وامتدت سلطتها على طول نهر الفرات والخابور وشملت منطقة عانة (خانة القديمة) • وقد اثرت هجرات الاموريين على تسوير مدن السومريين ومنها مدينة اور ضد الغزاة • وكانت عادة تسوير المدن في العراق قد بدأت قبل ذلك بزمن طويل • وانتشرت القبائل الاشورية في شمال العراق في الالف الثالث قبل الميلاد واسست دولة امتدت رقعتها لتشمل كثيرا من المناطق المجاورة واستمر حكمها حتى عام ٦١٢ قبل الميلاد • وانتشرت القبائل الارامية في كثير من مناطق الهلال الخصيب مابين القرن الرابع عشر والثاني عشر قبل الميلاد في بلاد الشام وفي جزيرة وادي الرافدين وقامت منها عدة دويلات ولكنها دخلت في صراع شديد مع الاشوريين حال دون قيام دولة كبرى لها • وتدفقت القبائل الارامية ايضا الى وادي الفرات الاعلى والاسفل وقامت لها عدة دويلات آخرها واشهرها دولة بابل الحديثة التي اشتهرت بملكها نبوخذ نصر الثاني • وانتشرت القبائل العربية منذ الالف الاول قبل الميلاد الى وادي الرافدين واخذ اسم العرب يظهر في أخبار الملوك الاشوريين في حروبهم مع بعض تلك القبائل في بوادي الشام والعراق وشمالي الحجاز • ووفدت على العراق قبائل عربية قبل الاسلام مابين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن السادس الميلادي • وتعد الفتوح العربية الاسلامية منذ القرن السابع الميلادي من جملة الموجات العربية التي نتج عنها التركيب الحالي لغالبية سكان العراق والبلاد العربية الاخرى •

واتصل سكان وادي الرافدين منذ اقدم عصور التاريخ بعدة اقوام من خارج القطر عن طريق التجارة او الاسفار او الفتوح فاثرت فيهم حضارة وادي الرافدين كما اثروا فيها وتغلغل البعض منهم الى موطن هذه الحضارة فدخلوا في تركيب سكان العراق القديم واستوطنت جماعات اخرى في مناطق العراق الشمالية في الاقسام الجبلية مثل الكوتيين

واللولوبيين والميديين الذين يرجح ان يكون الاكراد منهم وكذلك الكشيين والحوريين • واستوطن الاخيرون شمال العراق في نوزي (يورغان تبه بالقرب من كركوك) وفي تبه كورا وتل بلا بالقرب من الموصل •

المناخ

في العصور الحجرية القديمة كانت احوال المناخ وطبيعة الارض والنبات الطبيعي تختلف اختلافا اساسيا عما هي عليه الان اذ ان تلك العصور الحجرية تقع في العصر الجيولوجي المعروف بعصر الجليد (البلايستوسين) الذي شهد تقدم الجليد اربع مرات في المناطق الشمالية من قارة اوربا وامريكا الشمالية حتى خط عرض ٤٥ درجة شمالا • وقد بدأ هذا العصر قبل مليونى سنة وانتهى قبل ١٦٠٠٠ سنة • وقد تخللت عصور الجليد الاربعة فترات من الدفء والجفاف النسبي • اما المناطق الواقعة في الاقسام الجنوبية من نصف الكرة الشمالي مثل العراق واقطار الشرق الادنى الاخرى فكانت تحدث فيها ابان العصور الجليدية الاوربية عصور ممطرة تسقط اثناءها امطار غزيرة في حين كانت فترات الدفء والجفاف النسبي الاوربية تقابلها في هذه المناطق الشرقية فترات يسودها الجفاف • ونحن تعيش الان في فترة الجفاف التي تلت آخر عصر جليدي • وكانت كميات الامطار الساقطة في العصور الممطرة تبلغ من الغزارة درجة كبيرة حتى انها جعلت من المناطق الصحراوية في شبه الجزيرة العربية وافريقية مناطق خضراء تجري فيها الانهار والجداول التي لاتزال اثارها واضحة للعيان وتسرح فيها حيوانات الصيد وينتشر النبات الطبيعي متمثلا بالغابات والشجيرات والحشائش • واستطاع انسان العصر الحجري القديم ان يعيش في تلك المروج الخضراء حيث ترك الاته وادواته •

وكان العراق اثناء العصور الجليدية اكثر رطوبة مما هو عليه الآن لان الامطار كانت اكثر غزارة وتسقط في فصل الصيف وفصل الشتاء • ويظهر ان العراق شهد اربعة عصور مطيرة وان العصر الاول بدأ في اواخر عصر البلايوسين واستمر حتى بداية انتشار جليد كنز (احد وديان جبال الالب التي تراكمت فيه ما جرفه الجليد) في اوربا في عصر الجليد • اما قمم الجبال الشمالية والشمالية الشرقية فقد احتفظت ببرودتها اذ كانت مغطاة على الدوام بجليد ثخين • وقد وجدت مخلفات انسان العصر الحجري القديم بدوريه في عدة كهوف في المنطقة الجبلية بشمال العراق منها كهفان قرب مدينة السليمانية هما كهف هزار مرد وكهف زرزي ومنها موقع بردا بالكة قرب بلدة جمجمال وكهف شاندر وكهف بالي كورا في محافظة اربيل وكهف كيوانيان في منطقة راوندوز • ففي هذه المناطق عاش انسان نياندرتال والانسان العاقل على صيد الحيوانات البرية كالغزلان والوعول والخيول والخنازير والثيران والخراف والماعز وعلى صيد الاسماك والطيور والتقاط وجمع ثمار وبذور وجذور النباتات الطبيعية • والدليل على ذلك بقايا عظام تلك الحيوانات والالات الحجرية التي استخدمت في صيدها والتي استخرجها المنقبون الاثاريون في تلك الكهوف اثناء التنقيبات الاثرية وبدليل الهياكل العظمية البشرية التي وجدت في كهوف هؤلاء الصيادين •

ومن ابرز آثار العصور المطيرة والجافة في العراق مدرجات او ضفاف الانهار القديمة ففي العصور المطيرة كثرت كميات المياه التي انسابت الى الانهار فاتسع مجراها وارتفعت ضفافها وفي فترات الجفاف قلت مياهها وصغرت سعتها وانخفضت ضفافها • وقد كشفت التحريات الجيولوجية في حوض نهر دجلة في منطقة سامراء ــ بلد وفي بعض الاودية في شمال العراق مثل وادي سنكه سر عن وجود ما لا يقل عن ثلاثة مدرجات او ضفاف جيولوجية • وقد ظن البعض ان احد هذه المدرجات القريبة من مدينة بلد

هو بقايا ساحل الخليج العربي القديم . وكشفت التحريات الجيولوجية ايضا عن خمسة من هذه المدرجات في منطقة طاووق وعن اربعة في منطقة راوندوز . اما نهر الفرات فلم تدرس مدرجاته بعد غير ان بعضها على هيئة جزر بالقرب من الفلوجة والاسكندرية .

وكان لكميات المياه الكثيرة التي انسابت الى الانهار في العصور المطيرة تاثير على تكوين السهل الرسوبي بما حملته الانهار من رواسب الغرين والطمى الى المنخفض الذي تكون فيه هذا السهل .

وكان لظاهرة العصور المطيرة والفترات الجافة اثر مهم في نشوء الحضارة الاولى ذلك لان حلول فترة الجفاف العامة الاخيرة في ربوع الشرق الادنى جعل من المتعذر اعتماد الانسان في قوته على صيد الحيوان وجمع ثمار وبذور النبات مما كان سائدا في العصر الحجري القديم فاهتدى الانسان في اقطار الشرق الادنى ولا سيما في شمال العراق الى انتاج الطعام بواسطة الزراعة وتدجين الحيوان ويمثلموقع كريم شهر القريب منجمجمال وملفعات بين اربيل والموصل وزاوي جمي القريب من كهف شاندر المرحلة الاولى في هذا التحول لانه لا توجد ادلة قاطعة على ممارسة الزراعة فيها وقد تكون هذه الاماكن مواقع اختلط فيها الصيد بالزراعة التجريبية المحدودة .

اما موقع جرمو شرقي كركوك فيزودنا بدلائل لقرية دائميةمثل الحبوب الزراعية وادوات الحصاد وطحن الحبوب ومخازن المحاصيل وعظامالحيوانات المدجنة والبيوت القروية المشيدة والاواني الفخارية . ومثل ذلك يقال عن قرية حسونة ومطازة وام الدباغية وشمشارة ويارم تبه والاربجية وغيرها من القرى التي تقع في منطقة السهوب حيث كانت الامطار كافية لقيام زراعة ديمية فيها حتى بعد حلول فترة الجفاف لان الجفاف لم يحل فجأة

بل كان يعم تدريجيا الى ان اشتد وتزايد فتعذرت زراعة الامطار في كثير من المناطق الامر الذي دفع بالكثير من الفلاحين الى البحث عن مناطق اخرى تصلح لحياتها الزراعية فركنت الى الهجرة الى وديان الانهار ودخل طلائع المستوطنين في السهل الرسوبي في تجربة شديدة فرضتها عليهم البيئة الجديدة التي تتطلب ترويضها وجعلها صالحة لزراعة الري ولذلك بذلت جهود مضنية في انشاء اول جهاز للري في تاريخ الحضارة لارواء الحقول الزراعية وبساتين النخل والخضر والفواكه ولدرء خطر الفيضانات .

ومن الجدير بالذكر ان الاحوال المناخية في القطر العراقي لم تطرأ عليها تغييرات اساسية منذ ان استوطن الانسان السهل الرسوبي في الجنوب في الالف الخامس قبل الميلاد . ويوصف مناخ العراق في الوقت الحاضر بانه من نوع مناطق الانتقال بين المناخ الصحراوي الحار ومناخ حوض البحر المتوسط المعتدل . ففي المنطقة الوسطى والجنوبية تأخذ درجات الحرارة بالارتفاع كلما تقدمنا جنوبا وقد تصل الى اكثر من ٤٥ درجة مئوية في الصيف ولكنها تبقى فوق درجة الانجماد في الشتاء ولا تهبط الى مادون ذلك الا في بضع ليال ويكون الجو دافئا على عكس المنطقة الشمالية وخصوصا الجبلية حيث تنخفض فيها درجة الحرارة الى مادون التجمد لفترة طويلة من شهور السنة وفي الصيف يندر ان ترتفع درجة الحرارة الى اكثر من ٣٥ درجة مئوية . اما فصلا الربيع والخريف فهما اقرب الى الاعتدال من الصيف والشتاء . ويرجع السبب في ارتفاع مدى الحرارة السنوي في العراق الى انعزاله عن تأثير البحر الذي يزود الهواء بالرطوبة فتقل برودة الشتاء وتتلطف حرارة الصيف فالبحار الخمسة التي تحيط بالمنطقة التي يقع فيها العراق لا يصله تأثيرها الا القليل . اما مدى الحرارة اليومي فهو كبير ايضا بسبب قلة الرطوبة النسبية في الهواء مما يساعد على زيادة حرارة الارض في ساعات النهار وفقدانها خلال ساعات الليل . ان اعتدال درجات الحرارة

خلال فصل الصيف، في المنطقة الشمالية وارتفاعها الشديد أثناء النهار في المنطقة الوسطى والجنوبية يجعل السكان اكثر نشاطا واستعدادا للعمل في المنطقة الاولى ويحدث العكس في فصل الشتاء لان انخفاض درجة الحرارة الشديدة وتساقط الثلوج في المنطقة الشمالية يعرقلان العمل وحركة النقل بينما يزيد اعتدال المناخ في المنطقة الوسطى والجنوبية في هذا الفصل الحركة والقدرة على العمل .

اما الامطار فتسقط خلال فصل الخريف والشتاء والربيع وتزداد في الكمية كلما اتجهنا من الجنوب الى الشمال الشرقي اذ تتدرج من خمسة سنتيمترات الى مئة سنتمتر في السنة . وبالاضافة الى هذا الفرق الكبير في كمية المطر بين مناطق العراق هناك فرق اخر وهو ان كمية الامطار الساقطة تختلف من سنة لاخرى ويؤثر هذا التفاوت على الزراعة التي تعتمد على الامطار في الحافات الجنوبية من المنطقة التي يكون الديم عماد زراعتها . كما ان السهل الرسوبي الذي يشمل القسم الاكبر من الاراضي الصالحة للزراعة لا يتسلم من الامطار الا كمية قليلة غير كافية لقيام الزراعة ولذلك اقتضت الضرورة الاعتماد على الري . يتضح من هذا ان لكميات المطر علاقة وثيقة بنشاط الانسان في مجال الزراعة الديمية والزراعة السيحية.

ان القسم الاكبر من امطار العراق يسقط على شكل زخات رعدية تدوم لفترة قصيرة سببها في الغالب اعاصير تمر في جو العراق قادمة من المحيط الاطلسي والبحر المتوسط ويتجه الكثير منها نحو الخليج العربي . والى جانب الامطار الاعصارية توجد في العراق امطار تصاعدية الا انها نادرة الحدوث . وينشأ هذا النوع من المطر بسبب تبخر الماء من سطح الارض وصعوده الى اعلى وتكاثفه وسقوطه على هيئة مطر الى نفس الاماكن التي تبخر منها تقريبا . ويحدث هذا النوع من المطر بصورة عامة خلال فصل الربيع . وتسقط الامطار في العراق على شكل برد في قسم كبير من البلاد

بينما تسقط هذه الامطارفوق المنطقة الجبلية واحيانا فوق المنطقة شبه الجبلية على شكل ثلوج مما يسبب اضرارا بالحاصلات الزراعية .

اما الرياح فأغلبها شمالية غربية وتهب اثناء معظم ايام السنة وتبلغ نسبة هبوبها ٧٥٪ من مجموع اتجاه انواع الرياح الاخرى التي تهب نحو العراق . وسبب هبوبها هو وجود منطقة ضغط عالي فوق الاراضي الجبلية في تركيا تقابلها منطقة ضغط واطيء فوق منطقة الخليج العربي والهند مما يجعل العراق ممرا لهذه الرياح خلال الصيف بصورة منتظمة . اما في فصل الشتاء فيكون هبوبها متقطعا بسبب الاعاصير القادمة من البحر المتوسط . ولهذه الرياح تأثير مهم على مناخ العراق لانها ذات حرارة منخفضة نسبيا وتلطف الجو في فصل الصيف بهبوبها من جهات اقل حرارة . اما الرياح الشرقية والشمالية الشرقية فتهب خلال فصل الشتاء ويصحبها انخفاض شديد في درجات الحرارة وتسبب اضرارا بالغة بالمنتوجات الزراعية ولا سيما الحمضيات واشجار النخل التي تتعرض لبعض التلف . اما الرياح الجنوبية الشرقية فهي دافئة نسبيا ورطبة وتجلب في بعض الاحيان الغيوم والامطار شتاء لانها تهب من منطقة الخليج العربي مارة فوق مسطحات مائية . وتهب على جنوب العراق في فصل الصيف رياح جنوبية حارة ورطبة تحدث جوا خانقا لانها قادمة من منطقة الخليج العربي . وتسبب الرياح احيانا عواصف ترابية تتلف المحاصيل الزراعية وخاصة الصيفية منها ويكون هبوبها خلال فصل الربيع والصيف وحتى شهر ايلول حيث تكون الارض جافة والامطار نادرة مما يزيد في فعالية هذه العواصف المحملة بالغبار .

ونظرا للتفاوت والاختلاف بين اقسام العراق الطبيعية من حيث الحرارة والمطر والنبات الطبيعي نستطيع ان نلاحظ ثلاثة انواع متميزة من المناخ في العراق هي مناخ البحر المتوسط ومناخ السهوب والمناخ الصحراوي . ان

النوع الاول من المناخ يسود المنطقة الجبلية في شمال وشمال شرق العراق حيث يكون الصيف معتدلا وجافا ويكون الشتاء باردا وممطرا وتسقط الثلوج بكميات كبيرة احيانا حتى انها تبقى متراكمة فوق سفوح الجبال العالية • وتزداد كمية الامطار المتساقطة كلما انتقلنا من الغرب الى الشرق ومن الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي • والارتفاع يلعب دورا مهما في توزيع المطر فكلما زاد الارتفاع زادت كمية الامطار • وتبدأ الامطار بالتساقط منذ شهر ايلول وتستمر حتى شهر مايس بمعدل يتراوح مابين ٤٠ ــ ١٠٠ سنتيمتر في السنة وتنخفض درجات الحرارة في الشتاء الى ما دون الصفر لعدة ايام • اما مناخ السهوب فيسود المنطقة المتموجة او الشبه جبلية وهو مناخ انتقالي بين مناخ البحر المتوسط في الشمال والشمال الشرقي والمناخ الصحراوي في الجنوب والجنوب الغربي اي بين المنطقة الجبلية العالية من ناحية والهضبة الصحراوية والسهل الرسوبي من ناحية اخرى • ويبلغ معدل سقوط الامطار في هذه المنطقة ما بين ٢٠ ــ ٤٠ سنتمترا في السنة وهذه الكمية تساعد على قيام حياة رعوية لقطعان الماشية وخاصة في فصل الربيع • وتعتمد الزراعة في بعض اقسامها على الامطار وفي اقسام اخرى على الري لعدم كفاية الامطار كما في سهول اربيل وكركوك ونينوى ومنطقة حمرين ومنطقة الجزيرة شمالي سنجار • ويمكن اعتبار الخط المطري الذي معدله ٣٠ سنتيمترا في السنة الحد الادنى للزراعة المطرية • ومن الجدير بالذكر ان منطقة السهوب هذه شهدت قيام اولى القرى الزراعية في العراق • اما المناخ الصحراوي فيسود السهل الرسوبي والهضبة الصحراوية ويمتاز بقلة الامطار الساقطة اذ تتراوح مابين ٥ ــ ٢٠ سنتيمترا في السنة • اما الحرارة فمرتفعة خلال فصل الصيف اذ تصل حوالي ٥٠ درجة مئوية في بعض الاماكن اثناء النهار وتصل الحرارة ادنى معدلاتها في شهور فصل الشتاء •

لا توجد حدود فاصلة بشكل واضح بين هذه المناطق الثلاث والانتقال

بينها يكون تدريجيا وعلى الاخص بين منطقتي منـاخ السـهوب والمنـاخ الصحراوي • ويوجد تفاوت في كل من المناطق الثلاث مما يبرر تقسيمها الى مناطق ثانوية فالمناخ الصحراوي الذي يسود السـهل الرسـوبي والهضبة الصحراوية يختلف قليلا من مكان لاخر • ويوجد اختلاف واضح بين منـاخ الاراضي الصحراوية البعيدة عن الانهار وبين الاراضي التي تتخللها الانهار • ويوجد فرق اخر بين مناخ الجبال العالية التي تغطيها الثلوج وبين السـهول التي تجاورها بالرغم من ان الاثنين يقعان ضمن حدود مناخ واحد هو منـاخ البحـر المتوسـط •

وللمناخ تأثير مباشر على الزراعة والانتاج الزراعي فانخفاض درجـة الحرارة الى ما دون الصفر المئوي وسقوط الصقيع عدة مـرات في فصـل الشتاء يسبب تلف قسم كبير من الحاصلات الزراعية • وارتفاع درجـات الحرارة اثناء النهار في فصل الصيف يزيد في نسبة التبخـر مـن الاشجار والنباتات فتحترق اوراقها ويحدث هذا لكثير من اشجار الفاكهة كالتين والعنب والخوخ والتفاح وغيرها • كما ان هبوب الرياح الشمالية او الشمالية الشرقية من هضبة الاناضول او من سبريا خلال فصل الشتاء كثيرا ما يتلف محاصيل القمح والشعير لان هذه الرياح باردة وقوية وقد تقلع النباتات من جذورهـا وتدمر القسم الاكبر من ازهار اشجار الفاكهة فيقل انتاجها • اما اثر الامطار فيبدو واضحا في المنطقة الجبلية في شمال وشمال شرق العـراق اذ تعتمـد الزراعة فيها وخاصة الشتوية على ما يسقط منها سنويا • بينما في جهـات القطر الاخرى تدعو قلة الامطار الى الاستعانة بطرق الري الاصطناعية مـن مياه نهر دجلة والفرات او من المياه الباطنية •

التضاريس

توجد في العراق الاقسام الطبيعية الثلاثة التي يتكون منها سطح الارض. ففي الشمال والشمال الشرقي تمتد الجبال الالتوائية التكوين وهي امتداد لسلسلة الجبال العظيمة التي تخترق قارة اوربا واسيا اعتبارا من جبال برانس في شمال اسبانيا الى جبال هملايا في شمال الهند . وفي الغرب يوجد الامتداد الشمالي لهضبة شبه جزيرة العرب التي تتكون من صخور قديمة صلبة كانت تؤلف جزء مما يسميه الجيولوجيون القارة القديمة (كوندوانا لاند) غير انها في العراق تراكمت عليها طبقة ثخينة من الترسبات التي حدثت في الزمن الجيولوجي الثاني والثالث . وبين هاتين المنطقتين اي بين الجبال الالتوائية الشمالية والهضبة الصحراوية يقع سهل العراق اي وادي دجلة والفرات وهذا السهل في قسمه الجنوبي هو أرض منخفضة هابطة او التواء مقعر مفتوح تكون في احدث العصور الجيولوجية ولا يزال في دور التكوين ولذلك نجد في العراق صخورا تمثل مختلف الازمنة الجيولوجية اذ تنتشر تحت سطحه في الاجزاء المتاخمة للحدود الايرانية التركية صخور نارية قديمة يعتقد بانها من تكوينات القارة القديمة . وتمتد فوق سطحه ترسبات حديثة تعود الى عصر الجليد من الزمن الجيولوجي الاخير . وكان بحر تشس في اواخر الزمن الجيولوجي الاول مايزال يغطي ارض العراق ولكنه اخذ بالانحسار واستمرت عملية الانحسار وظهور الاجزاء الشمالية من العراق في اواخر الزمن الجيولوجي الثاني واوائل الزمن الجيولوجي الثالث وفي اواخر هذا الزمن ظهرت ارض العراق كلها من البحر وبدأت تتكون عليها سهول مروحية واسعة واخذت جبال زاكروس شكلها الحالي ونشأت فيها مجموعات من الالتواءات المعقدة . وفي اوائل الزمن الجيولوجي الرابع اي في عصر الجليد تكاملت عملية تكوين الجبال وتكوين دلتا النهرين اي السهل الرسوبي بشكل منخفض هبط نتيجة الحركات الارضية في الازمنة السابقة .

ولهذا نجد تفاوتا في تضاريس سطح العراق • وعلى العموم يمكن تمييز ثلاثة انواع رئيسية من التضاريس تتمثل في ثلاث مناطق هي المنطقة الجبلية والهضبة الصحراوية والسهل الرسوبي • وقد اثر هذا التفاوت في تضاريس السطح على احوال القطر الطبيعية والبشرية فكثرت الامطار والثلوج على جباله العالية وانحدرت من هذه الجبال الانهار نحو الضفاف الشرقية من نهر دجلة بينما انعدمت على الضفاف الغربية لانخفاض الارض وقلة الامطار • اما المناطق الوسطى والجنوبية فقد قلت امطارها لقلة الارتفاع ولعوامل اخرى • كما ان انخفاض الارض جعل هذا القسم عرضة لفيضانات الانهار فتكونت فيه بحيرات واهوار وظهرت الحاجة لبناء مشاريع للري وخزن المياه من موسم الوفرة الى موسم القلة مما ساعد على درء خطر الفياضانات المدمرة • وقد اثر كل من سطح العراق ومناخه بدورهما على النبات الطبيعي فنمت الغابات والاشجار في المنطقة الجبلية وشبه الجبلية بسبب وفرة المياه واعتدال المناخ كما نمت الاشجار والحشائش على ضفاف الانهار والجداول ونمى القصب والبردي في الاهوار والمستنقعات بينما انعدم النبات الطبيعي تقريبا في معظم الهضبة الصحراوية لقلة الامطار وعدم وجود مياه دائمية • وقد اثر تكوين السطح على المعادن فالتواء قشرة الارض وانكسارها وما تلاهما من عوامل التعرية ساعد على ظهور بعض المعادن على سطح الارض وعلى تجمع النفط في سفوح التلال والجبال • كما اثرت عوامل السطح على احوال البشر وجعلتهم يختلفون في طراز معيشتهم من منطقة الى اخرى •

١ ـ المنطقة الجبليـة :

تشمل هذه المنطقة الجبال العالية والمرتفعات شبه الجبلية وتشغل زهاء ٢٠٪ من مساحة العراق وتمتد في جهات القطر الشمالية والشمالية الشرقية الى حدوده المشتركة مع سورية وتركية وايران ، وتتلاشى عند حدود السهل الرسوبي

والهضبة الصحراوية في الجنوب والغرب . وتتالف الحدود الجنوبية من سلاسل جبلية واطئة مثل جبال حمرين ومكحول والعطشان وتلعفر وسنجار . واذا اقتربنا من الحدود التركية والحدود الايرانية تصبح الجبال شاهقة الارتفاع تكسو قممها الثلوج طيلة ايام السنة وتغطيها الغابات والحشائش وتصبح سهولها اصغر حجما . وتخترق هذه المنطقة جميع روافد نهر دجلة وهي الخابور والزاب الكبير والزاب الصغير والعظيم وديالى وهي تمده بحوالي ٧٠٪ من مياهه وتجرى هذه الروافد باتجاه الانحدار العام للاراضي التي تسير فوقها أي نحو الجنوب الغربي عابرة السلاسل الجبلية بصورة عمودية . ولهذه الظاهرة امكانيات مهمة في انشاء خزانات للمياه والسدود مثل مشروع دوكان على الزاب الاسفل ومشروع دربندي خان على ديالى . وتوجد بقايا مشاريع سدود قديمة اوضحها السد المقام على العظيم ويسمى البند في اول الاراضي المسماة الغرفة الآن .

ويمكن تمييز نوعين من الجبال بهذه المنطقة يشمل انوع الجبال العالية التي يبلغ ارتفاعها بين اكثر من ١٠٠٠ متر الى ٣٦٠٠ متر وتمثل ٥٪ فقط من مساحة العراق وتتكون من صخور نارية ومتحولة ورسوبية شديدة المقاومة . اما سهولها ووديانها فتكونت من صخور لينة كالرمل . وتمد امطار هذه المنطقة روافد دجلة بمعظم مياهها وكونت بعض الانهار الرئيسية مدرجات لها في مستويات مختلفة لاستمرارها في حفر مجاريها . وتتمتع هذه المنطقة بوفرة المياه مما يجعلها صالحة للزراعة ولا سيما في الاقسام الشمالية حيث يبلغ معدل سقوط المطر ٦٠ سنتيمترا في السنة . ويستفيد سكان هذه المنطقة من الامطار في زراعتهم الشتوية وخاصة القمح والشعير. اهم سهول المنطقة هي سهل السندي وسهل شهرزور وسهل رانية .

اما المنطقة شبه الجبلية فهي امتداد جنوبي وجنوبي غربي لمنطقة الجبال العالية المتاخمة لها وتمثل انتقالا من الجبال العالية في اقصى الشمال

والشمال الشرقي والسهول الواطئة في الجنوب ويتـراوح ارتفاعهـا مـن حوالي ٢٠٠ متر الى حوالي ١٠٠٠ متر وتمثل حوالي ١٥٪ فقط من مساحة العراق • وتتكون المنطقة شبه الجبلية من سلاسل جبلية واطئة ومتقطعـة تفصلها سهول واحواض وتنتهي في الجنوب او الجنوب الغربي بجبل حمرين وامتداده جبل مكحول وتتلاشى في منطقة الجزيرة ماعـدا بعض الجبـال القائمة بصورة منفردة مثل جبل سنجار • ومن اشهر سهول المنطقة سـهل كركوك وسهل اربيل وسهل مخمور التي اشتهرت بزراعة الحبوب وخاصة القمح والشعير معتمدة على الامطار الشتوية • وفي هذه المنطقة عاش انسان العصور الحجرية القديمة في سفوح المرتفعات كما ظهـرت اولـى القـرى الزراعية •

٢ ـ الهضبة الصحراوية :

تقع الهضبة الصحراوية في غرب العراق وتحتل حوالـي ٦٠٪ مـن مساحته ويتراوح ارتفاعها بين ١٠٠ ـ ١٠٠٠ متر غير ان القسم الاكبر منه يبلغ ارتفاعه مابين ٣٠٠ ـ ٥٠٠ متر • وتعتبر مـن حيث التضاريـس جزء من هضبة شبه الجزيرة العربية • يكون سطحها متموجا وتنتشر فيه التلال الصغيرة والوديان التي تنتجت عن الحركات الارضية فحدثت فيها انكسارات والتواءات بسيطة وتشتد فيها التعرية نظرا لانحـدار الارض وفقر النبات الطبيعي • والامطار قليلة وتسقط بعنف في فترات قصيرة وهي في الشـمال اكثر منها في الجنوب ولذلك كثرت الوديان في الشمال وقلت في الجنوب • وينحدر سطح الهضبة نحو الشرق باتجاه السهل الرسوبي وتتجه مجـاري الوديان من الغرب الى الشرق تبعا لذلك • وتوجد في الهضبة منخفضـات ووديان عديدة وتلال قليلة وصخور وكتل من الجص ومدرجات وكثبـان رملية ومع ذلك فان تباين الصخور والتربة والنبات الطبيعي والمطر يميـز قسمين رئيسيين هما هضبة الجزيرة وهضبة البادية الغربية •

ا ـ هضبة الجزيرة :

تمتد هضبة الجزيرة مابين جبال مكحول ـ سنجار شمالا والسهل الرسوبي جنوبا ومجرى نهر الفرات والحدود السورية غربا وجبل حمرين شرقا • والجزيرة هي سهل مرتفع متكون من صخور الجبس في الغالب وقد اخذ شكل حوض ضحل له انحدار نحو الجنوب ونحو الشرق ونحو الغرب • ويعتبر وادي الثرثار المصرف الرئيسي لمياهها • ويعتقد ان ارض الجزيرة ربما كانت تتصل بالفرات وانفصلت عنه بسبب الحركات الارضية التي ادت الى كسر ورفع قشرة الارض • ويتكون سطح الجزيرة من ارض منبسطة تتخللها هضاب وروابي وكثبان رملية وبحيرات واودية ومنخفضات• وتكثر في المنطقة مستنقعات تجمعت فيها المياه والاملاح نتيجة عوامل التعرية نظرا لكثرة الاملاح القابلة للذوبان كما ان قسما كبيرا من المنطقة تغطيها ترسبات حديثة نقلتها الرياح والمياه وقد يصل عمقها في بعض الحفر والمنخفضات الى ثلاثة امتار • اما في المناطق المنبسطة فان هذه الترسبات تكون طبقة خفيفة • وتكثر الكثبان الرملية في الجهة الغربية • وتوجد ايضا التواءات صغيرة بعضها ظاهر على سطح الارض وبعضها مختف تحت الترسبات •

واوسع منخفضات هضبة الجزيرة منخفض الثرثار الذي يتكون من واد طويل تنتهي اليه وديان كثيرة تنحدر من جبل سنجار وما جاوره من ارض في شمال المنخفض • يبلغ طول الوادي ٣٠٠ كيلومتر ومعدل عرضه ٤٥ كيلومتراً ويتراوح ارتفاعه بين ٣٢٥ مترا في الشمال ومستوى سطح البحر بالقرب من بحيرة الثرثار • وينخفض قاع البحيرة ثلاثة امتار تقريبا تحت سطح البحر • ان الانحدار نحو المنخفض من الشرق والغرب شديد في الغالب وتحيط بالمنخفض ضفاف عالية تبلغ في الارتفاع حوالي ٣٥ مترا • ويعتقد ان المنخفض نشأ عن انكسار في قشرة الارض وهبوطها فحدث غور

ثم حدثت حركات ارضية باطنية ادت الى تجزئته • ومما يـدل على هـذا الانكسار هو شكل الوادي الطويل الضيق وارتفاع حافته الشرقية واستقامة مجاري الوديان والينابيع •

وقد تحول هذا المنخفض في السنوات الاخيرة الى خزان كبير لخزن مياه نهر دجلة وانقاذ المدن والمزارع من الخراب والغرق بعد انشاء سد سامـراء في سنة ١٩٥٦ اذ شقت قناة بلغ طولها ٤٠ كيلومترا لتحويل مياه الفيضـان من نهر دجلة نحو المنخفض وتم ايصال هذا المشروع بترعة تربطه بنهر الفرات شمال مدينة الفلوجة في سنة ١٩٧٧ •

وتتمتع هضبة الجزيرة عدا ذلك بسقوط الامطار الكافية تقريبا للزراعة والرعي كما توجد مياه جوفية وفيرة • وجميع هذه الموارد المائيـة ساعدت على ازدهار المنطقة منذ عصور قبل التاريخ كما تدل على ذلك التلول الاثرية الكثيرة المنتشرة فيها • واشتهرت الجزيرة منذ اقدم الازمان بكونها من مناطق الاتصال المهمة مابين العراق والشام وموانـىء البحـر المتوسـط وبـلاد الاناضول ومن المصادر المهمة لهجرات القبائل من شبه الجزيرة العربية الـى العراق وسورية وقد سبق لنا ان ذكرنا ذلك بايجاز •

ب ـ هضبة البادية الغربية :

تجاور البادية الغربية مجرى نهر الفرات من الشرق وتشترك مع باديـة الشام وتمتد الى داخل شبه الجزيرة العربية ويتخللها عدد من الاودية التي تجري فيها مياه الامطار • ارضها رملية منبسطة في بعض المناطق المتموجـة تقطعها اودية ومنخفضات في مناطق اخرى • اهم منخفضاتها منخفض الحبانية ومنخفض ابـو دبس وتجري فيها شـبكة كبـيرة ومعقـدة من الوديـان وتظهـر فيهـا صـخور عديـدة ومتنوعـة تعـود الـى الزمنـين الجيولوجيين الثاني والثالث منها صخور الكلس والرمل والطين والحصـى والجبس • ان العامل الرئيسي في تكوين التضاريس هو انكسار الصـخور

وزحفها ولا توجد منخفضات كبيرة في هذه المنطقة الا منخفض الكعارة الذي يقع في شمال الرطبة بمسافة ٨٠ كيلومترا ٠ ويقل اثر الرياح الباردة والحارة في بطون الوديان المنخفضة وتتجمع فيها المياه الجوفية ويسهل حفر الابار وينمو الكلأ ويبقى مدة اطول ولذلك فضلت القوافل اجتياز هذه الوديان منذ القدم ٠ وفي موسم الامطار تجري السيول التي قد تصل مياهها الى حافة السهل الرسوبي وتصل مياه البعض منها كوادي حوران الى الفرات ٠ وتوجد في منطقة التقاء الوديان بالسهل الرسوبي عيون تحوي املاحا كبريتية او تحوي موادا قيرية مثل العيون الموجودة قرب هيت وكبيسة وشثاثة ٠ وفي النهاية الغربية لمنطقة الوديان التي تمتد بمحاذاة الحدود الاردنية العراقية يوجد سهل حماد المنبسط ٠ وفي النهاية الجنوبية لهذا السهل وعند ملتقى الحدود العراقية الاردنية السعودية يبرز جبل عنزة ويبلغ ارتفاعه ٩١٥ مترا ٠ وفي البادية الجنوبية في جنوب هذه الهضبة تكثر المنخفضات مثل منخفض السلمان ٠ وفي اقصى الجنوب الشرقي توجد منطقة الدبدبة وهي ارض منبسطة تغطي سطحها الحصى والرمال وتوجد فيها وديان قليلة اهمها وادي البطن العميق الواسع ٠ في اقصى الجنوب تأخذ الارض بالانبساط ماعدا منطقة جبل سنام ٠ وتوجد في هذا القسم مجموعة من الوديان تنحدر نحو حوض الفرات ٠

الامطار قليلة في الهضبة ولا يزيد معدل سقوطها السنوي في قرية السلمان مثلا على ٧و٢ سنتيمترا ولذلك قلت تحركات القبائل فيها لقلة المراعي وندرة مياه الشرب التي يستحصل عليها من بعض العيون والآبار الارتوازية التي حفرت في السنوات الاخيرة ٠

لم تكن البادية من الناحية الحضارية قديما جزء مهما من العراق ولكنها كانت منفذا لاستقبال هجرات الاقوام الجزرية الى العراق منذ اقدم العصور

٣ ـ السهل الرسوبي

يبلغ طول هذا السهل ٦٥٠ كيلو مترا وعرضه ٢٥٠ كيلومترا ويمتد على شكل مستطيل باتجاه شمالي غربي ـ جنوبي شرقي بين مدينة تكريت على نهر دجلة ومدينة هيت على الفرات من جهة الشمال وجبال زاكروس من جهة الشرق والهضبة الصحراوية من جهة الغرب والبادية الجنوبية والخليج العربي من جهة الجنوب . يشغل السهل الرسوبي حوالي ٢٠٪ من مساحة العراق ويتراوح ارتفاع السهل بين مستوى سطح البحر و ١٠٠ متر فوق سطح البحر ولذلك يقل فيها انحدار مجاري الانهار اذ يبلغ الحد الاقصى لانحدار نهر الفرات ١٠٫٥ سنتيمترا وانحدار مياه دجلة ٦٫٩ سنتيمترا في الكيلومتر الواحد . ولا يزيد سطح الارض عند بغداد اكثر من ٣٢ مترا عن سطح البحر .

وقد ادرك العراقيون القدماء هذه الظاهرة اي ظاهرة ارتفاع وادي نهر الفرات بالنسبة الى وادي نهر دجلة فشقوا من الفرات انهارا كثيرة للري باتجاه نهر دجلة وجعلوا من السهل الرسوبي ابتداء من شمال بغداد ـ الفلوجة شبكة واسعة من مشاريع الري الكبيرة والصغيرة . ويتبدل الوضع في الجزء الجنوبي من السهل في منطقة الكوت ـ ناصرية حيث يبدأ وادي دجلة بالارتفاع بحيث يمكن اقامة مشاريع ري من دجلة الى الفرات وقد تم ذلك في العصور القديمة والحديثة مثل مشروع سد الكوت الذي تأسس في سنة ١٩٣٧ .

تكون منخفض هذا السهل في اوائل الزمن الجيولوجي الاخير نتيجة حدوث حركات ارضية هبطت بعدها الاقسام الجنوبية من العراق فالحدود الشرقية والغربية للمنخفض تظهر على شكل خط مستقيم يلفت النظر ويعتقد انها تتبع انكسارات قشرة الارض . وتكون السهل الرسوبي من الرواسب

التي تنقلها مياه نهر دجلة والفرات من الشمال والرواسب التي تأتي بها السيول المنحدرة من وديان الهضبة الصحراوية في الغرب مثل وادي حوران والابيض والبطن والتي تأتي بها الانهار والجداول المنحدرة من المرتفعات الشرقية كالوديان المارة بمدينة مندلي وبدرة ونهر الكرخة وكارون • ان هذه الرواسب ملأت ولاتزال تملأ المنخفض او الالتواء المقعر الكبير الذي تحتله هذه المنطقة •

وتقدر هذه الرواسب بحوالي عشرة مليارات طن سنويا ويعتقد انها كانت في بدء تكوين السهل اكثر مما هي الان لشدة الانحدار بين الجبال التي كانت اكثر ارتفاعا وبين الالتواء المقعر الذي كان اكثر عمقا مما هو عليه الان• ويضاف الى ذلك ان الامطار كانت في عصر الجليد اكثر غزارة مما كان يزيد في قوة الجرف والترسب • ويترسب ٩٠٪ من المواد العالقة بمياه نهر دجلة والفرات في الوقت الحاضر في الاهوار والمستنقعات المنتشرة في السهل الرسوبي. ويصل الباقي البالغ ١٠٪ الى شط العرب والخليج العربي •

ويرى البعض ان تكوين الاهوار والمستنقعات ظاهرة طبيعية تصاحب تكوين دلتا الانهار • فالانهار وفروعها تملأ عادة المناطق المجاورة لها اكثر مما تملأ المناطق البعيدة عنها ولما بدلت الانهار مجاريها عدة مرات في الازمنة الجيولوجية القديمة كونت في المناطق التي جرت فوقها ضفافا عالية وتركت اراضي واطئة بين مجاريها • وبعض هذه المناطق وصلتها وماتزال تصل اليها مياه الفيضانات مكونة اهوارا ومستنقعات • ويرى اخرون ان الترسبات تتفاوت في كميتها وفي شكل تجمعها في مناطق اتصال السهل الرسوبي بالاراضي العالية المجاورة له من الشمال والشرق والغرب ولذلك ترتفع مناطق وتبقى اخرى منخفضة تتجمع فيها المياه • ويفسر ليز وفالكون وجود الاهوار والمستنقعات بهبوط السهل الذي انخفض ولايزال ينخفض لثقل الرواسب المتجمعة فيه وبسبب الحركات الارضية •

ان هذا الهبوط التدريجي للقسم الجنوبي من السهل الرسوبي يمنع امتلاء المنخفضات بالترسبات التي تحملها الانهار والجداول والتي تنقلها الرياح • لقد مرت عليها آلاف من السنين ولم تملأ بعد والترسبات المنقولة كافية لملئها في مدة اقل من المدة التي مرت عليها • فهور الحمار الذي تكون في سنة ٦٠٠ قبل الميلاد لم يملأ بعد رغم مرور اكثر من ٢٥٠٠ سنة •

ولقد وضعت عدة نظريات منها نظرية واحدة اثارية ونظريتان جيولوجيتان لتفسير علاقة الخليج العربي بالسهل الرسوبي • وكان الرأي السائد في اوساط الباحثين الى عهد قريب ان معظم السهل الرسوبي كان مغمورا بمياه البحر وان ساحل الخليج العربي كان في عصور قبل التاريخ يمتد شمال حدوده الحالية • واول من وضع نظرية بهذا الخصوص هو الباحث الاثاري الفرنسي دى موركان De Morgan الذي اشتهر بتنقيباته الاثارية في خرائب مدينة سوسة عاصمة عيلام • وحدد موركان رأس الخليج العربي في العصر الحجري القديم بالخط الوهمي المار بين هيت على الفرات وسامراء على دجلة • ورسم خطا آخر لحد الساحل الشمالي بعد تراجع مياه الخليج بمرور الزمن بين مدينة اور على الفرات ومدينة العمارة على دجلة في الالف الرابع قبل الميلاد • وقد ايد هذا المنقب معظم المؤرخين والاثاريين والجغرافيين الذين كتبوا عن الخليج العربي والسهل الرسوبي في العراق • واستند صاحب هذه النظرية على افتراض وجود بعض المدن على الساحل القديم للخليج وعلى بعدها عنه بعد تأسيسها واستنتج ذلك من نصوص قديمة ورد فيها ذكر تلك المدن ومثال ذلك كاراكس (ميسان) أي المحصنة باللغة الارامية التي قيل ان الاسكندر المكدوني بناها على بعد كيلومترين ونصف تقريبا من ساحل البحر فاصبحت الان على بعد ١٨٠ كيلومترا تقريبا ومثال ذلك ايضا مدينة اور التي قيل انه كان لها ميناء على البحر في عهد السومريين • وفسر دي موركان تكوين اليابسة وتراجع الخليج

صوب الجنوب بفعل ترسبات الغرين التي تحملها مياه دجلة والفرات وغيرهما بمعدل ميل ونصف الميل او نحو الكيلومترين في القرن الواحد • وقد وجد مؤيدو هذه النظرية في كميات الحصى الهائلة على شكل طبقات ثخينة بين مدينة سامراء ومدينة بلد دليلا على الخط الساحلي القديم لرأس الخليج العربي بينما هو في الواقع احد مدرجات (ضفاف) نهر دجلة القديمة التي تكونت في عصر الجليد •

وبعد ان نشر دي موركان هذا الرأي في اواخر القرن التاسع عشر اكتشفت مؤخرا بعض معالم الاستيطان في اطراف الاهوار وتم العثور على بعض الالات من العصر الحجري القديم في المنطقة التي افترض انها كانت تحت ماء الخليج بدأ الشك فيما ورد بهذه النظرية • وقد ايدت الدراسات الجيولوجية التي اجراها كل من ليز Lees وفالكون Falcon في عام ١٩٥٠ خطأ هذه النظرية فقد لاحظ هذان الجيولوجيان ان القسم الجنوبي من العراق لم تغمره مياه الخليج العربي في يوم من الايام وان رأس الخليج مازال على حالته منذ اكثر من ٥٠٠٠ سنة وان حد الساحل الذي افترضه الاثاريون بين سامراء وهيت لم يكن له وجود على الاطلاق وان المرتفعات الكائنة في منطقة بلد ـ سامراء التي حسبها الاثاريون جرف الساحل القديم للخليج ليست سوى بقايا احد مدرجات او ضفاف نهر دجلة في عصر الجليد• وبخلاف دي موركان وغيره من الذين اعتقدوا بتقديم اليابسة على حساب البحر بسبب تراكم الغرين الذي ينقله نهر الفرات ودجلة وكارون فقد بين هذان الجيولوجيان ان رأس الخليج شهد بعض حالات التقدم على حساب اليابسة كما شهد حالات اخرى تراجع عنها • واستدلا على ذلك من حساب كميات رواسب نهر دجلة والفرات ومن مظاهر العمران المطمورة تحت مياه الخليج او تحت مياه الاهوار او الظاهرة في الاقسام القريبة من سواحل الخليج الحالية مثل الادوات الفخارية والنحاسية التي وجدت بدار الخزنة

على بعد عشرة اميال جنوب مدينة شوشتر تحت طبقة غرينية ثخنها عشـــرة اقدام وتعود للالف الرابع قبل الميلاد واستدلا على ذلك ايضـا من اتجـاه تصريف المياه في بعض جزر الخليج مثل جزيرة بوبيان نحو الشمال بدلا من الجنوب ۰ وقد ايدت هذه الاكتشافات رأيهما في ان السهل الرسوبي تعرض ولا يزال يتعرض الى الانخفاض التدريجي بسبب ثقل رواسب الغرين عليه ۰ وقد خلصا الى القول بان دجلة والفرات والكارون لا تقيم دلتـا اعتياديـة متقدمة بل تقذف بحمولتها من الرواسب في حوض تكتوني اثر خسف كبير في قشرة الارض وليس هناك دليل تاريخي مقبول على ان رأس الخليج كان ابعد من موقعه الحالي وان الادلة التي جمعت تشير على العكس من ذلك الـى حركة من التقدم والتراجع لا يمكن تحديد تاريخ مضبوط لها ۰

اما النظرية الجيولوجية الاخرى فهي خلاصة جهود جيولوجية قامت بها بعثة المانية برآسة نوتزل Nutzil من على ظهر سفينة ابحاث استغرق عملها ست سنوات ۰ وتتلخص نظرية نوتزل في ان ذروة انخفاض درجـة حرارة العصر الجليدي الاخير (فرم Wurm) انتهت ما بين ١٤٠٠٠ـ١٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد وكانت كميات هائلة من مياه البحار والمحيطات قد تحولت قبل ذلك الى ثلوج تراكمت على خطوط العرض العليا في النصف الشمالي من الكرة الارضية فاصبحت مياه البحار دون مستوياتها الحالية بحوالـي مئة وعشرة امتار ۰ وبما ان الخليج العربي لا يزيد عمقه في الوقت الحاضر عن مئة متر فقد كان في ذلك الوقت منخفضا جافا ۰ وفي نهاية هذا العصـر ساد الدفء وذابت الثلوج فعادت المياه الى ماكانت عليه وبدأت مستوياتها في البحار بالارتفاع واخذ منخفض الخليج العربي يمتلىء الـى ان وصـل مستواه الحالي بحدود عام ٥٠٠٠ قبل الميلاد ۰ ولما ذابت الثلوج ارتفـع مستوى ماء البحر وبدأت مياه الخليج تتقـدم بمعدل ١٠٠ متر في السـنة فتقدم خط الساحل بمقـدار ٥٠٠ كيلومتر في مـدة تراوحت بين ٤٠٠٠ ـــ

٥٠٠٠ سنة وربما كان تقدمه قد وصل الى اور • ومن المحتمل ان يكون تقدم المياه قد حدث على شكل دفعات تفصل بينها موجات البرد التي اوقفت استمرار ذوبان الثلوج اي ان ارتفاع مستويات البحر في فترة الدفء لم يكن مستمرا بل متقطعا بفترات من التوقف • وقد كشفت البعثة الالمانية عن اثار ثلاث فترات توقف تكونت خلالها خطوط الساحل الحالية التي يمكن تمييزها الان جيولوجيا • وكانت هذه التوقفات على عمق ٦٣ و ٥٠ و ٣٠ مترا تحت مستوى مياه الخليج الحالية • ان هذه التوقفات والخطوط الساحلية توضح مراحل امتداد المياه في الخليج العربي وخطوط ساحل رأس الخليج ابتداء من سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد ولغاية الالف الخامس قبل الميلاد حيث اتخذ الخليج شكله الحالي • وتستعرض البعثة احتمالات امتداد المياه في جنوب العراق في ذروة عصر الدفء التي تقع مابين سنة ٥٠٠٠ وسنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد اثر ارتفاع مياه البحر فوق مستواها الحالي بعد ازدياد ذوبان الثلوج • ولكن في حدود سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد بدأت المياه بالتراجع ولذلك يمكن الافتراض بان الخليج العربي تقدم الى شمال مدينة اور في الفترة مابين سنة ٥٠٠٠ وسنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد •

هذا هو مجمل اراء الاثاريين والجيولوجيين بخصوص قضية ساحل الخليج العربي وعلاقته بالسهل الرسوبي في العراق وهي كما تبدو متضاربة وغير مستقرة وتتطلب المزيد من دراسات الباحثين من مختلف الاختصاصات • وعلى الرغم من ذلك فان هذه النظريات تتفق في مسألة واحدة وهي ان القسم الجنوبي من العراق قد تعرض لحالة من الغمر بالمياه في حدود الالف الخامس قبل الميلاد ولكنها تختلف في تحديد طبيعة هذا الغمر فلكل منها تفسير خاص له •

ومهما يكن من امر فان انفتاح العراق على الخليج العربي يسر سبل

الاتصال البحري باقطار الخليج وبالاجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة والهند ، ويظهر ان اقدم الصلات باقطار الخليج ترجع الى الالف الخامس قبل الميلاد ، وتدل نتائج التحريات الاثرية التي تمت في السنوات القليلة الماضية في بعض جهات المملكة العربية السعودية ولا سيما في الاجزاء الساحلية من الخليج على وجود اثار عراقية من عصر العبيد في عدة مواقع اثرية كما وجدت آثار عراقية من عصور لاحقة في واحة البريمي في الامارات العربية المتحدة وفي البحرين ، وتشير النصوص التاريخية الكثيرة التي ترجع الى منتصف الالف الثالث قبل الميلاد الى اتصالات تجارية بين العراق من جهة وبين الاقطار المتاخمة للخليج وسواحل شبه الجزيرة العربية ، ومن اشهر الاقاليم التي ورد ذكرها في تلك النصوص اقليم مكان (عمان) واقليم دلمون او تلمون (البحرين) واقليم ميلوخا ويرجح ان يكون وادي السند ويرجح ايضا انه صار يطلق في العصور المتأخرة على بلاد الحبشة ، وكشفت التنقيبات الاثارية في وادي السند عن حضارة ازدهرت في منتصف الالف الثالث قبل الميلاد فيها جملة عناصر حضارية عراقية ، وظل الخليج في العصور العربية الاسلامية طريقا حيويا يربط العراق بالعالم الخارجي اذ كان الاتصال يتم عن طريقه بالهند وباقطار الشرق الاقصى ، ولكن بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح وفتح قناة السويس تغيرت الحالة قليلا ،

النبات الطبيعي

تختلف النباتات الطبيعية من منطقة لاخرى تبعا لاختلاف التضاريس والاحوال المناخية ، وقد شهد القطر هذا الاختلاف منذ ان استقرت الاحوال المناخية بعد ذوبان ثلوج عصر الجليد ، ونجد اليوم هذا الاختلاف واضحا بين نباتات الصحاري القليلة ونباتات الاهوار الكثيفة وكذلك بين

غابات الجبال وحشائش السهول • وتزداد النباتات كثافة كلما انتقلنا من الجنوب الى الشمال ومن الغرب الى الشرق حسب ازدياد كميات الامطار والمياه في هذين الاتجاهين • وتتفق مناطق النبات الطبيعي مع المناطق المناخية عموما ولما كانت مناطق المناخ في العراق متعددة فقد ظهرت نباتات متعددة الانواع تبعا لذلك •

ان القسم الاعظم من نباتات العراق الطبيعية من النوع الذي يتحمل فترة طويلة من الجفاف والحرارة العالية فالنباتات الصحراوية تنتشر في السهل الرسوبي والهضبة حيث تتفاوت الحرارة تفاوتا كبيرا بين الصيف والشتاء وبين الليل والنهار كما تتفاوت الامطار السنوية مابين ٥ ـ ٢٠ سنتيمترا في السنة • وهذه الامطار على قلتها تتأثر بنسبة التبخر العالية فيقل تأثيرها • ولهذه الاسباب كيفت النباتات الصحراوية نفسها لتقاوم هذا الجفاف الذي يدوم حوالي ثمانية شهور بوسائل مختلفة منها الجذور الطويلة ومنها خزن المياه ومنها الاوراق التي تغطيها طبقة شمعية قليلة المسام تمنع التبخر وتحافظ على الرطوبة •

وتوجد بين النباتات الصحراوية نباتات حولية قصيرة الاجل تنمو في الموسم الملائم ثم تموت وتبقى بذورها في التربة فتنمو ثانية عند حلول موسم الازهار • ومن أهم النباتات الحولية الخباز والنصفة والحلبة والصمعة والجيرانيوم والبابونك البري والشنان والشويل والشريب والشعير البري • اما النباتات الدائمية فأهمها الاثل والغضا والقيصوم والعرد والعرفج والشيح والسدر والشوك والعجرش والسطيح والركيجة والكوكلة • وتنمو هذه النباتات وتتوزع حسب توزيع المياه السطحية والجوفية والامطار ونوع التربة • وهي على العموم تكون قليلة الكثافة ومبعثرة ولكن في مواسم سقوط الامطار تكثر الاعشاب الحولية وتنشط النباتات الدائمية • وتؤثر التربة في توزيع ونوعية النباتات فالتربة الرملية

التي تسود في البادية الجنوبية تعتبـر اصـلح من غيرهـا لنـو النباتات الصحراوية لسهولة تفاذ جذورها في الاعماق حيث توجد الرطوبة . ويبلغ عدد انواع النباتات الصحراوية ٤٥٠ نوعا من مجموع أنواع نباتات العراق البالغ عددها ٢٥٠٠ نوع واكثر هذه النباتات حولية اذ تبلغ نسبتها ٧٥٪ اما المعمرة او الدائمية فتبلغ نسبتها ٢٥٪ .

وللنباتات الصحراوية فوائد عظيمة لسكان المناطق التي تنمـو فيهـا فهي تفيدهم لاطعام حيواناتهم كما انها مصدر مفيد لما يحتاجون من الوقود . هذا بالاضافة الى انها تحافظ على التربة من الجرف وتقلل من العواصـف الرمليـة .

وتكون الحشائش والنباتات البصلية والشوكية معظم نباتات المنطقة شبه الجبلية التي لا يوجد حد فاصل واضح بينها وبين المنطقة الصحراوية في نقاط التماس والانتقال ويعتقد ان نباتاتها كانت في الماضي اكثر كثافة وتنوعا مما هي عليها الان . لان بعض اجزاء المنطقة التي تنمو فيها تعرضت عبـر العصور للجرف الشديد . ومع ذلك تعتبر هذه المنطقة السهوبية مهمة جدا لرعي الحيوانات لاحتوائها على حشائش ملائمة لغذائها . تنتشر في اقسام هذه المنطقة الجنوبية حيث يقل المطر نباتات تشبه نباتات المنطقة الصحراوية من حيث تكيفها للفصل الجاف كما توجد بعض النباتات الصحراوية مثـل الشجيرات الشوكية الدائمية كالشيح والقيصوم . اما الحشائش فاهمهـا الرويطة والسماعة والقباع والكسوب والنعيم والزباد والشوفان والشـعير البري . ويصلح كلها لرعي الحيوانات . وتظهر في حقول الحنطة والشعير اعشاب ذات ازهار صفراء تسمى الحندقوقة . اما في المناطق التي تزيد كمية المطر فيها على ٣٠ سنتيمترا فتوجد اشجار تعود الى منطقة الغابات تنمـو على اعالي التلال والجبال بينما تنمو الحشائش على السفوح الواطئة لهـا

كما توجد بعض نباتات السهوب بمنطقة الغابات في الاطراف الشمالية من هذه المنطقة .

اما منطقة الغابات فتوجد في اقصى شمال وشمال شرق العراق ضمن حدود المنطقة الجبلية العالية التي تتمتع بمناخ البحر المتوسط ويتراوح مطرها مابين ٤٠ ـ ١٠٠ سنتيمترا في السنة وتكون تربتها جيدة الصرف لانحدار اراضيها ولذلك لا تتراكم عليها الاملاح . وتكون النباتات اكثر كثافة في السفوح الشمالية الشرقية . ولطبيعة الصخور اثر مهم في نمو الاشجار فالمسامية منها لا تحتفظ بالمياه وقد تكون جرداء . اما غير المسامية فتحتفظ بالمياه وتكون اكثر ملائمة لنمو الاشجار . وللمياه الجارية كالجداول والينابيع تأثير واضح في كثافة وتوزيع الاشجار . ان معظم غابات العراق هي من اشجار البلوط والقليل جدا منها من اشجار الصنوبر . وتتفاوت غابات البلوط في كثافتها من مكان لاخر فهي كثيفة في الاماكن البعيدة عن القرى والمدن وقليلة الكثافة قرب مراكز تجمع السكان بسبب قطعها من اجل الوقود والزراعة المتنقلة . وتنتشر بين هذه الغابات اشجار البطم (الحبة الخضراء) واشجار الزعرور والسماق والعرعر والكمثرى البرية واللوز البري . كما توجد مجموعة من الاعشاب والحشائش تستخدم للرعي في فصل الصيف . ويجفف بعض الحشائش للاستفادة منها علفا للحيوانات في فصل الشتاء . اما غابات الصنوبر فتوجد بالقرب من قرية زلوبتة وقرية اتروش وتوجد معها اشجار اخرى مثل العرعر والبلوط والبطم . وتنمو على ضفاف الانهار والوديان الجبلية اشجار الجنار والصفصاف والدردار والجوز والحور والغرب والدفلة والتوت البري والتين البري والتفاح البري . وتوجد في المنطقة حشائش وشجيرات . واهم الشجيرات نوع صغير شوكي قليل الارتفاع يسمى بالكثيراء تحوي سيقانها مادة صمغية لها فائدة اقتصادية . اما الحشائش فاهمها النقل والجت البري

والغربيون ويستفاد منها لرعي الحيوانات ولصنع العقاقير والادوية المحلية بينما يستفاد من الاشجار لجني الثمار والوقود وقطع الاخشاب •

وعلى ضفاف الانهار في السهل الرسوبي تنمو اشجار وشجيرات وحشائش لتوفر المياه بصورة دائمية اذ ينمو الصفصاف والكافور (الكالبتوس) والغرب والزور والاثل والعوسج والصريم وعرق السوس والحلفاء والثيل والشوك والطحمة والعاقول وتستخدم الاشجار لقطع الاخشاب والوقود ويستفاد من الشجيرات والحشائش للرعي والوقود •

وتتميز منطقة الاهوار بكثافة نباتاتها وتعدد انواعها • واهم نباتاتها واوسعها انتشارا واكثرها فائدة هو القصب والبردي • ويوجد القصب على شكل غابات صغيرة تؤلف جزرا في وسط الاهوار • ويصل ارتفاع القصب الى ٢٤ قدما والبردي الى ثمانية اقدام • ويستعمل سكان منطقة الاهوار القصب والبردي لبناء بيوتهم باشكال متنوعة كما يستعملونها للوقود والاضاءة ويستخدمون سيقان القصب الغليظة لتسيير قواربهم في الاهوار وتقدم السيقان الطرية الصغيرة الحجم علفا للجاموس • ويستخدم القصب ايضا في صناعة الحصر وذلك بتكسير سيقانها وحياكتها • وللحصر فوائد كثيرة اذ تستعمل في بناء الاكواخ للفلاحين وفي بناء مخازن الحبوب وفي فرش البيوت بدلا من السجاد كما يستعمل القصب للوقود في معامل الطابوق المنتشرة في منطقة الاهوار وفي صناعة الورق • اما البردي فينمو مع القصب في الاهوار الدائمية وبصورة منفردة في المستنقعات الفصلية ويستعمله اهل الهور علفا للجاموس عندما لا يوجد القصب كما يستعملونه في بناء اكوام عالية في وسط الهور يقيمون عليها بيوتهم • ويستعمل البردي ايضا وقودا في معامل الطابوق وفي كبسه على شكل الواح تستعمل في بناء المساكن ويأكل أهل الهور جذور البردي في بدء نموه ويجمعون من

رؤوسه المتفتحة خلال موسم الربيع مادة صفراء اللون تشبه الطحين يصنعون منه الحلوى بعد مزجها بالسكر وتعرف محليا بالخريط .

يظهر مما تقدم ان النبات الطبيعي في العراق قليل بصورة عامة ويغطي مساحات صغيرة من القطر تتوفر فيها الانهار والامطار . ومعظم هذه النباتات فصلي وينمو في مواسم ملائمة ثم يجف في المواسم الاخرى ؛ وللنبات الطبيعي فوائد جمة في القطر العراقي فهو يحفظ التربة من الجرف وهو مورد مهم لرعي الحيوانات وللوقود وله فوائد اخرى كالثمار التي تنتجها الاشجار والعقاقير والادوية التي تستخرج من الحشائش كما تفيد في صد الرياح الحارة والباردة وتلطف من جو المدن وتقلل من ضرر العواصف الرملية .

الانهار

ارتبط نشوء حضارة العراق وازدهارها منذ البداية بوجود النهرين الكبيرين دجلة والفرات وروافدهما فعلى ضفاف الانهار تأسست القرى الزراعية الاولى في العراق وكانت الزراعة ومازال اهم الحرف الاقتصادية لسكان هذا القطر . وقد مهدت الحياة الزراعية في مراحلها المبكرة السبيل الى قيام اقدم الحضارات البشرية في العالم . وكانت للانهار اهمية عظمى في الري والمواصلات وازدهار التجارة ونقل التأثيرات الحضارية . وقد اضفى العراقيون القدماء على الراقدين طابع التقديس والتعظيم وعدوهما من جملة الالهة . ووصف النهران في بعض التراتيل الدينية بالنهرين الاخوين . وفي اساطير الخليقة ذكر ان دجلة والفرات ينبعان من عين تيامة وهي الالهة التي تمثل عنصر الماء المالح أي البحر .

وكان الرأي السائد بين الباحثين ان تسمية النهرين من اصل سومري ولكن تبين انها ليست سومرية ولا جزرية الاصل بل هي من تراث لغوي

لقوم مجهول لعله سبق السومريين في استيطان السهل الرسوبي . ولا يعلم عن اصحاب ذلك التراث اللغوي شيء كثير سوى ما تركوه من اسماء بعض المدن والمهن والحرف ومنها اسم دجلة والفرات . وقد ورد اسم دجلة في النصوص المسمارية السومرية بهيئة ادكنا Idigna . وفي النصوص الاكدية بهيئة ادكلات Idiglat بمعنى الجاري او الراوي . وجاء من الاسم الاخير الاسم العربي لنهر دجلة . اما الفرات فقد ورد اسمه في النصوص المسمارية بمجموعة من العلامات تلفظ بهيئة بورانن Buranun ويرادف ذلك في اللغة الاكدية لفظ بوراتي Purati وبوراتوم Buratum ومنها الصيغة العربية فرات اي الرافد او الماء العذب .

ان جزء كبيرا من حوض دجلة والفرات وروافدهما باستثناء نهر العظيم يقع خارج العراق ويشمل رقعة جغرافية واسعة مابين بلاد الشام وجبال طوروس وارارات وزاكروس . وقد قدر ان نحوا من ٤٥٫٨٪ من مجموع مساحة حوض النهرين يقع داخل القطر العراقي والباقي خارج حدوده . ومع ان القسم الاعظم من طول النهرين يقع داخل الاراضي العراقية الا ان قسما غير قليل يتوزع مابين تركية وسورية فيمر من طول الفرات البالغ ٢٣٢٠ كيلومترا ١٢٠٠ كيلومتر في الاراضي العراقية . اما دجلة فيقع من اصل طوله البالغ ١٧١٨ كيلومترا ١٤١٨ كيلومترا داخل الحدود العراقية والباقي في الاراضي التركية .

تقع منابع نهر دجلة في مرتفعات تركية الجنوبية الشرقية وتتألف من عدة روافد تلتقي مع بعضها لتكوين المجرى الرئيسي للنهر الذي يدخل الاراضي العراقية عند بلدة فيشخابور حيث يصب فيه اول روافده الخابور ويمر النهر بعد ذلك في مدينة الموصل ثم يلتقي به رافده الثاني الزاب الكبير (زابو ايلو في المصادر المسمارية) في جنوب اطلال نمرود (مدينة كالح

القديمة) • ويظهر ان نهر دجلة غير مجراه قليلا نحو الغرب في هذه المنطقة لان مدينة نمرود كانت تقع على النهر ولكنها تبعد عنه الان بمقدار خمسة كيلومترات • وقد وجـد المنقبون في نمرود بقايا رصيف ميناء من الحجارة الضخمة • وفي جنوب مدينة اشور القديمة يلتقي النهر بالـزاب الصـغير (زابو شبالو في المصادر المسمارية) ثم يسير النهر باتجاه جنوبي ويقطـع جبال حمرين عند الفتحة مقابل مدينة بيجي ثم يستمر في طريقه الى السهل الرسوبي فيمر في تكريت ثم في سامراء • وفي منتصـف الطريـق بين بلـد وبغداد يلتقي به رافد العظيم (ردانو في المصادر المسمارية) ثم يقتـرب نهر دجلة من نهر الفرات كثيرا عند مدينة بغداد حيث لا تتجاوز المسافة بـين النهرين اكثر من ٣٤ كيلومترا ولكنه ينحرف بعد ذلك مابين بغداد والكـوت باتجاه جنوبي شرقي • وفي شمال مدينة المدائن يلتقي بنهر ديالى (ترنات في المصـادر المسمارية) • ونظرا لارتفـاع مسـتوى نهر دجلـة بالنسـبة الـى مسـتوى نهـر الفـرات في منطقـة الكـوت ـ ناصريـة فقـد اقيم في الكوت مشروع ري هو شط الغراف حيث شيد سد كبير في سـنة ١٩٣٧ • وفي هذه المنطقة غير نهر دجلة مجراه اذ تحول من مجـراه الاصلي الذي يسير فيه بين الكـوت والعمارة الى مجرى غربي هو نهـر الدجيلـة الذي يرجح انه كان احد مشاريع الري التي شقت من دجلة في عصر فجـر السلالات في منتصف الالف الثالث قبل الميلاد • ولعل انتمينا هو الذي فتح هذا الجدول • وظل النهر في هذا المجرى الغربي مارا بمدينة واسط الـى القرن السادس عشر الميلادي حيث عاد الى مجراه السـابق فاندثرت مدينـة واسط • ويمر دجلة من بعد الكوت بمدينة شيخ سعد ثم بعلي الغربي وعلي الشرقي والكميت والعمارة وقلعة صالح والعزير ثم القرنة •

اما الفرات فينبع من السلاسل الجبلية في شرق الاناضـول وتتجمـع الجداول الصغيرة في كيبان معدني لتكون المجرى الرئيسي للنهر • ويقطع

الفرات الحدود التركية السورية عند مدينة جرابلس (كركميش القديمة) وبعد جرابلس يلتقي برافده الساجور ثم يسير غربا وبعد ذلك شرقا في مسراه الجنوبي حتى يدخل سهول سورية ومنطقة الجزيرة ويتصل الفرات في هذه السهول بنهر البليخ والخابور • ويمر الفرات قبل دخوله الاراضي العراقية بجملة مدن من بينها دورايوروبس عند مدينة الصالحية الان ثم بمدينة البو كمال وبالقرب منها مدينة ماري (تل الحريري) • وبعد البو كمال بمسافة قليلة يدخل الفرات الاراضي العراقية عند قرية الحصيبة • وتوجد مابين الحصيبة ومدينة القائم اثار يحتمل ان تكون بقايا مدينة ذكرتها النصوص الاشورية بأسم خندالو • ثم يمر الفرات بعد ذلك في مدينة عانة على الضفة اليمنى ومدينة راوة على الضفة اليسرى وكانت منطقة عانة من المراكز المهمة للاموريين • وفي جنوب مدينة الحديثة يصب في الضفة الغربية من النهر وادي حوران قادما من بادية الشام • وبعد ان يجتاز النهر مدينة هيت يدخل السهل الرسوبي • والى الجنوب من هذه المدينة تكثر المنخفضات المائية • ويظهر من التحريات الجيولوجية ان الفرات كان يتصل في عصور قبل التاريخ بمنخفض الحبانية وهور ابو دبس وبحر النجف وان هذه المنخفضات كانت متصلة ببعضها مكونة واديا يمتد من الشمال الى الجنوب ثم انفصلت عن بعضها بالشكل الذي نشاهده اليوم بسبب الحركات الارضية • ومن المحتمل ان هذه المنخفضات استعملت في العصور القديمة لخزن مياه الفيضان لموسم الصيهود • وقد تم حديثا انشاء مشروع في شمال مدينة الرمادي لحجز مياه الفرات وتحويلها بواسطة جدول الورار الى بحيرة الحبانية وفتح المجرّة لنقل المياه الفائضة من الحبانية الى منخفض ابو دبس• واستخدمت قناة الذبان القريبة من الفلوجة لاعادة المياه الى الفرات عند الحاجة ويقترب الفرات من دجلة جنوبي الفلوجة بقليل وتبلغ المسافة بين النهرين ٣٤ كيلومترا ويرتفع وادي الفرات في هذه المنطقة على وادي

دجلة بمقدار يتراوح بين ٧ ــ ١٠ امتار ٠ واستغلت هذه الظاهرة لشق مشاريع الري من الفرات الى دجلة في العصور القديمة ٠ وفتحت المشاريع الحديثة مثل جدول الصقلاوية وابو غريب واليوسفية واللطيفية والاسكندرية والمسيب موازية للمشاريع القديمة مثل نهر عيسى ونهر صرصر ونهر ملكا ونهر كوثا ونهر الصراة ٠

وبعد ان يجتاز الفرات مدينة الفلوجة يمر ببلدة المسيب والى الجنوب من هذه المدينة بنحو ثمانية كيلومترات اقيم مشروع سدة الهندية في العهد العثماني عام ١٩١٣ لتنظيم توزيع المياه في جداول فرعية منها نهر الحلة والكفل والاسكندرية في الجانب الايسر من السد وجدول الحسينية وجدول بني حسن في الجانب الايمن ذلك لان الفرات من بعد اجتيازه المسيب بقليل يتفرع الى فرعين فرع شرقي هو نهر الحلة وفرع غربي هو نهر الهندية الذي شق في القرن التاسع عشر لاخذ الماء الى الكوفة والنجف ثم تحول فرع الحلة كله الى فروع الهندية ولهذا انشيء السد لتنظيم توزيع المياه على الفروع ٠ ومن نهر الحلة يتفرع نهر الدغارة وتقع على هذا النهر جملة مدن مثل الديوانية والحمزة والرميثة كما ان فرع الهندية يتفرع بدوره بالقرب من مدينة الكفل الى فرعين فرع شرقي هو شط الشامية وفرع غربي هو شط الكوفة الذي يمر بمدينة الكوفة وابو صخير وغيرهما ويلتقى بفرع الشامية بالقرب من الشنافية ٠ وتتوحد مجاري الفرات السفلى بالقرب من السماوة ثم يمر بعدها بعدة مدن وقرى مثل الخضر والدراجي والبطيحة والناصرية وسوق الشيوخ ٠ ويدخل نهر الفرات بعد سوق الشيوخ في هور الحمّار ويجري في داخل الهور مسافة ١٠٠ كيلومتر ثم يخرج من الهور ويصب في نهر دجلة عند كرمة علي على بعد عشرة كيلومترات شمال البصرة وجنوب القرنة بنحو خمسين كيلومترا ٠ وكان النهران يلتقيان عند مدينة القرنة قبل نحو مائة عام ٠

من مميزات انهار العراق انها تنقل مقادير هائلة من الغرين يترسب بعضها في قيعانها في كل عام فتسبب مشاكل كثيرة منها ارتفاع قاع النهرين دجلة والفرات عن مستوى السهل الرسوبي مما يزيد في خطر الفيضان وتدمير القرى والمدن ومنها تكوين الجزر الرملية في مجاري النهرين وتقليل سعة جداول الري واهمال الجداول لصعوبة او تعذر كريها . ومن النتائج الخطيرة للرواسب تبديل الانهار لمجاريها في فترات زمنية مختلفة الامر الذي يدعو الى هجرة الناس للمدن والبحث عن مستوطنات جديدة تقام على ضفاف الانهار الجديدة . لقد ظهرت هذه الظاهرة في السهل الرسوبي . اما ضفاف النهرين في المنطقة الممتدة شمال هذا السهل فهي ضفاف صخرية ولذلك لم تتغير مجاري النهرين فيها الا قليلا . اما السهل الرسوبي فهو غريني ويجري فيه النهران بانحدار واطيء وبهيئة متعرجة وبفعل كثرة رواسب الغرين يرتفع مستوى قاعيهما فتفيض مياههما مكونة اهوارا وبحيرات وتبدأ ظاهرة تبديل المجرى الاصلي . وبالنظر الى تعدد فروع دجلة والفرات في السهل الرسوبي وتعرض المجاري الرئيسية للاندثار نتيجة الترسبات الكثيرة فان المجرى الاصلي كثيرا ما انتقل الى احد فروعه الذي وسع مجراه فاصبح الفرع عمود النهر . وقد بدل نهر دجلة مجراه بين المجرى الرئيسي ومجرى الدجيلة ثم عاد الى مجراه القديم وبدل الفرات مجراه اكثر من مرة في ازمان مختلفة . ويمكن تتبع احد المجاري القديمة الرئيسية للفرات من مواقع المدن القديمة التي كانت فيما مضى تقع على ذلك المجرى فاصبحت الان في بادية جرداء الى الشرق من مجرى النهر الحالي مثل مدينة نفر والوركاء وايسن وغيرها . وبواسطة المسح الاثري للتلول المنتشرة في سهول العراق الرسوبية وتعيين ازمان ملتقطاتها السطحية امكن تحديد مجاري الانهار القديمة ولا سيما دجلة والفرات في المنطقة الوسطى والجنوبية فبالنسبة الى نهر الفرات امكن تتبع مجراه القديم من سبار (ابو حبة) الى نفر (نيبور) ودلبات (دريهم)

وكسورا (تل الحطب) وشروباك (فارة) ثم الوركاء (اورك) • ومن الوركاء الى اور • واتبعت هذه الطريقة في عام ١٩٥٣ لمسح بلاد سومر الوسطى ومسح بلاد اكد في عام ١٩٥٦ ومسح منطقة ديالى في عام ١٩٥٧ •

والعراق قطر نهري فيه نهران كبيران ويتبعهما عدد من الروافد الكبيرة والصغيرة فهو من الاقطار القليلة في مضمار حيازته على ثروة مائية كبيرة بالنسبة الى مساحته الصغيرة • غير ان وجود هذه الثروة المائية لم يسبب نشوء الحضارة بل ان الجهود البشرية الشاقة لترويض البيئة النهرية واستغلالها للاستفادة منها هي التي كان لها الاثر الحاسم في الموضوع • ان مشاريع الري والسيطرة على الري كانت من اهم اسباب قيام اولى الحضارات بهذا القطر • لقد كان الري ضرورة ملحة وقصوى في المناطق التي يقل فيها سقوط المطر وتتضح هذه الحقيقة بشكل بارز في السهل الرسوبي ولذلك كانت لجهود طلائع المستوطنين فيه في الالف الخامس قبل الميلاد فضل كبير في تحويل بيئة طبيعية وحشية قاسية من الاهوار والبادية الجرداء الى بيئة درت الخير والبركات • ولقد ادرك العراقيون القدماء خصائص نظام النهرين الطبيعية مثل ارتفاع وادي الفرات بالنسبة الى وادي دجلة في السهل الرسوبي ابتداءً من منطقة الفلوجة ــ بغداد فاستغلوها وفتحوا كثيرا من لانهار من الفرات الى دجلة لري اراضي شاسعة ويمكن تتبع اثار شبكة انهار الري وقيعانها المندرسة بواسطة الاطلال القديمة لمدن وقرى كانت فيما مضى عامرة على ضفاف تلك الانهار •.

وترد في النصوص القديمة اخبار كثيرة عن شق الجداول والانهار منذ نشوء نظام الحكم في العراق وبداية التدوين فيه • وخصصت شرائع حمورابي احكاما كثيرة لتنظيم شؤون الري والزراعة • وانجز القدماء مشاريع اخرى ملازمة لنظام الري مثل اقامة السدود وحفر الخزانات لخزن المياه في موسم الفيضان والافادة منها مرة اخرى في اوقات قلة المياه • ويرجح انهم استفادوا

من بعض المنخفضات الطبيعية القريبة من ضفاف نهر الفرات الغربية لخزن المياه مثل منخفض الحبانية وهور ابو دبس .

وفيما يتعلق باستخدام الانهار في المواصلات نلاحظ ان الطبيعة انعمت على العراقيين طرقا مائية جيدة وقليلة التكاليف للنقل بواسطة النهرين الكبيرين دجلة والفرات وروافدهما وبواسطة جداول وقنوات الري المتعددة والمتشعبة منها . فقد استخدمت هذه الانهار في اغراض الملاحة ونقل السلع والبضائع التجارية والمسافرين وفي الاغراض الحربية والصيد . ومما زاد في اهمية النهرين في المواصلات المائية انهما يمران بغالبية المدن الكبيرة والصغيرة ويندر ان تكون مدينة او قرية بعيدة عن مجرى النهر الرئيسي او عن مجرى احد فروعه او عن قناة رئيسية تتصل به وبذلك تكون على اتصال وثيق مع بقية المدن ومراكز الاستيطان .

ومما زاد من اعتماد قدماء العراقيين على النقل النهري عامة وفي السهل الرسوبي خاصة ان انتشار قنوات الري وسعة الاراضي المزروعة والفيضانات الموسمية جعلت المواصلات البرية اكثر كلفة واقل اهمية بينما كانت وسائط النقل النهرية تنتقل بيسر وسهولة ودون مخاطر من اعالي النهر وحتى مصبه في الخليج العربي بل والى مسافات ومناطق بعيدة في الخليج . ولهذا السبب طور العراقيون وسائط النقل النهرية في بلادهم منذ فترات مبكرة اذ صنعوا القارب الشراعي في مطلع الالف الرابع قبل الميلاد . وتشير المصادر المسمارية الى انواع مختلفة من وسائط النقل النهرية والى تعدد حجومها وسبل سيرها ومواد صناعتها واساليب بنائها . وصنع العراقيون سفنا خاصة بنقل البضائع واخرى خاصة بالمسافرين وصنعوا قوارب خاصة بالصيد في الاهوار وفي عبور الانهار والملاحة الى مسافات غير بعيدة . وبالاضافة الى القوارب والسفن الشراعية صنعوا الاكلاك والعوامات والقفف التي كانت تستخدم في النقل الى مسافات قريبة واستخدموا القرب المنفوخة لعبور الانهار والسفن

في الاغراض العسكرية ولاسيما اثناء الحروب في الاهوار • واستخدموا القوارب في الصيد وخاصة لصيد الخنازير الوحشية في الاهوار •

ساهمت وسائط النقل النهري في النقل التجاري بداخل القطر كما ساهمت في تعزيز العلاقات الخارجية مع اقطار الخليج العربي وسورية • وتعد الاكتشافات الحديثة للمستوطنات العبيدية على الساحل الغربي للخليج دليلا على قدم الاتصالات بين المنطقتين • وهذه الاثار العبيدية وابرزها اثار فخارية تنحصر بين موقع ابو خميس القريب من الحدود السعودية الكويتية شمالا الى شبه جزيرة قطر جنوبا وتنتشر ايضا في البحرين وفي مناطق تبعد عن الساحل بنحو سبعين كيلومتراء ومن المؤكد ان مدينة ماري (تل الحريري) كانت مركزا رئيسيا على الفرات في اقسامه الوسطى ويتردد اسمها كثيرا في النشاط التجاري مع بابل وايسن ويقترن اسم ماري بالقوارب مثل اسم دلمون ومكان •

وفي ختام هذا الفصل نود الاشارة الى ظاهرة العنف الذي تميزت به البيئة الطبيعية في العراق واحسن مثال على ذلك هو عدم انتظام فيضان النهرين وعنف هذا الفيضان وعدم ملاءمة اوقاته لمواسم الزراعة • واذا قارنا نظام الانهار في العراق بنظام نهر النيل في مصر لرأينا ان الاخير يتصف بانتظام فيضانه ولا يكون في الغالب مصحوبا بالعنف والتدمير كما هو الحال في نهري العراق دجلة والفرات ولا سيما دجلة ثم ان موسم الفيضان في العراق متاخر بالنسبة الى الزراعة الشتوية ولذلك لا يستفاد من مياهه كثيرا بل ان هذه المياه كثيرا ما سببت تدمير الغلات الزراعية في حين انها تشح في موسم الزراعة الصيفية وهذا هو الذي دفع السكان الى بذل الجهود الجبارة للسيطرة على نهرين كبيرين كانا الى عهد قريب يسببان الخراب والدمار بالقرى الزراعية اثناء الفيضان ولعل هذا العنف الذي تتميز به البيئة الطبيعية في العراق هو الذي يفسر لنا العنف والصراع اللذين رافقا عملية الخلق

والتكوين المذكورة في اسطورة الخليقة البابلية بينما نلاحـظ ان احـداث الخلق في اساطير الخليقة المصرية تمت بهدوء بمجرد ارادة الالهـة وفي مصر كان اول اله خالق ملكا في نفس الوقت والفرعون اله • اما الملكية في حضارة وادي الرافدين فقد نشأت بعد تنازع الالهة فيما بينها من اجل السيادة على الكون وتم اختيار احد الالهة الحديثة ليكون ملكا عليهم فعمد كبير الالهـة بعدئذ الى خلق الانسان لعبادة الالهة وخدمتها وكان هذا الاله هو الذي يختار الملك لينوب عنه في حكم البشر • والصفة الغالبة لالهة حضارة وادي الرافدين هي القوة والبطش والتقلب فلا عجب ان تخلو اداب حضارة وادي النيل من اخبار الطوفان في حين يكون الطوفان موضوعا رئيسـيا في حضـارة وادي الرافدين • ومما يميز حضارة وادي النيل انها استقرت منذ زمن مبكر بينما ظلت حضارة وادي الرافدين متحركة كما ان الحضارة الاولى تميزت بطابع الشعور بالاطمئنان بينما كان الطابع العام لحضارة وادي الرافدين العنف والتشاؤم والتوتر وتوقع المفاجئات وتطغى عليه الناحية العملية في الحياة • ويضاف الى كل ذلك ان التكوين الطبيعي للعراق جعله اقليما مفتوحا على الخارج بينما يعد وادي النيل مقفلا تقريبا امام الغزاة فتعرض وادي الرافدين الى هجرات الاقوام الكثيرة والغزوات العنيفة واختلاط السكان واتصال الثقافـات •

* * *

المصادر والمراجع

د. احمد سوسة : فيضانات بغداد في التاريخ . القسم الاول . بغداد ١٩٦٣

د. احمد سوسة : الري والحضارة في وادي الرافدين . بغداد ١٩٦٨

د. جاسم محمد خلف : جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية والسياسية . بغـداد ١٩٦٥ .

د. خطاب العاني ونوري البرازي . جغرافية العراق . بغداد ١٩٧٩

د. سامي سعيد الاحمد . العراق القديم . الجزء الاول . بغداد ١٩٧٨
طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة . الجزء الاول . بغداد ١٩٧٣
فواد سفر : البيئة الطبيعية القديمة في العراق . مجلة سومر . المجلد الثلاثون ١٩٧٤ .
كوردن هستد : اسس جغرافية العراق الطبيعية . ترجمة الدكتور جاسم محمد خلف . بغداد ١٩٤٨ .
د. هاري ساكز . عظمة بابل . ترجمة الدكتور عامر سليمان ١٩٧٩

Braidwood, R. and Braidwood, L., Jarmo, A Village of Early Farmers in Iraq, Antiquity, No. 24, 1950.

Braidwood, R. et. al., Matarra, A Southern Variant of Hassuna Assemblage Excavated in 1948, JNES, Vol. XI, 1952.

Braidwood, R., Near Eastern Prehistory, Reprint from Science, 1955, Vol. 127, No. 3312.

Braidwood, R. and Hawe, B., Prehistoric Investigation in Iraqi Kurdistan, Chicago, 1960.

De Morghan, Memoires de la delagation en Perse I, 1900.

Garrod, D., Excavations in the Caves of Zarzi and Hazar Mard, 1930.

Jacobson, Th., "The Waters of Ur, Iraq, 1960.

Lees, G., and Falcon, N., The Geographical History of the Mesopotamian Plains, Geographical Journal, Vol. 118, 1952.

Nutzel, W., The Formation of the Arabian Gulf from 14000-3500 B.C., Sumer, Vol. XXXI, 1975.

Solecki, R., Shanidar Cave, A Palaeolithic Site in Northern Iraq. Smithsonian Institution, Annual Report, 1954, 1955.

Solecki, R., New Anthropological Discoveries at Shanidar, Northern Iraq, Science, Vol. 23, No. 8, 1961.

Solecki, R., Zawi Chemi Shanidar. A Post Pleistocene Village Site in Northern Iraq, Warsaw, 1961.

Voute, C., A Palaeolithic Find Near Razzaza (Karbala Liwa), Sumer, Vol. XIII, 1957.

الفصل الثاني

دور التنقيبات الأثرية في الكشف عن حضارة العراق القديم

د. بهنام أبو الصوف

المدير العام لآثار المنطقة الشمالية

(١)

علم الآثار بمفهومه الواسع هو دراسة ماضي الانسان ، ومخلفاته المادية والفكرية . ومهمة عالم الآثار ، او المنقب الآثاري الاساسية تنصب في البحث عن تلك المخلفات ودراستها دراسة تحليلية مستفيضة ومقارنة واستنباط حقائق ملموسة منها عن ذلك الانسان وبيئته وأنماط حياته الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والعقائدية والفنية . اي بكلمة اخرى ان هذا النوع من المعرفة يبحث في قصة الانسان على سطح الارض كما تكشف عنها مخلفاته التي تركها وراءه . وان عملية التنقيب عن الآثار هي الحلقة المركزية في مضمار البحث الآثاري وبدونها لا يمكن لدارسي ماضي الانسان (اي المؤرخين) بكل أشكاله من تدوين التاريخ .

وعالم الآثار يسعى في عمله الى تحقيق امرين اساسيين :

اولهما : الكشف عن مخلفات الماضي بافضل الاساليب العلمية واحدثها.

وثانيهما : دراسة وتحليل هذه المخلفات وتقديمها للمؤرخ مـادة خام لكتابة التاريخ .

من هنا تأتي اهمية موضوع التنقيبـات الاثارية وضرورته لسفر مـن هذا النوع كالذي بين يدي القاريء الكريم .

ارتبط التقيب عن الاثار في قطرنا ومنطقتنا العربية منذ بداياته الاولى باطماع الدول الاوربية بثروات المنطقة وموقعها الحيوي ، كما ارتبط برغبة تلك الدول لاغناء متاحفها ومجاميعها الفنية بنتاج حضارة العراق والوطـن العربي . لذا شكلت بدايته تلك ضررا جسيما اصاب ابرز مواطن الحضارة في قطرنا وبقية الاقطار العربية.فقد نقل الكثير من نتاجات حضارتنا ورموزها الفنية خلال تلك الفترة الى امهات متاحف اوربا وامريكا والدولة العثمانية . الا انه باستكمال استقلال العراق وامتلاكـه لأمر نفسه انتقلت بالتدريـج الهيمنة على شؤونه الاثارية وعمليات التنقيب الى ايدي وطنية عملت بجهد ومعاناة وصبر لتكوين مدرسة عراقية للاثار ذات مفاهيم وتقاليد ومنطلقات وطنية وقومية نجد ثمارها اليوم حيث ملأ ابناء هذه المدرسة وتلاميذها مـن العراقيين متاحف مدننا وجامعاتنـا بآثار ومخلفـات حضارة العـراق على مر العصور ، كما نجدهم يساهمون بنشاط في اغناء المكتبة الاثارية العربية بالبحوث والدراسات الاصيلة .

لهذه الاسباب مجتمعة كان لابد لهذه الموسوعة ان تبدأ بعجالة قصيرة تلقي الضوء على قصـة البحث الاثاري والتنقيب في قطرنـا منذ نشوئها في اوائل القرن الماضي على ايدي عدد مـن التجـار والمغامرين والدبلوماسيين الاجانب، الى ان تسلمتها الايدي العراقيـة الوطنية قبل منتصف هذا القرن بقليل .

(٢)

في اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر ، كانت اطماع وصراعات الدول الاستعمارية ، وبالأخص الدولتين العظميين آنذاك انكلترا وفرنسا تتركز على الهند ومنطقة الشرق الادنى ومصر التابعة للامبراطورية العثمانية ، تلك المنطقة الحساسة الغنية بمواردها وبموقعها الاستراتيجي حيث يمر عبرها الطريق القصير المؤدي للقارة الهندية • فحاول نابليون احتلال مصر الا ان اسطوله دمر من قبل نلسون في معركة النيل سنة ١٧٩٨ • وبهذا فشلت الحملة الفرنسية عسكريا في مصر ، لكنها حققت لفرنسا من ناحية اخرى نجاحا اكثر ديمومة واكبر اثرا فقد رافقت حملة نابليون الى مصر بعثة علمية تضم اختصاصات مختلفة ، كان من ابرز اعمالها دراسة وتوثيق جغرافية وآثار مصر • وكان من بين اعضائها البارزين شامپليون الذي استطاع ان يقدم للعالم مفتاحا لحل رموز الكتابة الهيروغليفية بواسطة حجر رشيد الذي عثر عليه قرب مدينة الاسكندرية اثناء تشييد مبنى لثكنة عسكرية • وكانت هذه الحجرة تحمل نصا واحدا باللغات الاغريقية والقبطية والمصرية القديمة •

وقد تمخض عن اعمال البعثة العلمية الفرنسية تلك تأسيس المعهد المصري ـ الفرنسي وهو اول معهد بحوث اجنبي يقام على الارض العربية • وبعد هذا سعت الدولتان ، انكلترا وفرنسا ، الى تحقيق مصالحهما الحيوية في المنطقة باساليب وطرق سلمية بعيدة عن التصادم المسلح • فقامتا بتعيين ممثلين دبلوماسيين لهما في امهات مدن المنطقة العربية ، وكان اختيار هؤلاء الممثلين يتم على اساس الثقافة العالية والاطلاع الواسع على حضارة الشرق وعاداته ولغاته وتاريخه • كما كانت شركة الهند الشرقية البريطانية تحتفظ لنفسها بمقيم دائم لها في البصرة منذ سنة ١٧٩٨ ، وقد عينت اول مقيم لها

في بغداد سنة ١٨٠٧ . وكان هذا شابا يبلغ من العمر ٢١ سنة ويدعى كلوديوس جيمس ريج . كان ريج هذا يتقن اللغات العربية والفارسية والتركية ، وقد بقي في منصبه في بغداد حتى وفاته بمرض الكوليرا عام ١٨٢١ . مارس ريج هوايته في دراسة تاريخ وآثار مدن العراق القديمة ، كما قام ببعض الحفريات في اشور وبابل التي اجرى بيقاياها بعض الانفاق عثر فيها على العديد من كسر الطابوق المدونة بالخط المسماري وبعض القطع الحجرية المزينة بزخارف وبقايا ضريح من الخشب . وكانت ابرز اعماله في بابل خارطته الطوبوغرافية للمدينة التاريخية التي اصبحت مرجعا مهما لمن اعقبه في التعرف على البقايا الشاخصة للمدينة .. وقبل وفاته بسنة واحدة زار ريج منطقة كردستان في شمالي العراق وبطريق عودته مر بالموصل واطلع على بقايا مدينة نينوى واستطاع الحصول على بعض قطع النحت من المرمر وعدد من الطابوق المدون بالخط المسماري . وبعد وفاته مباشرة آرسلت هذه الآثار واللقى الى المتحف البريطاني في لندن ، وكانت بهذا اول آثار اشورية تصل اوربا حتى ذلك الحين .

لم يكتف الانكليز بما كان يقدمه لهم ممثلوهم التجاريون والدبلوماسيون من معلومات عن البلاد واحوالها ، بل كانوا يرغبون في المزيد من التفاصيل الدقيقة عن جميع اجزائها ومجاريها المائية . فأمر الملك وليام الرابع بقيام بعثة مجهزة بافضل الوسائل لاجراء مسح شامل لمجرى نهري دجلة والفرات حتى مصبهما للتعرف على امكانية الملاحة فيهما للوصول الى الهند وكذلك لايجاد سوق عراقية للبضائع الانكليزية . وكانت البعثة بقيادة الكولونيل جسني ، حيث صارت تعرف ببعثة جسني . وقد استغرق عملها السنوات ١٨٣٥ ـ ١٨٣٧ ، وكان من بين اعضائها البارزين الطبيب الجراح اينسورث . وكان هذا آثارياً هاويا وخبيرا بالجيولوجيا فجمع معلومات واسعة عن طوبوغرافية واثار المناطق التي مرت بها البعثة كما دون

الكثير من الملاحظات التي فسرها في ضوء تضلعه بالتوراة واطلاعه الواسع على كتابات مؤرخي اليونان والرومان والعرب القدامى .

وكانت لكتابات ريج وبكنكهام واينسورث وغيرهم من الرحالة الاوربيين الاثر الكبير في تطلع العديد من الاوساط الاوربية وحماسها لآثار الشرق الادنى واقبالها على اقتنائها ورصد الاموال لمن يتقدم للحفر في مواطن الحضارة فيه . وقد زادت من هذا الحماس رغبة العديد من الجمعيات الدينية والشخصيات المعنية بتحقيق ما ورد بالتوراة من أقوال وحوادث واسماء ذكرت في اسفار العهد القديم . كما اهتم آخرون بالتحقق فيما ورد في كتابات المؤرخين القدامى من امثال هيرودتس وزينفون وبقية الرحالة اللاحقين .

(٣)

هذه كانت الخلفية التي ادت الى قيام المرحلة التالية من اعمال الحفر والتنقيب السريع وغير العلمي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على ايدي عدد من القناصل والهواة الذين لم تكن لهم اية معرفة سابقة بطرق التنقيب واصوله ، والتي لم تكن هي الاخرى معروفة آنذاك .

وكان اول هؤلاء المنقبين الفرنسي إميل بوتا ، عمل بوتا عضوا في القنصلية الفرنسية في مصر بضع سنوات ثم عين سنة ١٨٤٢ نائبا للقنصل الفرنسي في الموصل . وقد كلفته الجمعية الاسيوية في باريس عند تعيينه للبحث عن بقايا اشورية في تل قوينجق في مدينة نينوى العاصمة الاشورية الشهيرة. غير انه لم يستطع تحقيق نتائج مشجعة في بادىء الامر بسبب كثرة التراكمات والانقاض التي تغطي بقايا القصور والمعابد التي تضم المنحوتات والقطع الفنية التي جاء يبحث عنها . فحول اهتمامه الى خرساباد العاصمة الاشورية الاخرى الكائنة الى الشرق من نينوى ، اثر سماعه أنباء تفيد عن

ظهور منحوتات من المرمر فيها • وقد كان حظ بوتا هنا افضل من حظه في نينوى •• وقد كتب الى الجمعية الاسيوية في باريس في ٥ نيسان سنة ١٨٤٣ قائلا : (أعتقد بانني اول من اكتشف منحوتات يمكن اعتبارها من العصر الذي ازدهرت فيـه نينوى) • وبهذا ازداد دعم الجمعية الاسـيوية لبوتا للاستمرار في عمله في خرساباد ونينوى ، كما زودتـه برسـام قدير يدعى فلاندن ليعاونه في توثيق ورسم مكتشفاته • وفي عام ١٨٤٦ وصلت فرنسـا اول وجبة من المنحوتات الاشورية محملـة على ظهر باخرة حربية فرنسـية حيث استقرت في متحف اللوفر •

وأستمرت التنقيبات الفرنسية في نينوى وخرسـاباد للاعوام ١٨٥١ ــ ١٨٥٥ من قبل خليفة بوتا في الموصل نائب القنصل فكتور بلاس ، الذي كان مهندسا عماريا ايضا ، فسـاعده بذلك اختصاصـه على اعداد مخطط كامل لتفاصيل قصر سرجون الواسع في خرساباد بزقورته ومشتملاته الواسعة • استطاع بوتا وبلاس من نشر مكتشفاتهما بسرعة بفضل الدعم الحكومي الذي تلقياه ، فكان مطبوعا فخما حوى الكثير من الرسوم والصور والشروح وهو يعكس جهد المنقب والفنان والمهندس العماري سوية • وكان استقبال هذا الكتاب منقطع النظير في فرنسـا وخارجها • ولكثرة ما جاء فيه مـن حوادث وشواهد واسماء اعتبره طلاب التاريخ والفلسفة واللاهوت واساتذتهم مرجعا رئيسيا لاغنى عنه في التحقق من كثير من حوادث التوراة •

هكذا ربح اللوفر اجمل مقتنياته من نفائس النحت الاشوري كما ربحت المكتبة الاثارية الفرنسية اغنى مطبوعاتها ، وخسرت قصور ومعابد نينوى وخرساباد ما كان يزين جدرانها الطينية من روائع الفن الانساني القديم ، وتركت بقاياها انقاضا وحفرا لا تنبىء بشيء عن عظمة ماضيها ومقدرة ومهارة مشيديها وفنانيها ابناء العراق العظيم •

لم يرق للانكليز ترك الفرنسيين وحدهم ينهبون ما شـاءوا من قصور الاشوريين ومعابدهم في نينوى وخرساباد ، كما عز على المتحف البريطاني ان ينفرد اللوفر وحده بامتلاك قطع النحت المدهشة التي شغلت العديد مـن صالاته فكلف السير ستراتفورد كنينك السفير البريطاني في اسطنبول هنري اوستن لايرد بالذهاب الى الموصل وزوده ببعض المال للقيام بحفريات فـي المدن الاشورية بحثا عن المنحوتات والاعمـال الفنية البارزة . كان لايرد في شبابه يتطلع لدراسة القانون وقد بهرته قراءاته الاولى في كتاب الف ليلـة وليلة واطلاعه على كتب الرحالة الاوائل والمعاصرين له ، فألهبت حماسـه وشوقه الى الشرق . وعند فشله في ممارسة المحاماة قبل عرضا من عمـه للعمل في مزارع الشاي له في سيلان .. وبدأ رحلته مارا بتركيا والعراق . وقد وصل الموصل سنة ١٨٤٠ وهو في سن الثالثة والعشرين وقابل احـد اعضاء بعثة جسني (اينسورث) كما التقى بنائب القنصل البريطاني فيهـا كريستين رسام ، وتعرف على أخيه هرمز رسام ، الذي صار مساعدا له فيما بعد في أعمال حفرياته في نمرود ونينوى وعاونه كثيراً في نهب ما تبقى مـن منحوتاتها وارسالها بحرا الى انكلترا . ثم سافر لايرد الى بغداد وقام بالعديد من الجولات في وسط وجنوبي العراق واختلط بالقبائل القاطنـة في غربي ايران . ثم قفل راجعا الى الموصل دون الذهاب الى سـيلان ، والتقى فيها بيوتا وتعرف على اعماله ونشاطاته الاثارية ، ومنهـا سافر الـى اسطنبول حيث اعجب به السفير كنينك لاطلاعه الواسع على شؤون البلاد التي زارها واتقانه للغاتها فعينه سكرتيرا له قبل ارساله الى الموصل في تشرين الاول من عام ١٨٤٥ للبدء في تنقيباته في العاصمة الاشورية نمرود . وفي نمرود حقق لايرد نجاحا غير متوقع منذ الايام الاولى من بدء عمله فيها حيث بدأت تظهر للعيان قطع النحت الكبيرة التي كانت تزين قصور ومعابد المدينة والتي لـم تكن تبعد كثيرا عن سطح الموقع في المرتفع الرئيسي من نمرود . وارسلت

بحرا الى انكلترا اولى المكتشفات من الثيران المجنحة والاشكال الآدمية والحيوانية الاخرى • وبدأ الحماس يتصاعد في لندن لاعمال لايرد ومكتشفاته وانهالت عليه الاموال للاستزادة من الحفر وارسال المزيد من قطع النحت الاشوري لم يكن لايرد يهتم مطلقا بمعاثر الاثار التي كشف عنها ولا بمخططات الابنية والمرافق التي هدمها وازالها بحثا عن المنحوتات التي تزين اوجه جدرانها ، متبعا في ذلك اسلوب حفر الانفاق للوصول سريعا وباقل التكاليف لغايته تلك • كما لم يلتفت ايضا للتراكمات الاثرية التي تقع أسفل المباني التي نهبت منحوتاتها في نمرود والمدن الاخرى التي وصلت يده اليها • وعند نشر اعماله عن نمرود في سنة ١٨٤٩ كان يعتقد بأنها جزء من مدينة نينوى ولذلك اطلق على كتابه (نينوى وبقاياها)Nineveh and its Remains

وفي طريق عودته الى انكلترا سنة ١٨٥١ مر لايرد بقلعة تلعفر ورسم بقاياها وشاهد من فوق اسوارها العالية عشرات التلول المتناثرة على امتداد السهل جنوبا وغربا قال عنها في حينه انها بقايا المدن الاشورية المنقرضة وكم كان يتمنى خرقها بانفاق وتخريبها للتأكد من احتوائها على منحوتات اشورية يأخذها بطريقه الى لندن •

ترك لايرد وراءه مساعده هرمز رسام ليكمل استخلاص ما تبقى من منحوتات في قوينجق ، التي ركز لايرد عمله فيه في السنتين الاخيرتين قبل مغادرته العراق • كما استمر رسام يعمل في نمرود وغيرها من مواقع شمالي ووسط العراق البارزة حتى عام ١٨٨٢ • وكان رسام يتبع في عمله اسلوب الحفر الشامل في عدد من المواقع في وقت واحد حيث يضع في كل موقع مجموعة من العمال لحسابه وتجمع له الاثار المكتشفة وهو يتنقل فيما بينها ، وقد يغيب عن بعضها اشهرا ثم يعود لالتقاط بعض الملاحظات وتسلم الاثار وارسالها للمتحف البريطاني • وعمل رسام هذا كان فاتحة لظاهرة الحفريات

غير المشروعة التي عمت البلاد آنئذ بتشجيع من وكلاء المتاحف الاوربية وهواة جمع التحف في الخارج .

في عام ١٨٧٧ ظهر منافس اخر لمتاحف اوربا هو حمدي بك نجل احد رؤساء الوزارات السابقين في تركيا الذي عين اول مدير للمتحف الامبراطوري في اسطنبول . درس حمدي هذا الفنون الجميلة في باريس وعمل بعد تخرجه لفترة قصيرة في السلك الديبلوماسي قبل ان يختار لتأسيس المتحف الامبراطوري ويكون اول مدير له . وقد اختار لهذا الغرض بناية في حدائق قصر السلطان ، ولكي يؤمن له سيلاً لاينقطع من الاثار واللقى والقطع الفنية استخدم نفوذه الشخصي لاصدار اول نظام للاثار في أرجاء الامبراطورية أدى الى وصول مجاميع من اللقى الى المتحف عن طريق القسمة مع البعثات الاجنبية العاملة في الاقطار التابعة للامبراطورية وهكذا اصبح متحف الشرق في اسطنبول واحدا من اغنى متاحف العالم بالاثار من العراق ومصر وغيرها من الاقطار العربية .

(٤)

في سنة ١٨٩٨ تأسست في برلين الجمعية الالمانية الشرقية بأمر من القيصر فيلهلم الثاني . وكان من اول اعمال هذه الجمعية ارسال بعثة اثارية للتنقيب في مدينة بابل برئاسة المهندس المعماري اوبرت كولدفاى . وقد وضعت البعثة لها منذ البداية اهدافاً محددة للعمل في بابل سعت حثيثا الى تحقيقها ، ومن هذه الاهداف :

- الفحص الدقيق لجميع البقايا البنائية في المدينة .
- التأكيد على التعاقب الطبقي للتراكمات الاثرية في الموقع لاستنباط الابعاد الزمنية للادوار التاريخية التي مرت بها مدينة بابل .

– التوصل من كل هذا الى استنتاجات ونتائج تلقي الضوء على البنية الاجتماعية في المدينة .

كان عمل البعثة دقيقا وشاملا ، في حقل التنقيب والتوثيق والتسجيل والرسم وبالرغم من عدم استطاعتها تحقيق احد اهدافها الرئيسية من العمل في بابل وذلك بالتنقيب في العمق لاستظهار طبقاتها السفلى من ازمان مختلفة خاصة مدينة حمورابي ، بسبب قرب مستوى طبقة المياه الجوفية من السطح وطغيانها على جميع البقايا الكائنة اسفل بقايا بابل من زمن العصر البابلي الحديث (الكلدى) خاصة من فترة حكم اشهر ملوكها نبوخذنصر . ومع هذا فأن بعثة كولدفاي تمكنت بعملها الدقيق والصبور والطويل المدى ان تتوصل الى طريقة مبتكرة في استظهار صفوف اللبن المشيدة بها جدران غالبية مباني المدينة التاريخية بتلك الطريقة التي اصبحت مقياسا يحتذى به للعمل الدقيق في مجال التنقيب في المواقع المشيدة ابنيتها من هذه المادة الطينية وبذلك استطاع العديد من بعثات التنقيب بعدئذ وباتباع هذا الاسلوب في الحفر من التوصل الى اكتشاف مبان باكملها كانت من قبل تعتبر اكواما من النقض والطين .

كان من ابرز معاوني كولدفاى في بابل ثلاثة ، قادوا بأنفسهم بعدئذ عمليات تنقيب ناجحة في اشور والوركاء وهم : فالتر اندريه فياشور (١٩٠٣– ١٩١٤) ويوردن ونولدكه فيالوركاء (١٩١٢ ثم في ١٩٢٨ وما بعدها) .

وقد استطاع اندريه في اشور أن يفحص بقايا العاصمة الاشورية الاولى بصورة كاملة تقريبا . حيث انه بعد ان ازاح الاتربة والانقاض عن بقايا مبانيها الرئيسية في جزئها الشمالي المطل على دجلة ، قام باقتطاع خنادق متوازية على طول المدينة للتأكد من بقية محتوياتها . ثم اقتطع حفرة عميقة نزل بها عموديا لفحص اعمق طبقات الموقع حتى قاعه ، حيث اكتشف في القاع بقايا من زمن الحضارة السومرية استدلمنها علىان اشور كانتفياوائل

الالف الثالث قبل الميلاد تابعة سياسيا للجنوب • وبهذا يكون اندريه اول من مارس أسلوب فحص موقع التنقيب بالعمق باسلوب الحفر العمودي ، في تاريخ التنقيب في العراق ، وتبعه بذلك منقبو نينوى والوركاء واور وكيش بعدئذ ثم من جاء بعدهم من منقبي الاربعينيات والخمسينيات حتى الآن • كما يجب ان يعزى لاندريه ايضا فضله في تدريب الفلاحين من قرى الضفة الشرقية لدجلة المواجهة لاشور على اعمال الحفر الدقيقة واستظهار الطبقات المتعاقبة لسكنى الموقع والتعرف على مواد البناء القديم من اللبن والطين ، حيث اخذ هؤلاء العمال الاوائل في حقل الاثار في العراق يعملون بعد هذا في جميع مواقع التنقيب في قطرنا كما انتقلت خبرتهم هذه الى ابنائهم واحفادهم وصاروا يعرفون بالعمال الشرقاطيين • بالرغم من كل التقنيات والتحسينات التي ادخلها المنقبون الالمان في عملهم في العراق والتي ادت الى العناية بمواقع المدن وعمارتها القديمة بحيث اصبح اسلوبهم مثلاً يحتذى به في اعمال التنقيب التالية ، غير انهم عملوا كبقية المنقبين الاجانب السابقين او المعاصرين لهم على نقل ماكشفوا عنه من اثار فنية بارزة في بابل واشور الى برلين بعد اجراء القسمة مع المتحف الامبراطوري في الاستانة • وهكذا خرجت من العراق إثر حفرياتهم مئات الصناديق المملوءة بما كان يزين بوابة عشتار وشارع الموكب في بابل وقصر الاواوين في أشور من طابوق ملون ومزجج باشكال فنية رائعة مع عشرات الالاف من اللقى الاخرى ورقم الطين المدونة بالخط المسماري •

(٥)

كان اول المنقبين الذين استأنفوا الحفر في مواقع العراق القديمة بعد انتهاء سنوات الحرب العالمية الاولى الاربع من الانكليز الذين خدموا ضمن الوحدات العسكرية ضباطا سياسيين او ضباطا للاستخبارات • ومن هؤلاء كامبل تومبسن وليونارد وولي وهما من الذين عملوا ايضا في اجهزة المكتب

العربي في القاهرة في سنوات الحرب • بدأ كامبل تومبسن تنقيباتـه سـنة ١٩١٨ في اور واريدو على شكل اسبار سريعة لحساب المتحف البريطـاني ولفتره قصيرة فقط • اعقبه هول سنة ١٩١٩ موفدا من نفس المتحف ايضا • استطاع هول بعد عمل قصير في أور ان يحقق نجاحـا أكبر في تل العبيد ، حيث كشف فيه عن بقايا معبد سومري تزين واجهته مشاهد لانتاج الالبان مزدانة بالالوان •

وحين استقر رأي المتحف البريطاني للبدء بعمل واسع في أور وقع الاختيار على ليونارد وولي للبدء في ذلـك سنة ١٩٢٢ مشتركا مـع جامعة بنسلفانيا الامريكية • وقد دام عمل هذه البعثة المشتركة حتى سنة ١٩٣٤ ، حقق وولي خلالها الكثير من النجاحات في حقلي الكشف الاثري والنشر العلمي • فقد أثارت مكتشفاته في المقبرة الملكية ومقتنياتها من انواع الحلي والاسلحه من الذهب والاحجار الكريمة ضجة كبيرة في الاوساط الفنية والمتحفية • كما اثار اعلانه عن أكتشافه لبقايا اثار الطوفان والحي الذي سكن احـد دوره ابراهيم الخليل عليه السـلام جـدلا كبـيرا في الصحف الاوربيـة والامريكية ؛ والاوسـاط الدينية والمعنية بتاريخ العهد القديم والتوراة دام زمنا طويلا •

وكان العمل في مدينة جلجامش ، الوركاء قـد بدأ من قبل المنقبين الالمان سنة ١٩١٢ وتوقف بسبب اندلاع الحرب العـالمية الاولى • وقـد استأنفت بعثة الجمعية الالمانية الشرقية تنقيباتها في المدينة السومرية مجددا سنة ١٩٢٨ • وقد مارس منقبو الوركاء الاسلوب العلمي الدقيق والصبور في البحث عن تفاصيل ومرافق مباني الموقع بادوارها المتعاقبة والمتداخلة في كثير من الاحيان • وقد حققوا نتيجة لذلك نجاحات بارزة في حقل العمارة الاثرية اكسبت عملهم شهرة واسعة ، كما توصلوا الى نتائج هامة أدت الى التعرف على الكثير من المظاهر البنائية القديمة في قطاعي المدينة الدينيين اي ـ انا وأنو •

بعد عمله القصير في اور واريدو تحول كامبل تومبسن في سـنة ١٩٢٧ للعمل في بقايا تل قوينجق في نينوى ، والتحق بـه في سـنة ١٩٣١ ماكس ملوان الذي كان احد معاوني وولي في اور . كان الغرض من استئناف العمل في قوينجق الكشف عن المزيـد من التفاصيل في بقايا المبانـي الاشـورية التي اغفلها كل من لايرد وبوتـا في حفريـاتهم السـريعة الاولى بحثا عن المنحوتات . كما قام ملوان بـاجراء حفر عمودي نزل الى عمق ٢٧م حيث وصل قاع الموقع عند الارض البكر اسفل مستوى السهل المجاور لنهر الخوصر. كشف ملوان في حفرة الجس العميقة تلك عن بقايا لاثار وفخار من مراحل حسونة وسامراء وحلف في الطبقات ١ ـ ٢ السفلى ، تعقبهـا في الطبقتين الثالثة والرابعة بقايا من عصر الوركاء . وقد حوت الطبقة الخامسة بقايـا لمرحلة جديدة تعاصر في قسـم منها بعض مراحل عصـر فجر السـلالات السومرية ، تميزت بفخارياتها الملونة والمحززة وقد عرفت في كل مكـان وجدت فيه بعد ذلك بفخاريات نينوى الطبقة الخامسة .

في سنة ١٩٣٢ انتقل ملوان للعمل في الاربجية وهو موقع صغير يبعد قليلا الى الشرق من نينوى تغطى سطحه وسفوحه كسرات من فخاريات حلف الملونة . واراد ملوان من حفره في هذا الموقع التحقق من عائدية انـواع فخاريات حلف الملونة وتسلسل تواجدها الزمني في طبقات متعاقبة نتيجـة لتنقيبات علمية دقيقة بموقع جديد بعد ان ظهرت انواع منها ممزوجة مـع فخاريات سـامراء في أسفل حفرة الجس في قوينجـق وقبلها اكتشفت من قبل البارون ماكس فون او بنهايم بشكل عرضي في تل حلف (كوزانا) على الفرات في شمال سوريا .

وفي نفس الوقت الذي كان فيه العمل يجري في نينوى والاربجية ، كانت بعثة امريكية تابعة لجامعة بنسلفانيا يترأسها سبايزر تعمل في موقع تبة كورة الكائنة في قرية الفاضلية قرب مدينة خرسباد الاشورية حيـث كشفت

بحفرها الافقي والعمودي عن مساحات واسعة من الموقع تضم دورا سكنية ومعابد بارزة من عصر الوركاء . كما استطاعت بحفرهـا العمودي من استظهار عشرين طبقة سكنية تضم بقايا مراحل حلف والعبيد في اسفلهـا (الطبقات ٢٠ ـ ١٢) تتبعها مرحلتا الوركاء ونينوى الطبقة الخامسـة في الطبقات (١١ـ٧) ثم تأتي فوقها البقايا من الفترات التاريخية اللاحقة .

وساهمت في التنقيب الواسع في فترة مابين الحربين ايضا بعثة متكاملة من المعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو عملت لبضع سـنوات في منطقـة ديالى الى الشرق من بغداد قليلا في مواقع خفاجي واشجالي وتل اسمر وكان من ابرز اعضائها جاكبسن وفرانكفورت وسيتون لويد .

وفي احد العواصم السومرية الشـهيرة في منطقـة الغراف عملت بعثة فرنسية لعدد من السنين في مدينة تلو ترأس العمل فيها في مواسمها الاخيرة الاثاري الفرنسي المعروف اندريه بارو .

وفي كيش وجمدة نصر الى الشرق من بابل كانت تعمل في هذه الاثنـاء بعثة مشتركة من جامعة اكسفورد وهارفارد برئاسة ستيفن لانكـدن . وساهم في اعمالهم لعدة مواسم عالم الاجناس البشرية الامريكي هنري فيلد والمنقبان مكاي وواتلن .

وعملت قرب كركوك ايضا بعثة جامعة هارفارد في يورغان تبه (نوزي) برئاسة ستار .

وكان هنالك عدد آخر قليل من البعثات عملت لفترات قصيرة في بعض مواقع القطر في مرحلة مابين الحربين ايضا الا انها لم تتوصل الى نتائج كبيرة وبارزة .

بقيام الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ توقفت اعمال البعثات الاثارية الاجنبية في العراق وعاد بعضها بعد انتهـاء الحرب لاسـتئناف العمل في المواقع التقليدية السابقة كالوركاء ونفر ونمرود . كما قدمت بعثات جديدة

للبدء في تنقيبات اثرية في مواقع لم ينقب فيها سابقا . فبدأت جامعة طوكيو العمل في تلول الثلاثات قرب تلعفر برئاسة الاستاذناميو ايكامي . وارسل المعهد السمثوني في واشنطن رالف سوليكي للبحث في كهف شانيدر عن بقايا انسان العصور الحجرية . وجاء روبرت بريد وود على راس فريق من الاثاريين والمتخصصين بالجيولوجيا والبيئة والنبات والحيوان القديم للبحث في اماكن مختارة من شمالي العراق للتوصل الى البقعة النواة التي بدأت فيها الزراعة الاولى وتدجين الحيوان .

(٦)

الا ان ابرز نشاطات سني الحرب العالمية الثانية في حقل الاثار والتنقيب قامت بها دائرة الاثار العراقية . وقد كان للمرحوم ساطع الحصري مدير عام الاثار لفترة ماقبل الحرب وابانها دور بارز يجب ان يذكر باعتزاز في تطور العمل الاثاري الوطني حيث قام بمن معه من عدد محدود من موظفين عراقيين آنذاك بافتتاح اعمال التنقيب في واسط وسامراء كما بدأ حملة تأليف ونشر واسعة للتعريف بابرز المواقع والمباني العربية والاسلامية في بغداد وسامراء والاخيضر . كما عمل على ارسال البعثات العلمية للتخصص بالاثار واللغات القديمة رغبة منه بتكوين جيل وطني متخصص بهذا الحقل من المعرفة التي كانت مقتصرة على الاجانب فقط . فحصل العراق نتيجة لذلك على ابرز عالمين في حقلي تاريخ الحضارات القديمة والتنقيب هما المرحومان الاستاذان طه باقر وفؤاد سفر اللذان قادا بنجاح بعد عودتهما من الدراسة وخلال سني الحرب العالمية الثانية وما بعدها التنقيب في واسط وعقرقوف والدير وحرمل والعقير وحسونة واريدو والحضر ، كما عملا على نشر نتائج اعمالهما هذه في الداخل والخارج وبذلك وضعا الاسس العلمية الرصينة لما يمكننا ان نطلق عليه بحق ، المدرسة العراقية للاثار . كما بذلا جهدا استثنائيا لتأسيس اول معهد

لدراسة الاثار والحضارات القديمة في القطر سنة ١٩٥١ بالتعاون مع زملائهما في حقل التعليم العالي آنذاك وكان تلاميذهما الذين تخرجوا على ايديهما في هذا المعهد النواة التي انطلقت منها تشكيلات مؤسسة الاثار العراقية التي اصبحت مهامها ومسؤولياتها في حقول التنقيب والصيانة الاثارية والتراثيه تغطي القطر باكمله وقد عظمت واجباتها ومسؤولياتها بتصاعد حركة التنمية القومية في القطر في السنوات الاخيرة ، وبات لزاما عليها مواكبة هذه الحركه والقيام بعمليات تنقيب وحفاظ واسعة وشاملة في مواقع المشاريع واحواض السدود الكبرى حمرين والقادسية وصدام ٠

المراجع والمصادر

1. C. Gadd : 1936
   The Stone of Assyria.
2. S. Lioyd : 1947
   Foundation in the Dust
3. S. Lioyd : 1963
   Mounds of the Ancient Near East
4. Leonard Woolley · 1952
   Digging up the Past
5. Leonard Woolley : 1953
   Spade Work
6. S.A. Pallis : 1956
   The Antiquity of Iraq.
7. Linda Braidwood :1953
   Digging beyond the Tigres
8. C.W. Ceram (ed.) : 1966
   The World of Archaeology.
9. David and Joan Oates : 1976
   The Rise of Civilization
10. Nicholas Postgate : 1977
    The First Empires

١١ــ د. تقي الدباغ ، د. وليد الجادر ، احمد مالك الفتيان . طرق التنقيبات الاثرية . مطبعة جامعة بغداد ١٩٨٣ .

الفصل الثالث

انسان الكهوف والآلات الحجرية

المبحث الأول

إنسان الكهوف

عبد القادر حسن علي

[illegible] العام لآثار المنطقة الوسطى

ان ظهور مخلفات انسان العصر الحجري الحديث في العالم القديم سواء أكان في اوروبا أم في غيرها (عدا الشرق الادنى) كنمط حياتي متكامل للتطور كان واضحا ويشكل حدا فاصلا عن الفترات التي سبقتها كفترة العصر الحجري المتوسط ، وبذلك اصبح خطاً مميزا واعطى قدرا كافيا من الدقة للباحثين عن فترتي العصر الحجري المتوسط والعصر الحجري الحديث آنذاك .

اما في الشرق الاوسط وخاصة في العراق ـــ وهذا مايعنينا بالذات في بحثنا هذا ـــ فانه قد جرى تحول في حياة الانسان الاقتصادية التي تعتمد على الصيد وجمع الغذاء وان هذا التطور في منطقة الشـرق الاوسط مازال غير واضـح بسبب ندرة ماعثر عليه المنقبون من مخلفات ذلك الانسان في هذه المنطقة ،

ورغم الغموض الذي اكتنف تلك المرحلة المهمة من حياة الانسان فقد ظلت مثيرة لاهتمام جميع الباحثين في هذا المضمار .

لقد اعتمد الانسان في العصور الحجرية القديمة في معيشته على مصادر طبيعية لايمكن السيطرة عليها ، وفي ظل الظروف الطبيعية القاسية تمكن ذلك الانسان من العيش حيث كان في نزاع دائم مع الطبيعة في تلك البيئة البدائية .

ورغم المتاعب الكبيرة التي كانت تجابهه في البحث عن قوته فقد تم له احراز تطور تكنولوجي على قدر كبير من الاهمية ومع أن هذا التطور كان بطيئاً للغاية في العصر الحجري القديم ولكنه بالغ الاهمية ، اذ انتقل الانسان خلاله من استعمال مايحتاجه في حياته من آلات وادوات طبيعية بسيطة الى صناعة تلك الادوات والآلات التي كان جلّها من الحجر والصوان وبعض العظام ، فاصبحت آلاته تصنّع لاهداف متعددة وبطرق مختلفة وهذا يعتبر بحق تطورا في عقلية ذلك الانسان والتي تقاس بما يستعمله ويصنعه من آلات وادوات ، وان هذا التطور قد اصبح واضحا في الجزء الاخير من العصر الحجري القديم ، اذ نجد هناك دلائل تشير الى تطور حضاري ملحوظ ، حيث ازداد الاتجاه نحو تخصص اقليمي وان هذا التأقلم اتخذ في نهاية العصر الحجري مظهرا خاصا حتى في منطقتين متقاربتين مثل فلسطين والعراق اذ اصبح من الممكن تمييز صناعات العصر الحجري الحديث المنطلقة عن اصول مختلفة لفترة الجزء الاخير من العصر الحجري القديم وهي وان مرت عبر مراحل تطورية متشابهة في كلتا المنطقتين لكننا نجدها قد اتصفت في النهاية بتباين واضح .

ان من العناصر الاساسية في الدراسات الآثارية تتبع التغيرات والتطورات عبر تسلسلها الحضاري الصحيح وذلك يعتمد على نوع المواقع الآثارية المتوفرة للدراسة ، ففي صحارى الاردن وسوريا مثلا هناك العديد

من المواقع الصغيرة المكشوفة التي كانت قد سكنت من قبل الانسان لفترة قصيرة وهي غالبا ماتكون غنية وذات تأريخ يتسع ليشمل العصر الحجري بكامله ، فلولا التسلسل الزمني الذي قدمته لنا الكهوف لكان من المتعذر تحديد الصلة الرابطة بينها ، ولهذا السبب نجد المرتفعات الساحلية في فلسطين وسوريا وسلسلة جبال زاجروس المحاذية للعراق وسواحل بحر قزوين ذات كهوف واضحة المعالم وكثيرة الاستيطان وقدمت لنا تسلسلا زمنيا كاملا ، ورغم ان التواصل الزمني الذي قدمته لنا الكهوف في الشرق الادنى على جانب رائع من التكامل حيث أمكن ملاحظة النمو الحضاري كاملا بدءاً من فترة الجزء الاخير من العصر الحجري القديم والعصر الحجري الوسيط فأن معرفتنا بالاستمرارية بين هاتين الفترتين من جهة وبين تجمعات العصر الحجري الحديث من جهة اخرى مازالت بعيدة عن الدقة ، وسبب ذلك يعود الى التغير في اسلوب السكن ، فقد خرج اوائل مدجني الحيوانات وممتهني الزراعة من الكهوف في نهاية فترة مابعد العصر الحجري القديم ليستقروا على مقربة من المياه الدائمة ، ففي حالة اريحا في فلسطين (Jericho) استوطنوا بالقرب من ينبوع مياه ، وفي جرمو في العراق على ضفتي نهر صغير ، ورغم وجود حالات تتمثل بدلائل مادية تعود الى بداية العصر الحجري الحديث وجدت في كهوف مثل كهف كباره والخيام (في فلسطين) فهي غالبا ماتكون مضطربة ومختلطة بدلائل مادية تعود الى مراحل متأخرة فلا تغدو لها قيمة دلائلية كبيرة ومع ذلك فمن الممكن عن طريق الدراسة التفصيلية لمخلفات الانسان الذي عاش في تلك الكهوف تبيان الانتقال من فترة نهاية العصر الحجري القديم الى المرحلة الاستيطانية في العصر الحجري الحديث في العراق .

اثر البيئة

ويجدر بنا ان نشير هنا الى دور تأثير البيئة التي كانت سائدة في ذلك

العصر والى مدى التفاعل الحاصل بين المجتمعات وبيئاتها وسيطرتها علـى ظواهرها الطبيعية قدر الامكان سواء أكان ذلك في الشرق الادنى بشكل عام أم في العراق بشكل خاص ، حيث ان العصور الجليدية وماتتخللها من فترات الدفء في عصر (البلايستوسين) وفترانه ، هو العصر الجليدي الـذي يهم دراستنا في فترة ما قبل التاريخ حيث تأتي عهوده وفتراته مصاحبة للتحديدات الزمنية المعروفة بالعصور الحجرية وادوارها ، او مع المراحل الزمنية التـي اعتمدناهـا .

يبدأ عصر (البلايستون) قبل ٣ ــ ٢ مليـون عـام وينتهي في حدود ١٠٠٠٠ ق.م وهو عصر جيولوجي تغيّر فيه المناخ تغيرا كبيرا وهناك بعض المناطق من العالم كانت مغطاة بطبقات جليدية منها المرتفعات الاسكندنافيـة وجبال البرينس وجبال الاورال ومرتفعات من سيبريا ومعظم اواسط شمال اوربا وكذلك كندا والولايات المتحدة الامريكية ، بينما هناك مناطق اخرى من العالـم محيطـة بالخـط الجليدي وهي شـمال افريقيـا والشـرق الادنى وجنوب آسيا واجزاء من الولايات المتحدة الامريكية كانت تمتاز بعصر مطير ، ان تلك العوامل المناخية اثرت في توزيع المناطق النباتية والحيوانية والبشرية ، وفي منطقة الشرق الادنى نلاحظ انها تعكس التغييرات الجويـة الطبيعية التي طرأت على العالم في العصر الجليدي ، ونجد الاثار المناخيـة وادلتها متمثلة في مدرجات البحيرات وضفاف الانهار والوديان وفي اعالـي الجبال . وفي الكهوف نجد طبقات من الطين الاحمر اللون والرمادي تشير الى عصور طغت فيها الرطوبة بشدة . وتدل الدراسات الجيولوجية على ان المظاهر الطبيعية الجغرافية بما فيها البحار كانت على ماكانت عليه قبل العصر الجليدي ولكننا نفتقر الى دراسات متصلة عن البيئة الطبيعية لمنطقة الشرق الادنى في العصر الجليدي ماعدا تلك الدراسات المناخية والبيئة التي شملت نهاية العصر الجليدي وفترة الانتقال الىالعصر الحجري الحديث، وقد تناولت

علوم صفات الارض والحيوان والنبات ، وصاحبت هذه الابحاث دراسات آثارية قامت بها فرقة الاستاذ (بريدوود) للعراق خلال الفترة ١٩٤٧ــ١٩٥٤ ٠

كان الاعتقاد السائد لدى فريق من البيولوجيين بان منطقة الشرق الادنى شهدت تغيرا مناخيا كبيرا في الفترة بين نهاية العصر الجليدي الرابع وبداية الفترة الانتقالية (اي في نهاية مرحلة جمع الغذاء وبداية الفترة الانتقالية لانتاج القوت) ، ولكن هذا الاعتقاد قد تبدد اثر النتائج التي قدمتها حملة (بريدوود) حيث توصلت الى ان المناخ لم يتغير بشكل كبير جدا منذ ١٠٫٠٠٠ عام قبل الميلاد وللآن وانما كان هناك تغيير اي من مناخ رطب دافيء الى مناخ جاف حار خلال الفترة المذكورة آنفا ٠

وبقدر مايتعلق الامر بوادي الرافدين فقد اسهمت الخصائص المميزة للبيئات الطبيعية لوادي الرافدين في عمليات التطور والخلق الحضاري ، اذ ان لكل بيئة خصائص مؤثرة في نوعية التراث الثقافي الذي نشأ في ظلها ، فالبيئة الجغرافية ذات العطاء الوفير تسهم في تسهيل انشطة المجتمع الاقتصادية والاجتماعية خلال تكييفه لها ٠

وعندها يصّعد مجتمع من تفاعله مع بيئته وان كانت اقل عطاء من غيرها، انه يصبح بامكان المجتمع التحكم فيها اكثر ، وجعل هذه البيئة خاضعة لسيطرته وعندما تصبح تلك البيئة مجالا لعمليات التغيير الاجتماعي مثل غيرها وهذا مايمكن الوقوف عليه من خلال عرضنا للبيئة الطبيعية لمنطقة الكهوف حيث طبيعتها وخصائصها ٠

اثر البيئة الطبيعية للكهوف

تشمل المنطقة الجبلية الاطراف الشمالية والشمالية الشرقية من القطر ويتراوح ارتفاعها بين ٣٠٠٠ ــ ٧٠٠٠ قدما وتزداد ارتفاعاتها كلما اقتربنا من

الحدود الشمالية والشرقية ويتخلل هذه المنطقة العديد من الهضاب والسهول. وتمتاز بكثرة ينابيع المياه فيها ، فقد حدد جيولوجيو بعثة (بريد وود). تأثيرات واضحة لتغيير المناخ في هذه المنطقة خلال الترسبات الجليدية للزحف الجليدي الرابع (ڤيرم) وذلك عند اسفل الوديان الرئيسية لجبال زاجروس ، وقد حددت ثغرات او عدم استيطان في مواقع من الشرق الادنى تشير الى امتداد الحد الاقصى للزحف الجليدي الرابع ، ففي كهف شانيدر مثلا حددت ثغرتان تقعان ضمن اعلى ماوصل اليه الزحف الجليدي وقد رافقها اقصى انخفاض لدرجة الحرارة وهذه التغيرات المناخية قد اثرت على النباتات والحيوانات ودفعت انسان العصر الحجري القديم في هذه المنطقة للبحث عن مستوطنات . وان الدراسات الجيولوجية والطبيعية والآثارية قد حددت الظواهر المناخية في هذه المنطقة وامكانية تكيّف المجتمعات للبيئات الطبيعية، حيث تشير الدراسات الى ان المناخ لم يتغير بشكل كبير منذ (١٠ر٠٠٠ ق٠م). وللآن كما اسلفنا سابقا اذ ان المنطقة تمتاز بامطارها الغزيرة التي تصل الى معدل ٤٠ بوصة في فصل الشتاء والخريف ، وهذه البيئة الغنية قد ساعدت على قيام أشجار الفاكهة وانتشار الحبوب في السهول والوديان وكذلك نمو الغابات واشجار البلوط وغيره على سفوح الجبال وتكاثر الحشائش والنباتات الطبيعية الاخرى ، وغير ذلك من مستلزمات العيش ، وقد اتخذ الانسان بين هذه الجبال العديد من الكهوف خير مأوى التجأ اليه منذ القدم (مرحلة جمع القوت) ، ثم طوّر انسان الكهوف حياته فاخذ يستغل الارض وذلك بمزاولته للزراعة وتدجين الحيوانات ليقتات على لحومها ويتخذ جلودها ملابس تقيه برد الطبيعة في هذه المرتفعات . ولكن ذلك دفعه تدريجيا لترك حياة الكهوف واللجوء الى المستوطنات المكشوفة التي تميز مرحلة العصر الحجري الحديث .

اقدم عصور ما قبل التاريخ

يمكننا الفول بان عصور ماقبل التأريخ هي تلك العصور التي سبقت معرفة الانسان للكتابة ، والعصور الحجرية القديمة قد اخذت الجزء الكبير من عمر المجتمع البشري ، ولكن بالرغم من ذلك فان المادة العلمية المتوفرة لدينا ضئيلة اذا ماقيست بالنسبة الى هذا الردح الطويل من الزمن وليست لدينا صورة متكاملة عن تلك المسيرة بتعاقب زمني متواصل ودقيق وانما هناك كثير من الفراغات في هذه الصورة العامة ، وكل ماتبقى لدينا من عصور ماقبل التاريخ ماهو الا بعض ادوات من الحجر اكتشفت صدفة ، ولذا سمينا هذه العصور بالعصور الحجرية حيث ان الانسان اقتصر استعماله على الحجارة بالدرجة الاولى اضافة الى العظام حيث لم تكن المعادن معروفة آنذاك، وقد قسمت هذه العصور الى دورين اعتمادا على نمط العيش واساليبه ، وكذلك صناعة الآلات والادوات (تكنولوجية الانسان آنذاك) وهذان الدوران هما :

أ ـ العصر الحجري القديم (Palaeolithic)

ب ـ العصر الحجري الحديث (Neolithic)

والعصر الحجري القديم أمتاز بان الانسان آنذاك كان يجمع قوته ولم ينتجه بيده ولم يكن ليعرف الزراعة بعد ولا تدجين الحيوانات ، فكان جلّ اعتماده على النباتات البرية والحشائش ويصطاد الحيوان بآلات بدائية ساذجة محدودة ، لذا سميّ بمرحلة جمع القوت .

اما في العصر الحجري الحديث فقد تبدلت الحياة الاقتصادية تبدلا جوهريا حيث اصبح الانسان مزارعا ومربيا للحيوان وصانعا للفخار ومشيدا بدائيا لمسكنه ومخترعا لعدة صيده (من سهام ونبال) فسمي بمرحلة انتاج

القوت • وان أنسان العصر الحجري القديم قد التجأ الى الكهوف والمآوى الصخرية ليحتمي بها من قسوة الطبيعة ، وقد استعمل ذلك الانسان الاحجار الطبيعية اولا ثم اخذ يصنع الادوات الساذجة • ومن بعده تنوعت تلك الادوات البسيطة لذا قسم هذا العصر الطويل الذي استمر ردحا طويلا من عمر الانسان الى ادوار ومراحل اعتمادا على ماقام به من صنع ادواته وآلاته • ولعل من الاشياء المهمة في هذا العصر هو اكتشاف الانسان للنار وكيفية اضرامها حيث استفاد منها في التدفئة والطبخ والحماية من الحيوانات التي كانت من ألد أعدائه في صراعه مع الطبيعة ، ثم ان النار كانت عاملا محفزا على نشوء الاجتماع الانساني حيث كان يجتمع حولها الافراد والعائلات ، ولعل هذا ساعد ايضا على تحسن لغة الانسان البدائية البسيطة ، حيث ان اللغة هي بحق ابرز موهبة واهم خاصية مميزة للجنس البشري وتعد خير وسيلة لنقل الخبرات والمعلومات عبر الاجيال ، وبالنسبة لمعرفة لغة انسان الكهوف التي كان يتفاهم بها ، فانه من الصعوبة بمكان على دارسي ما قبل التاريخ المدون معرفة لغات مجتمعات تلك الحقبة الزمنية الطويلة من خلال سجل الحفائر الاثرية لما قبل ظهور الكتابة ولكن يمكننا الاعتماد على مقياس مادي متميز وهذا المقياس يتمثل بقدرة الانسان على صناعة الادوات والآلات ، وهناك فرق بين استعمال الادوات وصناعتها فالانسان الذي يستعمل مواد طبيعية لها شكل خاص لتفي بحاجاته يختلف حتما عن الانسان الذي يصنع من موارد طبيعية اولية ادوات وفق نمط خاص ولاغراض معينة لتلبية حاجاته المتعددة ، اذ لابد ان يكون هذا الانسان المتطور يعرف لغة ما ويتكلم ليتفاهم بها مع جماعته خلال صنع الآلات والادوات •

كان الانسان في تلك البيئة القاسية سيدا لها بسبب ما زودته به الطبيعة من دماغ وفكر وقدرة كلامية ويدين ماهرتين ••• وغيرها من الصفات التي أهلته لأن يكون الصانع الوحيد بين تلك الكائنات المحيطة به •

لقد عاشت في الدور الاول من العصر الحجري القديم اجناس من البشر انقرض معظمها وعثر على بعض هياكل عظمية في مختلف بقاع الارض مثل جاوة ، ونيادرتال في المانيا وفي فلسطين ، وصفات هذه الاجناس الجسدية تدل على انها لانمت الى نوع الانسان الحاضر بصلة ، لذا سمي هذا الدور من العصر الحجري القديم بعصر الانسان البائد ، وقد ظهرت انواع اخرى من جنس الانسان (Homo) وهي تصنع ادوات الحجر ، واشهر هذه الانواع :

اولا ــ انسان بكين قبل نصف مليون سنة وقد وجدت مع بقايا هذا الانسان ادوات حجر من صنعه ٠

ثانيا ــ انسان جاوة ، اي الانسان القردي المنتصب ، ولم يجد الباحثون مع هذا النوع من الانسان اية ادوات ٠

ثالثا ــ انسان نيادرتال ، سمي نسبة الى موضع في المانيا قرب (دسلدورف) وقد وجدت نماذج منه كثيرة في بقاع اخرى من العالم ، ويرجع تاريخه الى العصر الجليدي حوالي ٤٥٠٫٠٠٠ ــ ١٠٠٫٠٠٠ ٠

رابعا ــ انسان فلسطين ، وقد وجد في احد كهوف جبل الكرمل ، وقد عثرت الفرق العاملة في العراق في كهف شانيدر على هيكل من هذا النوع ، ولكنه وجد مع آلات وادوات من الدور المستيري(*) ٠

اما في المرحلة الثانية من العصر الحجري القديم فقد تقدم الانسان في جسمه وعقله ولا سيما في الآلات التي صنعها من الحجارة وقد حسّن هذا

(*) قسم العصر الحجري القديم الى قسمين ، يشتمل القسم الأسفل منه على الدور الشيلي (ويسمى الآن الابفيلي) والدور الآشولي ، والدور المستيري ٠ ويشتمل القسم الأعلى منه على الدور الاورغينشي ، والدور السلوتري ، والدور المكدليني ٠

الانسان الحديث ـ الذي هو جد الانسان الحالي ـ صنع آلاته واصناف عدته من الآلات الاخرى وصنع بعضها من العظام كالابر والمثاقب وبعضها من الخشب كمقابض الفؤوس وبالاضافة الى ذلك فقد كان هذا الانسان فناناً اذ تعلم الرسم والنحت ، وقد وجد هذا الفن الفطري على جدران كهوفه التي التجأ اليها فقد وجدت صور ورسوم ملونة تعد على جانب كبير من دقة التعبير والحيوية بالنسبة لذلك الانسان البدائي واغلبها يمثل الحيوانات التي كان الانسان يصطادها لأكلها لانه مدفوع في فنه بدافع السحر ، اذ اعتقد انه برسمه لهذه الحيوانات على جدران الكهف الذي يعيش فيه يتمكن من السيطرة عليها وهي حيّة . وبذلك نشأت عند انسان الكهوف هذا اولى بذور الدين على هيئة اعتقادات وأعمال سحر بدائية وكان هذا هو الدافع الى عمل الرسوم والنقوش في داخل الكهوف ، كذلك ظهرت بداية هذه الاعتقادات والتقاليد البدائية في طريقة دفن الموتى .

وقد وجدت آثار العصر الحجري القديم بجميع ادواره في بقاع مختلفة من العالم لاسيما في نصف الكرة الشمالي ووجدت في الشرق الادنى في مصر وفلسطين وشمال افريقيا وفي سورية ، وكذلك وجدت اثار العصر الحجري القديم في القسم الشمالي من العراق كما يتجلى ذلك في كهفين قرب السليمانية يسميان كهف (زرزى) واقدم دور فيه الدور الاورغنيشي وكهف (هزارمرد) ووجدت فيه آثار من العصر الحجري القديم ، وفي (مستوطن بردا بالكه) قرب جمجمال ولكن آثار العصر الحجري القديم بصورة عامة تعتبر ضئيلة نسبة الى اقطار الشرق الادنى الاخرى ورغم ذلك فقد اظهرت التحريات التي قامت بها مديرية الاثار آنذاك ، وبعض المعاهد الامريكية في القسم الشمالي من العراق مراحل مهمة من تاريخ الانسان في العصور الحجرية القديمة والحديثة ، ففي (بردا بالكه) وجدت بقايا الدور الشيلي وربما الآشولي

ايضا ، وفي كهف (شانيدر) وجدت آثار الدور المستيري الشبيه بما وجد في كهف (هزارمرد) كما وجدت في موقع (بالي كورة) آثـار من نوع ادوات العصر الحجري الوسيط .

الكهـــف

تمثلت مواقع حضارة العصر الحجري القديم الا على واضحة في شمال العراق في كهوف شانيدر وزرزي وهزارمرد كما بينا سابقا وتتمثل في هـذه المواقع الانفة الذكر الحضارات الليفالوزايه والموستيرية بشكل واضح .

لقد تضافرت العوامل الطبيعية على تكوين الكهوف والملاجىء الصخرية واستفاد الانسان من وجودها الطبيعي بالالتجاء اليها لحماية نفسه من العدو ومن قسوة البيئة الطبيعية ولاسيما في العصور الحجرية القديمة ، فالكهف سكن طبيعي ومأوى حيث لاتوجد فيه جدران او اي شكل من اشكال المباني بل يرى فيه الباحث الاثري طبقات متعاقبة لانواع مختلفة من التربة تجمع كل منها بطرق جيولوجية في فترة طويلة جدا من الزمن وفي هذه التربة يعثر على جميع المواد التي استعملها سكان الكهف او دفنوها في اوقات مختلفة وبقيت سالمة تحت تأثير الاحوال الطبيعية المحلية ، وان الطبقة الواحدة التي تتميـز بنوع خاص من التربة تبلغ احيانا نصف المتر في سمكها ، وكذلك نلاحـظ التغيرات في المواد الاثرية وبقايا العظام .

شـــانيدر

يقع كهف شانيدر في وادي شانيدر حوالي ٢٫٢٠٠ قدم فـوق سطح البحر في جبال برادوست حيث يصب نهر الزاب الكبير على بعد ١ ½ ميل من الكهف الذي يقع ضمن محافظة اربيل . وتعتبر منطقة شانيدر من المناطق المشهورة بكثرة الكهوف التـي كانت ملاجىء للتجمعات السكانية خـلال

عصور ما قبل التاريخ في شمالي العراق ، وفي كهف شانيدر وهو الكهف الشهير الذي وجدت فيه بقايا انسان النيادرتال ، تم العثور على بقايا أربع حضارات متدرجة التطور واقدم هذه الحضارات يعود الى نهايات العصر الحجري القديم الادنى وبدايات العصر الحجري القديم الاوسط وصولا الى فترة العصر الحجري القديم الاعلى ، والفترة الاخيرة تميزت بصناعة محلية خاصة يسميها الاستاذ سوليكي وهو الذي قاد أعمال التنقيب في شانيدر لعدة مواسم ، بالحضارة البرادوستية نسبة الى جبال برادوست التي يقع فيها كهف شانيدر ، وكذلك اكتشفت صناعات مماثلة في كهوف اخرى في شمالي العراق ومنها كهف زرزى (السليمانية) وكهف بالى كوره شمال جمجمال وكهف كيوانيان في منطقة راوندوز •

ولموقع كهف شانيدر اهمية خاصة من الناحية الآثارية والجيولوجية، فمنطقة (راوندوز) التي يقع فيها الكهف عثر فيها على خمسة عشر كهفا سكنه انسان العصر الحجري القديم والاوسط وهذه المنطقة تقع في الشمال الغربي من جبال زاكروس وعلى ارتفاع ٧٢٢م • وفتحة كهف شانيدر تقدر بحوالي ٢٥ م وارتفاعها ٨ م وعمق الكهف ٤٠ م ويضم الكهف اربع طبقات جيولوجية ، وهذه الكهوف كانت ملائمة لمعيشة التجمعات السكانية ، ولقد عثر في كهف شانيدر على مجموعة من الآلات الحجرية الاورغنيشية وهي قريبة من النصال التي عثر عليها في مواقع اخرى من سورية وتركيا ومواقع اخرى من العالم • '

لقد بدأ الاستاذ سوليكي تنقيباته في كهف شانيدر بفتح خندق بلغت مساحته ١٠×٢½ قدما وخندق آخر بلغ طوله ٤٣ قدما وعرضه قدمين وعمقه ٦ اقدام في بعض المناطق •

وفي الموسم الاول تمكنت البعثة من تحديد معالم طبيعة التربة واستظهار

الرماد الذي وجدت فيه آلات عديدة من الصوان وقد اعتمدت البعثة طريقة المربعات المتشابكة ، كذلك استخدمت طريقة تفجير بعض الاركان داخل الكهف لازالة كتل الصخور وخاصة في الطبقة الثالثة من اصل اربع طبقات ، وفي الاقسام السفلية من الطبقة (A) في كهف شانيدر تم اكتشاف صناعة متطورة للادوات العظمية فقد عثر على خمس قطع مصنوعة من عظام حيوانات لبونة استعملت كمثاقب ومخارز ونتيجة اختبارات عالم متخصص في المتحف الطبيعي الامريكي فقد حدد نوع الحيوانات من بقاياها في هذه الطبقة (A) والطبقات الاخرى وعلى عمق ٢٢ قدما من سطح الكهف ومنها الثعلب والخراف والماعز .

وفي الطبقة (B_1) تبين من اختبار المواد العضوية بطريقة كاربون (١٤) الاشعاعي ان آثارها تعود الى سنة (١٢٠٠٠ ± ٤٠٠ ق.م)وبموجب اختبار آخر الى سنة (١٥٫٤٦٠ ق.م) ورغم اختلاط اللقى من الطبقة (A) والطبقة (B) في شانيدر فقد امكن تمييز هذه اللقى وخاصة الآلات الحجرية الدقيقة حيث تم العثور على نماذج في الاجزاء العليا من الطبقة (A) اضافة الى الآلات الصوانية وقطع الشظايا امام الكهوف والتي امتازت بصغر حجمها ومنها شظايا تحتوي على النصال والسهام المدببة والمثاقب كما تم العثور على مجموعة من الشظايا والنصال في الطبقتين (B ، C) اضافة الى مجموعة من القاشطات مع نموذج من الآلات الموستيرية كالتي وجدتها المنقبة كارود في كهف زرزى عام ١٩٣٠ ولوحظ تشابه قوي بينها . هذا بالنسبة للانسان الذي عاش في كهوف العراق ولاسيما كهف شانيدر بالذات والذي يعتبر نموذجا للكهوف التي نحن بصدد دراستها وكان ساكنوه من نوع انسان النيادرتال .

يمثل انسان النيادرتال المرحلة الثالثة في التطور البشري وقد عثر عليه لاول مرة في احد كهوف وادي نيادرتال بالقرب من مدينة دسلدورف في شمال المانيا ولذلك سمي بانسان نيادرتال ، ويمتاز هذا الانسان بأنه قصير القامة ويزيد طوله قليلا عن خمسة اقدام ، وضخم البنية وجمجمته طويلة ومنخفضة وغليظة العظام وحجم دماغه ١٦٠٠ سم٣ وهذا الحجم يزيد على معدل حجم دماغ الانسان الحديث ، وحجاج عينيه بارزة وضخمة ، ومحاجرها واسعة ومدورة ووجهه طويل ومندفع الى الأمام وجبهته متقهقرة ، وفكه الاسفل قوي ومتراجع ولا أثر لوجود الحنك لديه ، وفي سنة ١٩٠٨ وجدت بالقرب من موستير بمقاطعة الدوردون بفرنسا جمجمة وهيكل عظمي كامل لانسان مصحوبة بآلات من حجر الصوان من نوع الشظايا ولهذا السبب اقترنت الحضارة الموستيرية بهذا النوع من الانسان وتوالي بعد ذلك اكتشاف متحجرات انسان النيادرتال في جهات عديدة من العالم .

اما في مواقع الشرق الادنى ومنها السواحل الشرقية للبحر المتوسط حيث تقع فلسطين فقد عثر في عدد من الكهوف والمغارات على العديد من الهياكل العظمية لهذا النوع من الانسان وتوجد بعض الاختلافات في التفاصيل بين موقع وآخر ، كذلك وجدت متحجرات وبقايا انسان نيادرتال في جهات كثيرة من العالم القديم ، وقد عثر على هياكل عظمية كاملة للذكور والاناث والاطفال وهؤلاء جميعا ينتمون الى نوع بشري واحد ، والاختلاف الوحيد بينهم هو بالسلالة داخل النوع الواحد .

اما من ناحية الفرق بين انسان نيادرتال والانسان العاقل بالنسبة لحجم جمجمة انسان نيادرتال الكبيرة وعظامها الغليظة وحجاج العينين المتصلة الممتدة فوق فجوة العين التي تكون مدورة وواسعة والجبهة متراجعة وسطح الرأس منخفضاً ومؤخرة الجمجمة مستديرة والرأس منحنيا الى الامام قليلاً ، ولعل

ذلك بسبب اتصال فقرات الرقبة بقاعدة الجمجمة اتصالا منحرفا عـن المركز فبذلك لا يكون الرأس عموديا ثابتا، والذقن يتقهقر قليلا والفك العلوي ضخم وبارز وسقفه واسع وذلك يدل على سعة الفم وكبر حجم الانسان والمرتبـة بشكل حدوة الفرس ، اما عظام الاطراف فهي ضخمة والفخذ مقوس والساق قصيرة واذا اردنا مقارنة الفخذ والسلسلة الفقرية فهي مقوسة قليلا وتشـبه الى حد ما السلسلة الفقرية لدى القردة العليا ، وبالنسبة لطوله فقامته اقصر من الانسان العاقل ويتراوح طولها بين ١٥٨ــ١٦٣ سم ، وحجم الدماغ فـي السلالات المبكرة بين ١٤٥٠ سم٣ للذكور ١١٣٠ سم٣ للانـاث ، امـا فـي السلالات المتطورة فحجمه ١٦٤٠سم٣ للذكور و ١٣٢٥سم٣ للاناث، ولكن دماغ انسان نيادرتال اقل نموا وتعقدا من دماغ الانسان العاقـل . امـا بالنسبة لسلالات انسان نيادرتال فنقسمها الى مجموعتين ، مجموعة مبكرة، ومجموعة متطورة والمجموعة الاولى (مبكرة) عاشت قبل زحف الجليد (ڤيرم) الاول وذلك في الفترة الدافئة بين زحف (رسي) وزحف (ڤيرم) فوجدت معهـا آلات آشولية ، وسلالات هذه المجموعة يكون تخصصها اقل في صفاتهـا ، وعثر على متحجرات في وسط وشرق اوربا ، اما المجموعة الثانية فان سلالاتها المتطورة تعود الى فترة جليد (ڤيرم) الاول او الفترة التالية لها ، وعثر على متحجراتها في بعض اقطار اوربا وفي العراق ولبنان وفلسطين وليبيا ، وصفاتها تدل على التخصص ، يتراوح حجم دماغ الذكور مابين (١٥٢٥ ــ ١٦٤٠ سم٣) اما حجم دماغ الاناث فهو اقل من حجم دماغ الذكور بمقدار ٢٠٠ سم٣ ، والجمجمة عريضة ومنخفضة السطح ومستديرة المؤخـرة وجبهتها منحدرة ومحاجر عيونها واسعة وفجوة الانف واسعة ايضا .

يرى الانثروبولوجيون ان الاجناس البشرية الحديثة هي ليست من نوع نيادرتال ، وقد يكون نيادرتال قد تطور الى نوع آخر فتطورت عنه الاجناس البشرية الحديثة فيما بعد ، وربما انحرف هذا التطـور في أواخـر عصـر

البلايستوسين او انقرض بدون ان يخلف لنا اثرا وراثيا بين البشر الذين يعيشون في يومنا هذا .

انسان شانيدر

اشرنا سابقا الى ان البعثة التي نقبت في كهف شانيدر برئاسة رالف سوليكي عثرت على هيكلين عظميين لانسان نيادرتال يعودان الى شخصين بالغين ، ولما كان كهف شانيدر قد عرف بهذا الاكتشاف فقد اصبح من المواقع المهمة المعروفة في العالم، والتي سكنها الانسان في العصور الحجرية الاولى خصوصا وان العراق من المناطق التي استمرت فيها السكنى البشرية في حقبة طويلة منذ عصور ماقبل التاريخ .

وقد عثر على هذين الهيكلين في الطبقة الموستيرية وهي طبقة (D) ، وعند القائنا نظرة اولى تبين لنا انهما من نوع نيادرتال الكلاسيكي ، وهنا سنطلق عليهما الهيكل رقم (١) والهيكل رقم (٢) حسب اكتشافهما، عثر على الهيكل رقم (١) في اعلى الطبقة (D) في القسم الشرقي من موقع الحفريات تحت طبقة خفيفة من الحجارة ربما تكون منهارة من سقف الكهف بفعل هزة ارضية ، ويعين تاريخ هذا الهيكل بأكثر من ٣٤٫٠٠٠ سنة وذلك حسب تحليل كاربون ١٤ الاشعاعي وبوسعنا ان نقول انه قد يرجع الى ابعد من هذا التاريخ ولعله يعود الى مابين ٥٠٫٠٠٠ ـــ ٤٥٫٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وجد هذا الهيكل مستلقيا على ظهره محفوظا في التربة ، بعض عظامه محطمة ولاسيما عظام الساق والصدر ، ووضعه باتجاه الشرق الى الغرب والجمجمة تقع في الاتجاه الغربي وقد عثر حول الهيكل العظمي الآنف الذكر على بقايا طبقة سكنى تعتبر دليلا واضحا على وجود سكنى حين وقوع كارثة انهيار سقف

الكهف ، وكانت التربة هنالك بلون اسمر يحتوي على قطع صغيرة من الفحم واثار رماد واستفيد من هذه المواد العضوية لاجل التحليل بطريقة كاربون ١٤ الاشعاعي لتعيين الزمن الذي ترجع اليه هذه المواد ، كذلك اخذت من مختلف المناطق المحيطة بالبقايا العظمية نماذج من التربة لاجل الفحص وتعيين غبـار الطلع فيها ، وقد حفظت عظام هذه الهياكل حفظا جيداً بطريقة غير اعتيادية •

اما الاسنان والفكان اللذان يعتبران من اهم الاقسام في بقايا الانسان القديم ، فكانت محفوظة حفظا جيدا ، وقد شوهدت آثار اندثار في جميـع سطوح الاسـنان •

اما بالنسبة للهيكل العظمي رقم (٢) فقد عثر عليه على عمق ٧٫٢ م في اسفل الطبقة (D) وصاحبه هو الاخر ضحية كارثة ، فقد اصيب الهيكـل بضرر من جراء تساقط الصخر المنهار من سقف الكهف ، وقد عثر عليه اثناء عمليات تنظيف الحفيرة •

وموضعه تحت طبقة سميكة من الترسبات لذلك لم يكن بالامكان الا رفع الجمجمة التي كانت ظاهرة للعيان ومهشمة تهشما بالغا • اما بقية الهياكل فكانت ممددة تحت احجار ثقيلة وتاريخ الهيكل العظمي رقم (٢) اقدم بكثير من تاريخ الهيكل رقم (١) نظرا الى عمق الطبقة التي وجد فيها وربما يعود الهيكل رقم (٢) بتحفظ الى ما قبل ٦٠٫٠٠٠ سنة ، ولا يمكن تقدير اهمية هذه المكتشفات تقديرا كليا الا بعد دراسة وافية من قبل الانثروبولوجيين •

ان استمرار البحث في بقايا أنسان الطبقة (D) من كهف شانيدر قـد زودنا بتفاصيل عن نماذج فردية متحجرة ومقارنات عن تكوينها مع بقايـا بشرية من فترة البلايستوسين العليا • ومن مقارنات هذه الهياكل العظميـة الناقصة والمبتورة الاطراف ظهرت لنا صورة لانسان شانيدر المتحجرة ، ومـا

هي الا نموذج لانســان ماقبل التاريــخ ، وهنا نوجز بعض المعالم المهمــة لتشريح هذا الانسان من ناحية البيئة بالنسبة لتركيب جسم الانسان لعصــر البلايستوسين الاعلى ، وكذلك سوف نبحث في المضمونات العرقية والسلوكية لانسان النيادرتال في كهف شانيدر •

ان البقايا الانسانية المتحجرة من الطبقة (D) لكهف شانيدر هي لاثنين من النماذج غير الكاملة والتي يجب ان تؤخذ بنظر الاعتبار كلا على حدة ومعا بنفس الوقت • فهما يمثلان سكان شانيدر خــلال حقبتين زمنيتين ســكن خلالهما الكهف ، احداهما حوالي منتصف الفترة الموستيرية والاخرى فــي نهاية الفترة الطويلة التي لجأ فيها الى الكهف صانعو منجزات العصر الحجري القديــم الاوســط •

ان اول النماذج غير الكاملة واقدمها من الناحية الجيولوجية ، هــي اكبرها ، كما انها تتضمن مجموعة من الهياكل العظمية المجزآة من مجاميــع سكانية كبيرة وتتضمن هيكلين ذكريين في اكثر احتمال هما (شانيدر ٢ و٤) وهيكلين انثويين في اكبر احتمــال هما (شانيدر ٦ و ٨) وطفلين لــم يكن تحديد جنسهما ممكنا هما (شانيدر ٧ و ٩) واحد هــذه الهياكــل وهــو (شانيدر ٤) كان لشخص بالغ كبير في حين ان اثنين من الاشخاص الآخرين في الاقل (شانيدر ٢ و ٦) كانا بالغين صغيرين في العمر نسبيا ، اما الطفلان فقد كانا دون السنة من العمر ولم يكن بالامكان تحديد عمر هيكل (شانيدر ٨) ولكنه في الارجح اقرب عمراً الى (شانيدر ٢ و ٦) منه الى (شانيدر ٤) •

اما النموذج الاخر وهو الاحدث والاصغر فيضم مجموعة سكانية اكثر تجانسا كما ان الاشخاص الثلاثة (شانيدر ١ و ٣ و ٥) كانوا كبار الســن عند وفاتهم وعلى الارجح كانوا من الذكور •

ان القيمة العلمية التاريخية للبقايا البشرية المتحجرة لانسان شانيدر الموستيري تكمن في موقعها الجغرافي المقارب لبقية المتحجرات البشرية لفترة البلايستوسين العليا ولتوزعها عبر الزمن وعددها وتنوعها وكمالها وترابط العظام في اجزاء الهياكل • وبفضل كل هذه الجوانب فان بقايا هياكل شانيدر تساهم جديا في فهمنا للتطور الذي جرى لانسان فترة البلايستوسين العليا • وان عينات الشانيدر تعطينا معلومات كانت غامضة في السابق فيما يخص جوانب من تراكيب انسان النيادرتال ، لو اخذنا بنظر الاعتبار طبيعة بقايا النيادرتال الاخرى في الشرق الادنى واوربا •

ان نماذج شانيدر هي المجموعة الوحيدة لبقايا بشر بالغين كاملة بصورة معقولة وبقايا بشرية من اجزاء غير بالغة ولكنها مترابطة وجدت في غرب آسيا في الشرق الادنى •

ان بقايا انسان الشانيدر من الطبقة (D) مهمة ايضا لانها تعطي لمحات عن التكوينات البشرية في فترتين زمنيتين في منتصف العصر الحجري القديم وفي موقع واحد • فان العصر الجيولوجي المحدد للنموذجين من انسان شانيدر في منتصف العصر الحجري القديم لم يعرف بعد ومع ذلك انقضت بضعة آلاف من السنين وربما بضعة عشرات الآلاف بين فترة شانيدر ٢ و ٤ و ٦ و ٧ و ٨ و ٩ وبين فترة شانيدر ا و ٣ و ٥ وعليه فأن كهف شانيدر هو الموقع الوحيد في الشرق الادنى وربما الوحيد في العالم القديم حيث توجد على الاقل مجموعتان شبه كاملتين من المتحجرات البشرية الموستيرية المترابطة تفرق العلاقات الزمنية بينهما او على الاقل على صعيد نسبي ، وعليه فبالامكان دراسة الاتجاهات عبر الزمن آخذين بنظر الاعتبار عددا من المركبات التكوينية لنموذج شانيدر •

وهناك سبب آخر لاهمية نموذج شانيدر الا وهو حجمه وتمثيله لمناطق تكوينية فيها ، لكن الهياكل المجزأة التسعة لا يوجد لنموذج شانيدر مثيل بين مجموعات الموقع الواحد من الهياكل البشرية التاريخية المجزأة الا نماذج من La Ferrassie التي تحتوي على ثمانية اشخاص ببقايا مترابطة (هايم ١٩٧٦) ، وهناك نماذج اخرى اكتشفت في مواقع عديدة في اوربا تحمل الصفات الآنفة الذكر .

الفترة الانتقالية

ان المرحلة الانتقالية من نهاية مرحلة جمع الغذاء وسكنى الانسان في الكهوف والمآوي الصخرية الى مرحلة انتاج الغذاء او الى المستوطنات المكشوفة لتعتبر فترة انتقالية مهمة وبداية لاعظم تغيير اجتماعي في تاريخ البشرية وهي قفزة تطورية نوعية ، تقتضينا ان نقف عندها لبعض الوقت ، لكي نعرف كيف تحقق هذا الانتقال البالغ الاهمية وهل كان نتيجة تغيير مناخي او جيولوجي او لسبب آخر .

لقد عمدت الدراسات الاثارية والجيولوجية الحديثة الى اهمال العصر الحجري الوسيط ، وهو حلقة وصل مهمة بالنسبة لمنطقة الشرق الادنى ولو لفترة قصيرة جدا ، حيث ان بعض مجتمعات هذه المنطقة اخذت تنتج الغذاء بعد ان كانت تجمعه . وقد اعتقد بعض الباحثين ان الحالة المناخية في بيئة الشرق الادنى لما قبل التاريخ قد تغيرت قليلا خلال الفترة من (١٥،٠٠٠ــ ١٠،٠٠٠ سنة) عما عليه في الوقت الحاضر ، وبعضهم اعتقد بان المناخ في مرحلة قبل التاريخ كان كما هو عليه في الوقت الحاضر لذا اعتقد (بريد وود) بان توزيع الحيوانات الوحشية والمدجنة والنباتات هو نفس التوزيع الحالي. وفي منطقة الشرق الادنى حصل انتقال كما اسلفنا من مرحلة جمع الغذاء الى

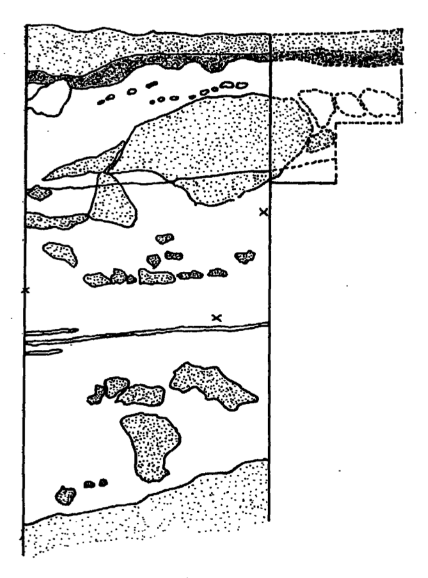
تدجين الحيوان والنبات وقد تجلى ذلك في المرتفعات التلية الممتدة على محاداة جانبي جبال زاجروس وطوروس والمرتفعات التلية المحاذية لجبال لبنان والتلال الفلسطينية وامتداداتها في شرق الاردن ، وكانت هذه النظرية سائدة بين الاوساط الاثارية حتى عام ١٩٦٠ .

ان الابحاث الاثارية والجيولوجية التي جرت خلال الستينات في مناطق من الشرق الادنى تشير الى انه حدث تغيير بيئي صاحبه نمو اعشاب في الظروف الباردة واستمرت هذه الحالة الى حدود ٩٠٠٠ سنة قبل الميلاد وبعد هذا التاريخ بدأت فترة ظهر فيها العشب والاشجار الضخمة وحتى قيام اولى القرى الزراعية ؛ ولقد قدمت لنا نتائج التنقيبات الأثرية مخلفات مادية من المواقع الاثرية النطوفية في وادي النطوف في فلسطين وكذلك من الطبقات السفلى لتل السلطان في اريحا ومن زاوي جمي – شانيدر ، وكريم شاهروملفعات في العراق ومناطق اخرى مشابهة تشير كلها الى انه في حدود مطلع الالف التاسع قبل الميلاد ساد دور نطوري يمكن ان نطلق عليه اسم دور الزراعة الاولى وتدجين الحيوانات مع تصعيد مجتمعات هذا الطور لفعالياتها المتعددة وبذلك اخذ يحل ويبدن الخاصية المميزة لمجتمعات نهاية مرحلة جمع الغذاء او أواخر مايعرف بالعصر الحجري القديم الاعلى ؛ وهذا التبدل ادى الى حلول مرحلة تطورية كبرى في تاريخ الانسانية ؛ الا وهي مرحلة انتاج الغذاء وان الادلة الاثرية المتوفرة لدينا الان تشير الى ان مجتمعات الشرق الادنى منذ حوالي ٩٠٠٠ قبل الميلاد قد ابتكرت ادوات حجرية كثيرة (لتهيئة الطعام) وانتاج الغذاء وصاحبت هذه النشاطات الجهود التي بذلتها هذه المجتمعات وابتكارات اخرى في تدجين الحيوانات وزراعة الحبوب وطحنها وابتكارات كثيرة في السير قدما باتجاه انتاج الغذاء وبذلك تحققت اولى

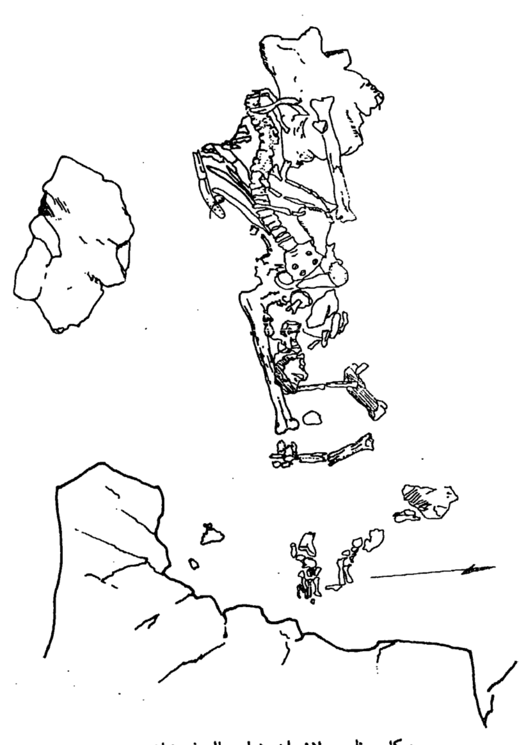
التحولات الاقتصادية والاجتماعية في تاريخ البشرية في الشرق الادنى عندما اهتدت هذه المجتمعات ولاول مرة الى الزراعة وتدجين الحيوانات والعيش باستقرار في قرى زراعية بدائية تدرجت فيما بعـد الـى قـرى متطـورة ومستوطنات كبيرة ، وهكذا بدأ هذا التحول الكبير في قطرنا



مخطط ارضي لكهف شانيدر



مقطع لطبقات السكنى في كهف شانيدر



هيكل عظمي لانسان نيادرتال في شانيدر

المصـــادر

١ ــ الدكتور تقي الدباغ والدكتور وليد الجادر ، عصـــور ماقبل التاريـــخ ١٩٨٣ .

٢ ــ الدكتور تقي الدباغ والدكتور وليد الجادر وأحمد مالك الفتيان . طرق التنقيبات الاثريـــة ، ١٩٨٣ .

٣ ــ الاستاذ طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارة القديمة .

٤ ــ الســـيد على مهدي، محاضرات القيت فيالمؤســـسة العامة للآثار والتراث.

1- Abdul Qadir Al-Tikriti, (Thesis)
Archaeological evidence for the Neolithic revolution in the Near East, London, 1965.

2- Braidwood, R. J.
"Apreliminary Note on prehistoric excavations in Iraqi Kurdistan," Sumer, Vol. VII, No. 2, Baghdad, 1951.

3- Braidwood, R. J. and Howe, B.
"Prehistoric investigations in Iraqi Kurdistan" Oriental institute Studies in ancient oriental Civilization, No. 31, Chicago, 1960.

4- Coon, C. S.
Seven Caves, London 1957.

5- Garrod, D. A. E.
"The prehistoric of Southern Kurdistan" American School of prehistoric research Bulletin, No. 6. 1930.

6- Garrod, D. A. E.
"The relations between south - west Asia and Europe in the Later Palaeolithic age"
Journal of world history Vol. I. No. I. 1953.

7- Garrod and Bate
The stone age of Mount Carmel. I. Oxford, 1937

8- Solecki, R. S. "A Palaeolithic Site in the Zagros Mountains of Northern Iraq" Sumer, 9. 1952.

9- ————, "Shanidar Cave, Sumer 9. 1953.

10- ————, "Shanidar Cave" Sumer Vol - XI. 1955

11- ————, "The 1956-57 Season at Shanidar Iraq" Sumer, Vol 14, 1958.

12- ————, "The adult Neardertal Skeletons" Sumer, Vol. 17 1961.

* * *

البحث الثاني

الآلات الحجرية

د . تقي الدباغ

استاذ الآثار القديمة ـ جامعة بغداد

١ ـ الآلات الحجرية

اعتمدت صناعة الآلات والأدوات في معظم عصور ماقبل التاريخ على الحجارة بالدرجة الاولى ولذلك سميت بالعصور الحجرية لان الحجارة كانت المادة الرئيسية التي صنع منها الانسان اكثر ما يحتاجه من الادوات المنزلية ومن اسلحة الصيد والقتال . وبالاضافة الى الحجارة استعمل الانسان القديم الخشب والعظام والقرون والعاج والاصداف ايضـــا ولكن معظم الآلات والأدوات التي صنعها من هذه المواد العضوية بليت في المواقع الاثرية بسبب الاملاح والرطوبة .

والقليل الذي وصلنا منها أصابه التلف في اغلب الاحـوال واعتـــاد الاثاريون على تصنيف الآلات الحجرية حسب طريقة او طراز صناعتها كما اعتادوا على تسميتها باسم المواقع التي اكتشفت فيها اول مرة ومعظم هذه المواقع هي مواقع اوربية ، اما الصخور التي استفاد منها الانسان في صنع الآلات

فهي الصخور التي تتوفر فيها الصلابة والقوة وسهولة التشظية مثل حجر الصوان والزجاج البركاني وحجر الرمل والاردواز والصخور البركانية .
وهناك طريقتان رئيسيتان لصنع الآلات الحجرية هما طريقة صناعة الات النواة وطريقة صناعة الات الشظايا وقد تفرعت من هاتين الطريقتين العامتين طرق متعددة كثيرة ظهرت في الصناعة الواحدة تحت تأثير التطور الزمني والخصائص الاقليمية .

آ ـ آلات النواة

هي آلات حادة في جانب واحد او جانبين تصنع من لب الحجارة او من نواتها بعد كسر قشرتها الخارجية وتحويل النواة الى آلة لها شكل القلب او القرص اواللوزة وتبدو هذه الآلة ذات نهاية مدببة وحافات حادة تدور احيانا حول محيط الآلة .

هذه الآلة هي الفأس اليدوية التي استخدمت في جميع الاغراض كالقطع والحفر والتقشيط والتهشيم والفرم وصنعت نماذجها الاولى بشكل القلب من الحصى والصخور البركانية في القطر العراقي ، وتلي هذه الآلة في تسلسل عصور قبل التاريخ الفؤوس الابفيلية (نسبة الى ابفيل في فرنسا) التي تطورت في وسط افريقية ثم انتشرت في اكثر انحاء القارة الافريقية، ثم اتجهت شمالا ودخلت الى غرب اوربا وجنوب آسيا، وهذه الفؤوس حادة الجانبين لها شكل القلب او شكل اللوزة ولا وجود لها في العراق ايضا.وتلي هذه الآلة في التسلسل الزمني الآلات الاشولية (نسبة الى سنت اشول في فرنسا) وهي فؤوس يدوية مدببة لوزية الشكل ونلاحظ في مظهرها الجانبي حافات مستقيمة نسبيا وعلى سطوحها ندب غير عميقة ، والفأس اليدوية المثالية تعود لهذا العصر .
وبالرغم من ان الانسان صنع في هذا الوقت الشظايا المهملة من صنع آلات النواة فقد بقيت هذه الفأس اليدوية الآلة الشائعة في عدة انسان العصر الحجري

القديم وكانت تستعمل لسحق الاشياء وسلخ وفصل اللحوم عن العظام والحفر والقشط والتثقيب .

وجدت آلات هذا الطراز في العراق على سطح موقع برده بلكا الذي يبعد عن بلده جمجمال بنحو ثلاثة كيلو مترات وقد تبين من التنقيبات التي اجرتها بعثة امريكية انها تعود الى مستوطن مكشـــوف طمر تحت طبقة من الطين والحصى بلغ ثخنها نحو خمســـة اقدام ، وكانت الآلات عبارة عن فؤوس حجرية يدوية بهيئة القلب وبعضها لوزية الشكل ، كما وجدت عدة انواع من الآلات الحصوية والشظايا . ويظهر ان بعض هذه الآلات اشولية والبعض الآخر موستيرية (نسبة الى موستيه في فرنسا) ويتراوح زمنها ما بين١٠٠٠٠٠ ـــ ٦٠٠٠٠ سنة مضت وتعتبر من اقدم الآلات الحجرية المكتشفة في العراق لحد الآن .

ب ـ آلات الشظايا :

وهي على العموم تصنع بتحوير الشظية المنفصلة من الصخور بالضرب او بتكسير قطع صغيرة جدا من حافات الشظية بآلات مدببة لتصبح حادة مسننة وتتميز الشظايا التي صنعها الانسان بسطوح ناعمة بسبب الاستعمال وتسوية ما تعرج منها بينما تكون الشظايا الطبيعية ذات سـطوح خشـــنة وتظهر في الشظايا المصنوعة علامات الكسر وتخلو الشظايا الطبيعية من ذلك . والشظايا المصنوعة لها شكل خاص اما الشظايا الطبيعية فليس لها شكل معين ومحدود . والشظايا المصنوعة ذات حافات حادة ومهذبة اما الشظايا الطبيعية فليس لها مثل هذه الحافات .

واكثر انواع آلات الشظايا شيوعا في مواطن الاثار هي الآلات الموستيرية التي صنعها انسان نياندرتال واهم نماذجها قاشطة لها شكل مستطيل وسطوح متعددة وجانت حاد واحد . ورأس سهم الشكل له جانبان حادان، وسكاكين

ومثاقب مدببة وآلة نواة قرصية الشكل ، واستعملت هذه الآلات لصيد الحيوانات ولفصل لحومها وسلخ جلودها ، وانتشر استعمالها في كثير من مناطق غرب اسيا واوربا وشمال افريقية ، وفي العراق وجدت هذه الالات في مواقع العصر الحجري القديم الاوسط مثل هزارمرد بمحافظة السليمانية وفي كهف بابخال في سهل ديانا وفي اسفل طبقات كهف شانيدر ويتراوح تاريخها بين ٦٠٠٠٠ ـ ٤٥٠٠٠ سنة مضت .

ج ـ النصال :

وهي نوع من انواع الشظايا ولكن صناعتها ادق وشكلها اكثر انتظاما ولها صفة الاختصاص في العمل . شاع صنعها واستعمالها في اواخر العصر الحجري القديم وحلت بالتدريج محل الشظايا الموستيرية ويدل انتشارها على هجرات كثيرة للانسان العاقل اثناء المراحل الاخيرة من الزحف الجليدي الاخير ويظهر ان النصال الحجرية ظهرت في بعض اقطار جنوب غرب اسيا ثم انتشرت نحو الشرق ونحو الغرب حتى وصلت سواحل البحر المتوسط والمحيط الاطلسي . والنصال النموذجية عبارة عن شظايا ذات جانبين حادين متوازيين ويأخذ بعضها شكل الازميل وقد قطع جانبان منها بشكل مائل بحيث يلتقيان في رأس مدبب حاد يصلح للحفر في الحجارة ، وجدت النصال الحجرية في عدة اماكن من شمال العراق من بينها عدة كهوف استوطنها انسان ذلك العصر ، وكان اقدم اكتشاف لها في العراق ما وجد في كهف زرزي بمحافظة السليمانية ووجدت ايضا في كهف بالي كورا بالقرب من جمجمال وفي كهف كبوانيان في منطقة راوندوز وفي كهف شانيدر ، وقد تبين ان هناك ادوات خاصة بشمال العراق تشبه الازميل وكانت هذه الآلات من بين الاسباب التي حملت المنقب على تسمية هذا العصر بالعصر البرادوستي نسبة الى جبال برادوست ويتراوح تاريخ هذه الآلات بين ٣٥٠٠٠ ـ ١٥٠٠٠ سنة مضت .

د ـ الآلات الحجرية الدقيقة :

وهي في الاصل شظايا ولكنها صغيرة الحجم ودقيقة الصنع منظمة الشكل كالهلال والمعين والمثلث مثلا ، كانت هذه الشظايا تثبت بمفردها او بمجاميع منها بالقير في مقابض خشبية تصنع منها آلة خاصة كالسهم المسنن والرمح ومنجل الحصاد . انتشرت في شمال افريقية واوربا وجنوب غرب اسيا منذ نهاية العصر الحجري القديم الاعلى حتى اصبحت ميزة من مزايا العصر الحجري المتوسط ، وجد الكثير منها في العراق واطلق عليها الآلات الزرزية نسبة الى كهف زرزي بمحافظة السليمانية حيث اكتشفت اول مرة ثم وجدت في عدة اماكن اخرى في شمال العراق بعضها كهوف وبعضها ملاجيء جبلية وبعضها على هيئة مستوطنات في الارض المكشوفة مثل كهف بالي كورا وكهف شانيدر وكريم شهر وملفعات وزاوى جمي واستخدمت هذه الآلات الدقيقة لحصد النباتات الطبيعية او النباتات التي زرعها الانسان بشكل محدود وبدائي في مرحلة مبكرة واستمر يستخدمها في عصر القرى الزراعية حيث وجدت نماذج منها في قرية جرمو وقرية حسونة وقرية الصوان وغيرها .

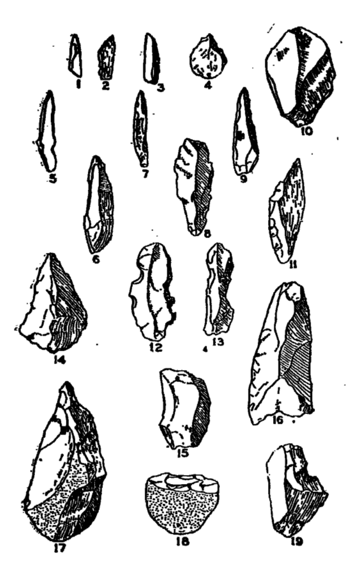
ويتراوح زمن هذه الآلات بين ١٥٠٠٠ ـ ٩٠٠٠ سنة مضت .

٢ ـ الادوات الحجرية

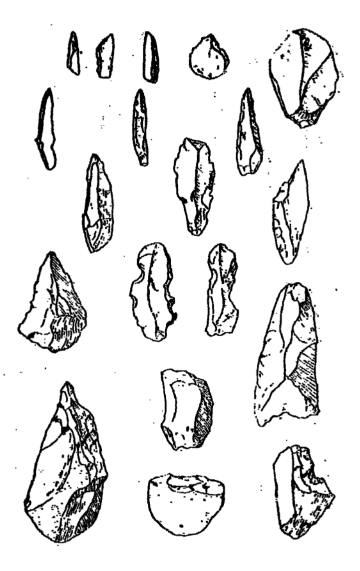
اهم الادوات الحجرية هي الاواني الحجرية التي صنعها الانسان قبل ان يهتدي الى صناعة الاواني الفخارية واستعمل تلك الاواني لاغراض خزن الطعام وحفظ الماء والطبخ وظل يستعملها كذلك حتى بعد صنع الاواني من الصلصال ، ولا ريب في ان الانسان استعمل اكياسا من الجلد واواني من الخشب واغصان الاشجار ايضا ، ولكن المواد الجلدية والخشبية تبلى بين الانقاض ولا يبقى منها شيء ، وكانت عملية تفريغ الحجارة لصنع الانية عملية شاقة وتستغرق وقتا طويلا ولا سيما اذا كانت الآلات المستعملة في عملية

التفريغ والتجويف وتسوية السطوح من الحجارة ايضا • واتخذت الاواني اشكالا متعددة كالطاسات والجرار والقدور وغيرها ، واستعملت لطحن بذور الثمار والحبوب التي كان الانسان يجمعها من الاشجار والنباتات الطبيعية رحى حجرية من صخور صلبة كي لا تختلط قطع الحجارة مع الطحين اذا كانت من النوع غير الصلب ، ورحى الطحن تتألف من كتلتين من الحجارة القوية توضع البذور او الحبوب بينهما لفرك قشورها وطحنها بتحريك او دوران احدى الحجارتين فوق الاخرى ، اما ادوات السحق فكانت تتألف من هاون وهو حجارة مجوفة ومن مهشم حجري اسطواني الشكل لسحق البذور او الحبوب فيه •

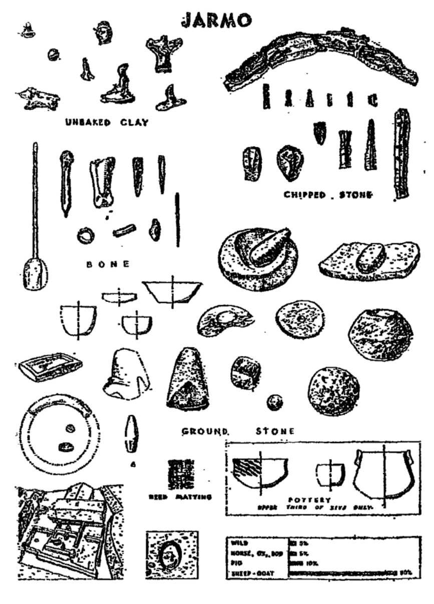
واستعملت رحى الطحن والمدقات والمهشمات والهواوين لطحن وسحق حبوب الطعام بعد ان تعلم الانسان الزراعة ايضا ، ومن الحجارة صنع الانسان اقراصا مدورة الشكل لها ثقب في الوسط يدخل فيه لولب المغزل الخشبي والغرض من القرص احداث التوازن في حركة اللولب وارتكاز كتلة الخيوط المغزولة عليه ، واقراص المغازل في مواطن الاثار دليل على ان سكانها غزلوا الخيوط الصوفية تمهيدا لنسجها ، وكانت هذه الاقراص تصنع من الفخار ومن الخشب ايضا • وقطعت من الاحجار الجميلة المختلفة الالوان خرز حفر في كل منها ثقب يخترق محورها ويجمع منها عدد كبير يدخل فيها خيط لتصبح قلادة ، ومن الحجارة الجميلة الملساء صنع الانسان الدمالج التي علقها بواسطة خيط على الصدر وكانت هذه الدمالج تزخرف بنقوش هندسية او طبيعية كما ان البعض منها صنع بهيئة طير اوحيوان، ومن احجار يسهل عمل الازميل والمطرقة فيها مثل الرخام واحجار الكلس نحت الانسان القديم تماثيل الالهة او رموزها التي عبدها بهيئة الالهه الام ، ان معظم هذه الادوات الحجريه وجدت في الكثير من مواقع عصور قبل التاريخ في العراق •



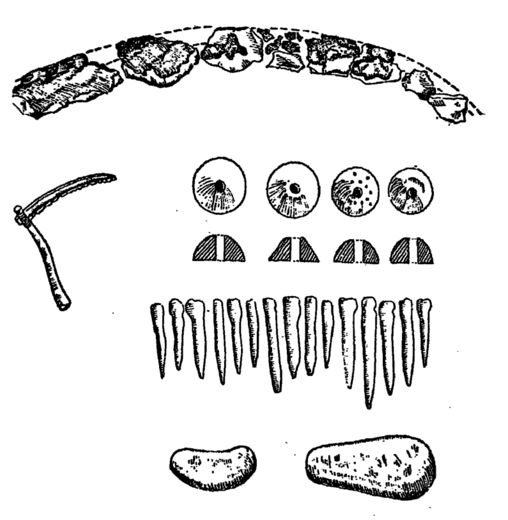
١ ـــ آلات حجرية عراقية تعود للعصر الحجري القديم ، الارقام ١ ـــ ١٦ من كهف شانيدر والارقام ١٧ ـــ ١٩ من بردا باكلة



٢ ــ آلات حجرية عراقية تعود للعصر الحجري القديم والعصر الحجري المتوسط



٣ ــ آلات وادوات حجرية وعظمية وفخارية من قرية جرمر



٤ ــ نماذج من الالات والادوات الحجرية والعظمية من قرية حسونة

المصادر والمراجع

د . تقي الدباغ و د . وليد الجادر . عصور قبل التاريخ . بغداد ١٩٨٣

طه باقر . مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة . الجزء الاول . بغداد ١٩٧٣

Akazawa, T., Preliminary Notes on the Middle Palaeolithic Assemblage from the Shanidar Cave, Sumer 31, 1975.

Braidwood, R., Prehistoric Man, Chicago, 1948.

Braidwood, R., From Cave to Village in Prehistoric Iraq. American School of Oriental Research Bulletin No. 124. 1951.

Braidwood, R. The Iraq - Jarmo Project, Sumer. X, 1954.

Braidwood, R. and Howe, B., Prehistoric Investigation in Iraqi Kurdistan, Chicago, 1960.

Burkitt, M., The Old Stone Age, London, 1963.

Clark, G., World Prehistory, Cambridge, 1962.

Chard, C., Man in Prehistory, New York, 1975.

Garrod, D., The Palaeolithic of Southern Kurdistan, Excvavations in Caves of Zarzi and Hazar Merd, American Shool of Prehistoric Research, Bulletin No. 6, 1930.

Hawkes, J. and Woolley. L., History of Mankind, Vol. I, New York, 1963.

Safar. F., Tell Hassuna. JNES, Vol. IV, No. 4, 1945.

Solecki, R., Shanidar Cave, A Paleolithic Site in Northern Iraq and its Relationship to the Stone Age Sequence of Iraq,, Sumer, Vol. XI, 1955.

Solecki, R., Tar Kshaife, A Possible Prehistoric Station Near Ukhaider, Iraq, Sumer, Vol. X, 1954.

Voute, C. A Prehistoric Find Near Razzaza (Karbala Liwa. Sumer, Vol. XXII, 1966.

Wright. H. and Howe, B., Prehistoric Report on Soundings at Barda Balka, Sumer, Vol. VII, 1951.

Wright. H., A Note on a Palaeolithic Site in the Southern Desert, Sumer, Vol. XXII, 1966.

* * *

الفصل الرابع

الثورة الزراعية والقرى الأولى

د. تقي الدباغ

استاذ الآثار القديمة ـ جامعة بغداد

الانتقال من الكهوف الى القرى

حدث الانتقال في العراق تدريجياً من الصيد والجمع والعيش في الكهوف الى الزراعة والرعي والسكن في القرى عبر العصر الحجري المتوسط الذي بدأ في حدود ستة عشر الف سنة مضت واستمر لمدة قصيرة وكان ذلك بعد ذوبان الجليد ورجوعه الى خطوط العرض التي يشغلها الآن . ففي ذلك الوقت اعتدل المناخ وتغيرت علاقة الانسان بالبيئة تدريجيا لتلائم الظروف الطبيعية الجديدة واختفت حيوانات الصيد الكبيرة وحلت محلها الحيوانات التي تعيش في الوقت الحاضر وظهرت مجالات جديدة للاستقرار في مواقع مكشوفة على شواطىء الانهار ومصباتها وعند العيون والينابيع وفي السهول الرملية حيث يتوفر الماء بعد ان انتفت الحاجة الى الكهوف والملاجىء الجبلية. وحصل تقدم ملحوظ لزراعة النباتات البرية وترويض الحيوانات للتدجين وصنعت بعض الآلات الزراعية كالمناجل والمطاحن والهواوين والمدقات مما يشير الى احتمال قيام زراعة تجريبية محدودة او احتمال استعمال تلك الآلات في

حصد وطحن حبوب النباتات البرية فانتقل الانسان الى الاقتصـاد المنتـج بواسطة الزراعة والرعي بعد ان كان مستهلكا معتمدا على جمـع والتقاط النباتات الطبيعية وعلى صيد الحيوانات والاسماك ؛ ولهذه المرحلة خصائص تختلف عن خصائص العصور السابقة ولكنها في بعض الاقطار الاوربية لاأثر لها لانها تعلمت الزراعة والرعي والحياة القروية من اقطار الشرق الادنى التي سبقتها في هذا المضمار بزمن طويل ولذلك لايميل بعض الباحثين الاوربيين الى مجرد ذكرها لانهم يعتبرونها عهد زوال للعصر السـابق اما في العراق فتظهر اثار هذه المرحلة واضحة في بعض الاماكن قبل ١٢٨٠٠ سنة كما تظهر اثارها في سورية ولبنان وفلسطين حيث سمي الدور الذي يمثلها بالـدور النطوفي نسبة الى وادي النطوف بفلسطين ، وقد عاش النطوفيون مثلما عاش معاصروهم في شمال العراق في الكهوف والقرى والمستوطنات المكشوفـة وكانت انجازاتهم تماثل انجازات اهل شمال العراق ولعل النطوفيين تعلموا الزراعة والرعي منهم • ووجدت اثار هذه المرحلة الانتقالية في عدة اماكن عراقية بعضها كهوف وملاجيء جبلية وبعضها على هيئة قرى ومستوطنات وكان اول موقع اكتشفت فيه هذه الاثار هـو كهـف زرزى في محافظـة السليمانية ؛ وعثر على مخلفات مماثلة في كهف بالي كورا بالقرب من جمجمال بمحافظة اربيل ، واستخرجت ايضا من الطبقة الثانية (ب) في كهف شانيدر بمنطقة السليمانية، وتبين من اختبار كربون ١٤ الاشعاعي على المواد العضوية ان هذه الاثار تعود الى نحو ١٢٨٠٠ سنة مضت ، ووجدت اثارها بشـكل اوضح في موقع كريم شهر وهو مستوطن مكشوف يقع شرق بلدة جمجمال بنحو تسعة كيلو مترات • وعلى الرغم من انبعض الالات والادوات الزراعية كانت موجودة بين الاثار المستخرجة وان نسبة قليلة من عظـام الحيوانات المكتشفة كانت لانواع مدجنة فان الحرفة الرئيسية لاهل هذا المسـتوطن كانت الصيد والالتقاط وفي ملفعات على ضفة نهر الخازر شمال الطريق الممتد

بين اربيل والموصل وجدت اثار تشبه تلك التي وجدت في كريم شــهر ؛ والفرق الرئيسي بينهما هو وجود بقايا بيوت محفــورة في الارض ذات جدران مشيدة بالحجارة وتباليط من الحصى والحجارة في ملفعات في حين ان كريم شهر كانت تخلو من ذلك ، اماقرية زاوى جمي القريبة من كــهف شانيدر فقد وجدت فيها بيوت شيدت جدرانها من الطين على اسس مــن الحجارة وتعتبر هذه المباني اقدم بيوت شيدها الانسان القديم ووجدت آلات زراعية غير ان الحبوب الزراعية لم يعثر عليها ، اما عظام الحيوانات فكانت لانواع برية غير اليفة في الغالب ويظهر ان الصيد والزراعة المحدودة البدائية في مراحلها الاولى كانت مختلفة في هذه القرية التي بعود تاريخها بحساب كربون ١٤ الاشعاعي الى ما يقرب من ١١٢١٧ سنة زائد او ناقص ٣٠٠ سنة مضت أو ١٠٩٣٥ سنة زائد أو ناقص ٣٠٠ سنة مضت ٠

الخلاصة ان الانتقال من الالتقاط والصيد الى الزراعة والرعي كان بطيئا وتدريجيا في اقطار الشرق الادنى وكانت المنطقة الجبلية بشمال العراق من المراكز الاولى في هذا المضمار نظرا لتوفر المناخ المناسب والمياه الوفيرة والنباتات الطبيعيــة والحيوانات الوحشية والانسان النشيط ٠

اصل الزراعة وتدجين الحيوان

ان البحوث القليلة التي تناولت طبيعة العصر المكدليني والعصر الحجرى المتوسط لم تسفر بعد عن تحديد الاسباب الكاملة لقيام الزراعة في اقاليــم معينة دون سواها ، ويظهر ان الصيادين كانوا قبل العصر الحجرى الحديث بزمن طويل يستوطنون الاماكن المجاورة للانهار في مواسم الصيد لاقتناص الحيوانات الكبيرة وأسر صغارها التي تسير خلفها من اجل لحومها أو لمجرد التمتع بها وقد لاحظ هؤلاء الصيادون نمو النباتات من بذور وتوى الثمار التي يجمعونها للاكل فيما جاور اماكن سكنهم غير انهم استمروا على الجمع

ولم يتعلموا الزراعة ورعي الحيوانات الا عندما احدثوا تحسينات على طرق صناعة الآلات الحجرية لقلع الاشجار في الغابات وتحويل الاراضي الى مزارع ولبناء الحظائر لحماية الحيوانات من الوحوش الضارية ولحفظها من الهرب ولصنع الالات الخاصة بالزراعة ، لقد بنى اهـل العصر الحجرى المتوسط جسرا للانتقال من الجمع والصيد الى الزراعة واستئناس الحيوان بعدةطرق كانت في مقدمتها مقدرتهـم على تكيف الحيوان والنبات للتدجين وكانـت عملية التدجين تدريجية بحيث يصعب تتبع مراحلها المبكرة ولكنها ادت بالتالي وبعد قرون عديدة الى قيام اقتصاد اصبح الصيد فيه مسألة ثانوية بالمقارنة مع الرعي والزراعة اللتين اضحتا قاعدتين راسختين لاقدم الحضارات في العالم القديم •

ان المتأخرين من اهل العصر الحجرى المتوسط في العراق هم الذين مهدوا لحدوث الانقلاب الاقتصادي الذي برز في الاساس مـن الاستزراع ويظهر ان الزراعة والرعي امتهنت في ظروف الجفاف النسبي التي تلت الفترة المطيرة الاخيرة ويرجح البعض اكتشاف الزراعة قبل تدجين الحيوان ويرى هؤلاء ان تدجين معظم الحيوانات التي تعاصرنا الان لم ينجح الا بعد ان تعلم الانسان انتاج المحصولات الزراعية واهم استثناء لذلك هو موضوع تدجين الكلب لان صحبة الانسان له بدأت في العصر الحجري المتوسط وكانت صلته به صلة منفعة متبادلة بين الاثنين ففي استطاعة الكلب بفضل مالديه من حاسة حادة في السمع والشم ان يقتفي أثر الصيد وان ينبه صاحبه الى اقتراب العدو وكان صاحبه يكافئه على ذلك باطعامه مما تبقى من الصيد •

ان تاريخ تدجين الحيوان يقدم لنا صورا مختلفة للتدجين من عـدة نواح فقد اخذت عملية ترويضه في جميع انحاء العالـم القديـم وقتا طويلا بعكس النباتات التي زرعها الانسـان اذ نجد نباتات معينة زرعت بشـكل مستقل في منطقة معينة بينما نجد بعض حيوانات العالم القديم دجنت بعيدا

من المنطقة التي ظهر فيها التدجين وذلك لقوة انتشار فكرة تدجين الحيوان .
كما ان عدد الحيوانات التي الفها الانسان اقل بكثير من عدد النباتات التي زرعها والحيوانات المدجنة الآن تشكل نسبة قليلة جدا في المملكة الحيوانية وكان الصيادون في تدجينهم للحيوان يعتمدون على عدة امور منها سلوك الحيوان الطبيعي الذي يجعله قابلا للتكيف في علاقاته مع الانسان وقدرته على التناسل والتكاثر في الاسر وهذا الامر يتطلب الاستقرار ولذلك بقي التدجين مدة طويلة من الزمن ينتظر بلوغ تلك المرحلة من الاقامة الثابتة .

ولم يكن لدى الانسان البدائي في المراحل الاولى سلوك نفعي مقصود تجاه التدجين ويبدو معقولا ان التدجين بدأ بتربية الحيوان في المنزل بغرض الاستمتاع بصغار الحيوان لوجود الالفة بين اطفال الانسان واطفال الحيوان، وبمرور الزمن تروضت هذه الحيوانات في الاسر واستمرت هذه العملية فترة طويلة من الزمن الى ان حصل التدجين لاغراض اقتصادية في المزارع والمراعي من اجل اللحوم ، اما الفوائد الاخرى كالنسيج والالبان والنقل فقد حصلت فيما بعد ، والحيوانات التي دجنت في الادوار الاولى من العصر الحجري الحديث كانت مكيفة لبيئة الانسان قبل هذا العصر وكان للاختيار الطبيعي اثر قوي في ذلك. وتختلف في استعدادها لتحمل بيئة جديدة. واستئناس أي حيوان يتطلب توفر القدرة لدى الحيوان على الصمود وتحمل مايلقاه من معاملة لم يتعود عليها والتعود على الاحساس بصلته بالمكان وبالناس حتى يبقى حول القرية اذا ما اطلقوه وليس في مقدور كل انواع الحيوانات ان تكيف نفسها على هذه الصورة ، فقد لاحظ البعض التغيرات الفزيولوجية (الوظيفية) التي تظهر على الحيوانات المدجنة عند مقارنتها بمثيلاتها الوحشية فالحيوانات المدجنة تكون عظامها اقل حجما واخف وزنا واكثر رخاوة ، وتظهر هـذه الفروق ظهورا جليا الى حد يمكن التمييز بـين عظام الحيوانات المدجنة والحيوانات المتوحشة من النوع الواحد اذا عثر على كليهما في التنقيبات .

وعلى الباحث في اصل التدجين الذي كان القاعدة الاساسية للثورة الزراعية ان يعتمد على الادلة التي نقدمها اختصاصات متعددة تأتي في مقدمتها الاستعانة بعلم دراسة شكل الحيوانات والنباتات وبنيتها والدراسات الخاصة باصولها الوراثية والدراسات الخاصة بتتابع الازمان وتوزيع الآثار التي يهتم بها علماء الاثار وكل حقل من هذه الحقول العلمية له طرقه الخاصة واصطلاحاته الخاصة ولكنها بتعاونها مع بعضها تستطيع ان تقدم الحلول لصعوبات ومشاكل عامة لها صلة بمنشأ التدجين ، ويعرف الحيوان المدجن بانه الحيوان الذي يربى في الاسر وله فوائد للانسان والتدجين بهذا الاعتبار يمكن التدليل عليه اثاريا من خلال الكشف عن الالات والادوات التي كان الانسان يستخدمها في علاقته مع الحيوان ومن خلال اعمال الانسان الفنية التي تمثل الحيوانات المسخرة لخدمة الانسان في اعمال النحت البارز والمجسم واخيرا من خلال عظامه التي بقيت مدفونة في المواقع الاثرية فالتدجين حسب المفهوم الاثارى يشمل الحيوان الذي يسيطر عليه الانسان للاستفادة من لحمه وجلده وصوفه وشعره ووبره ولبنه وفي الجر والنقل والركوب ، اما التعريف الذي يعتمد على علم العظام الذي يهتم به علماء الحيوان فيعتبر الحيوان مدجنا بعد أن يتربى تحت رعاية الانسان حتى تظهر منه سلالة اليفة تختلف عن السلالة الوحشية التي انحدرت منه ، فالتدجين حسب هذا التعريف يوضح على اساس شكل العظام وبنيتها ، والمفروض ان يوجد نوع من التطابق والتوافق بين النقاط التي يتناولها هذان التعريفان ولكننا نجد في كثير من الاحيان ان عالم الحيوان يقول لعالم الآثار ان العظام التي اكتشفها أثناء التنقيبات الاثرية يمكن ان تكون لحيوانات مدجنة لاعلى اساس الادلة النظمية المكتشفة بل لارتباط تلك العظام بمواد اثرية من صنع الانسان ، وعالم الآثار يقبل هذا الرأى ظنا منه انه يستند على دراسة العظام والمعروف ان وجود عظام الحيوان مع المواد الاثرية المصنوعة في مواقع الاثار لا يمكن اعتباره دليلا قاطعا على تدجين الحيوان في اغلب الاحيان .

وافضل طريقة لتتبع جذور التدجين هو البحث عن المواطن الطبيعية للنباتات والحيوانات التي دجنها الانسان بعد ان كان يحصل عليها في العصور السابقة للعصر الحجرى الحديث بطريقة الجمع والجني والصيد اى ان الموطن الطبيعي للنباتات والحيوانات المدجنة هو الذي ينبغي تعيينه وتحديده والبحث فيه عن اصل الزراعة والرعي ، وينبغي العثور في ذلك الموطن الطبيعي بواسطة التنقيبات الاثرية على بقايا لتلك النباتات والحيوانات تثبت ان الصيادين الذين عاشوا في ذلك الموطن الطبيعي اهتدوا الى الزراعة فعلا والفوا الحيوانات الوحشية وربوها في مراع بعد ان كانوا يخرجون لصيدها ، ويظهر من المخلفات الاثارية ان الموطن الطبيعي للتدجين كان في المنطقة الممتدة من هضبة الاناضول واواسط اسيا والقفقاس ومرتفعات فلسطين وشمال العراق الى جهات البرز الشرقية والمنحدرات الشمالية لجبال هند كوش ، وقد حدد علماء النبات مركزين في هذه المنطقة احدهما في شمال العراق والثاني في اسيا الوسطى ، وفي الحقيقة ان محصولات هذين المركزين تتشابه مع بعضها الى درجة عدم التفريق بينهما وكانت هذه المنطقة قبل اكثر من عشرة الاف سنة تتوفر فيها الاشجار والاعشاب والحشائش وتمرح فيها حيوانات الصيد وكان الناس يحصدون القمح والشعير والشوفان التي كانت تنمو نموا طبيعيا بمناجل من حجر الصوان ، ثم زرع سكان جنوب غرب اسيا القمح في العصور المبكرة كما زرعوا الشعير والى الشمال من مناطق زراعة القمح والشعير زرعوا الشوفان والجويدار ، ثم زرعوا في عصور لاحقة العدس والقنب والكتان والبنجر والبصل والقثاء والتفاح والكمثرى والاعناب والنخيل كما ألفوا الغنم والماعز والخنزير والحمير وفي عصور متأخرة الجمال ذات السنام الواحد والخيول ، ومن المحتمل ان تكون الخيول قد دجنت لاول مرة في اواسط اسيا من اجل لحومها كما دجن الخنزير فيما بعد في مركزين اخرين بشكل مستقل هما جنوب شرق اسيا وغرب اوربا وكان المزارعون في جنوب

غرب آسيا هم الذين عرفوا حلب الحليب من الحيوانات لاول مرة وربما كان اول حيوان حلب لبنه هي العنزة ويؤيد ذلك ماوصل الينا من المناظر التي نرى فيها صور الحلب ، وقد دخل الحليب في قائمة طعام الانسان القديم وذلك بخلطه وغليه مع الحبوب المقشورة والمجروشة ، ومن مركز جنوب غرب اسيا انتشر الحلب الى اقاليم اخرى •

ان سفوح جبال العراق الغربية توفرت فيها الاصول الوحشية للحيوانات والنباتات التي دجنها الانسان وقد تم العثور في هذه المنطقة على مستوطنات قديمة ظهرت فيها البوادر الاولى لعملية التدجين والثورة الزراعية وقد سبق لنا ان ذكرنا بعض تلك المستوطنات التي اجريت فيها التنقيبات الاثرية مثل بالي كورا وزاوي جمي وكريم شهر وملفعات وتدل الاثار المكتشفة في هذه المواقع على مرحلة انتقالية تدريجية الى ممارسة الزراعة الحقيقية في قرى ثابتة مثل جرمو وحسونة والصوان وغيرها مما سيأتي الكلام عنها فيما بعد ، ففي هذه المنطقة الجبلية توفرت الاحوال الطبيعية من مناخ ملائم ومطر دائم وحيوانات وحشية ونباتات طبيعية وانسان نشيط تمكن من تدجينها والا ستفادة منها •

وللتأكد من صحة التدجين وتمييز عظام الحيوانات المدجنة بدقة فقد اعتمد في السنوات الاخيرة الاحصاء أي تسجيل عدد عظام الحيوانات التي كانت تعيش في زمن معين في الموقع الاثري وتحليل مثل هذا الاحصاء يمكن ان يشير الى بعض نقاط التحول من الاعتماد الكامل على حيوانات الصيد في عصور سبقت التدجين بزمن طويل الى الاعتماد على حيوانات الصيد التي سبقت التدجين مباشرة فاذا كانت نسبة الحيوانات القابلة للتدجين نسبة عالية في المجمع العام للعظام المكتشفة كان هذا دليلا معقولا على استنتاج نوع من سيطرة الانسان على الحيوان وقد استخدمت

هـذه الطريقـة فـي تمييز عظـام الحيوانات المسـتخرجة مـن بعض مواقـع هـذه المنطقة الجبليـة في العـراق فكانت نسـبة عظام الماعـز والاغنام المدجنة في كهف بالي كورا الذي يعود تاريخه الـى اواخر العصر الحجرى القديم الاعلى ٣٠٪ بينما بلغت هذه النسبة ٥٠٪ في مستوطن كريم شهر الذي يعود تاريخه الى العصر الحجري المتوسط وبلغت ٩٥٪ في قرية جرمو التي يعود تاريخها الى العصر الحجرى الحديث ويلاحظ في هذه الارقام ان نسبة الحيوانات المدجنة الى غير المدجنة اخذت في الازدياد التدريجـي في زمن تمت فيه سيطرة الانسان على النباتات وعلى قطعان الحيوانات ذات الاهمية الاقتصادية ٠

ان بداية الاعتماد على الحيوانات الاربعة وهي المعز والغنم والخنزير والبقر تقترن بالاستقرار الزراعي واحسن دليل على ذلك نتائج التنقيبات الاثرية في قرية جرمو اذ تبين من الاحصاءات المنشورة عن عظام الحيوانات المسـتخرجة مـن هـذا الموقـع ان نسـبة عظـام الحيوانـات غير المدجنة بلغت ٥٪ فقط وهذا معناه ان الصيد اصبح حرفة ثانوية في هذه القرية وان الاعتماد الرئيسي كان على الزراعة والرعي ، ومما هو جدير بالذكر ان تاريخ هذه القرية قد تحدد باختبار كربون ١٤ الاشعاعي بحدود ٩٠٤٠ زائد اوناقص ٢٥٠ سنة مضت اى حوالي عام ٧٠٠٠ قبل الميلاد ٠ ويظهر من الدلائل المتوفرة لدينا ان اقتصاد العصر الحجرى الحديث المنتج المعتمد على الزراعة قد تطور لاول مرة في اقطار الشرق الادنى وفي الارجح في شـمال العراق منذ الالف الثامن قبل الميلاد وفيهذه المنطقة انتشرت تجربة التدجينالى بقية انحاء العالم القديم كفكرة طبقت على الحيوانات الوحشية القريبة في اصولها من الحيوانات التي سبق تدجينها وكحركة للحيوانات الى مناطق لم تسكنها من قبل ٠

القرى الزراعية الاولى

ان الانقلاب الزراعي الذي شهده شمال العراق لم يكن حدثا فجائيا بل حصل بخطوات تدريجية ومراحل متعددة من التطور كانت القرية في بدايتها صغيرة وبدائية ثم تأسست قرى اكثر اتساعا وتنظيما وتقدما في المراحل التالية حتى ظهرت بوادر المدن في فجر العصور التاريخية ، ففي القرى المبكرة ظلت حياة الانسان ضيقة تقل فيها الادوات المتنوعة لحياته المادية : ويجد المنقبون بين الادوات القليلة المطاحن المؤلفة من حجرين يدور احد هما فوق الاخر او يضرب احد هما بالاخر ، ويجد المنقبون كذلك الاطباق الفخارية البسيطة لفصل الحبوب عن قشورها وتوجد ايضا المعازق والمحاريث البدائية والمناجل التي تتالف من شظايا حجر الصوان المثبتة بالقير ورؤوس النبال والسهام الحجرية واقراص المغازل التي استعملت لغزل خيوط الصوف تمهيد لنسجها وفي هذا الوقت تعلم المزارعون صنع الفخار وكانت الاواني الفخارية من النوع البدائي الخالي من الزخرفة والالوان او ملونة بلون واحد وكانت تلك الاواني مصنوعة باليد اذ لم يخترع دولاب الخزف بعد .

وظهر نوع من تقسيم العمل مارسته المجتمعات الزراعية الاولى فكانت المرأة بالاضافة الى تربية الاطفال تقوم بطحن الحبوب وتهيئة الخبز والطعام وبالغزل لنسج الملابس والعناية بالحيوانات المدجنة في حظائرها وكان الرجل يصنع الآلات الحجرية والاسلحة ويحمي المزرعة ويصيد الحيوانات ويعد الحقل للزراعة وكانت زراعة الفلاحين في هذه القرى زراعة محدودة بمساحة صغيرة من الارض تكفي لاعالة اسرة واحدة كما كانت زراعة حقلية خالية من البستنة وغرس الاشجار المثمرة التي لم تعرف الا في العصور التالية وكانت الزراعة متنقلة ايضا لان الارض بعد ان تستنفد خصوبتها يتركها الفلاح الى ارض خصبة اخرى ، ونجم عن هذا الا نقلاب

الزراعي نشوء الملكية الفردية أي ملكية المزرعة وادوات الانتاج البدائية والحيوانات المدجنة في المرعى وكان انتاج القوت يعتمد على الزراعة بالدرجة الاولى وهذه الزراعة كانت ديمية ترويها مياه الامطار في الاقلام الشمالية من العراق وهي كافيةفي العادة للانبات ، ومن المحتمل ان يكون موسم الزراعة هو الذي أوحى بفكرة التقويم الشمسي اذ يمكن قياس طول السنة الشمسية من موسم حصاد الى موسم حصاد اخر ولعل انسان ذلك العصر استعان في ضبط تلك المواسم باقترانها مع طلوع بعض الكواكب والنجوم . اماحساب الشهور فقد ظل على النظام القمري في جميع العصور القديمة ومما لاشك فيه ان سكان قرى هذه المرحلة الزراعية كانت عند هم عقيدة دينية ولعل اول معبود تصوروه وعبدوه كان ذا صلة بقوى الارض المنتجة على هيئة الهة تمثل الارض وخصبها وهذه هي الالهة التي يطلق عليها اسم الالهة الام التي تمثلها دمى الطين المصنوعة بهيئة نسوة بدينات وجد الكثير منها في قرى هذه المرحلة واهم تلك القرى :

قريـة جرمـو

على الرغم من مرور اكثر من ثلاثين سنة على البدء بالتنقيبات في قرية جرمو (نسبة الى قلعة جرمو الحديثة) فما تزال اثار هذهالقرية تتمتع بالاولوية باعتبارها اقدم القرى الزراعية المكتشفة لحد الان ، تقع قلعة جرمو الـى الشرق من بلدة جمجمال بنحو احد عشر كيلو مترا وعلى بعد ٣٥ كيلو مترا شرقي مدينة كركوك ، وجدت اطلال القريـة القديمـة ممتدة في مسـاحة تبلغ في معدلها ١٤٠٠ متر مربـع وترتفـع عن مستوى السهل المجاور بمـا يقرب من ٢٣ قدما . اكتشفت خرائبها المؤسسة العامة للآثار والتراث ثـم شرعت بعثة من المعهد الشـرقي التابع لجامعة شيكاغو بالحفر فيها منذ عام ١٩٤٨ واستمرت لغاية عام ١٩٥٥ وقـد اسفر الحفريـات عـن اظهـار

ست عشرة طبقة اثرية او دور سكنية مشيدة بالطوف او الطين غير المنتظم وكانت الطبقات الاحدى عشرة الاولى اعتبارا من التربة البكر في الاسفل خالية من الاواني او الكسرات الفخارية ولذلك سميت هذه المرحلة القروية التي عاشها طلائع الفلاحين من سكان هذه الدور بفترة ماقبل الفخار ممايدل على انها فترة بدائية في سلم التطور القروي . وقد كشفت التنقيبات اثارا مشابهة لهذه الفترة في عدة مستوطنات قديمة في اقطار الشرق ادنى نذكر منها قرية اريحة في فلسطين وقرية جتل هويوك في اسيا الصغرى ، وفي جرمو وجدت الصناعات الفخارية في الطبقات الخمس العليا فقط ، وكان فخار الطبقتين الخامسة والرابعة احسن الانواع التي ظهرت في هذه القرية ولكن الاواني الفخارية بوجه عام تدل على انها سجة سميكة الجدران هشة بسبب اعدادها في درجة حرارة منخفضة نسبيا وطينتها غير نقية مخلوطة بشوائب كثيرة وهي غير مدلوكة وغير مزخرفة ولكن قليلا من فخاريات الطبقة الخامسة والرابعة كان مزينا بخطوط متقاطعة بلون اسود او احمر ، لقد وجد مثل هذا المستوى من الانتاج للفخار في قرى اخرى مثل قرية تسشارة في سهل رانية وهي قرية تعاصر موجوداتها بقايا اثار سكان قرية جرمو كما وجد في قرية اخرى تسمى كرد علي آغا الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الزاب الكبير على بعد خمسة وسبعين كيلو مترا شرقي نينوى .

والاهم من الفخار ان هذه القرية كشفت عن بعض الحبوب الغذائية البرية الصالحة للتدجين فقد وجد نوعان من القمح ليسا بعيدين عن الاصل البري الذي ينمو نموا طبيعيا في المنطقة ووجد نوع من الشعير ايضا وكذلك العدس والحمص ووجدت كميات من هذه الانواع من الحبوب متفحمة وبنفس الوقت استمر جمع ثمار بعض الاشجار مثل البلوط والفستق على غرار ماكان يحدث قبل الاهتداء الى الزراعة بدليل وجود نماذج منها في الانقاض اما الحيوانات التي دجنها القرويون في شمال العراق ووجدت

بقايا عظامها في قرية جرمو فكانت الماعز والغنم والخنزير ، اما البقر فيبدو
ان تدجينه لم يحصل في هذا الوقت بل تأخر قليلا ، ووجدت كميات كبيرة
من القواقع مما يدل على انها كانت تؤلف جزءا مهما من طعام القرويين .
اما الالات والادوات المنزلية التي استخرجت من الانقاض فتدل على تطور
وتقدم صناعي فوجدت مثلا الملاعق وابر الخياطة المصنوعة من العظام كما
وجدت صنارات الابواب الحجرية والاواني الحجرية ويستدل من اقراص
المغازل الصوانية على معرفة بالغزل والحياكة مثل غزل الصوف والقنب ،
اما الالات الحجرية فكانت دقيقة الصنع قطعت من حجر الصوان او الزجاج
البركاني ومن بينها شظايا صغيرة جدا كانت تثبت بالخشب بواسطة القير
على هيئة مناجل تستخدم للحصد وكان اهل القرية يستوردون الزجاج
البركاني من منطقة بحيرة وان في ارمينيا ، اما الآلات الكبيرة فقد صنعت من
الحجر البركاني او حجر الرمل اوحجر الكلس مثل الفؤوس والرحى والمطاحين
والمدقات والهواوين والاواني المنزلية والمجارش المستخدمة في طحن الحبوب
كما اكتشفت تنانير لعمل الخبز تشبه التنانير التي يصنعها القرويون في هذه
الايام، ومن الكماليات ومواد الزينة التي استعملها سكان قرية جرمو القلائد من
خرز مصنوعة من الحجارة والطين او الصدف او المحار والاساور المصنوعة
من انواع جيدة من الحجارة كالمرمر والرخام كذلك صنعوا الخواتم والصخور
المعمولة بشكل مستوى لسحق الاصباغ وتحضير عجائن الالوان فوقها وفي
الفترة التي سبقت صناعة الفخار في جرمو صنع البعض من السكان مجموعة
من الدمى الطينية ومن بينها نماذج ممثلة لنساء عاريات ومنفذة بشكل مصغر
وتبدو النسوة بدينات حبالى من النوع الذي فسر بانه اقدم نموذج لما اطلق
عليه اسم الالهة الام التي ترمز لقوى الخصب والانجاب وقوى الطبيعة
المولدة الغامضة .

وتطور البناء فبعد ان كان الفلاحون يسكنون اكواخا بدائية مستديرة

الشكل في الفترات السابقة تعلموا بناء بيوت مستطيلة من اللبن وكانت بعض البيوت تبنى فوق اسس من الاحجار الطبيعية وكانت الجدران تكسى بطبقة من ملاط طين ناعم وبلطت ارضيات الدور فوق القصب كما استعمل القصب واغصان الاشجار لتسقيف البيوت وبلغ معدل طول الغرف في البيت الواحد مابين خمسة او ستة اقدام وكان البيت الواحد يحتوي اكثر من غرفة واحدة وقد قدر رئيس هيئة التنقيب الاستاذ روبرت بريدوود عدد سكان هذه القرية بحوالي مئة وخمسين شخصا وخمن استمرار القرية بطبقاتها الست عشرة بمدة اربعة قرون •

الخلاصة ان قرية جرمو تمثل اقدم القرى الفلاحية وقد تأسست حين صارت الزراعة وتدجين الحيوان عماد حياة الانسان منذ انقلاب العصر الحجري الحديث في الالف الثامن قبل الميلاد ، بيد ان هذا التحول كان آنذاك يتصف بالاكتفاء الذاتي أي ان كل عائلة مزارعة تنتج بنفسها وتصنع الادوات البدائية الخاصة بها ولم يظهر التخصص الكامل بعد في حياة الانسان ومع ذلك فقد كان هذا التحول الاقتصادي يحمل جنين التطورات التي حصلت تدريجيا في القرى التي تأسست في العصور التالية •

قرية حسونة

شهدت هذه القرية تطورات الثورة الزراعية بشكل اوضح مما في قرية جرمو كما انها تشير الى انتشار القرى في السهول الشمالية بعد بدء الاستيطان الزراعي في سفوح الجبال • يضم تل حسونة الذي يقع في ناحية السورة بمحافظة نينوى بقايا قرية مبكرة قديمة تقع على بعد خمسة وثلاثين كيلو مترا جنوبي بلدة الموصل • يبلغ ارتفاع التل زهاء سبعة امتار عن السهل المجاور . جرت فيه التحريات الاثارية بادارة المؤسسة العامة للاثار والتراث في عام ١٩٤٣ — ١٩٤٤ وقد كشفت التحريات عن استمرار

استيطان حوالي عشرة اجيال من التجمعات السكانية التي وجدت مخلفاتها في ست عشرة طبقة رئيسية ظهرت في اسفلها اثار مستوطن زراعي مبكر على مايسميه الاثاريون بالتربة العذراء . ويبدو ان المستوطنين كانوا يسكنون الخيام اذ لم يعثر على بقايا بيوت متشيدة بل على كسيات من فخار العصر الحجري الحديث، وجاء بعد الفلاحين الذين سكنوا في مضارب الخيام احفادهم الذين وجدت اثارهم في الطبقات التالية وقد تقدم هؤلاء مراحل ابعد من اسلافهم اذ صاروا يشيدون مساكنهم من الطين ولكنهم سرعان ماعرفوا صنع اللبن من الطين ووجدت في قريتهم التي شغلت الطبقات الخمس السفلى مخازن للحبوب على هيئة احواض وجرار كبيرة من الطين غير المفخور كانت تدفن في ارض الدار حتى حافاتها وتغطى فوهتها بالتراب والقير وكانو يخبزون الخبز في تنور من الطين وصنعوا الاتهم وادواتهم المنزلية من الحجارة والعظم والخشب كالهواوين ومناجل الصوان والمحاريث ورحى الطحن والفؤوس الحجرية واقراص المغازل ودمى الطين التي تشير الى نوع من عبادة الالهة الام ويستدل من بعض الاثار المكتشفة ان الفلاحين زرعوا القمح والشعير من انواع برية كانت تنمو في المنطقة نموا طبيعيا وقد اعتمدوا على امطار الديم وخصوبة الارض واستخدموا مناجل لحصد الحبوب قطعت من حجر الصوان او الزجاج البركاني تتألف من شظايا صغيرة مثبتة بالقير في حامل خشبي كما استعملوا اطباقا فخارية ذات نتوءات لجرش الحبوب وفصل قشورها واستخدموا رحي حجرية لطحنها ، ويظهر من عظام الحيوانات انهم دجنوا الاغنام والماعز وظهرت في هذه القرية عدة انواع من الاواني الفخارية فالقديم منها رديء بسيط الشكل خال من النقوش الملونة او مزخرف بنقوش هندسية ذات لون واحد هو اللون الاسود اما النوع النموجي فمزين بزخارف هندسية محزوزة او ملونة باللون الاسود او محزوزة وملونة بنفس الوقت ، وهناك النوع المتطور الذي يسميه البعض

عصر سامراء ويخصص له دورا حضاريا متميزا ، ومهما يكن فان هذا العصر المتطور هو وحيد اللون وفيه نماذج ملونة ومحزوزة في ان واحد وزخارفه هندسية وبعضها طبيعية تتواجد فيها الطيور والاسماك والعقارب والايائل والبقر وجميع هذه الانواع مصنوعة باليد ويستدل من مواد لا وجود لها في المنطقة على صلات خارجية بالغير فقطع الزجاج البركاني استوردت من تركيا وارمينيا لعمل الآلات وخصوصا المناجل ورؤوس السهام واستوردت الاصداف البحرية من منطقة الخليج العربي لصنع الحلي كما استورد القير من منطقة حمام العليل لطلاء اطباق الجرش ومخازن الحبوب . ومما يشير الى صلاتهم الخارجية المجاورة انتشار اوانيهم الفخارية في كثير من المواقع الاثرية وفي موقع اقطار الشرق الادنى المجاورة : لقد عرف زمن هذه القرية باختبار كربون ١٤ الاشعاعي لمادة عضوية من الطبقة الخامسة وكان التاريخ ٧٢٥١ زائد او ناقص ٢٠٦ سنة مضت ومن المحتمل ان تكون بدايات هذه القرية اقدم عهدا ولكن الاستيطان فيها استمر فيعصور لاحقة ايضا .

قرية الصوان

ومن المواقع الاثرية التي اكتشفت فيها اثار القرى الزراعية الموقع المسمى تل الصوان الواقع على ضفة دجلة اليمنى على بعد نحو احد عشر كيلو مترا جنوب بلدة سامراء وهو تل صغير يرتفع عن السهل المجاور زهاء ثلاثة امتار . قام بالتحري في هذا التل المنقب الالماني هرتسفلد في عام ١٩١٢ اثناء حفرياته في مدينة سامراء واتضحت اهميته بعد دراسته من قبل المختصين في المؤسسة العامة للاثار والتراث حيث وجد ان اغلب اللقى الاثرية التي جمعت من سطح التل هي من فخاريات عصر حسونة القديم والمتطور (عصر سامراء) فيشرع بالحفر فيه منذ عام ١٩٦٤ واسفرت تلك الحفريات عن نتائج مهمة في خمس طبقات رئيسية وجميعها يمثل مرحلة زراعية اكثر

بعدما من تلك التي اسفرت عنها الحفريات في جرمو فقد وجدت في الطبقة الاولى بقايا بيوت مشيدة باللبن وهي على جانب كبير من التطور بالنسبة الى البيوت السابقة كما وجدت آثار خندق يعتبر الاول من نوعه في العراق كان عرضه ٥ر٢ مترا وعمقه ثلاثة امتار ووجدت آثاره في خمس نقاط ويدل هذا الخندق على وجود جماعة مستقرة قادرة على الدفاع المنظم واعتمد اهل الطبقة الاولى من هذا المستوطن في قوتهم على زراعة القمح والشعير وكانت زراعة هذين النوعين من الغلال تعتمد على السقي كما هي الحالة الان في نفس المنطقة لقلة الامطار في وسط العراق وقد وجدت نماذج من الحبوب المتفحمة في جهة من الضلع الشمالي من الخندق الدفاعي وتبين من دراسة المختصين لها انها حبوب القمح والشعير وبذور الكتان والقنب وبالاضافة الى الزراعة مارس القرويون رعي الحيوانات الاليفة وصيد الوحشية منها فقد زودنا البحث الدقيق في التربة من مختلف اجزاء البقايا البنائية بمجاميع من بقايا عظام الحيوانات المدجنة والبرية التي اقتات سكان المستوطن على لحومها واستفاد من بقاياها الاخرى ؛ وقد اكد المتخصصون ان تلك العظام تعود للخراف وكذلك الغزلان والثيران البرية ومن الابنية التي تستحق الذكر بناء واسع منشيد باللبن وجدرانه مسلطة بالطين يرجح ان تكون له صفة عامة او دينية ولعله كان من بيوت العبادة ويؤيد هذا الاحتمال ماوجد فيه من التماثيل الصغيرة من المرمر من النوع الذي يسمى بتماثيل الالهة الام وكشف في الطبقات الاولى من هذا التل عن مجموعات من القبور المهمة يربو عددها على مائة قبر وجدت فيها بالاضافة الى الهياكل العظمية مجموعة ثمينة من الاواني الحجرية ودمى صغيرة منحوتة من حجر المرمر السمعي الجميل كما وجدت مجموعة من الحلي بعضها من احجار كريمة مثل العقيق والفيروز والزبرجد وقد حفرت هذه القبور في ارضيات بيوت الطبقة الاولى فوق الارض البكر ووجد في احدها هيكل امرأة مطلي بالمغرة دفنت

معه ملائد من الخرز المختلفة من بينها خرز من النحاس الخام ، ومما يلفت النظر في اثار هذه القبور كثرة ماوجد فيها من تلك التماثيل المنحوتة من المرمر ووجدت في المخازن والغرف اعداد كبيرة من الالات والادوات المصنوعة من الحجر استعملت لطحن وجرش الحبوب وتهيئة الطعام وللحراثة والحصاد ومن بينها مجارش بعضها بشكل سرج الحصان ومدقات كروية وطويلة وهواوين ومناجل من حجر الصوان وثقالات لجومة الحياكة وطبلات لمزج الاصباغ وصنارة باب ، وعثر على مجموعة جيدة من عدة الخياطة من العظم كالابر والمخارز وهي ادلة قاطعة على ممارسة سكان هذا المستوطن لخياطة الملابس من الجلد او الصوف او الشعر الذي كان يغزل بمغازل تصنع اقراصها من الفخار او الحجر ، والكشف عن ثقالات من الحجر او الفخار تعود الى انواع بدائية من جوم الحياكة خير دليل على حياكة الاقمشة وتهيئتها للملابس والحاجيات الاخرى .

ان فخاريات تل الصوان تدل على ان المستوطن يمثل الحدود الجنوبية لانتشار القرويين من عصر حسونة فقد وجدت في الطبقات السفلى اواني وكسور فخارية من نوع فخار حسونة القديم ثم النموذجي ثم المتطور في الطبقتين الاخيرتين ، وقد توفرت كافة الانواع كالاواني البسيطة الخالية من النقوش والمدلوكة والملونة والمحززة ثم الملونة والمحززة بنفس الوقت . يعود تاريخ الطبقة السفلى من قرية الصوان حسب اختيار كربون ١٤ الاشعاعي لحوالي ٧٤٥٦ زائد او ناقص ٧٣ سنة مضت .

قرية مطارة

وجدت اثار زراعية مبكرة في تل قرة يطخ الذي يبعد نحو اربعة كيلو مترات من بلدة مطارة التي تقع جنوبي مدينة كركوك ، لقد كشفت اثار هذا التل بعثة امريكية من المعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو في سنة

١٩٤٨ ووجد شبه قوي بين اثارها واثار تل حسونة ولاسيما في الفخاريات حتى انه يمكن القول ان قرية مطارة تمثل تنوعا جنوبيا للموجد في قرية حسونة من فخار قديم ونموذجي ومتطور اضافة الى الالات والادوات الزراعية وعظام الحيوانات المدجنة وبقايا الحبوب الزراعية مما يدل على ان سكان القرية لهم علاقة وثيقة بالزراعة وبرعي الحيوانات من اجل فوائدها الاقتصادية ويعود تاريخ هذه القرية حسب اختبار كربون ١٤ الاشعاعي الى حوالي٧٥٧٠ زائد او ناقص ٢٥٠ سنة مضت وقد استمرت هذه القرية مأهولة بالسكان في العصرين اللاحقين حلف والعبيد .

قرية ام الدباغية

وفي تل ام الدباغية التي تقع في هضبة الجزيرة على بعد ستة وعشرين كيلو مترا الى الغرب من مدينة الحضر وجدت بعثة انكليزية اطلال قرية زراعية كانت تعيش على زراعة القمح والشعير والعدس والبازلياء وعلى رعي الماعز والاغنام والماشية والخنازير وقد اتضح بان اقدم المقرات السكنية في هذه القرية كانت عبارة عن مبان مدورة او بيضوية متجاورة وقد استخدم بعض اجزائها للخزن ، وهناك مخازن تبدو وكأنها جماعية وليست خاصة بعائلة واحدة ويجدر بنا ان نذكر ان فخاريات هذه القرية تشبه كثيرا فخاريات قريتي حسونة ومطارة مما يدل على تزامن هذه القرى الثلاث وعلى نوع من الصلات بينها ولقد تحددت بقايا هذه الفترة الحضارية تاريخيا بمقارنتها مع موقعين اخرين هما تلول الثلاثات وتل السوطو ويؤرخ الموقع الاول باختبار كربون١٤ الاشعاعي بحدود ٧٥٧٠ زائد او ناقص ١٢٠ سنة مضت .

قرية نينوى

تقع خرائب هذه القرية القديمة في مدينة الموصل تحت انقاض المباني

الاشورية في مكان يسمى تل فوينجق • قامت بعثة انكليزية من المتحف البريطاني بتحرياتها في عام ١٩٣١ ــ ١٩٣٢ للحصول على فكرة عن تسلسل عصور قبل التاريخ في هذه المنطقة فكشفت خمس طبقات رئيسية وجد فيها قليل من المخلفات وقد وجدت اثار قرية مبكرة في الطبقة الاولى المستقرة على الارض البكر وفي القسم الاكبر من الطبقة الثانية التي تليها حيث عثر على بعض انواع فخاريات حسونة واستمرت هذه القرية مأهولة بالسكان في الازمان اللاحقة في عصر حلف والعبيد وفجر التاريخ وفجر السلالات •

قرية يارم تبة

تقع انقاض هذه القرية القديمة في سهل سنجار على بعد سبعة كيلو مترات الى الجنوب الغربي من بلدة تلعفر وتتألف من ستة تلول تمتد على جانبي نهر صغير يسمى آري ثلاثة منها على كل جانب • جرت الحفريات فيها من قبل بعثة اثارية سوفيتية ووجدت اثار قرية مبكرة في التل الاول في اثنتي عشرة طبقة سكنية اما التل الثاني فقد بدأ الاستيطان فيه في زمن لاحق حيث وجدت فخاريات ملونة وغير ملونة ومبان مستديرة الشكل تعود لعصر حلف •

قرية شمشارة

تل شمشارة هو احد مواقع سهل رانية التي اسفرت التحريات الاثرية فيه عن نتائج مهمة من ناحية الزراعة والحياة القروية المبكرة • يقع هذا التل على الضفة اليمنى من نهر الزاب الصغير وعلى بعد نحو ثمانية كيلو مترات جنوب شرق بلدة رانية• وعندما بدأ تنفيذ مشروع خزان دوكان في عام ١٩٥٦ قامت المؤسسة العامة للاثار والتراث بتحريات اثرية في المنطقة التي غمرتها فيما بعد مياه هذا الخزان فرصدت كثيرا من التلول الاثرية ثم اختارت المهم منها لاجراء تنقيبات اثرية أنقاذية وكان نتيجة تلك التحريات

تسجيل نحو اربعين موقعا اثريا في منطقة الفيضان والشروع بالتنقيبات في المهم جدا منها منذ سنة ١٩٥٦ واستمر العمل الى عام ١٩٦٠ وكان السد قد تم بناؤه في عام ١٩٥٨ . وقد ابانت نتائج التفتيش والتنقيب ان هـذا السهل الخصيب استوطنه الانسان في عصور القرى الزراعية المبكرة واستمر الاستيطان فيه في جميع عصور قبل التاريخ والعصور التاريخية التالية وفي تل شمشارة الذي ارتفاعه عن السـهل المحيط به نحو تسعة عشر مترا نقبت بعثة اثرية دانمركية في عام ١٩٥٧ وبعد توقف اعمال هذه البعثة في عام ١٩٥٨ تولت المؤسسة العامة للاثار والتراث العراقية التنقيبات فكشفت في الخندق الاثري من اعلى التل الى اعمق الطبقات في الاسفل عـن بقايا عشر طبقات اثرية تعود الطبقات الثماني الاولى منها (١٦ــ٩) الى عصر المرحلة الاولى من القرى الزراعية وكانت الطبقات الثلاث الاولى (١٦ــ١٤) خالية من البقايا الفخارية ويرجح انها كانت تعاصر قرية جرمو في الزمـن الذي سبق صنع الفخار فيها ووجدت الات حجرية زراعية دقيقة الصنع اما القرى التي تمثلها الطبقات الاخرى (١٣ــ٩) فقد ظهر فيها الفخار الذي كان قوي الشبه بفخار حسونة مما يرجح تزامن القريتين .

وفي الالف الخامس قبل الميلاد تأسست قرى المرحلة الثانية وهي اكثر تطورا من سابقاتها وشهدت تقدما حضاريا مهما مهد الطريق لقيام الحضارة في مطلع الالف الرابع قبل الميلاد ففي هذه الفترة ازدادت القرى واتسـعت رقعتها وتطور بعضها في النهاية الى المدن ، واتسعت الزراعة التي كانت تتصف فيما مضى بالاكتفاء الذاتي من ناحية الانتاج الزراعي وصار الفلاحون يبادلون فائض الانتاج والسلع والحاجات التي تخصصت في صنعها وبعبارة اخـرى ظهر في هذا الوقت تقسيم العمل وطلائع التخصص وفي هـذا الوقت بـدأ استيطان السهول الزراعيـة ثم السهول الرسوبيـة في الاقسام الوسـطى والجنوبية من القطر وظهرت زراعـة الري بالانهـار والجداول وتميـزت

فخاريات هذه القرى بكونها من النوع الملون والمزخرف وبعض انواعه من اجمل ما انتجته الحضارات القديمة •

قريــة الاربجيــة

الاربجية او تبة رشوة كما تسمى في الوقت الحاضر تقع على بعــد ثمانية كيلو مترات شمال شرق نينوى العاصمة الاشورية القديمة وهــو تل صغير يرتفع عن مستوى الارض المجاورة بمقدار خمسة امتار ونصف المتر اكتشف هذا الموقع في سنة ١٩٢٨ وفي عام ١٩٣٣ تحرت فيه بعثة انكليزية وفي عام ١٩٧١ نقبت فيه بعثة عراقية • تشتهر هذه القرية بفخارياتها الجميلة التي اكتشفت اول مرة قبل الحرب العالمية الاولى في تل حلف الذي يقع على نهر الخابور بالقرب من قرية رأس العين على الحدود السورية التركية ولما كانت الفخاريات لاتثير اهتمام المنقبين آنذاك ، فقد بقيت أهمية الدور الحضاري الذي تمثله تلك الفخاريات مجهولة الى ان نشرت المعلومات عنها في عام ١٩٣١ ومنذ ذلك الوقت بدأ الاهتمام بها وخصوصا بعد ان جرت التنقيبات في قرى قديمة اخرى وفي الحقيقة اتضحت اهمية تلك الفخاريات ومارافقها بشكل ادق بعد التنقيبات التي اجرتها البعثة الانكليزية هنا في قرية الاربجية حيث امكن تمييز دورين رئيسين الاول في خندق الاختبار العاشر والتاسع والثامن ، والثاني في خندق الاختبار السابع والسادس والخامس وامكن تمييز اثار الدورين ايضا فيما استخرج مــن ســفوح التل ايضــا واستمر الاستيطان في هذه القرية طيلة عصر العبيد التالي ومما يزيد الاعجاب بتلك الاواني الفخارية انها صنعت باليد حيث لم يستعمل دولاب الخزف بعد ولكن روعةهذه الاوانيوانتظام شكلها وجمالزخارفها مازالت تثيرالدهشةوالاعجاب وصنعت انواع عديدة من الاواني مثل القدور والصحون والاطباق والاقداح والجرار والاباريقإما الزخارف فهي ذات اشكال متناسقة كالنقوش الهندسية

والنباتية والحيوانيةمثل الازهار واوراقالنبات والشجيرات والطيور والافاعي والغزلان ، ورؤوس الثيران الطبيعية او المرسومة بهيئة رمزية وشاع تلوين هذه الاواني فيالدور الاول باللون الاسود وفيالدور الثاني بلونين او بعدة ألوان، كالاحمر والبرتقالي والاصفر والبني والاسود واختلف الباحثون في اصل هذا الفخار وتحديد الموطن الذي نشأ فيه ، ويرى البعض انه من اصل سوري ويرى آخرون انه من اصل اغريقي ويستدلون على ذلك بالمباني المدورة الشكل التي عثر عليها في شمال العراق والتي وجد مثلها في قبرص وكريت ومايسيناى من وقت احدث بالنسبة الى تاريخ اثار عصر حلف في العراق ، يضاف الى ذلك استعمال بعض الدمى والرموز الدينية مثل الدمى التي تمثل الالهة الام والحمامة والفأس ذات الحدين ورأس الثور ، وقد وجدت مثل هذه الرموز في كريت ولما كان فخار حلف اقدم من هذه الاثار بعدة قرون فمن المعقول القول ان هذه المظاهر الحضارية الاغريقية هي ذات تأثير عراقي ومما يرجح رأينا في ان هذا الفخار من اصل محلي بشمال العراق هو اكتشافه في قرى عراقية قديمة كثيرة قريبة من بعضها بشكل طباقي وسليم يتدرج فيه.. تطور تقنية صناعته واشكاله ونقوشه من انواع بسيطة الى انواع معقدة وراقية ووجوده مع فخاريات عصر حسونة السابق في طبقات انتقالية في عدة قرى اثرية وهذا هو الذي يجعلنا نرشح شمال العراق موطنا له ويظهر ان هذه الصناعة الفخارية انتشرت في الجهات الغربية بطرق القوافل التجارية عبر الفرات والجزيرة الى منطقة البحر المتوسط والاناضول فقد وجدت في منطقة الخابور في قرية براك وقرية شاغر بازار وقرية حلف وانتشرت كذلك عن طريق نهر البالخ حيث وجدت في تل اسود وتل زيدان وعن طريق كركميش (جرابلس) الى او غاريت (راس شمرا) القديمة على ساحل البحر المتوسط والى تلكي تبة على بحيرة وان في اسيا الصغرى .

وتشير سعة القرية التي اكتشفت بقاياها في تل الاربجية الى تقدم قرى

الفلاحين من حيث التنظيم واساليب البناء واصبحت الاربجية بفضل ذلك اقرب ماتكون الى مدينة صغيرة تقدم فيها بناء بيوت السكن وترتيبها في شوارع مبلطة بالاحجار الطبيعية ومع ان الطين بقي المادة الشائعة في بناء البيوت الا انه ظهر كذلك استعمال اللبن . وفي أواخر عصر حلف تأسس في هذه القرية نوع غريب من الابنية هي الابنية المدورة التي اكتشف منها في قبرص وكريت ومايسيناي في البلاد اليونانية . وفي الاربجية وجدت عشرة مبان من هذا النوع يبلغ قطرها مابين خمسة ونصف متر وسبعة امتار وهي مشيدة من الطين على اسس من الحجارة على هيئة خلايا النحل ويظن انها كانت تسقف معقودة ووجد للبعض منها مدخل امام البناء بشكل حجرة مستطيلة ولكن لم يعثر في أي منها على بقايا عظمية بخلاف مايماثلها من المباني القبرصية والمايسينية التي كانت قبورا ولم يجد البا حثون حتى الان تفسيرا مقبولا وواضحا لوظيفة هذه الابنية في شمال العراق ، ويرجح البعض ان يكون الكبير منها كالمبنى الموجود في مركز قرية الاربجية نوعا من المعابد او المزارات الدينية او مضيفا للمجتمع القروي ووجد آخرون فيها طرازا خاصا من دور السكن ومما يؤيد هذا الرأى الانواع الجديدة المكتشفة في قرية ترلو بآسيا الصغرى حيث ثبت انها بيوت للسكن .

وبالاضافةالى الفخار والمباني السكنية وجدتفي هذه القرية آلاتوادوات زراعية وبقايا حيوانات مدجنة تدل على ممارسة الزراعة والرعي كما وجدت انواع جيدة منالقلائد والاقراص الحجريةالصغيرة المزخرفة بخطوط مستقيمة او متقاطعة ربما كانت تستعمل لختم السدادات الطينية للجرار كما وجدت رؤوس العصي الحجرية والعوذ الحجرية والدمى الحيوانية والتماثيل البشرية للالهة الام التي صنعت بهيئة امرأة بدينة تضع يديها على ثدييها وجسمها مزين بخطوط ونقط يظن انها نوع من الوشم ، تعود هذه القرية حسب اختبار كربون ١٤ الاشعاعي لنحو ٧٠٧٧ او ٦٩٨٠ سنة مضت .

قريـة بانـا هلـك

يقع كرد بانا هلك في منطقة راوندوز على بعد كيلو متر واحد جنوب غرب قرية ديانا الحديثة وهوتل صغير لا يزيد ارتفاعه عن مستوى السهل المجاور اكثر من خمسة امتار • نقبت فيه بعثة امريكية من المعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو في عام ١٩٤٥ واخرجت منه فخاريات حلف بنوعيها الملون وغير الملون التي ظهرت نماذجها في قرية الاربجية ايضا •

وبالاضافة الى الاواني الفخارية فقد تم الكشف عن عدد من المخلفات الاثرية كالاواني والالات الحجرية والصناعات العظمية ، ويظهر من اختبار كربون ١٤ الاشعاعي ان هذه القرية عاشت قبل ٦٩٠٤ زائد او ناقص ٧٢ سنة مضت وحسب اختبار آخر قبل ٦٨٠١ زائد أو ناقص ٨٥ سنة مضت •

قريـة بكـم

يقع تل بكم في وادي شهرزور • تحرت فيه المؤسسة العامـة للاثار والتراث العراقية في سنة ١٩٦٠ وتبين لها ان القرية كانت مستوطنا تأسس في عصر حلف حيث وجدت فخاريات كثيرة من هـذا النوع كما وجدت مبان مدورة الشكل على غرار المباني التي اكتشفت في قرية الاربجية ويظهر من وجود فخاريات اخرى ان القريـة استمرت مأهولة بالفلاحين في عصـرى العبيد والوركاء التاليين •

قريـة ابراهيـم عـزو

تقع اطلال هذه القرية على بعد سبعة عشر كيلو مترا شمال غرب مدينة الموصل • حفرت فيها المؤسسة العامة للاثار والتراث في عام ١٩٨٢ فوجدت مباني مدورة الشكل واواني فخارية حلفية الطراز كما استخرجت منها اوانى حجرية ومجموعة من اقراص المغازل والادوات العظمية والدمى الطينية ويظهر ان القرية استمرت مأهولة في عصرى العبيد والوركاء التاليين

قريــة حســـن

مخلفات هذه القرية القديمة يضمها تل معروف بهذا الاسم يقع بالقرب من عيون الخشالات بمنطقة حمرين ، وقد وجدت المؤسسة العامـة للاثار والتراث العراقية فيه مستوطنا قديما بقيت منه مخلفات عماريـة لمبنى مدور الشكل وفخاريات متعددة الالوان من عصر حلف ، ويبدو ان القرية استمرت في عصر العبيد التالي •

قريــة جوخــة مامـي

تقع انقاص هذه القرية القديمة على بعد بضعة كيلو مترات الى الشمال من بلدة مندلي • بدأت التنقيبات فيها بعثة اثرية مشتركة مـن المدرسـة الاثرية البريطانية في بغداد والمعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو في عام ١٩٦٧ وتم اخراج فخاريات عصر حلف من بئر في القرية وكانت هذه الفخاريات متعددة الالوان ولها شبه بفخاريات قرية الاربجية وقد امكن الوصول الى تاريخها بطريقة كربون ١٤ الاشعاعي بحوالي ٦٨٩٦ سنة مضت ويظهر ان القرية تمثل النهاية الجنوبية لانتشار قرى عصر حلف في العـراق ، وتدل الاثار على استمرار السكن في هذه القرية في عصر العبيد وفجر السلالات والعصر الاكدي •

اما قرى المرحلة الثالثة فقد انتشرت في جميع انحاء العراق في عصر العبيد بينما كانت القرى السابقة منتشرة في المنطقة الشمالية بالدرجة الاولى ووجد قليل منها في الوسط ولم يعثر لها على اثر في الجنوب • فقبل نهاية عصر حلف في تبه كورا بدأت عناصر قوية من حضارة العبيد بالظهور ويمكن القول انه في المناطق الوسطى الجنوبية قامت المدن التاريخية المشهورة فوق انقاض القرى العبيدية كما تشير الى ذلك التحريات التي تمت في مدن كثيرة مثل اور واريدو ولجش ونفر والوركاء وغيرها ويمكن ان يقال ايضا انه في نهاية الالف الخامس قبل الميلاد كانت عدة قرى مـن عصر العبيد منتشرة على النهيرات

المتفرعة من الانهار الرئيسية وتتميز هذه القرى المتطورة بالاسوار وبازدياد عدد سكانها بدليل ازدياد عدد دور السكن وكثرة القبور التي تجمعت بهيئة مقابر عامة خارج المستوطنات فقد وجد مالا يقل عن الف قبر في اريدو وكانت هذه القبور منتظمة ومبنية باللبن وتطورت المعابد من حيث ازدياد مساحتها وتعدد مرافقها ومتانة بنائها وتطور طرزها العمارية وحصل بعض التقدم في التعدين اذ وجدت فؤوس نحاسية في قرية تبه كورا مع الالات التي صنعت من الحجارة او الفخار مثل رؤوس المحاريث التي كانت تجرها الثيران والحمير ومثل المناجل الفخارية واقراص المغازل والمسامير والاوتاد اما صناعة الاواني الفخارية فتدل على ضعف في المستوى الفني اذا قورنت بالاواني الفخارية من القرى السابقة من حيث تقنية الصناعة والزخرفة والتلوين ، اذ لونت بلون واحد هو اللون الاسود ، وقد اضيف هذا اللون الى سطح خال من الطلاء اما النقوش الزخرفية فقد اصبحت اقل روعة وجمالا واتسعت الزراعة واصبحت بالضرورة زراعة ري في السهول الرسوبية الوسطى والجنوبية وكانت زراعة الري في مراحلها الاولى تمثل اولى تجارب ومحاولات مشاريع الري وكانت في مقدمة العوامل التي حفزت الانسان على تنظيم المجتمع وظهور المعالم الاولى من نظام الحكم ، ومع ان الحبوب استمرت طعاما رئيسيا في الجنوب مثلما كانت في الشمال فان التمر دخل في قائمة مواد الطعام وكان السمك مع لحم المواشي مصدرا مهما للغذاء ، وكان لظهور المعبد اثرمهم في التنظيمات الادارية والاقتصادية والاجتماعية .

وكان لسكان هذه القرى اتصالات تجارية مع الاقطار المجاورة لتوريد المواد الضرورية وكانت تلك الاتصالات تستخدم في الغالب الطرق البرية مع بلاد الشام واسيا الصغرى وايران فقد وجدت لهم آثار كثيرة في القرى

الزراعية بهذه الاقطار مثل قرى وادي العمق وقرية الشيخ وقرية الاحيمر وقرية جدل وقرية مفش وقرية زيدان وقريةحلف في القطر السوري وقريةيومك وقرية كوبا وقرية سكجةكوزو بآسيا الصغرى وقرية الشوش في ايران ووجدت دلائل اثارية تشير الى ان بعض تلك الاتصالات كانت بطريق البحر ونذكر بهذه المناسبة نموذج القارب المصنوع من الفخار الذي وجد في قرية اريدو ويعتقد ان اريدو واور القريبة منها كانتا قريبتين مــن ساحل الخليج العربي وربما كانتا تتصلان بالخليج بواسطة منخفض مائي كبير وفي السنوات الاخيرة تم تفتيش اثاري في بعض جهات المملكة العربية السعودية ولاسيما في المناطق الساحلية من الخليج ورصد اكثر من سبعة عشر موقعا اثريا وجد في البعض منها اثار من عصر قرى العبيد كما وجدت آثار قروية من عصور لا حقة في واحة البريمي في الامارات العربية المتحدة وفي البحرين ومن بين العديد من المستوطنات الزراعية القروية القديمة التي كشفت عنها التحريات الاثرية نود ان نذكر هنا قرى : اريدو واور وحاج محمد والعقير وتبه كورا وخفاجة وتل اسمر ولجش والوركاء وبسماية ونوزى وكري رش وقرة تبه وتل سفرة وبحريات والهبة وسنوجز في السطور التالية الكلام عن القرى التالية :

قريــة اريــدو

تقع قرية اريدو القديمة على بعد نحو اربعة وعشرين كيلو مترا جنوب غرب مدينة اور القديمة في منطقة رمليــة صحراويــة ولكنها لــم تكن كذلك في العصور السالفة ، اذ تشير الادلة الاثارية الى ان مجرى نهر الفرات القديم او فــرع منه كان يرويها بعد مروره بمدينة اور القريبة منها وابرز مايشاهد الآن في هذه القرية القديمة عدة مرتفعات تغطيها الرمال وبقايا برج مدرج بني في عصر فجر التاريخ ، باشرت المؤسسة العامة للاثار والتراث

تنقيباتها في السنوات ١٩٤٦ ــ ١٩٤٩ ونشرت النتائج في تقرير عام في سنة ١٩٨١ .

ويستدل من نتائج تلك التنقيبات ان اريدو كانت واحدة من اقدم اماكن الاستيطان في السهل الرسوبي اذ وجدت فيها مخلفات تسع عشرة طبقة اثرية تمثل كل منها دورا سكنيا وتعود الطبقات الخمس العليا منها الى عصر الوركاء وفجر التاريخ وفجر السلالات والبقية الى عصر العبيد ، ويظهر من نتائج التحريات ان استيطان الفلاحين في هذه القرية انقطع تقريبا من بعد عصر الوركاء واقتصرت حياة القرية في العصور التاريخية اللاحقة على جملة بنايات ذات طابع رسمي وديني تعهدها الموظفون والكهنة التابعون للمعبد والزقورة وما يتبعهما وقد تبين ان اقدم قرية تأسست في الطبقة التاسعة عشر فوق ارض كانت خالية من المباني مما يشير الى ان طلائع القرويين سكنوا في الاكواخ. اما مباني القرى الاخرى في الطبقات التالية فقد شيدت من الطين ثم من اللبن وكشفت التنقيبات بالقرب من منطقة الزقورة عن سلسلة من المعابد شيد بعضها فوق بعض، وكان المعبد السادس عشر قد سلم من التلف وبقي محافظا على خصائصه العمارية رغم ان تشييده كان باللبن ويتألف هذا المعبد من حجرة مربعة تقريبا فيها دكة القرابين ومذبح المعبد وتتميز جدرانه بالطلعات والدخلات وهي الميزة المعمارية التي ظلت ملازمة لبناء المعابد العراقية الى اخر عهودها التاريخية القديمة ، وبمرور الزمن ازداد تطور البناء في المعابد التالية فالمعبد الحادي عشر والعاشر والتاسع شيد باللبن واقيم فوق مصطبة منحدرة الارتفاع ويرقى اليها بمنحدرات ترابية . كانت هذه هي بداية الزقورات او الابنية الدينية المرتفعة التي تميزت بها حضارة العراق منذ العصور التاريخية .

قريـــة أور

وجدت بقايا قرية قديمة في تل المقير القريـب مـن محطـة القطار في الناصرية وقد جرت فيه تنقيبات اثارية في سـنة ١٨٥٤ وسنة ١٩١٨ وسـنة ١٩١٩ واكثر التنقيبات اهمية هي التنقيبات التي اجراها المتحف البريطاني بالاشتراك مع متحف جامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة الاميركية في السنوات ١٩٢٨ ــ ١٩٣٠ وقد لاحظ المنقبون وجود طبقة ثخينة من الغرين والرواسب الخالية من الاثار فيما بين ٦ر٩٠ مترا و ٥ر٢٠ مترا فوق مستوى سـطح البحر وقد فسرت هذه الظاهرة بانها من اثار الطوفان المذكور في الكتـب الدينية بعد ان وجدت كسورا فخارية وبعض الطابوق والرماد اسفل تلك الطبقة اذ استمر ظهور الاثار حتى توقف عند طبقة ترتفع بمقدار ١ر١٠ مترا فوق مستوى سطح البحر . واعتبرت هذه النقطة هي النهاية الفعلية السفلى للمستوطن العـدي الذي كان مأهولا بالناس قبل حدوث الطوفان واستمر مأهولا ايضا بعد الطوفان وفي العصور التالية ، وكانت المواد الفخاريـة المكتشفة قريبة الشبه جدا بتلك التي في قرية العبيد .

قريــة حـاج محمـد

في قلعة حاج محمد التي تقع على ضفة نهر الفرات جنوب غرب الوركاء بنحو ثمانية عشر كيلو مترا قامت بعثة اثرية المانية بالتحريات في عام ١٩٣٥ ــ ١٩٣٧ ووجدت البعثة اواني فخارية وكسوراً فخارية تحت طبقـة ثخينة من الترسبات الغرينية يبلغ سمكها زهاء عشرة اقدام ولكنها كانت تظهر للعيان في جرف شاطىء النهر ابان انحسار ماء الفرات واعتقد البعض ان مكان هذا الاكتشاف هو بقايا مستوطن من عصور قبل التاريخ سبق عصر العبيد ولكن ارتفاع مستوى الارض بفعل الترسبات الغرينية جعله مطمورا تحت سطح

الارض وفي الحقيقة وبعد دراسة الموجودات دراسة دقيقة اتضح ان المكتشفات تعود لقرية عبيدية •

قرية العقير

تقع ركام هذه القرية القديمة على بعد خمسة وسبعين كيلو مترا جنوبي مدينة بغداد وتمثل استيطانا مبكرا في السهل الرسوبي ، وكشفت مؤسسة الاثار والتراث اثناء تنقيباتها في سنة ١٩٤٠ عن بيوت شيدت من اللبن وبنيت على جانبي ازقة او طرق مرصوفة ويحتوي البيت الواحد على عدة حجرات ذات تخطيط منظم الى حدما ، ووجدت في هذه البيوت نماذج للتنور شبيه بالتنور العراقي الحديث ، واستعمل الفلاحون في هذه القرية المناجل والفؤوس المصنوعة من الفخار الصلب جدا المعد في درجات الحرارة العالية كما استعملوا الحجارة الطبيعية في صنع ادواتهم الزراعية المحدودة مثل المحاريث ولم يكن المحراث المعدني الكبير من النحاس قد شاع استعماله بالرغم من دخول النحاس عالم الصناعة على نطاق ضيق جدا، ووجدت كذلك ابر من العظم واقراص للمغازل تدل على تقدم في الحياكة والنسيج ، اما الفخار الذي صنعه اهل هذا المستوطن فهو من نوع صناعة عصر العبيد الذي يتميز باللون الواحد وهو اللون الاسود في الغالب ويظهر ان قرية العقير استمرت مأهولة بالسكان في العصر التالي وهو عصر الوركاء •

قرية تبة كورا

وهي من قرى المرحلة الثالثة وتعتبر نموذجية من ناحية سعتها وجودة مبانيها ومخلفاتها المتطورة • تقع خرائبها على بعد يزيد قليلا على العشرين كيلو مترا شمال مدينة الموصل وقد اسفرت التحريات التي قامت بها بعثة

جامعة بنسلفانيا الامريكية عن اظهار عشرين طبقة اثرية مسكونة تبدأ ازمانها من عصر حلف في الطبقة السفلى وتنتهي بالعصر الاشوري المتوسط ، ومعظم هذه الطبقات تمثل عصر العبيد حيث عثر فيها على كميات كبيرة من فخاريات هذا العصر وشيدت بيوت هذه القرية مثل باقي بيوت عصر العبيد الجنوبية باللبن ولكن بعض البيوت شيدت بالحجارة لتوفرها في المنطقة ووجدت في البيوت ادوات مصنوعة من النحاس اكثر مما في القرى الجنوبية ، ومن المحتمل ان تكون الادوات النحاسية في قرى الجنوب قد بليت واندثرت بسبب كثرة الاملاح في تربة السهل الرسوبي وبالاضافة الى معدن النحاس وجدت بعض الكماليات مثل الخرز المصنوعة من الذهب ، ووجدت في تبه كورا بقايا ثلاثة معابد وهي تضاهي معابد اريدو من نفس العصر من حيث متانة البناء ودقة التصميم والى جانب ذلك عثر في الطبقة الثالثة عشرة على بناءين مدورين من النوع الذي شاع وجوده في قرية الاربجية في العصر السابق مما يدل على استمرار بعض التقاليد المعمارية في هذا العصر ومثل ذلك يقال ايضا عن دمى الطين التي تمثل الالهة الام وهي جالسة ، وبخلاف المقبرة التي وجدت في اريدو مبنية باللبن خارج القرية كانت القبور في تبه كورا عبارة عن حفر دفن اعتيادية بالقرب من المعابد ، اما الاطفال فكانوا يقبرون في جرار كبيرة من الفخار .

وفي قرى المراحل الاخيرة من عصور قبل التاريخ استمر التقدم الحضاري بوضوح في عدة مجالات فقد اكتشفت انواع جديدة من الفخار استخدم في صنعها الدولاب لاول مرة ، وظهرت من جديد الاواني الفخارية المتعددة الالوان بنقوش هندسية أو طبيعية وصنعت لاول مرة الاختام الاسطوانية واستعملت عجلة العربة في المواصلات وانتشر استعمال المعادن

وتقدمت الزراعة ووسائل الري من حيث الاتساع والانتظام وصنعت قطع فنية رائعة من النحت البارز والمجسم مثل مسلة صيد الاسود والاناء النذري والرأس الرخامي لامرأة ، وتطورت المعابد وازدادت سعة واناقة وزخرفة وظهرت المعابد العالية او الزقورات ويعد معبد قرية العقير من اولى المعابد العالية فقد اقيم على مصطبة بلغ ارتفاعها زهاء اربعة امتار وزينت جدرانه بصور جداريه ملونة جميلة للبشر والحيوانات ومن بين تلك الصور صورتان لاسدين رابضين وتعد هذه اقدم صورة جدارية اكتشفت لحد الان ووجد في قرية الوركاء عدد من المعابد بني كل زوج منها متجاورين لبعضهما ربما لعبادة زوج من الالهة •

وكان احد المعابد مزخرفا بنقوش تتألف من الطين المشوي لونت رؤوسها باللون الاسود والاحمر والابيض ، وفي الوركاء ايضا معابد للاله آنو تطورت الى زقورة ترتفع خمسين قدما وشيد فوقها معبد سمي بالمعبد الابيض ووجدت اثار معابد متطورة اثناء التنقيبات في قرية جمدت نصر بالقرب من كيش، وقرية تمر بالقرب من عنك، وقرية خفاجي في منطقة ديالى وقرية تبه كورا وقرية براك على الخابور ولاريب في ان ابرز انتاجات هذه المرحلة هو اختراع الكتابة لاول مرة في تاريخ الحضارة وكانت اولى نماذجها كتابة صورية •

المصـــادر

1. Braidwood, R., From Cave to Village in Prehistoric Iraq, Bulletin of the American Schools of Oriental Research, No. 124, 1951.
2. Braidwood, R., et. al., The Iraq - Jarmo Project, Sumer, Vol. X, 1954.
3. Braidwood, R., The Near East and the Foundation for Civilization, Oregon, 1952.
4. Braidwood, R., and Howe, B., Prehistoric Investigation in Iraqi Kurdistan, Chicago, 1960.
5. Braidwood, R., et. al., Matarra, A Southern Variant of Hassuna Assemblage Excavated in 1948, JNES, Vol. XI, 1952.
6. De Morgan, Memoires de la delagation en Perse I, 1900.
7. Garrad, D., Excavations in the Caves of Zarzi and Hazar Merd, 1930.
8. Ingholt, H., Danish - Dokan Expedition, Sumer, Vol. XIII, 1957.
9. Lloyd, S., and Safar, F., Tell Hassuna, JNES, Vol. IV, No. 4, 1957.
10. Lloyd, S., Tell Uqair, JNES, Vol. 11, No. 11, 1935.
11. Mallowan, M. and Rose, J., Prehistoric Assyria, Excavations at Tell Arpachiyah, Iraq, Vol. 2, 1935.
12. Oates, J., Choga Mami, 1967 - 1968, Iraq, Vol. 31, 1969.
13. Solecki, R., Shanidar Cave, A Palaeolethic Site in Northern Iraq 1955.
14. Solecki, R., Zawi Chemi Shanidar, Warsaw, 1961.
15. Tabler, A., Excavations at Tepe Gawra, II, 1960.
16. Woolley, L., Ur Excavations, Vol. IV, The Early Periods, 1956.

١٧ـ تقي الدباغ : الاثار والمستوطنات الزراعية الاولى في العـراق . مجلـة الاســتاذ ١٩٦١ .

١٨ـ تقي الدباغ : الاثار وتدجين الحيوان . مجلة كلية الاداب ـ جامعة بغداد لســـنة ١٩٨١ .

١٩ ـ تقي الدباغ ووليد الجادر : عصور قبل التاريخ . بغداد ١٩٨٣ .

الفصل الخامس

الديانة

المبحث الأول

المعتقدات الدينية

د . فوزي رشيد
المؤسسة العامة للآثار والتراث

نشأتها

ان مبدأ التطور الذي يتحكم في جميع النتاجات البشرية سواء كانت تلك النتاجات مادية أم فكرية يفرض علينا القول بان المعتقدات الدينية لفترة العصور التاريخية لابد وان تكون منشعبة عن المعتقدات التي سادت خلال الحضارات الزراعية التي انتشرت في الاقسام الشمالية من العراق خلال الفترة المحصورة مابين ٨٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ق‌م ، مادمنا نعتقد بان اصل القوم الذي سكن قسمه الجنوبي من بعد تكونه في اواخر الالف السادس قبل الميلاد يتمثل في المناطق التي شملتها هذه الحضارات الزراعية .

معلوماتنا عن هذه الحضارات تؤكد انها كانت تعتمد في زراعتها

بصورة رئيسية على المطر كما هو الحال في الوقت الحاضر بالنسبة لزراعة الحبوب في المناطق الشمالية من العراق والسبب في ذلك واضح وبسيط لان اراضي هذه المناطق متموجة ولا ينفع معها استخدام انظمة الري ولذلك فأنها مضطرة للاعتماد على مياه الامطار • وبسبب هذه الحقيقة فان اولى هذه الحضارات الزراعية الديمية قد نشأت في المناطق التي كانت امطارها الفصلية كافية لنمو الزرع اي عند سفوح الجبال في المناطق الشمالية والشمالية الشرقية من العراق •

ومن خلال الاثار التي خلفتها لنا هذه الحضارات الزراعية الديمية تأكد لنا بان سكانها قد عبدوا الخصوبة وكل شيء يساعد على وفرة الانتاج في الحياة وقد رمزوا لهذه العبادة بالدمى المصورة للالهة الام • والسبب الذي دعا سكان هذه الحضارات الى عبادة الخصوبة يرجع الى انها كانت العامل المهم والاساسي الذي يتحكم في حياتهم حيث مادامت كمية الامطار كافية لنمو الزرع فان الانتاج الوفير لا يتحقق الا من خلال توفر الخصوبة في الارض غير أن انتشار هذه الحضارات منذ بداية الالف السادس قبل الميلاد في المناطق الواقعة جنوب خط المطر والممتدة حتى موقع تل الصوان الواقع الى الجنوب من مدينة سامراء الحالية قد ادى الى زعزعة اركان تلك العبادة حيث ان امطار هذه المناطق السنوية كانت متذبذبة وغير مستقرة ونقصد بالتذبذب هو ان كميتها تكون سنة كافية لنمو الزرع وفي السنة الاخرى غير كافية •

وهذا التذبذب في كمية الامطار دفع انسان تلك المناطق الى ان يتجه بانظاره الى العوامل الجوية المؤثرة على المطر والزرع والحصاد اكثر من اهتمامه بالخصوبة وكل مايولد الوفرة في الانتاج لان الخصوبة بدت لا قيمة لها بلا مطر ذي كمية كافية لنمو الزرع ، والحيوانات التي هي مصدر اساسي لتوليد الغذاء يتهدد حياتها ايضا انعدام الزرع الذي يتسبب المطر في نموه ولذلك



ثلاث دمى مختلفة للالهة الام ، يشاهد فيها التركيز على المناطق الخصبة في المرأة

فان هذه الظروف قد ادت الى ظهور فكرة دينية جديدة تعتمد في طقوسها على قدسية العوامل الطبيعية والنظر الى الماء على انه اساس الحياة .

ومما لا شك فيه ان المناطق ذات الامطار المتذبذبة لا يمكنها ان تستوعب كثافة سكانية عالية حيث كثيرا مايصادف ان يوزع انتاج العـام الواحد على مدى عامين وذلك تحسبا للسنين الشحيحة المطر . وهذه الحقيقة تؤكد على ان ايـة زيادة في عدد السكان عليها ان تهجر المنطقـة والا فـان التـوازن بـين عـدد السـكان وكميـة المـواد الغذائيـة المنتجـة سـوف يختل ويـؤدي الـى نتائـج وخيمـة علـى سـلامة المجتمـع وأمنـه ومادام سكان هذه المناطق هم اصلا من المناطق الشمالية كذلك فان العدد المتزايـد والفائض عن الحاجة لا طريق امامه يستطيع ان يسلكه سوى الطريق المؤدي الى القسم الجنوبي من العراق لان القسم المذكور كان انذاك في بداية تكوينه وخاليا من البشر ، وعلاوة على ذلك فان كثرة اهواره وماتحتويه مـن اسماك وطيور توفر الغذاء السريع لمن يقدم له ولذلك كانت الزيادات الحاصلة فـي المناطق ذات الامطار المتذبذبة تتجه على الفور الى القسم المذكور وهذه الجماعات المهاجرة نقلت معها اليه فكرة عبادة القـوى الطبيعية المؤثرة في المطـر والزرع والحصاد ونشرتها فيه .

الآلهة السومرية الرئيسية

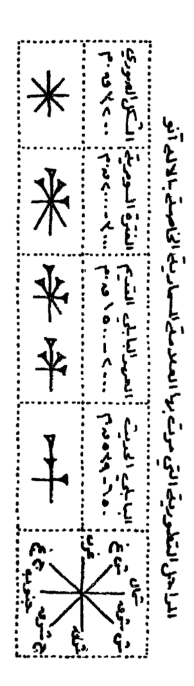
بالرغم من ان ماذكرناه عن نشأة المعتقدات الدينية لفترة العصور التاريخية يستند على اسباب منطقية الا ان ذلك وحده ليس كافيا مالم تكـن طبيعـة الديانة خلال العصور التاريخية تنسجم ونوعية الاسباب التي شرحناها ومما يؤكد على ان الفترة التي انتشرت فيها حضارة سامراء قد ادت الى ظهور افكار دينية جديدة اعتمدت في اساسها على تقديس العوامل الجوية المؤثرة علـى المطر وعلى الزرع والحصاد وان هذه الافكار التي انتقلت الى القسم الجنوبي من العراق هي من نوعية الآلهة الرئيسة التي عبدها السومريون والتي كانت تتمثل بالالهة انو ، اله السـماء والالـه أنليل ، الـه الهـواء والاله انكـى

اله الارض والاله اوتو (= شمش) اله الشمس ، تلك الالهة التي ذكرتها وعظمتها اغلب الملاحم والاساطير السومرية والبابلية ومادامت هذه الالهة تمثل فعلا العوامل الجوية المختلفة او انها تحتضن تلك العوامل فان ذلك يؤكد صحة ماذهبنا اليه .

ومما يجدر ذكره في هذا الخصوص ايضا هو ان الملاحم المذكورة قد بينت لنا ان سكان بلاد وادي الرافدين لم يتساءلوا على الاطلاق عن نوعية القوة التي قامت بخلق الالهة الرئيسة بل اعتبروا وجودها من الامور الازلية التي لا تحتاج الى نقاش وان هذه الالهة هي التي قامت بخلق الكون والانسان . وسبب هذا الايمان واضح وبسيط ايضا لانهم كانوا يتحسسون تأثير هذه العوامل على حياتهم وعلى محاصيلهم الزراعية ولكنهم لا يعلمون كيف تكونت في الاصل فحولوها الى الهة واعتبروها ازلية ايضا وفيما يلي نقدم ماهو متوفر من معلومات عن ابرز هذه الالهة .

(أ) الاله آنو ــ وهو اله السماء ويقع ترتيبه من حيث الاهمية في قمة الالهة السومرية الرئيسة ويكتب اسمه بالعلامة المسمارية التي كانت في الاصل صورة تشبه صورة النجمة ذات الثمانية رؤوس وبواسطة هذه العلامة كتبت كلمة سماء وكلمة اله ايضاً ولذلك استخدمت علامة النجمة ذات الثمانية رؤوس كعلامة دالة تسبق اسماء جميع الالهة العراقية القديمة .

وعند التحري عن سبب كتابة اسم الاله آنو وكلمة اله المطلقة بنجمة ذات ثمانية رؤوس تأكد لنا بان هذه الرؤوس الثمانية ماهي في حقيقتها الا مؤشرات الى جميع جهات الكون الجغرافية وهذا يعني ان هذه الرؤوس الثمانية كانت تعبر عن الشمول وتهدف ايضا الى التأكيد على أن الاله موجود في كل مكان من الكون .



ومما يؤكد ان هذه الرؤوس الثمانية لا علاقة لها بالنجمة بل انها تؤشر فعلا جميع جهات الكون هو ان العلامة لم تستخدم اطلاقا للدلالة على النجمة ولكن شبهها للنجمة دفع العراقيين القدامى الى ان يكتبوا كلمة نجمة

بتكرار العلامة المذكورة ثلاث مرات كي يفرقوا بين كلمة « آنــو » اله وبين كلمة « نجمة » والاله آنو كما يبدو من النصوص المسمارية والــد للعديد من الآلهة ، مثل اله الهواء أنليل ، والــه الجو اشكور (= ادد) والهة الحب والحياة انانا (علما ان هناك اعتقاداً آخر مفاده بانالالهة انانا هيابنة لاله القمر) وهو ايضا والد الالهة بابا الهة مدينة لكش وزوجةالاله تنكرسو والالهة كاتوم دوك ، التي تعتبر ام جميع الاطفال وام مدينة لكش والالهة نسابا الهة الحبوب وعلاوة على ذلك فقد كان الاله آنو والدالعدد من الجنوالعفاريت ووالد الالهة الشريرة السبعة التي تدعى « سيبيتو » .

ومن خلال ابوة هذا الاله لعدد من الالهة الطيبة وابوته ايضاً لعدد من العفاريت والارواح الشريرة اضافة الى قيامــه بكثير من الاعمال المؤذيــة للبشر دفع ذلك العراقيين القدامى الى ان يروا في هذا الاله السبب في معظم ماكان يصيبهم من خير او شر ومن ابرز اعمال الاله آنو السلبية اتجــاه البشر هو ماالخبرتنا به ملحمة كلكامش حين اكدت على ان الاله آنو هو الذي خلق ثور السماء بناء على طلب الالهة انانا (= عشتار) وانزله الى الارض ينشر بواسطته الرعب بين البشروان كلكامش ورفيقه انكيدو هما اللذان انقــذا البشرية من شرور هذا الثوروان الاله آنو هو الذي قرر موت كلكامش بعد ان تحول الى رجل يؤمن بان خلود البشر يتحقق من خلال القيام بالاعمــال الجبارة المفيدة للشعب وللبشرية عموما وهو الذي خلق للبشرية اله المرض والهة الموت . ومما لاشك فيه ان السبب الذي جعل الاله آنو يبدو بنظر سكان بلاد وادي الرافدين على انه مصدر الخير والشر في آن واحد يعود الــى ان السماء هي التي تحتضن العوامل الجوية التي تؤثر سلبا او ايجابا على الانسان وعلى موارده الغذائية هذا وقد اعتبرت الارض علىانها زوجة الاله آنو ولكنها ماكانت تسمى « كي » وهو الاسم الاعتيادي للارض بل سميت « اوراش »

ومنذ بداية الالف الثاني قبل الميلاد بدأت التسمية « كي » تحل محل التسمية « اوراش » .



رمـز الاله آنو

وفيما يخص اللغة الاكدية فقد اطلقت التسمية « آنتوم » على زوجة الاله آنو . ومدينة الوركاء التي كانت تتألف من منطقتين هما كولاب و « اي انا » كانت تمثل مركز عبادة هذا الاله وعبادة ابنته اانا حيث ان الاله انو قد عبد بصورة خاصة في منطقة كولاب والالهة اانا عبدت في منطقة « اي انا » وشعار الاله آنو على المنحوتات وخاصة على احجار الحدود هو التاج المقـــرن والموضوع فوق دكة .

(ب) الاله أنليل ــ وهو اله الهواء ويأتي في المرتبة بعد الاله آنو اله السماء لانه كما ذكرنا احد ابناء الاله المذكور . ومما يثير الانتباه في هذا الاله هو كثرة القابه حيث لقبته النصوص المسمارية المختلفة بسيد جميع البلدان وبأبي جميع الالهة وبالجبل الكبير وبالاله الذي يقرر المصائر والاله الــذي لا رجعة لقراراته وبصاحب العينين البراقتين وبالاله الذي يمتلك بين يديــه الواح القدر . وعلاوة على ذلك فان الملاحم الخاصة بخلق الكون قد اكدت

على ان الاله انليل هو الذي قام بفصل السماء عن الارض وهو الذي خلق الفأس اداة العمل ، ومدينة نفر هي مقر عبادة هذا الاله وهي تبعد بمسافة٧كم عن ناحية عفك في محافظة القادسية والنصوص المسمارية قد اوضحت لنا اهمية هذا الاله واهمية مدينة نفر من خلال التقليد الذي كان يفرض على بقيةالآلهات ان تذهب سنويا لزيارة الاله انليل في مقر عبادته وتطلب منه الرحمة والبركة لحكام المدن التي تعبد فيها تلك الالهة • ومعبده في مدينة نفر يسمى «ايكور» ويعني « بيت الجبل » وهذا المعنى ينسجم مع اللقب « الجبل العظيم » الذي هو احد القاب الاله المذكور ويشير ايضا الى ان لقب الجبل العظيم كان من ابرز القاب الاله انليل والا لما سمي معبده ببيت الجبل والسبب في نشأة هذا اللقب ربما يرجع الى قدرة الهواء على جلب العواصف الترابية الكبيـــرة او الغيوم الكثيفة التي تشبه الجبال العالية في اشكالها •

وللاله انليل مواقف سلبية ايضا اتجاه البشر والالهة ففيما يخص البشر فهو الذي قرر الفيضان على الارض الذي اباد كل البشر باستثناء من انقذهم « اوتونابشتم » في سفينته وذلك وفق ما اخبرتنا به قصة الطوفان احدى اجزاء ملحمة كلكامش الشهيرة وهو الذي كان يلاحق كلكامش ورفيقه انكيدو بخلق المشاكل امامهما ليمنعهما من اداء مهمتهما •

وفيما يخص مواقفه من الالهة ، فالالهة « ننكال » زوجة اله القمر قـــد حملت الالهين انو وانليل مسؤولية دمار مدينة اور علـــى يـــد العيلاميـــين والسوئيين واضافة الى ذلك فان الاله انليل هو الاله الوحيد من بين الالهـــة الذي اغتصب زوجته ننليل • وحول هذا الاغتصاب هناك ملحمة ملخصها هو ان والدة الالهة ننليل قد نصحت ابنتها بالاستحمام في قناة تسمى « نوبيرا » وقالت لها بان الاله انليل سوف يغازلك وعليك ان لا تمانعي وفعلت الالهـــة

نتليل ماأوصتها به والدتها ولكنهامع ذلك لم تستجب نغزل الالـــه الليل مما دفعه ذلك الى اغتصابها فحملت منه نتيجة ذلك الاغتصاب بالاله « ننار» اله القمر وبناء على ذلك فقد قرر الالهة الخمسون الكبار والالهة السبعة التي تقرر المصائر في مدينة نفر اداتته على عمله اللا اخلاقي فطردوه من مدينة نفر وعلى اثر ذلك خرجت الالهة ننليل من المدينة ايضا لمتابعته وفي اثناء ذلك قام الاله اينليل بأخفاء شخصيته عن الالهة ننليل وجعلها تحمل منه بثلاثة الهة اخرى اضافة الى الاله ننار اله القمر ومن دون ان تعرف بأن الفاعل هو الاله أنليل نفسه وهذه الآلهة الثلاثة الاخرى كانت جميعها من آلهة العالم السفلى .

وبناء على ماتقدم فان العراقيين القدامى كانوا يرون في الاله أنليل الاله الذي لا يرد له طلب ولذلك نصحت والدة الالهة ننليل ابنتها بالاستجابة لغزل الاله انليل لأنها كانت تعرف مسبقا ان ممانعتها معه لا تنفع بشيء وكانوا يرون في القمر ايضا على انه متولد من علاقة غير شرعية. وتفسير هاتين الظاهرتين يعود في اعتقادنا الى مايحدثه الهواء من عواصف واعاصير وغير ذلك من حالاته المتعددة التي لا يستطيع الانسان التحكم بها ومعنى ذلك انه يفعل مايشاء ولا يستطيع احد ان يقف في طريقه ونحن حتى الوقت الحاضر نصف ايضا الاشخاص غير مستقرى السلوك بالهوائيين ، وفيما يخص نظرة سكان بلاد وادي الرافدين الى القمر فتعود ايضا الى انه الجرم الوحيد في السماء الذي يماثـــل تقريبا الشمس في حجمه الظاهري ولكنه متلون ويضيء مرة ويختفي في المرة الثانية ليس له ثبات لا في شكله ولا في ضوئه مثلما هو الحال مع ثبات شكل الشمس وضوئها تقريبا ولذلك شبهوا سلوكيات القمر بسلوكيات الابناء غير الشرعيين. اما رمزه ضمن المنحوتات واحجار الحدود فهو التاج المقرن الموضوع فوق دكة وهو بذلك يشبه تماما رمز والده الاله آنو .



رمز الاله انليل

(ج) الاله انكي ـ وهو اله الارض واله المياه الجوفية ومرتبته بين الآلهة تأتي بعد مرتبة الاله انليل ولهذا الاله ضمن اللغة الاكدية تسمية اخرى تختلف عن تسميته السومرية وتلفظ « ايا » وسبب ذلك ربما يعود الى ان اقوام الجزيرة العربية قد قد سوا الارض كأله قبل مجيئهم الى بلاد وادي الرافدين ولذلك كانت له في لغتهم تسمية ولابد لهذه التسمية ان تختلف عن التسمية السومرية وذلك للفرق الكبير الموجود بين اللغتين .

وعلاوة على ان الاله انكي هو اله الارض وسيد المياه الجوفية فقد اعتبرته النصوص المسمارية على انه اله الحكمة ايضا وبحوزته القوى الالاهية التي تسمى سومريا « مي » ولذلك كانت الالهة تستشيره في المواقف الصعبة وتطلب منه النصح والمساعدة ومن ابرز الامثلة على ذلك هو ماجاء في اسطورة نزول الالهة انانا الى العالم السفلي حيث ارادت انانا بهذا النزول السيطرة على العالم المذكور وتخليص البشرية من الموت . وان خوف الالهة انانا من فشل مهمتها لثلاتميتها اختها «ايرش ـ كيكال» ملكة العالم السفلي جعلها تحتاط للامر فأوصت وزيرتها الالاهة « ننشوبر » وقالت لها ان لم افلح في العودة من العالم السفلي بعد ثلاثة ايام فعليك ان تسألي الاله انليل ليقوم بمساعدتي وان

رفض فأسألي الاله نثار ،اله القمر ، وان رفض فأسألي الاله انكي وبالفعل فان الاسطورة قد بينت بان الاله الذي تدخل فعلا في مساعدة الالهة اناثا هـو الاله انكي وانقذها من موت اكيد .

والاله انكي على العكس من الالهين انو وأنليل فهو دائما حسـن النية والشعور اتجاه البشر ، وملحمة الطوفان شاهد اكيد على ذلك حيث ان الاله أنليل قرر احداث الفيضان واغراق البشر بينما الاله انكي يقوم بأخبار اوتو نابشتم بقرار الالهة وطلب منه ان يهدم بيته ويبني له سفينة ويضع فيها من كل زوجين اثنين واضافة الى ذلك فان الملاحم الخاصة بخلق الانسان قد اعطت للاله انكي دورا فاعلا في عملية خلق الانسان .

وانكي هو والد الاله اسارلوخي (مردوخ) الذي يعمل على مساعدةوالده في الطقوس الخاصة بطرد الجن والارواح الشريرة من اجسام المرضى لانه يستطيع ان يرى تجمعات الجن والارواح الشريرة فيصفها لوالده بدقـة ، ومهمة الاله اسالوخي دليل اخر على محاولة الاله انكي للقيام بكل ماهو يساعد البشر ويوفر لهم الصحة والسعادة ومن ابناء وبنات هذا الاله هي نانشيه احدى الهات مدينة لكش ومن اهم مهامها كانت مهمة تفسير الاحلام .



رمز الاله انكي

ومدينة اريدو من اقدم المدن السومرية في عبادة هذا الاله ، ومعبده فيها يسمى « اي ــ ابسو » أو « اي اينكورا » ورمز هذا الاله هو كائـن مركب من صخلة وسمكة ، تمثل الصخلة الجزء الامامي منه والسمكة تمثل الجـزء الخلفي منه مع دكة لمعبد .

وحول الاله انكي عدد من الاساطير ، اهمهـا الاسـطورة المعروفـة باسم انكي والالهة ننخر ساك حيث لهذه الاسطورة علاقة بنظرة العراقيين القدامى الى الفردوس والـى مكان وجودها . تبدأ هـذه الاسطورة بذهاب الالهة ننخرساك الى دلمون (= البحرين ودولة الامارات العربية) التي رأى فيهـا السومريون جنتهم وتطلب هناك من الاله انكي ان يحول مياهها الجوفية الى مياه عذبة صالحة للشرب ولسقي المزروعات باعتباره المسؤول عن المياه الجوفية وبعد ان يقوم الاله انكي بالمهمة علـى خير مايرام يقـوم بمضاجعة الالهـة « نن ــ تو » وهو الاسم الاخر للالهة ننخرساك وبعد فترة حمل مدتها تسعة ايام تلد له الالهة « نن ــ مو » وبعد ولادة هذه الالهة يبدأ الاله انكي بعشقها عشقا عظيما يؤدي به الى مضاجعتها وبعد حمل مدته تسعة ايام ايضا تلد له الالهة « نن ــ كورا » ومن ثم يفعل الاله انكي الشـيء نفسه مع الالهـة (نن ــ كورا) وبعد فترة حمل تسعة ايام تلد له الالهة « اوت ــ تو » الهة النسيج والغسيل وعند هذا الحد تتدخل الالهة ننخر ساك في الامر وتعلـم الالهة « اوت ــ تو » كيف تتصرف مع الاله انكي لتوقف بذلك هذه الولادات ومع ذلك فان الاله انكي يستطيع من التسلل الى حديقة بيت الالهة « اوت ــ تو » على اعتبار انه بستاني خبير باشجار الفاكهة ومن خلال هـذه الحيلة يتمكن الاله انكي من مضاجعة الالهة « اوت ــ تو » وهنا تأتـي الالهـة ننخرساك وتتدخل بالامر بصورة فعلية بحيث جعلت البذرة التي زرعها الاله انكي في رحم الالهة « اوت ــ تو » تعطي ثمانية انواع من النباتات بدلا من ان تتسبب في ولادة اله او الهة ويبدو من الاسطورة ايضا ان الاله انكـي

يطلب من وزيره المسمى « اسيمو » ان يجمع له هذه النباتات وبعد ان تـم له ذلك قام بأكلها جميعا فغضبت لذلك الالهة ننخرساك والقت بلعنة الموت عليه ولكي لا تغير في قرارها اختفت من بين الالهة •

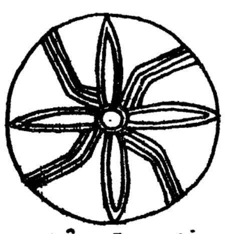
وبدأت صحة « انكي » تتردى ومرضت ثمان من جوارحـه • ولما كاد الاله « انكي » يشرف على الموت حزنت الالهة العظام وجلسوا في الرغام حتى أنليل الـه الهواء حار في الامر ولم يستطع ان يفعل شيئا لانقـاذ « انكي » فأنبرى الثعلب وقال للاله اينليل انه اذا أحسن مكافأته فسيأتي بالالهة ننخرساك من مخبئها ونجح الثعلب بطريقة لم تتمكن من التعرف عليها بسبب النقص الموجود في النص المسماري من جعل الالهة ننخرساك تقرر العودة الى مجمع الالهة وتشفي اله الماء المشرف على الموت فأجلسته بجانبها واخذت تسـأله عن علله فذكر لها ثمانية انواع من المرض فخلقت الالهة ننخرساك لكل واحد منها الهاً خاصا لشفائه ولما ان شفي انكي من امراضه عاد الى تبوء مركـزه بين الالهة وقرر مصير كل اله منهم وخصص لبلاد دلمون الهاً خاصا بها يسمى « انـزاك » •

(د) الاله اوتو ــ وهو اله الشمس وبالرغم من انه من جملة الالهة الرئيسة الا انه يأتـي في المرتبة من بعد مرتبة اله القمر والعلامة المسمارية التي كتب بها اسم هذا الاله كتب بها ايضا كلمة « يوم » وللصفة « ناصع » واسم هذا الاله يلفظ باللغة الاكدية « شمش » والاله شمش اعتبرته النصوص المسمارية على انه ابن اله القمر ، ولذلك جاءت مرتبته من بعد مرتبة والده واعتبر ايضا اخاً للالهة انانا (= عشتار) اما زوجته فأسمها سومريا هو «شي ــ نير ــ دا» وبالاكديـة « ايـا » ورسـوله هـو الالـه بونينـه والالـه شـمش الذي يستطيع ان يكشف بضيائه الظلمات وهو قادر على رؤية كل شيء لذلك اعتبر اله الحق والعدل وعلاوة على ذلك فقد اعتبر سيد الكهانة والعرافـة ومما يلفت النظر في موضوع هذا الاله هو ان الحرارة التي تسببها الشمس

في أحر شهور فصل الصيف لم تنسب الى الاله شمش من قبل سكان بلاد وادي الرافدين وانما اعتبروا الاله نركال احد الهة العالم السفلي هو السبب في ذلك وكذلك اله النار المسمى « كيبل » وحسب المعتقدات السومرية فان الاله شمش يغور ليلا في البحر وفي الصباح يطلع من بين الجبال ومشهد ظهور الاله شمش من بين الجبال مصور على الاختام الاسطوانية بهيئة رجل تخرج من ظهره أحزمة الاشعة الشمسية وهو واضع قدمه اليمنى على جبل وفي يده منشار وامامه آلهان يفتحان له ابواب السماء .



والاله شمش لا يختلف عن الاله انكي من حيث نواياه الحسنة نحو الالهة والبشر ففي ملحمة كلكامش يساعد كلكامش وانكيدو على قتل حارس غابة شجر الارز خمبابا بديلا عن الالهة اانانا في اسطورة نزول الالهة اانانا الى العالم السفلي وهو الذي ساعد ايتانا على ان يجد النسر الذي صعد به الى سماء الاله انو ، اي السماء السابعة ليحصل من الاله المذكور على النبات الذي يشفي زوجته من العقم في اسطورة ايتانا وفيما يخص رمز الاله اوتو (= شمش) فهو قرص الشمس ، الذي يرسم في اغلب الاحيان مثلما هو مصور في الرسم التخطيطي المرفق واما مركز عبادته فقد كان في مدينة سبار وفي مدينة لارسا ايضا .



رمز الاله اوتو (= شمش)

ابرز الآلهة الممثلة للسلطات السياسية

بالرغم مـن ان الالهة التي سنتحدث عنها في هـذه الفقرة تعتبر اركانا بارزة في هيكل معتقدات سكان بلاد وادي الرافدين ، الا انها مع ذلك ترمز بالدرجة الاولى الى السلطة السياسية اكثر من رمزيتها الى السلطة الدينية . والسبب في ذلك يعود الى ان المعلومات التاريخية قد اكدت على ان العراق القديم قد شهد منذ بداية النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد مرحلة انتقال قيادة السلالات السومرية من يد السلطة الدينية الى يد السلطة السياسية ذلك الانتقال الذي رحبت به السلطة الدينية نفسها، لان ظروف تلك السلالات آنذاك كانت بحاجة الى القيادة العسكرية اكثر من حاجتها الى السيادة الدينية وذلك من اجل المحافظة على كيانات تلك السلالات وحماية اراضيها الصالحة للزراعة ، تلك الاراضي التي كان قسم كبير منها يعود الى ملكية المعبد ، أي الى ملكية السلطة الدينية .

(أ) الاله ننكرسو ـ ومعنى اسمه هـو « سيد مدينة كرسو » وهـذا المعنى لأسمه يؤكد على انه الاله الرئيس لمدينة كرسو ، احدى المدن التـي شغلتها سلالة لكش وانه ايضا تجسيد للسلطة الحاكمة في تلك المدينة ، اي

تجسيد للسلطة السياسية التي ظهرت الى حيز الوجود كما اشرنا منذ حوالي ٢٥٠٠ ق٠م ، وذلك لان اسمه لم يرتبط باي مظهر من المظاهر الطبيعية او بأية مهمة من مهمات الالهة الاخرى ، بل نسبت اليه وظائف ومهام كثيرة ٠ لهـذا الاله عدد منْ الاخوات والاخوة وقد عبدوا جميعا وبصورة خاصة ضمن منطقة نفوذ سلالة لكش وهم الالهة نانشيه مفسرة الاحلام والالهة نسابا ، الهة الحبوب ، والالهة كاتوم دوك ، التي توصف بأم جميع الاطفال والاله خيندورسنكا ، الذي يسمى ايضا « ايشوم » وهو البطل ومقدم المشورة الى الاله نركال ، اله العالم السفلي ، اما زوجته فهي الالهة بابا ، اخت الاله آنو وفيما يخص والده فان الاله ننكرسو يعتبر ابنا للاله اينليل اله الهواء ٠ وعلاوة على ذلك فان النصوص المسمارية قد اعتبرت الاله تنكرسو صورة ثانية للاله ننورتا واعتبرته ايضا « الهاً » للخصوبة وسيدا للاراضي الزراعية ومنظماً لقنوات الري ٠ واضافة الى هذه المواصفات المرتبطة بشؤون الزراعة والري فقد صورت النصوص المسمارية الاله تنكرسو ، الاله المحارب ٠

واوسع المعلومات عن الاله تنكرسو مثبتة في كتابات الامير كوديه ٢١٤٤ — ٢١٢٤ ق٠م ثاني أمراء سلالة لكش الثانية ٠ وهذه الكتابات قد وصفته بانه اله العدالة علاوة على مهامه الاخرى اما مظهر هذا الاله الخارجي فقد جاء وصفه كاملا في كتابات الامير المذكور ، حيث اكدت هذه الكتابات على انه كان كبيرا بحجم السماء والارض وان رأسه كرأس الاله وان جناحه تشبه جناحي الطائر آنزو ، وان القسم الاسفل من جسمه كان البركان ٠

ومعبد هذا الاله في مدينة لكش يسمى بمعبد « الاينينو » ومعناه معبد الخمسين ، اما رمزه على المنحوتات فهو صورة الطائر المعروف بأسم «انزو» ٠

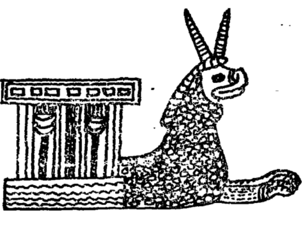
(ب) الاله مردوخ — وهو اله مدينة بابل الرئيس ومعنى اسمه باللغة السومرية « عجل اله الشمس » اما اسمه باللغة البابلية فهو « مار — دوكو »

اي بمعنى ابن الاله « دوكو » ومعنى دوكو هو « التل المقدس » والذي يعتبر على أنه مجلس الالهة ، ويقع ضمن المنطقة الجبلية الشرقية لمنطقة بابل ، اي ضمن سلسلة جبال حمرين • ظهر اسم الاله مردوخ منذ عصـر ميسـالم ، حوالي ٢٦٠٠ ق•م اما ارتباط اسمه بمدينة بابل واتخاذها له كأله رئيس فقد حدث ذلك منذ زمن سلالة اور الثالثة ٢١١١ ــ ٢٠٠٣ ق•م • والاله مردوخ يعتبر ابنا للاله انكي بينما المعنى الذي يتضمنه اسمه يشير الى علاقته بالالـه شمش اكثر من علاقته بالاله انكي •

واقدم وصف ادبي للاله مردوخ ظهر في مقدمة شريعة حمورابي وقـد جاء فيه مايلي :

« عندما (قضيا) الاله آنو المتسامي ، ملك الانوناكي والاله انليل سيد السماء والارض مقرر مصائر البلاد ، قضيا للاله مردوخ الابن البكر للاله انكي (ان يتمتع) بقدسية الاله انليل على كل البشر وجعلاه عظيما بين الهة الايكيكي » وعندما عظمت مكانه مدينة بابل في زمن الملك حمورابي وخلفائه واصبحت عاصمة لسلالة بابل الاولى التي أقامت دولة واسعة الارجاء ارتفـع شأن الاله مردوخ وصار مقدسا في جميع البلاد ، ولهذا السبب اعتبرت قصة الخليقة البابلية الاله مردوخ على انه هو الذي قام بخلق الانسان وهو الذي قرر قيامه بالعمل ، الذي كانت تقوم بأدائه الالهة قبل خلقه•ومنذ ١٤٠٠ق•م انتقلت طقوس الاله مردوخ الى منطقة اشور ، فأصبح منذ ذلك الحين منافسا مؤثرا للاله اشور في منطقة اشور نفسها ومادام الاله مردوخ كان بالدرجـة الاولى رمزا للسلطة السياسية البابلية فقد انيطت به ايضا الكثير من المهام • وذلك على غرار مارأيناه مع الاله تكرسو ، لذلك اشارت النصوص المسمارية الى انه اله الحكمة واله طرد الارواح الشريرة وشافي الامراض وسيد القنوات والحقول والاله الحاكم والمجلب للضياء • وللاله مردوخ عدة رموز، الاول هو الرمز المستخدم في مدينة بابل والذي هو عبارة عنحيوان مركب كل عضو فيه

مأخوذ من حيوان يختلف عن الحيوان المأخوذ فيه العضو الاخر • وهـذا الحيوان المركب يدعى باللغة البابلية « الموشخوشو » اما رموزه الاخرى فقد ظهرت على احجار الحدود حيث يصور احيانا بدكـة معبد مـع حيـوان الموشخوشو او دكة معبد موضوع فوقها اداة المر • ومعبده في بابل يسمى ايساكيلا ويعني المعبد المرفوع الرأس •



رمز الاله مردوخ

(ج) الاله اشور ــ وهو الاله القومي للاشوريين • والشيء الغريـب في اسم هذا الاله هو أننا لا نعرف معناه ولا نعرف ايضا اصله ، ولذلك نعتقد ان اصله قديم جدا وربما يعود الى فترة العبادات الطوطمية • ومما يؤكـد علـى قـدم اسـم هـذا الالـه هـو ظهـور اسـمه ضـمن كتابات أبيـلا المسـمارية التـي تـؤرخفـي حـدود ٢٥٠٠ ق•م ، وآخر ذكـر الالـه آشـور ظهـر ضـمن الكتابـات الارامـة المكتشـفة فـي الحضر في حدود القرن الثاني بعد الميلاد • ومنذ القرن الثالث عشر قبـل الميلاد اخذ الاشوريون يشبهون الاله أشور بالاله انليل ولذلك صارت القابه نفس القاب الاله المذكور وهي « الجبل الكبير » و « سيد البلدان » و « ابو الالهة » ومنذ القرن التاسع قبل الميلاد اصبح اشور مساويا للاله « ان ــ شار » والد الاله آنو ، وبذلك ارتفعت مكانة الاله اشور فوق جميع الالهة •

والنصوص المسمارية لم تذكر لنا اسم والد الاله اشور ، وهذه الحقيقة ربما تعتبر دليلا اخر على ان اصل هذا الاله قديم جدا • اما زوجته فهي عشتار الخاصة بمدينة اشور • والاله ننورتا ابن الاله انليل اعتبر ايضا على انه ابن الاله اشور • ومن القاب الاله اشور الاخرى هي « سيد جبال حمرين » ورمزه هو قرص الشمس المجنح وفي داخلها محارب يحمل قوسا • اما مهام الاله اشور فهي كثيرة ايضا مادام هذه الاله يمثل السلطة السياسية ، لذلك اعتبر الاله المقرر للمصائر والاله الحاكم والاله المقاتل واله الحكمة ايضا •



رمز الاله اشور

خلق الكون والانسان

لم يترك العراقيون القدامى جانبا من جوانب الحياة الا وناقشوه مناقشة موضوعية تنسجم وطبيعة المرحلة الحضارية التي يعيشونها ، ففيما يخص خلق الكون والانسان فان الملاحم والاساطير المتعلقة بالموضوع قد افرزت لنا بعض الاختلافات في وجهات النظر وخاصة فيما يتعلق بخلق الانسان والاله الخالق له ، حيث ان بعضها قد اعتبرت الاله انليل على انه الخالق للكون

وللانسان والبعض الاخر اعتبرت الاله انكي هو الخالق للانسان ، ومجموعة اخرى اعتبرت الاله مردوخ هو الخالق للكون وللانسان .

وهذا الاختلاف في وجهات نظر الملاحم والاساطير قد ساعدنا على معرفة الاصول الاولى لتلك المعتقدات وساعدنا ايضا على معرفة المراحل التطورية التي مرت بها . علاوة على ان هذا الاختلاف يعتبر الدليل الاكيد على موضوعية العراقيين في هدا الخصوص . وان الاراء التي قدموها وان اختلفت في بعض الجوانب فهي لم تنبع من الخيال وانما هي نتائج طبيعية لذلك الصراع المستمر بين الانسان وبيئته ولتوضيح ذلك نشير الى اننا قد ذكرنا بان المعتقدات السومرية التي تمثلت بتقديس العوامل الطبيعية التي سادت في الالف الرابع قبل الميلاد قد ظهرت بدايتها الاولى في الاقسام الشمالية وخاصة في المناطق ذات الامطار المتذبذبة . وهذا يعني ان الاشخاص الذين فلسفوا هذه الديانة الجديدة لاول مرة كانوا يعيشون في منطقة لا تشبه في طبيعتها طبيعة القسم الجنوبي من العراق . ولذلك لم نجد في اقدم الاراء الخاصة بهذه المعتقدات الجديدة سوى تأثيرات المنطقة التي ظهرت فيها تلك المعتقدات وطبيعية المنطقة التي ظهرت فيها المعتقدات الجديدة لاول مرة كان لا يعوزها سوى سقوط المطر بالكميات الكافية لنمو الزرع وما دام الهواء كان العامل الفعال في جلب المطر او ابعاده ، لذلك صار لاله الهواء دور كبير في الموضوع ، وليس هذا فحسب وانما اعتبر الاله انليل اله الهواء ضمن المعتقدات الجديدة على انه خالق الكون وخالق الانسان .

ومما يؤكد على ماذهبنا اليه بخصوص الاله انليل هو لقبه « الجبل العظيم » حيث يؤكد هذا اللقب على ان تعظيم هذا الاله كان منذ الفترة التي كانت لاتزال فيها المناطق الشمالية ممثلة لمركز الحضارة . وعلاوة على ذلك فان اقدم الملاحم الخاصة بخلق الانسان والتي تسمى « المعول » تقدم البرهان الاكيد على ذلك ومضمونها كالآتي :

« السيد الاله انليل قد جعل كل ماهو نافع يبدو ناصعا
السيد الذي تقريره للمصير لا يمكن ان يتغير ،
قد اسرع لفصل السماء عن الارض
قد اسرع لفصل الارض عن السماء ،
وبعد ذلك عمل على ان يظهر الانسان الاول ،
فحفر شقا في الارض في منطقة دورانكي ،
وخلق المعول ، وعندها انتهى النهار ،
ثم قرر واجبات العمل وقرر المصير .
وبينما كان يثبت مقبض المعول ومقبض سلة العمل ،
مجد الاله أنليل المعول الذي قام بخلقه ،
وجلب المعول الى « اوزو ــ آيا » .
ووضع بدايات البشرية في الشق ،
وعندما بدأ البشر يظهر مثل الحشيش من الارض ،
كان الاله انليل ينظر مرتاحا الى شعبه السومري ،
ووقفت الى جانبه الهة الانوناكي ،
واضعة اياديها على افواهها ،
وهي تقدم الصلوات للاله انليل ،
ووضعت المعول في ايدي الشعب » .

والسبب الذي دفعنا الى الاعتقاد بان ملحمة « المعول » قد كتبت قبل انتقال الافكار الجديدة المتمثلة بتقديس العوامل الطبيعية الى القسم الجنوبي من العراق هو انها الملحمة الوحيدة التي تؤكد ان الانسان قد ظهر مثلما يظهر الحشيش من باطن الارض ، وان فكرته مثل فكرتها لابد ان تكون انعكاسا لمفهوم زراعي صرف . وهذا التفكير الزراعي هو الذي كان سائدا ولاشك في الاقسام الشمالية من العراق ، وخاصة خلال الفترة التي سادت

فيها الحضارات المعتمدة على الزراعة الديمية خلال الفترة المحصورة ما بين ٨٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ ق٠م ٠

وتأكيدنا على ان مثل هذه الافكار ماهو الا انعكاس لمجتمع زراعي صرف يعود الى ان افكار الملاحم والاساطير التي انتجت بعد سكنى القسم الجنوبي من العراق ما هي الا انعكاس واضح لمجتمع زراعي صناعي ، واضافة الى ذلك فأنها كانت تعتمد على مقومات متوفرة بشكل بارز في القسم الجنوبي من العراق ٠

هذا ومن الاساطير الاخرى المتعلقة بموضوع الخلق وخاصة خلق الحيوان والنبات والتي يعتقد ايضا على انها قد كتبت قبل الانتقال الى القسم الجنوبي من العراق هي اسطورة « اله الشعير ـ أشنان ـ والنعجة » ومضمون هذه الاسطورة هو ما يلي :

« على جبل السماء والارض ،
قد ولدت الهة الانوناكي العظام ،
لان أشنان اله الشعير لم يولد بعد ولم ينبت بعد ،
وان الاله « اوت ـ تو » لم يخلق الخيط في البلاد بعد ،
وان الاله « اوت ـ تو » لم يحفر الحفرة بعد ،
ولم تخلق النعجة بعد ولم تتكاثر الحملان ،
ولم تخلق العنزة بعد ولم تتكاثر صغارها ،
ولم تلد النعجة توأما بعد ،
ولم تلد العنزة ثلاثة توائم بعد ،
لان الهة الانوناكي العظام واشنان المليء بالطهارة لم يعرفوا النعجة بعد ،
ولان شعير « شيكوشو » ذا الثلاثين يوما لم يعرف بعد ،
ولان شعير « شيكوشو » ذا الاربعين يوما لم يعرف بعد ،

ولان شعير « شيكوشو » ذا الخمسين يوما لم يعرف بعد ،
ولان الشعير الصغير ، شعير المنطقة الجبلية وشعير (أدم ــ كو) لــم
يعرف بعــد •
الملابس التي يرتديها المرء لم تعرف بعــد •
والاله « اوتو » لم يك قد ولد بعد ولم يلبس تاجه بعد ؛
والاله « سموقان » لم يذهب الى البلاد الجافة بعد ،
البشر الاوائل لم يعرفوا اكل الخبز بعد ،
ولم يعرفوا ارتداء الملابس بعد •
وكانوا يسيرون على ايديهم وارجلهم •
وكانوا كالخراف يعلفون الحشيش ،
ومن القنوات يشربون المــاء •
آنذاك في المكان الذي كانت فيه الالهة •
في معبدهم ، التل المقدس ، قررت الالهة ظهور النعجة والشعير •
في المعبد ، المكان الذي تأكل فيه الالهة الخبز ،
تجمعوا على انتاج النعجة والشعير
واكل آلهة الانوناكي ، الهة التل المقدس ،
ولكنهم لم يبلغوا مرحلة الشبع •
المشروب اللذيذ ، انتاج حضيرة الاغنام ،
شربته آلهة الانوناكي ، الهة التل المقدس ،
ولكنهم لم يبلغوا مرحلة الارتواء •
في حضيرة الاغنام الطاهرة تركوا مايسعدهم ،
تركوا البشرية روح حياتهم •
آنذاك تكلم الاله اينكي الى الاله انليل •
ايها الاب انليل : ان النعجة والشعير ،

التي نمت في التل المقدس ،
تتمنى نقلها من التل المقدس الى الارض .
وبناء على طلب الاله انكي واستجابة الاله انليل له ،
فقد انتقلت النعجة والشعير من التل المقدس الى الارض » .

وعلاوة على ان فكرة هذه الاسطورة هي الانعكاس لتفكير رواعي صرف ، فأن احداثها تتضمن ايضا البدايات الاولى للزراعة ولعملية تدجين الحيوان ، حيث ان الحديث عن ظهور النعجة والشعير لايدل الا على بداية الانسان لممارسة الزراعة وتدجينه للحيوان ، كما انها اي الاسطورة قد عكست الافكار المتناقلة عن طبيعة البشر الذين عاشوا خلال الفترة التي سبقت ظهور الزراعة ، حيث اشارت الى انهم كانوا يمشون على ارجلهم وايديهم وكانوا كالخراف يعلفون الحشيش ويشربون الماء من السواقي وهذا الرأي المطروح بخصوص الانسان يشير ويؤكد على ايمان العراقيين القدامى بان الانسان القديم جدا كان يشبه الحيوان في مواصفاته ، ويؤكد ايضا على ان ماجاء به جارلس داروين بخصوص اصل الانسان لا يختلف كثيرا عن هذا الرأي .

وعلاوة على ذلك فان هذه الاسطورة قد اكدت على ايمان سكان بلاد وادي الرافدين بان الانسان لم يكتسب الحضارة منذ بداية خلقه بل تدرج في التطور ، وذلك على عكس الملاحم الخاصة بخلق الانسان التي دونت في القسم الجنوبي من العراق ، حيث انها قد خلقت الانسان من الطين وخلقته كامل النمو والتطور مرة واحدة وهذا ما سنراه فيما بعد .

والسبب في هذا الفرق بين المفهومين الشمالي والجنوبي يعود الى ان سكان الحضارات الزراعية الديمية التي انتشرت في الاقسام الشمالية من العراق كانوا مايزالون يعيشون في مرحلة قريبة نسبيا من مرحلة جمع القوت ، اي مرحلة التنقل وراء الماء والغذاء كما تفعل ذلك الحيوانات ، ولذلك فان

ذكريات المرحلة المذكورة لاتزال تعيش في اذهان سكان هذه الحضارات . اما انسان القسم الجنوبي فقد بلغ شوطا بعيدا في التطور واصبحت بينه وبين مرحلة جمع القوت فترة زمنية طويلة ، علاوة على اختلاف بيئته اختلافا كليا عن بيئة المناطق التي سادت فيها مرحلة جمع القوت ، كل هذه الامور جعلته ينسى تأثيرات تلك المرحلة ولذلك خلقت ملاحمه واساطيره الانسان كامل التطور وفيه ايضا من حكمه الاله الخالق .

والحقيقة ان هذا الفرق الموجود بين الملاحم والاساطير التي كتبت في بداية ظهور الافكار الجديدة المعتمدة على تقديس العوامل الطبيعية وبين الملاحم والاساطير التي كتبت بعد هجرة تلك الافكار الى القسم الجنوبي من العراق لا يتمثل في النظرة الى الانسان ولا في نوعية المادة التي صنع منها الانسان او كيفية الصنع وانما الفرق آمتد ايضا الى نوعية الاله الخالق . فالملاحم والاساطير الاولى جعلت من الاله انليل ، اله الهواء هو الخالق للكون والانسان بينما الملاحم والاساطير التي دونت في القسم الجنوبي من العراق قد جعلت الاله انكي هو الخالق للانسان .

ان هذه الفروق بين ملاحم واساطير المنطقتين لا تشير الى حدوث تغيير جوهري في طبيعة تلك المعتقدات ولكنها تشير الى تغير في نوعية بيئة كل من المنطقتين اذ عندما ظهرت تلك المعتقدات لاول مرة في المنطقة الشمالية من العراق كانت المنطقة المذكورة تعتمد في زراعتها على المطر ، ولذلك صار لأله الهواء المؤثر في المطر وفي حركة الغيوم دور بارز في حياة سكان تلك المنطقة . وبعد ان انتقلت تلك المعتقدات الى القسم الجنوبي من العراق اخذ دور الاله انليل اله الهواء يتضاءل امام المكانة التي بدأ يتمتع بها الاله انكي اله الارض والمياه وذلك بسبب اعتماد القسم الجنوبي من العراق في زراعته على الري دون المطر .

واضافة الى هذه الحقيقة فان طبيعة القسم الجنوبي قد ابرزت اهمية الطين في حياة السكان لانه المادة الوحيدة المتوفرة بكثرة والتي يسهل الحصول عليها ويمكن صياغتها بسهولة الى اي شكل يريده الانسان . فمنه بنيت المعابد والبيوت ومنه صنعت الاواني والدمى وعليه كتبوا عقودهم وآدابهم وعلومهم، وفيه نبتت محصولاتهم ، لذلك صار الطين عماد الحياة بالنسبة للقسم المذكور.

ولذلك اعتبر سكان الجنوب ، الطين المادة الاساسية التي خلق منها الانسان ومما دعم هذا الاعتقاد كثيرا هو لون هذه المادة الذي يشبه الى حد كبير لون بشرة سكان القسم الجنوبي من بلاد وادي الرافدين .

وبناء على ذلك فان هذه التغيرات التي طرأت على عبادة العوامل الطبيعية بعد انتقالها الى القسم الجنوبي من العراق لا يمكننا ان نعتبرها ثورة على تلك المعتقدات بل يجب ان نشبهها بالثورة الثقافية ، اي بالثورة التي حاولت ان تضع تلك المعتقدات في المسار الذي ينسجم مع بيئة الجنوب وحاولت ان تصلح كل السلبيات التي برزت نتيجة هذا الانتقال . وفيما يلي نعرض اسطورة الاله انكي والالهة ننماخ الخاصة بخلق الانسان والتي تبرز دور الاله انكي في الموضوع :

« عندما ولدت الآلهات الام
وعندما تزوجت الآلهات الام
وعندما توزعت الآلهات الام بين السماء والارض .
وعندما ولدت الالهات الام في « أخا »
آنذاك كتب على الالهة العمل وتوجب عليها تزويد نفسها بالطعام والشراب وكان على الالهة العظام ان تراقب العمل وعلى الالهة الصغار ان تحمل السلال .
في « خرالي » كدس الالهة التراب من أجل شق القنوات ،

وكانت الالهة تتسارع الى هناك وكانت تتشكى من نوعية العمل •
آنذاك كان الاله انكي الحكيم ، الذي اوجد الالهة ،
في « اينكور » الوعاء الذي تتدفق منه المياه ،
والمكان الذي لا تستطيع الالهة دخوله ،
كان الاله انكي يضطجع في غرفة نومه وهو غارق في النوم ،
بينما كانت الالهة تبكي وتنتحب ، لانه قد خلق لهم العناء ،
ولكن الالهة لم تجرؤ على الدخول اليه في غرفة نومه •
غير ان الالهة « نمّو » الام التي تفوق الجميع والتي ولدت عددا كبيرا من الالهة ،
قد اخبرت ابنها الاله انكي بشكوى الالهة قائلة :
يابني انك نائم حقا •
فان الالهة العظام تضرب أجساد الالهة الصغار •
يابني أخرج من غرفة نومك •
فأنت من خلال حكمتك تدرك كل فن ،
اصنع بديلا عن الالهة حتى يحمل سلة العمل عوضا عنها •
نهض الاله انكي على كلمات والدته الالهة « نمّو » ،
ودخل القاعة المقدسة واخذ يضرب فخذه وهو يفكر ،
الحكيم ، العليم ، البصير ، الذي يدرك كل شيء وكل فن •
وبعد ذلك جلب الاله انكي الايدي وصاغ صدر الانسان •
انكي •• الخالق وضع داخل مخلوقه شيئا من حكمته ،
ثم نادى على أمه الالهة « نمّو » وقال لها :
امي : المخلوق الذي اوجدتيه اربطي به عمل الالهة •
وبعد ان تخلطي الطين الذي تأخذينه من مياه الابو ،
عليك ان تصوغي الاعضاء وتكوني الانسان ،

وعسى ان تساعدك في ذلك الالهة ننماخ ،
وبقية الالهة التي قمت انتِ بانجابها ،
عساهم ان يساعدوك عند العمل ٠
امي : قرري مصير الانسان ، تجيب الالهة ننماخ :
عسى ان يكون العمل مصيره » ٠

وعلاوة على ماجاء في اعلاه فان الاسطورة المسماة « انكي والالهة تنخرساك » والتي ذكرنا مختصرا لتفاصيلها اثناء حديثنا عن الاله انكي يمكننا ان نعتبرها البداية في ابراز دور الاله انكي ، لانها قد بينت في نهايتها قيام الاله انكي بتقرير مصير الالهة وقيامه ايضا بتخصيص اله الى « دلمون » التي اعتبرتها الاساطير السومرية على انها الموطن الذي تكمن فيه فردوس العراقيين القدامى واضافة الى اسطورتي « الاله انكي والالهة ننماخ » و « الاله انكي والالهة ننخرساك » هناك اسطورة ثالثة تبين اهمية الاله انكي في وضعه لنظام الكون ولذلك تسمى « الاله انكي ونظام الكون » وملخصها : ان الاله انكي قام برحلة حول العالم وبدأها من بلاد سومر وذلك من اجل ان يمنح سكان العالم بركاته وينشر بينهم عناصر العمران والحضارة ، واضطلع من بعد ذلك بتنظيم احوال الارض وانهارها وبحارها ، فملأ نهري دجلة والفرات بالمياه العذبة وبالاسماك وعين ايضا آلهة يتولى كل منها ناحية معينة من النشاط الحضاري ٠

وبالرغم من هذه المكانة الكبيرة التي حصل عليها الاله انكي في القسم الجنوبي من العراق ، الا انه لم يتمكن من الاحتفاظ بمكانته هذه على مر العصور لان الحياة كما نعلم في تطور مستمر ولا تثبت على حالة واحدة فقبل كل شيء ان المعلومات التاريخية قد اكدت على ان زعامة السلالات او ماتسمى بدويلات المدن بدأت منذ منتصف الالف الثالث قبل الميلاد تنتقل من يد

السلطة الدينية الى يد السلطة العسكرية ، اي السياسية لان الظروف التي أحاطت بتلك الدويلات جعلتها تحتاج الى القائد العسكري الـذي يحمـي حدودها واراضيها الزراعية اكثر من حاجتها الى رجل الدين • وبروز هـذه الحاجة بالطبع هو الذي ادى الى انتقال الزعامة الى يد السلطة السياسية ومما سهل هذا الانتقال كثيرا هو مصلحة السلطة الدينية نفسها ، حيث انها قـد اقتضت ان تتسلم السلطة السياسية القيادة بيدها لان نسبة كبيرة من الاراضي الزراعية التي تعمل السلطة المذكورة على حمايتها تعود الى المعبد ، اي الى السلطة الدينية •

والحقيقة ان هذه الظروف التي احاطت بدويلات المدن لم تعمل علـى نقل القيادة من يد السلطة الدينية الى يد السلطة السياسية فقط بـل ادت ايضا الى ظهور الهة جديدة ترمز الى السلطة السياسية والى هيبتها • وهذه الالهة الجديدة بدأت تستقطب الى نفسها الكثير من مهام الالهـة الرئيسـة ولذلك فان الاله انكي لم يعد الاله الوحيد المهم في القسـم الجنوبي مـن العراق • هذا من جهة ومن الجهة الاخرى فان الملوحة التي اخذت تتكاثر في تربة القسم الجنوبي من العراق بدأت تؤثر على انتاج المحاصيل الزراعيـة • ومن اولى مظاهرها انها دفعت سكان الجنوب الى زراعة الشعير بدلا مـن الحنطة ، لان الشعير يتحمل الملوحة اكثر من تحمل الحنطة لها •

ان الانخفاض في انتاج الحبوب أضطر حتى مراكز السلطة السياسية ان تتخلى عن مواقعها في الجنوب وتصعد قليلا الى الشمال ولذلك بدأت اهمية مدينة بابل تزداد منذ حوالي ٢٠٠٠ ق•م وفي حدود ١٨٠٠ ق•م اصبحت مركزا للسلطة السياسية في بلاد وادي الرافدين • ومادام الاله مردوخ هو اله مدينة بابل ورمزا لسلطتها السياسية ايضا فان هذه المواصفات قد دفعت بـه لان يفوق في مكانته مكانة الاله ايا (= انكي) ، ولذلك عدلت صياغة الملاحم والاساطير الخاصة بخلق الكون والانسان وهذا التعديل ادى الـى كتابـة

ملحمة جديدة ، الا وهي قصة الخليقة البابلية ، تلك القصة التي اشارت الى ان الاله مردوخ هو الذي خلق الارض والسماء بعد ان قطع جسم الالهة « تيامة » الى نصفين ، نصف كون به السماء وبالثاني كون الارض وتيامة تمثل المياه المالحة ، اي البحر . واما الانسان فان الاله مردوخ يأمر بخلقه ولكن الخالق الحقيقي بقي الاله ايا (= انكي) وفيما يلي نقدم الجزء الخاص بخلق الانسان من قصة الخليقة البابلية :

« بعد ان سمع الاله مردوخ كلمات الالهة ،
تحرق قلبه من اجل ان يخلق الكمال .
وعندها أخبر الاله ايا (= انكي) بقراره ،
وشرح له خطة العمل التي رسمها في ذهنه
اريد ان يحضر لي الدم والعظام ،
اريد ان اخلق ــ لوللو ــ الذي سيكون اسمه الانسان ،
اريد حقا ان اخلق الانسان ،
لاني اريد ان القي عليه عناء الالهة حتى تنعم هي بالراحة ،
واريد ان اجعل طريق الالهة محاطا بالابداع ،
واريدها ان تبجل جميعا وبشرط ان تقسم الى قسمين .
فأجابه الاله ايا (= انكي) واثناء الاجابة ،
عرض على الاله مردوخ خطة اسعاد الالهة ،
وقال لمردوخ ايضا : يجب احضار احد اخوانك ،
لنذبحه ونصنع منه البشر ،
وليت الالهة العظام تتجمع الآن ،
ويجلب الاله صاحب الاثـام ، وتعترف عليه الالهة ..
جمع الاله مردوخ الالهة العظام ،
وبلطف أمرهم ان يقدموا المشورة ،

وبينما كانت الالهة تستمع لكلامه ،
قال الاله مردوخ ، الملك ، مخاطبا الهة الانوناكي :
فأن كنتم الهة الانوناكي حقا
فسوف أضعكم الآن تحت القسم واطلب منكم الحقيقة .
من منكم تسبب في نشوب الحرب ؟
تيامات اثارتها ونظمت الثورة ...
عليكم احضار الذي تسبب في نشوب الحرب ،
لأنني اريد ان احمله وزرها لتعيشوا أنتم بهدوء .
آلهة الانوناكي ، الالهة العظيمة قد ردت ،
على مستشارها وعلى سيدها :
« كنكو » هو الذي تسبب في نشوب الحرب ،
وتيامات قد اثارتها ونظمت الثورة .
فربطوا كنكو وجاءوا به الى الاله ايا (= انكي) ،
وحملوه وزر جريمته وسفكوا دمه ،
ومن دمه خلق الاله ايا (= انكي) البشر ،
وحمله (أي حمل الانسان) عناء الالهة وتحررت هي من العمل .
وبعد ان خلق الحكيم ، الاله ايا البشر ،
حملهم عناء عمل الالهـة ...
وعندها قسم الاله مردوخ ، ملك الالهة ،
آلهة الانوناكي الى قسمين علوي وسفلي ،
وضع ٣٠٠ في السماء كحراس لها ،
ثم ثبت طرق الارض ،
وترك ٦٠٠ اله يسكنون في السماء والارض .
وبعد ان قدم لهم نصائحه ،

فتحت الهة الانوناكي فاها ،
وقالت مخاطبة الاله مردوخ سيدها :
اله القمر سيدنا قد حررته من عناء العمل ،
كيف يمكننا ان نعبر لك عن شكرنا » .

الحياة والموت

تبين لنا من خلال الملاحم الخاصة بخلق الانسان بان الالهة قد قررت منذ البداية الموت على الانسان وهذا القرار في الحقيقة يعتبر أمر طبيعي للغاية لان التجارب التي مرت بها البشرية عبر عصورها المختلفة لم تر ولم تسمع عن كائن حي واحد استطاع ان يفلت من الموت ولذلك فان قرار الالهة في الملاحم الخاصة بخلق الانسان ان يكون الموت من نصيب البشر هو امر اعتيادي ولا يتعارض وطبيعة الحياة نفسها .

وبالرغم من حقيقة الموت التي شهدها الانسان عبر جميع مراحله ، الا ان الموت لم يتمكن من انهاء الحياة من على سطح الارض ، بل بقيت الحياة في تجدد مستمر وحتى نسبة تجددها هي اعلى من نسبة الموت . وهذه الحقيقة هي التي دفعت الانسان القديم الى ان يعتقد بان الموت ماهو في حقيقته الا اختفاء مؤقت عن الحياة وبعد ذلك يعود الميت الى الحياة . وهذا الاعتقاد أدى الى ايمان الشعوب القديمة وخاصة سكان بلاد وادي الرافدين بوجود علاقة جدلية بين الحياة والموت . ونقصد بهذه العلاقة ايمانهم بان لا حياة من دون موت وليس هناك موت من دون حياة . وقد رمز الاقدمون الى هذه العلاقة باللون الاحمر ، الذي مازال نستخدمه حتى الآن للدلالة على الحب ، اي استمرارية الحياة وللدلالة ايضا على الخطر ، اي الموت .

والحقيقة ان الانسان القديم قد تلمس بوضوح هذه العلاقة فيما بين

الموت والحياة ولكنه لم يستطع ان يتعرف بدقة على الكيفية التي يتحول فيها الموت الى الحياة ، ولذلك نجد ان الكتابات المسمارية لم تقدم لنا صورة موحدة بل صوراً مختلفة ولكنها جميعا تقع ضمن اطار واحد .

ففيما يخص فترة الالف السادس قبل الميلاد وهي الفترة التي شهدت بداية ظهور عبادة القوى الطبيعية تلك العبادة التي نمت وترعرعت فيما بعد في القسم الجنوبي من العراق يبدو من المخلفات الاثرية وخاصة تلك التي كانت توضع مع الميت في قبره ، ان سكان هذه الفترة كانوا يعتقدون بان الحياة تعود الى الانسان بعد دفنه ولذلك كانوا يضعون معه الحاجات الاساسية التي يحتاجها بعد عودة الحياة له . وقد تأكد لنا ذلك من خلال قبور الاطفال التي اكتشفت في موقع تل الصوان القريب من مدينة سامراء ، حيث احتوت جميع تلك القبور على دمية للأم واحيانا للام والاب لان الطفل لا يحتاج بعد عودة الحياة اليه سوى أمه بالدرجة الاولى وابيه بالدرجة الثانية ولكن هذا الاعتقاد قد تعدل قليلا لان عودة الميت نفسه مرة ثانية الى الحياة ناحية لايمكن استمرار الاعتقاد بها لان ذلك من الناحية العملية غير ممكن على الاطلاق ولذلك تحول الاعتقاد الى ان الميت لا يعود هو نفسه ثانية الى الحياة بل الذي يعود منه هي الروح وان دل هذا على شيء فانما يدل على ان الموت في نظر سكان بلاد وادي الرافدين هو عملية انفصال الروح عن الجسد ، وان الذي يعيش الحياة الاخرى هي الروح وليس الجسد ولكن للروح ملامح لا تختلف عن ملامح المتوفى قبل مماته .

وان روح الانسان بعد مماته تسمى سومرياً «كيديم» واكدياً «ايطيمو». وان هذه الروح هي التي تتحمل حسنات او سيئات الشخص المتوفى ، ومقر سكنى الروح هو العالم السفلي . اما الاشخاص الذين يموتون موتا غير طبيعي او ان جثثهم تترك بلا دفن فان ارواحهم تتعذب وتتحول الى

قوة شيطانية وتخرج من العالم السفلي وتصعد الى العالم العلوي وتقلــق راحة الاحياء على الارض • والعالم السفلي يمثل في معتقدات سكان العراق القدامى بالطبقة الاخيرة من الارض وفوق سقفه كانت تمتد المياه الجوفيــة العميقة وهذا العالم كان محاطاً بسبعة اسوار وبنهر يحيط بالسور الاول منه ويسمى « خوبور » وكان لا يسمح للموتى بعبور هذا النهر الا بعد انجــاز الشعائر الجنائزية • وان الوصول الى العالم السفلي كان يتم من خلال عدة منافذ ، الاول من خلال حفرة القبر والثاني من خلال اية حفرة اخرى فــي الارض او من خلال المدخل الرئيس الموجود في مدينة الوركاء •

والسبب الذي دعا سكان العراق القديم وخاصة سكان القسم الجنوبي منه لان يجعلوا من باطن الارض مقرا لعالمهم السفلي يعود الى طبيعة الجو في القسم المذكور حيث ان جو العراق بشكل عام حار ورطب • وحرارة جنوبه صيفا شديدة نسبيا ولذلك صارت الاماكن المبينة في عمق الارض كالسراديب مثلا من افضل الاماكن التي يقضي الناس فيها اوقاتهم بعيدا عن تلك الحرارة وعن الرطوبة ايضا ولذلك لم يك ممكنا لسكانه ان يتصوروا العالم السفلي في مكان اخر غير باطن الارض •

هذا ويعتقد سكان بلاد وادي الرافدين بان مايعيشه الانسان من عمر ، طويلاً كان ام قصيراً فهو مقرر له من قبل الالهة وان كل مايصيبه في حياته مقرر له ايضا منذ لحظة ولادته ولذلك حاول العراقيون القدامى من خــلال الكثير من الممارسات التي تحمل طابع الممارسات السحرية ان يتعرفوا علــى ماهو مقرر للانسان • وخير شاهد على ذلك هي نصوص الفأل العديدة حيث كلها تسعى الى معرفة ارادة الالهة بخصوص الشخص الذي يكشف طالعه •

والحقيقة اننا مهما جمعنا مــن معلومات عــن معتقدات العراق القديم فان هذه المعلومات سوف لا تتمكن من ان تقدم لنا صورة واضحة كالصورة

التي يمكن استخلاصها من دراسة الملاحم والاساطير التي خلفها لنا سكان بلاد وادي الرافدين لان هذه الصورة تمثل الخلاصة لكل مافكروا به نظريا وما جربوه عمليا ، فالملاحم والاساطير اذن هي النتيجة الحاصلة من جراء تحويل النظريات الفكرية الى ممارسات فعلية .

والملاحم والاساطير الخاصة بخلق الانسان قد اكدت على ان سكان بلاد وادي الرافدين قد آمنوا بنسبة عالية بان الانسان مخلوق من الطين المجفف غير المخفور ، وان دل هذا الايمان على شيء فانما يدل على ملاحظتهم للسهولة التي كان يفقد فيها الانسان حياته وخاصة اثناء انتشار الاوبئة او طغيان مياه الفيضان مضافا الى ذلك الاسباب الكثيرة الاخرى التي نعرفها والتي تتسبب في فقدان الانسان لحياته . ومما يدعم هذا الاعتقاد ايضا اضافة الى الملاحم الخاصة بخلق الانسان هو الوصف الخاص بموت الملك اورنمو ٢١١٣ ــ ٢٠٩٦ ق.م مؤسس سلالة اور الثالثة حيث جاء فيه بان « اورنمو قد سقط على الارض مثل اناء محطم » . وبالتأكيد ان نظرة العراقيين القدامى الى الانسان والى حياته بهذا المنظار هو الذي جعلهم يتطلعون الى الوسيلة التي يمكن ان تمنع عنهم الموت ، ونتيجة لهذا التطلع فقد كتب عدد من الملاحم والاساطير التي حاول من خلالها انسان وادي الرافدين ان يبحث عن الخلود ليمنع عن نفسه الموت والشيء الذي يلفت النظر في الملاحم والاساطير الخاصة بالخلود هو ان ابطالها كانوا على ثلاثة اصناف ، الصنف الاول جعل من المرأة الشابة الجميلة ، البطلة التي اخذت على عاتقها مهمة البحث عن الخلود وقد تأكد لنا ذلك من خلال اسطورة « نزول الالهة إنانا » (= عشتار) الى العالم السفلي . ومن مجمل احداث هذه الاسطورة يبدو واضحا ان الالهة انانا ، سيدة السماء والهة الخصب والجمال قد اقلقها كثيرا موت الانسان فقررت ان تضع حدا له فوجدت ان افضل وسيلة تحقق هدفها هو قيامها باحتلال العالم السفلي اي عالم الاموات

ولذلك تبدأ الاسطورة بقرار الالهة اينانا بالنزول الى عالم الاموات والسيطرة عليه وبوصف الاستعدادات ايضا التي اتخذت لذلك النزول •

اما القسم الاخير من الاسطورة فقد اوضح لنا فشل الالهة إنانا في محاولتها للسيطرة على ذلك العالم وضرورة ايمانها بان الموت حق على البشر ومن دونه لا حياة جديدة على الارض وهذه الملحمة على مايبدو قد ألفت قبل او اثناء انتقال عبادة القوى الطبيعية الى القسم الجنوبي من العراق لان المرأة في هذه الاثناء كانت تتزعم الممارسات الدينية ودليلنا في ذلك دمى الالهة الام التي كانت سائدة في العبادة قبل الانتقال الى القسم المذكور •

والصنف الثاني هو الذي اتخذ من الرجل الناضج الحكيم الوسيلة التي قد تستطيع بسبب الحكمة التي يمتلكها هذا الرجل ان تحصل على الخلود وقد برز هذا الصنف من خلال ملحمة « ادبا » التي ستذكر تفاصيلها عند الحديث عن الادب في العراق القديم •

واما الصنف الثالث فهو الذي اتخذ من الشاب القوي مثل كلكامش على انه البطل القادر على تحقيق الخلود للبشرية ولكن كلكامش كما وضحت ذلك تفاصيل ملحمته قد فشل ايضا في محاولته ولم يتمكن لا من تحقيق الخلود لنفسه ولا من امكانية تجديد الشباب ولكن ملحمته قد اكدت على حالتين ، الاولى ان الخلود ممكن ولكن فقط في حالة تقديم الاعمال الخارقة في الاهمية والتي تخدم البشرية جمعاء كخلود اوتونا بشتم ، لانه انقذ البشرية من الانقراض عندما احدثت الالهة الطوفان على الارض والحالة الثانية هي الخلود المعنوي الذي يتم بتقديم الاعمال المفيدة للانسان وللمجتمع اضافة الى تأكيدها على ان افضل انواع الخلود المعنوي بالنسبة للاشخاص الاعتياديين عندما يضحي الواحد منهم بنفسه من اجل الوطن • وخير شاهد على ذلك هو الحديث الذي توجه به انكيدو الى كلكامش وهو الآتي :

« يا صاحبي لقد حلت بي اللعنة
سوف لن اموت ميتة رجل سقط في ميدان الوغى ،
كنت اخشى القتال ولكنني سأموت ذليلاً حتف انفي ،
فمن يسقط في القتال ياصديقي فأنه مبارك (= شهيد) » .

وهذا القول يعتبر الدليل الاكيد على ان الانسان الاعتيادي اي الخالي من الثقافة والصنعة كان يستطيع ايضا ان يخلف ذكرا حميدا عندما يستشهد دفاعا عن وطنه وقومه لان انكيدو يحمل في شخصيته تجسيدا لنوعية الانسان الاعتيادي .

وعلاوة على ماذكرناه بخصوص ملحمة كلكامش فانها تبرز ايضا دور السلطة السياسية اي بمعنى انها قد كتبت بعد انتقال الحكم من يد السلطة الدينية الى يد السلطة السياسية والنتيجة التي وصلت اليها ملاحم واساطير البحث عن الخلود قد ادت بدورها الى ظهور مجموعة ثالثة من القصص التي تخصصت في استعراض التحرشات التي كان يقوم بها سكان المنطقة الشرقية على الحدود العراقية وكيفية القضاء عليها وذلك من اجل التأكيد على ان الدفاع عن الوطن والاستشهاد من اجله هو افضل مايمكن للانسان ان يقدمه خلال حياته ومن ابرز الملاحم والاساطير في هذا الخصوص هي الملاحم التي تحدثت عن الاعمال العسكرية للملكين « اينمركار » و « لوكال بندا » وكلاهما من ملوك سلالة الوركاء الاولى ٢٧٠٠ ــ ٢٦٠٠ ق.م .

تأليه الملوك لأنفسهم

لقد اظهرت لنا النصوص المسمارية ان عددا من ملوك العراق القديم قد استخدموا العلامة المسمارية الدالة على الالوهية قبل اسمائهم وهذا الاستخدام يشير ولاشك الى انهم قد اعتبروا انفسهم من صنف الالهة .

والتفسير الذي طرحه الاستاذ هنري فرانكفورت بهذا الخصوص قد نـال في حينه رضى اغلب الباحثين ومفاده : « ان الملوك الذين يتقمصون شخصية الاله تموز اثناء طقس الزواج المقدس هم الذين اضيفت الى اسمائهم العلامة الدالـة على الالوهيـة ، والزواج المقـدس الـذي يسـمى ايضا بالزواج الالهـي هـو زواج يتـم بـين الـه والهـة مـن الهـة الخصـب وكـان الملـك او الحاكـم هـو الـذي يقـوم بتمثيـل دور الالهـة مـع احدى الكاهنات من الدرجـة العليـا التـي تقـوم بدور الهة الخصب ، وكـان المعتقد ان هذا الاقتران المقدس ينتج عنه احلال الخصب والخير في البلاد .

والحقيقة ان هذا الرأي الذي تقدم به الاستاذ فرانكفورت وان يبـدو منطقياً الى حد ما ، الا انه لا يستطيع تعليل السبب الذي دعا بعض ملـوك العراق القديم وليس جميعهم الى تأليه انفسهم ويعجز ايضا عن تعليل السبب الذي جعل الملك حمورابي ومن خلفوه من ملوك في سلالة بابـل الاولـى ١٨٩٤ ـــ ١٥٩٥ ق.م ماعدا الملك سمسوايلونا يمتنعون عن تأليه انفسهم في الوقت الذي تؤكد فيه المعلومات على استمرارية طقس الزواج المقدس خلال فترة حكم سلالة حمورابي التي عاشت ٣٠٠ سنة ولذلك فمن غير المسـتبعد ان نفترض بان الاطفال الذين كانوا يتولدون من عملية الزواج المقدس هم الذين كانوا يؤلهون انفسهم عندما تسنح لهم الظروف بتسلم مقاليد الحكم ، لانهم كانوا يعتبرون انفسهم اطفالاً تولدوا من ابوين كل منهما كان يتقمص شخصية اله ساعة تكوينهم .

والسبب الذي دفعنا الى الاعتقاد بان الملوك الذين ألهوا أنفسهم ما هم الا اولاد نتجوا من عملية الزواج المقدس يرجع الـى ان ظاهرة التأليه قـد اختفت مابين الملوك البابليين منذ بداية الفترة التي حرم بها انجاب الاطفـال على كاهنات الناديتوم والاينتوم بالرغم من استمرارية طقوس الزواج المقدس اذ لو كان السبب الرئيس للتأليه هو تقمص شخصية الاله تموز لوجب ان

تستمر ظاهرة التأليه ، ولكن ارتباطها بالاطفال الذين تنتجهم عملية الـزواج المقدس هو الذي تسبب في اختفائها لان الكاهنات الممارسات للزواج المذكور لم يعد ممكناً لهن انجاب الاطفال ليمنحوا انفسهم فيما بعد صفة الالوهية .

هذا وان عودة ظاهرة تأليه الملوك لانفسهم مجددا في العهد الكشي يعود الى ان الكاشيين هم في واقعهم من بلاد ايران جاءوا الى العراق على شـكل جماعات طالبة للعمل وبمرور الزمن زاد عددهم بحيث تمكنوا في حدود ١٦٠٠ ق.م من ازاحـة البابليين وتسلم مقاليد الحكـم بأيديهـم . ومادام طقس الزواج المقدس هو طقس سومري الاصل فقد سـمح الكشيون للكاهنات الممارسات له بالانجاب لسببين : الاول ليتمكنوا من رفع مكانة اولادهم الى مرتبة الالوهية والثاني ليكسبوا به ود السومريين على حساب دحر قـوة ومكانـة البابليين .

وبالفعل فان هذه السياسة استطاعت ان تدمر سكان القسم الجنوبـي من العراق واغرقتهم في منازعات قومية مستمرة بحيث بقي القسم المذكـور حتى سقوط بابل عام ٥٣٩ ق.م يحكم من قبل اقوام لم يكن اصلها من القسم الجنوبي . وفيما يخص ظاهرة التأليه فانها زالت ثانية ونهائيا بعد ان تمكن الاشوريون من دحر الكشيين وتسلموا مقاليد الحكم بأيديهم .

المعبـد

ان المعلومـات المتوفرة عـن الدين تؤكد ان ظهور اولـى المعتقدات الدينية في حياة الانسان يرجع الى فترة سحيقة في القـدم وبعض الباحثين يرجعها الى ماقبل حوالي (٩٠) ألف سنة من الآن وبالرغم من هذه الحقيقة الخاصة بظهور الدين الا اننا مـع ذلك نستطيع ان تؤكد ان ظهور المعبـد كمؤسسة دينية لم يحدث الا في القسم الشمالي من العراق وفي حدود منتصف الالف الخامس قبل الميلاد اي منذ بداية سكنى القسم الجنوبي من العراق .

وظهور المعبد كمؤسسة دينية منذ التاريخ المذكور يؤكد على ان القسم الجنوبي قد احتوى منذ بداية سكناه على مجموعة بشرية تحمل افكارا دينية تختلف في جوهرها عن الافكار التي سادت في الاقسام الشمالية ولذلك استوجب انتشار هذه الافكار الى بناء المعبد . هذا وقد سبق لنا ان قلنا ان ظهور المسجد في حياة المسلمين كان مرتبطا بنجاح الدين الاسلامي وكذلك الحال بالنسبة للمعبد حيث ان ظهوره كان مرتبطا ايضا بنجاح فكرة تقديس العوامل الطبيعية ، ومن الحقائق الاخرى التي تدعم هذا الاعتقاد الخاص بظهور المعبد هي نوعية اقدم المعابد المكتشفة في القسم الشمالي من العراق وبساطة اقدم انواع المعابد تؤكد ان فكرته لم تتأثر بأبنية سابقة وانما هي فكرة جديدة .

والحقيقة الاخرى تتمثل بان المعبد في القسم الشمالي من العراق كان دائما وبدون استثناء يمثل مركز القرية او المدينة ومن حوله تبنى بقية الابنية الاخرى سواء كانت رسمية او مدنية .

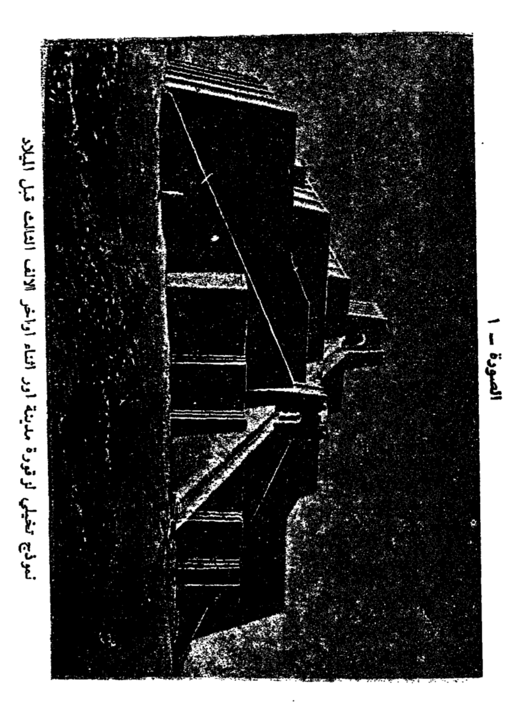
ومن الامور السلبية التي كانت تؤثر كثيرا على ابنية القسم الجنوبي من العراق ناحيتان اساسيتان الاولى تتمثل بالمياه الجوفية التي كانت وماتزال تظهر احيانا على عمق قدم او قدمين من باطن الارض وهذه المياه كانت تؤثر كثيرا على جدران المعابد وبقية الأبنية الاخرى والناحية الثانية تتمثل بالفيضانات الكثيرة التي كانت تغمر القسم المذكور بين الحين والاخر وهاتان الناحيتان دفعتا سكان الجنوب الى ايجاد الحل المناسب الذي يمنع المياه الجوفية ومياه الفيضان من التأثير على الابنية وخاصة ابنيتهم المقدسة والحل الذي وجدوه هو انهم قد بنوا معابدهم على مصاطب مرتفعة بعض الشيء عن مستوى سطح الارض وذلك منعا للمياه المذكورة من التأثير على ابنيتهم المقدسة وبمرور الزمن زاد عدد المصاطب حتى بلغت في اواخر الالف الثالث قبل الميلاد ثلاث مصاطب ، والمعبد كان يقام على أعلى تلك المصاطب

ومثل هذه الابنية كانت تسمى قديما بالزقورة • وفي مدينة بابل بلغ عـدد طبقات زقورتها سبع طبقات •

ومنذ ان زاد عدد المصاطب عن مصطبة واحدةظهرت الحاجة الملحة الى ان يكون هناك معبد ارضي لممارسة الطقوس اليومية ومعبد اخر فوق الزقورة ولكن هذا المعبد لا يستخدم الا لاغراض الاحتفالات الدينية المهمة وخاصة اثناء احتفالات اعياد رأس السنة •

ورب سائل يقول ان مصطبة واحدة كافية لان تحمي المعبد من المياه الجوفية ومياه الفيضانات فما هو اذن سبب زيادة عدد المصاطب ؟ للجواب على هذا السؤال نقول بان سكان بلاد وادي الرافدين لم يستخدموا في حساباتهم للوقت وسريان الزمن سوى التقويم القمري ولذلك كانت رؤية الهلال تعتبر ناحية مهمة حيث كانت تعتمد عليها كثير مـن الامـور الدينية والدينوية • وضرورة رؤية الهلال منذ يومه الاول قد ابرزت الحاجة الى الاماكن المرتفعة ولذلك نعتقد ان زيادة عدد الطبقات كان لغرض خدمة هذه الحاجة من جهة ولتكون الابنيـة المقدسـة قريبة ايضا من مقرات الالهة من الجهـة الاخرى (انظر الصورة رقم ١) •

ومادام المعبد كان يمثل منذ بدايته مركزا للمدينة ومادامت النصوص المسمارية قد بينت على ان الحكم في العراق القديم خلال الالف الرابع قبل الميلاد كان حكما دينيا آيضا فان هاتين الناحيتين تؤكدان على ان المعبد فـي مراحله الاولى لم يستخدم للاغراض الدينية الصرفة فقط وانما للمهام الاخرى التي يحتاج اليها الحكم الديني والمجتمع ولذلك فان النصوص المسـمارية قد بينت على ان المعابد قد مارست اعمال اقراض الفضة والشعير ومن ابـرز الادلة المادية على ذلك هي فائدة الفضة التي كانت تسمى بفائدة الاله شمش، اي بمعنى الفائدة التي كان معبد الاله شمش يفرضها على من يقترض منـه



الصورة — ١

نموذج تخيلي لزقورة مدينة اور اثناء اواخر الالف الثالث قبل الميلاد

الفضة . والمعبد كان يستخدم لاغراض فض النزاعات بين الناس ولذلك كان يقوم مقام المحاكم . والنصوص المسمارية قدمت لنا الكثير من الادلة علـى

ان المحاكمات كانت تجرى داخل المعابد والوثيقة المرفق استنساخها وترجمتها الى العربيـــة خير شاهد على ذلك وهذه الوثيقة تـؤرخ في حدود ٢١٠٠ ق٠م (انظر الوثيقة التي تلي الصورة رقم ١) ٠

وعلاوة على ذلك فان المعابد قد احتضنت اولى انواع المدارس في التاريخ واستمر اهتمامها بشؤون التعليم عبر جميع مراحل الحضارة العراقية ولكن

ŠEŠ - KAL - LA É - U_6 - E É - DINGIR - ŠARA

شارا الالهي معبد ← اي-او-اي ← شيشكلا

- KA MU - LUGAL GÚ - ZI - GA

في اسم الملك صباح الغد

TUKUM - BI NU - GUB - BE - EN

← تحضر لم ← ← اذا ٠ ←

MU - LUGAL - LA DI - TIL - A HÉ - A - BÍ - DU_{11}

← يصدر ← القرار ب الملك اسم

IGI UR - BA - BA_6 - ŠE IGI . LÚ - DINGIR - SATRAN

لوستران « امام اوربابا امام

الترجمة الحرة :- « شيشكلا (مطلوب) في « اي - او - اي » داخل معبد الالهي شارا للقسم بأسم الملك : اذا لم تحضر صباح الغد (امام المحكمة) فسوف يصدر القرار النهائي بعد اداء القسم بأسم الملك وامام الشهود اورباب و لوستران » .

هذا الاهتمام قد عظم منذ منتصف الالف الثالث قبل الميلاد اذ ان هـذا التاريخ يمثل مرحلة انتقال الحكم مـن يد السلطة الدينية الـى يد السلطة السياسية ومن اجل ان تبقى هيمنة السلطة السياسية ومن اجل ان تبقى هيمنة السلطة الدينية على المجتمع فقد اهتمت بالتعليم لنشر تعاليمها الدينية مـن جهة ولأستقطاب الناس اليها من الجهة الاخرى ولكن هذا الاهتمام لم يمنع من ظهور التعليم الخصوصي ولم يمنع القصور الملكية من اقامة المكتبـات الكبيرة ضمن مرافقها بغية استقطاب العلماء والادباء لخدمة اهداف السلطة السياسية •

وفي ختام الموضوع نود أن نشير الى ان المعابد العراقية القديمـة وان كان اصلهـا جميعـا يكمـن في القسـم الشـمالي مـن العـراق الا انهـا اختلفت قليـلا في تصميمهـا عـن تصميـم المعـابد الجنوبيـة حيث ان المعابد الجنوبية قد جعلت اقدس مكان في المعبد يقع على نفس محور المدخل ، اي بمعنى ان الداخل الى المعبد يواجه مباشرة قدس الاقداس اي المحراب ، اما المعابد الشمالية فقد حرفت المداخل عن المحاريب وجعلتها فـي جهة تضطر الداخل الى المعبد ان يدور بزاوية قدرها تسعون درجة حتى يواجه المحـراب •

والناحية الاخرى التي اتصفت بها جميع المعابد العراقية وعبر جميـع العصور هو انها جميعا قد بنيت من اللبن ماعدا المرافق التي تتعرض للمياه فقد كانت تبنى اما بالحجر او الطابوق او القير والسبب في بناء جميع المعابد العراقية باللبن يعود في اعتقادنا الى ان المادة الوحيدة المتوفرة للبناء الصلد في القسم الجنوبي من العراق كانت مادة الطين ولذلك فقد بنيت اقدم المعابد باللبن وهذه الحقيقة هي التي جعلت المعابد اللاحقة تسير على نفس المنوال اي انها استخدمت مادة اللبن لبنائها • والتعليل الاخر ربما يعود السبب الى سكان القسم الجنوبي من العراق والى كونه المادة التي خلق منها الانسـان

حيث ان هاتين الناحيتين قد منحته اي للطين نوعا من انواع القدسية ولذلك بنيت على مانعتقد المعابد جميعها باللبن وعلى الاخص الجدران الرئيسة .

الكهنـــة

لابد ان يكون لكل مرفق من مرافق الحيـاة اليوميـة قديمـا كان أو حديثا ، جهاز يدير شؤونـه الاساسـية . والكهنة هـم الاجهزة التـي كانت تدير شؤون المعابد في العراق القديم وادارة اي جهاز لابد وان تتضمن مواقع عمـل مختلفـة ولكـل موقع من هـذه المواقع شخص او اكثر يقوم بتشغيله وبناء على هذه الحقيقة فعلينا ان نعلم مقدما بان الكهنة كانوا ايضا على درجات وكل حسب موقع ونوعية عمله . وفي ادناه سنعرض نماذج مـن درجات الكهنة المتعددة خلال مراحل حضارة وادي الرافدين المختلفة :

١ـ الاين (= انيتوم واينتتوم) :

مما هو معروف عن اللغة السومرية انها لا تفرق بين المذكر والمؤنـث ولذلك فان كلمة « اين » السومرية المجردة تعني كاهنا او كاهنة اما اللغـة الاكدية التي كانت تفرق بين الجنسين فقد لفظت الكلمة « اينوم » ان كـان المقصود بها الكاهن و « اينتتوم » اذا كان المقصود بها الكاهنة . وكاهنـة الاينتتوم كما بينا في حديثنا عن تأليه الملوك لانفسهم كانت تكتـب ايضـا بالعلامتين « نن ودينـكر » . اما الكاهن فيكتب دائما بالعلامة « اين » .

وكاهنة الاينتتوم التي كان اسمها يكتب بالعلامتين « نن ودينـكر » كانت تسمى خلال العصر البابلي القديم « اوكبابتوم » او « كوبابتوم » ايضـا والسبب في ذلك يعود الى ان كاهنة الاوكبابتوم هي من نفس درجة كاهنة الاينتتوم ولذلك كتبت بنفس العلامات المسمارية وهذه الناحية تدفعنا الـى القول بان كاهنة الاوكبابتوم لابد ان ادعت بشكل من الاشكال الالوهيـة

لنفسها ولذلك كتب اسمها بالعلامتين « نن و دينكر » اللتين تعنيان « السيدة التي هي الهة » .

والمعلومات التاريخية المتوفرة تؤكد ان كاهنة الاينتوم خلال العصر السومري القديم كانت ارفع منزلة من كاهن الاينوم لان النصوص المسمارية تذكر اسمها باستمرار قبل اسم الكاهن حتى لو كانت هي زوجة له . ونفس هذه المعلومات قد اكدت على ان الزواج وانجاب الاطفال كان مسموحا لهذا النوع من الكاهنات ولكن ذلك قد حرم عليهن منذ فترة حكم الملك حمورابي وذلك في ١٧٩٢ ق.م ويبدو من نفس هذه المعلومات بان كاهن الاينوم قد حرم على نفسه الزواج ايضا منذ الفترة التي حرم فيها الزواج وانجاب الاطفال على كاهنة الاينتوم ومن يرتضي لنفسه دخول هذا الصنف من الكهنة رجالاً كانوا أم نساء ولم يلتزم بالابتعاد عن الجنس بل يختلسه اختلاسا فعقابه وعقابها كان الحرق بالنار .

ومن اهم واجبات كاهنة الاينتوم هو القيام بدور العروسة في عملية الزواج المقدس وكاهن الاينوم كان يقوم في بعض الاحيان وليس في كلها بدور العريس . واختيار هذا النوع من الكاهنات والكهنة كان يتم عن طريق استخارة الفأل ويتم تعيينهم بارادة ملكية، وكاهنة الاينتوم كانت لا تسكن الا في بناء خاص بها يسمى «كيبار» وكاهن الاينوم كان لا يجلس الا على عرش فخم يصنع خصيصا لمنصبه وهذا العرش على مايبدو لا يختلف عن العرش الذي كان يجلس عليه الحاكم خلال الالف الرابع وخلال النصف الاول من الالف الثالث قبل الميلاد وذلك عندما كان الحكم بيد السلطة الدينية لان رئيس السلالة أو مانسميها بدولة المدينة كان يسمى آنذاك « اين » ايضا ومما يسند هذا الافتراض كثيرا هو التسمية التي اطلقت على غطاء رأس كاهن الاينوم حيث كانت تعني التاج .

وهذا النوع من الكهنة يمثل اعلى مرتبة في السلم الكهنوتي لتاريخ

العراق القديم ولذلك كانوا جميعا يختارون من العوائل الملكية او ما يوازيها في المكانة الاجتماعية .

ب ـ ناديتــوم

هذا النوع من الكاهنات يأتي بالمرتبة من بعد مرتبة كاهنات الاينتوم واسم الناديتوم يكتب بالعلامة المسمارية التي تلفظ سومريا « لوكور » والتي تتألف اصلا من علامتين : الاولى تدل على المرأة ، والثانية تدل على القوى الالهية . وان دل هذا على شيء فانما يدل على ان معنى « لوكور » يرمز الى المرأة التي تحمل نوعا من القوة الالهية واختيار هذا النوع من الكاهنات لا يتم عن طريق استخارة الفأل وانمـا عن طريق نذرهن الى المعبد مـنذ الولادة والمعلومـات المتوفـرة تؤكـد علـى انهـن جميعـا بنـات لكبـار موظفي الدولة ، ونفس هذه المعلومات تؤكد على تمتعهن بحق الزواج ولكـن بشرط عدم انجاب الاطفال ولهذا السبب كانت الناديتوم تهـدي زوجهـا امرأة من وسط ديني تدعى « شوكويتم » لتقوم مقامها بعملية انجاب الاطفال لزوجها واطفال الشوكويتم يعتبرون في نفس الوقت اطفال الناديتوم . والمكان الطبيعي لسكنى كاهنة الناديتوم هو الـ (كَـكَـوم) والذي يمكن ان نشبهه بالدير ، وموقعه يكون داخل المعبد الرئيس للمدينة والمشرف على هذا الدير كاهن يدعى « شانكوم » ، وعلاوة على المشرف هناك الحراس والحائكات والطحانات اللاتي يقمن بخدمـة حاجات هـذا الديـر . وبالرغم من وجود الـ (ككوم) الا ان لبعض كاهنات الناديتوم حق العيش خارج هذا الديـر ولكن لا يحق لهن القيام بالاعمال غير المسموح بها والا فأن عقوبتهن الحرق بالنـار ايضـا .

ج ـ شـوكويتم

لقد علمنا مما تقدم بانها تكون احيانا زوجة ثانية لزوج كاهنة الناديتوم وواجبها في هذه الحالة انجاب الاطفال الا أن ذلك لا يعني ان تكون هـي

بالضرورة ودائما زوجة ثانية بل المعلومات تؤكد على انها في كثير من الاحيان زوجة لرجل خاص بها وليست زوجة ثانية • ومن اهم واجباتها الدينية هـي المساهمة في مراسيم الزواج المقدس وخاصة مرافقة العروسة ليلة الزفاف وهي بأجمل ملابسها وحليهـا •

د ـ قادشـتوم

وتعني باللغة الاكدية (الموهوبة الى الاله) أو المقدسة اما تسـميتها السومرية فهو « نو ـ كيك » وهذه التسمية لا تتطابق في معناها مع التسمية الاكدية وللقادشتوم الحق في الزواج وانجاب الاطفال وكثيرا ماتشير النصوص الى انها تعمل كمرضعة والى انها ايضا استعملت كلقب للالهة عشتار ولفظت اشتاريتوم • والقادشتوم تعمل في خدمة القصر والمعبد في آن واحد ولذلك فهي لا تعتمد في عيشها على المعبد فقط •

هـ ـ كولماشيتوم

ويلفظ اسم هذه الكاهنة باللغة السومرية « نو ـ بار » ويتم اختيار هذا النوع من الكاهنات من عوائل معروفة لها مكانتها الاجتماعية ولكاهنة الكولماشيتوم الحق في الزواج وانجاب الاطفال • وعـلاوة على ذلك فـان التقاليد لا تفرض عليها السكن في الدير وانما لها حرية الاختيار في السكن والكولماشيتوم أقل مرتبة من القادشتوم غير ان وظيفتها في المعبد تشبه الى حد ما وظيفة القادشتوم •

و ـ شـانكوم

وهذا النوع من الكهنة يوازي في مرتبته مرتبة الكهنة من نوع الاينوم والفرق بين النوعين هو ان الاينوم يتولى بالدرجة الاولى المهام الدينية للمعبد بينما الشانكوم يتولى المهـام الادارية والتنظيمية ولذلـك فانـه يترأس

خدمة حاجات المعبد وله الحق ان يجلس مع القضاة اثناء الاجتماعات التي يتدارسون فيها شؤون القضاء •

ز ـ آشيبوم

من ابرز مهام هذا النوع من الكهنة هو القيام بطقوس التعزيم التي تهدف بالدرجة الاولى الى طرد الارواح الشريرة من اجسام المرضى كما يمارس ايضا طقوس « غسل الفم » وهذه الطقوس في حقيقتها تتمثل بالخطوات الاساسية التي يجب ان تتبع اثناء تقديم الثور كقربان الى الاله • ومن مهام الايشيبوم الاخرى هي المساهمة في الطقوس الخاصة بتطهير المعبد • والنصوص المسمارية المختلفة قد اكدت على ان هذا الصنف من الكهنة يجب ان يكون عاريا تماما عندما يقوم بتأدية واجباته الاساسية •

ح ـ لوماخم

ومن اسم هذا النوع من الكهنة الذي يعني باللغة السومرية « الرجل الكبير » يبدو انه يترأس مجموعة من العاملين في احد المرافق الدينية والنصوص المسمارية قد اكدت على انه يشرف على المعبد الذي يبنى في اعلى الزقورة والذي يسمى « كيكونو » ويتم اختيار هذا النوع من الكهنة عن طريق استخارة الفأل •

ط ـ كودايشوم ونيشاكوم

من ابرز اعمال هذين النوعين من الكهنة هو القيام بتطهير المعبد وبتطهير كل ماتأمر التقاليد الدينية بتطهيره قبل او بعد او اثناء اجراء الطقوس الدينية وسواء كان ذلك في داخل المعبد او خارجه •

ي ـ باشيشوم

ومعنى هذا الاسم باللغة الاكدية هو « المدهن » ولكن عمل الباشيشوم

الرئيس هو القيام بواجبات التطهير ولذلك يبدو لنا انه يمسح بالزيت الاشياء التي يقوم بتطهيرها • والباشيشوم يساهم بطقوس تقديم القرابين الى الالهة تلك الطقوس التي كان يرافقها العزف على القيثارة ولذلك كان عليه أن يجيد العزف عليها •

ك ـ نـاروم وكالـوم

ومن واجبات هذين النوعين من الكهنة هو القيام بمهام الغناء والعزف على الالات الموسيقية وكاهن الناروم كان متخصصا باداء الاغاني المفرحـة والتي تؤدى على انغـام الموسيقى اما كاهن الكالوم فكـان متخصصا باداء الاغاني الحزينة والتلاوات التي لا ترافقها الموسيقى • والناروم يغني النصوص المكتوبة باللغة الاعتيادية بينما الكالوم كان لا يـؤدي تلاوته الا للنصوص المكتوبة باللغة الادبية التي تسمى لغة النساء •

ل ـ بـــاروم

وهذا الصنف من الكهنة كان يتولى مهمة الكشف عن الطالع وذلـك بأستخارة الفأل بأنواعه المختلفة • وعلاوة على هذه المهمة فقد كان كاهـن الباروم يقوم بمهمة تفسير الاحلام • واحسن تشبيه لهـذا الكاهـن هـو « الفوال » الذي كان يجوب المحلات قبل ثلاثين او اربعين سنة •

واضافة الى ماتقدم هناك عدد آخر ولكنه قليل من الكهنة الذين كانت اعمالهم لا تختلف اطلاقا عن اعمال الكهنة الذين تحدثنا عنهم في اعلاه •

المصـــادر

١ ـ عقائـد مابعد الموت في حضارة بـلاد وادي الرافدين القديمـة ـ رسالة ماجستير للسيد نائل حنون عليوي ، ١٩٧٥ .

٢ ـ الاعياد في حضارة بلاد وادي الرافدين ـ رســالة ماجستير ـ للسيدة راجحة خضر عباس النعيمي ، ١٩٧٦ .

٣ ـ مجلة سومر ـ المجلد الثاني والثلاثون ـ ١٩٧٦ .

٤ ـ مجلة آفاق عربية ـ السنة السادسة ـ ايار ـ ١٩٨١ .

5- Th. Jacobsen, the Treasures of Darkness, a history of Mesopotamian Religion, New-Haven and London, 1976.

6- Fischer Weltgeschichte 2, die Altorientalischen, Reiche, I.

7- A. Falkenstein, An Or 30 = die Inschriften Gudeas von Lagash I, Einleitung, Roma, 1966.

8- Zeitschrift für Assyriologie, Neue Folge 24 (1967), 25 (1969), J. Renger, Untersuchungen zum Priestertum der Altbabylonischen Zeit.

9- G. Pettinato, das Altorientalische Menschenbild und die Sumerischen und Akkadische Schöpfungsmythen, Heidelberg, 1971.

10- XXVI. und XXVII. Vorläufiger Bericht über die von dem Deutschen Archälogischen Institut und der Deutschen Orien - Gesellschaft aus Mitteln der Duetschen Forschungsgemeinschaft Unternommenen Ausgrabungen in Uruk - Warka, 1968 und 1969, von Jürgen Schmidt.

البحث الثاني

العرافة والسحر

د . فاضل عبد الواحد علي

استاذ السومريات ـ جامعة بغداد

العرافـة

ترتبط العرافة والسحر ارتباطا وثيقا بالمعتقدات الدينية والعادات والتقاليد الاجتماعية . وتهدف العرافة اساسا الى الاتصال بالقوى العليا (الآلهـة) لمعرفة ماتقدره من خير وشر للفرد والمجتمع على حد سواء، بينما يهدف السحر الى تحقيق او احداث غرض معين قد يكون مفيدا احيانا مثل شفاء المرضى او مضرا احيانا اخرى مثل الحاق الاذى بفرد او اكثر . ولا شـك في ان المعتقدات الخاصة بالسحر والعرافة قديمة جدا لان الانسان عرف كثيرا من المعتقدات والطقوس الدينية ومارس انواعا من الاساليب السحرية منذ عصور ما قبل التاريـخ .

استخدم السومريون تعابير عديدة للدلالة على العـراف نذكر منهـا "i-zu" بمعنى « الذي يعرف » اي « العراف » . اما في الاكدية فيسمى العراف او البصار « بارو » وسمي كبير العرافين « راب باري » . ويظهـر من النصوص المسمارية ان العراف « بارو » كان يقوم بالعرافة على الصعيد

الرسمي اي للملك والدولة وعلى الصعيد الشعبي لعامة الناس . وكانت مهنة العرافة وثيقة الصلة بالمعبد لان العراف كان كاهنا شأنه في ذلك شأن العزام ومفسر الاحلام وغيرهما من كهنة المعبد . ومن جهة اخرى ترد اشارات كثيرة في النصوص المسمارية تدل على ارتباط العراف بالقصر وهو آمر ناتج عن ان الملك كان يستشيره قبل اتخاذ القرارات المهمة لمعرفة مشيئة الالهة بخصوصها ، مثل ولاية العهد او القيام بمشروع بناء او صيانة . وبالاضافة الى ذلك فقد كانت مهنة العراف شديدة الارتباط بالجيش والعمليات العسكرية . اذ نقرأ في بعض النصوص ان العراف كان يتقدم الجيش في زحفه وان بعض العرافين وقعوا اسرى اثناء المعركة . ولا شك في ان هذا الارتباط يعود الى ان الملك كان يستطلع رأي الآلهة قبل القيام بالعمليات العسكرية ليتعرف على احتمالات النصر او الفشل .

يقسم الباحثون العرافة الى قسمين رئيسيين بموجب الطريقة التي تنجز بواسطتها . فهناك العرافة العملية التي يستعمل فيها العراف وسائل وطرقا عملية من اجل الاتصال بالقوى العليا . ويشمل هذا النوع من المعرفة :

أ ـ ضرب القداح : وهي سهام صغيرة محززة ، مثل الازلام عند عرب الجاهلية ، كان البابليون يستعملونها لاستطلاع رأي الآلهة في مناسبات او قضايا معينة .

ب ـ سكب الزيت في الماء : يقوم العراف بسكب شيء من الزيت في اناء فيه ماء . ثم يراقب حركة الزيت وهو يطفو فوق الماء . فاذا ماتكونت حلقة كاملة واتجهت نحو الشرق كان ذلك في اعتقاده فألا حسناً اما اذا انكسرت الحلقة او انتشر الزيت فوق الماء دون ان يكون حلقات فكان ذلك نذير شؤوم لصاحب العرافة .

جـ ــ تصاعد الدخان : وهي طريقة في العرافة تعتمد على حرق البخور او انواع معينة من الاعشاب ومراقبة تصاعد الدخان من المبخرة وانتشاره .

اما النوع الثاني من العرافة فيسمى بالعرافة السحرية لانها تعتمد على قوى وظواهر خفية لا دخل للانسان فيها مثل حدوث تغييرات في الظواهـــر الكونية والطبيعية كالخسوف والكسوف وحركة الرياح ، كما انها تعتمد على مراقبة التغييرات التي تحدث في سلوك الطير او الحيوانات وفي احشـــائها الداخلية (وخاصة الكبد) . وتشمل العرافة السحرية انواعا مختلفة نذكر منهـــا :

أ ــ العرافة المستمدة من الظواهر الكونية والطبيعية : اذ يعتمد هـــذا النوع من العرافة بالدرجة الاولى على مراقبة الشمس والقمر والنجوم سواء من حيث مواقعها او اشكالها او الوانها لاستنباط الفأل من كـــل ظاهـــرة . ويسمى هذا النوع من العرافة بالتنجيم الذي كان الغرض منه التنبؤ بالمستقبل على الصعيد الرسمي للملك والدولة وعلى الصعيد الشعبي للافراد ايضا .

ب ــ العرافة المستمدة من مراقبة حركة وسلوك الطيـــور والحيوانات والحشرات : ويذكر ان العرافة المستمدة من الطيـــور كانت معروفة في بلاد آشور كما كانت شائعة ايضا في اسيا الصغرى وسوريـــا وفلسطين . وقـــد اطلق العرب تسمية « زاجر الطير » على العراف المتخصص باستنباط الفـــأل من حركة الطير وسماه الاكديون « داگل إصوري » (حرفيا : مراقب الطير) . ويظهـــر ان حرفة « زاجر الطير » كانت من الاهمية بالنسبة للبلاط الاشوري بحيث ان هذا الكاهن كان يؤدي القسم بالولاء الى الملك مع غيره من اصحاب كبار الحرفيين التابعين الى البلاط مثل الكتاب والعزامين والاطباء .

جـ ــ العرافة المستمدة من الاجنة والولادات المشوهة سواء البشرية منها او الحيوانية •

د ــ العرافة المستمدة من فحص الكبد والاحشاء : وقد اشتهر العراقيون القدماء خصوصا بعرافة الكبد ، فبعد ان ينحر العراف الذبيحة يبدأ بفحص احشائها بحثا عن عرافة يستنبطها من الوضع العام للعضو ومن شكله ولونه ، تضخمه او ضموره مع ملاحظة ماعليه من اعراض غير اعتيادية او تشوهات وخاصة مايظهر على الكبد من فقاقيع او تشققات ووضع الغدة الصفراء والقنوات • وقد استنبط العرافون من كل واحدة من تلك الظواهر فألاً معينا ونظموا في ذلك كله قوائم خاصة تعرف بين الباحثين بالعرافة المستمدة من الكبد • وجدير بالذكر انه تم اكتشاف نماذج عديدة مصنوعة من الطين على هيئة الكبد وعليها شروح تمثل اجزاءه المختلفة في وادي الرافدين وفي ماري (تل الحريري) وفي بوغازكوي في اسيا الصغرى •

وبالاضافة الى قيامه بالعرافة للملك والدولة ، فقد كان العراف « بارو » يقدم خدماته الى الناس على مختلف مستوياتهم الاجتماعية • وكثيرا مانقرأ في النصوص الادبية شكوى اولئك الذين تعرضوا لنوائب الدهر حتى لم يعد باستطاعة العراف او العزام ان يفعل شيئا لوضع حد لعذابهم •

كان الاعتقاد السائد لدى سكان بلاد وادي الرافدين انه على الرغم من ان قرارات الآلهة تعتبر مسألة حتمية ، فان الانسان لم يترك دون دلائل تمكنه من التعرف على المشيئة الالهية • كما اعتقدوا ايضا ان نوايا الالهة تنعكس بشكل وقائع او احداث سواء كانت جسيمة ام بسيطة • ولهذا فانهم

ربطوا بين اية ظاهرة او حادثة كونية او طبيعية وبين مايقع بعدها مباشرة على الصعيد الاجتماعي او الفردي • وبتعبير اخر انهم لاحظوا تتابع الاحداث واعتبروا الاول علة والثاني معلولاً ، وقد تصوروا ان النتيجة ذاتها من الممكن ان تحدث فيما لو وقعت الظاهرة او الحادثة مرة اخرى • اي انهم اعتقدوا بالمنطق البدائي القائل بالقياس على الاشباه • فنذكر هنا على سبيل المثال انه لو حدث وان نعق غراب في بيت رجل ذات يوم وصادف ان مات الرجل في ذلك اليوم فان الاقدمين تصوروا وجود علاقة سببية بين نعيق الغراب باعتباره نذيرا الهيأ بما سيحدث على الارض وهو موت صاحب الدار • وانطلاقا من هذا الاعتقاد ، نظم العراقيون القدماء قوائم مطولة بالاحداث الاعتيادية وغير الاعتيادية مع ما تمخض عنها من نتائج واعتمدوها اساسا للتنبؤ بالمستقبل وهذا مايعرف بين الباحثين في الاشوريات بنصوص الفأل •

السحر

السحر من المعتقدات القديمة التي عرفها سكان بلاد وادي الرافدين وسائر الشعوب الاخرى • وهو يقوم على مبدأين يرجعان اصلا الى المنطق البدائي • اولهما الاعتقاد بامكانية احداث الشيء بتقليد عملية حدوثه ، وهو مايعرف بمدأ التشابه وينعكس هذا المبدأ في العديد من الاثار التي تركها انسان العصور الحجرية ومنها الرسوم التي نفذها على جدران الكهوف • فرسم صورة الحيوانات التي كان الانسان يرغب في اصطيادها لتوفير غذائه ، سوف يمكنه حسب هذا المبدأ ، انْ يوقع تلك الحيوانات نفسها فريسة سهلة اثناء المطاردة • وبالمثل فان عمل دمية تشبه شخصا ومن ثم كسر يدها او اتلاف عينها يلحق بالرجل المقصود نفس الاضرار التي حلت بالشبيه • اما

المبدأ الثاني فيقوم على الاعتقاد بان الاشياء التي كانت جزءا من جسم الانسان تبقى على صلة به حتى بعد انفصالها عنه ، وهو ما يعرف بمبدأ المصاحبة . فعلى سبيل المثال كان يعتقد انه بمقدور الساحر ان يسبب الاذى لشخص معين من خلال تأثيره السحري في خصلة من شعر ذلك الرجل او قلامة ظفره او ضرس مقلوع .

والسحر كما قلنا ظاهرة شائعة في كافة حضارات الشعوب القديمة وهو يجسد اقدم مرحلة في تطور العقل البشري . والحقيقة هي ان الاعتقاد بالسحر مايزال يؤثر في اعماق النفس البشرية للانسان وذلك من خلال شعورنا واعتقادنا بامكانية حدوث الاشياء التي تتمناها بمجرد رغبتنا الذاتية فيها . وعلى اية حال فان هناك نوعين من السحر ، الاول ضار والغرض منه الحاق الاذى بعدو فرداً كان ام جماعة . وقد حرمت القوانين البابلية ممارسة هذا النوع من السحر وفرضت عقوبة الموت على من يقوم به . والنوع الثاني من السحر حلال لانه يهدف اساسا الى منفعة الناس من خلال شفائهم من الامراض وتخليصهم من الارواح والاشباح الخبيثة التي كان يعتقد انها تلاحقهم وتحل في اجسامهم . واعتقد الاقدمون ان الارواح والاشباح الخبيثة هذه عبارة عن ارواح الموتى خاصة اولئك الذين يتركون دون دفن بالاضافة الى وجود اصناف من الشياطين الخالصة التي كانت تسبب انواعا مختلفة من الامراض الجسدية والعقلية للناس .

وفي سبيل حماية الشخص من خطر الشياطين والارواح الشريرة او شفائه من المرض الذي سببته له ابتدع السحرة القدماء الحرز الذي كان يحتوي على تعويذة مكتوبة فيها دعوة للآلهة العظيمة لحماية صاحب الحرز

كما يحتوي احيانا ايضا على صورة الشيطان المقصود الذي يراد تخليص المريض منه • ونقتبس في ادناه نموذجا من التعاويذ البابلية :

« تعويذة • انه ذلك الشيطان الذي اقترب من بيتي ، يخيفني وأنا في فراشي ، انه يمزقني ويرسل على الكابوس في الليل • فعسى ان يسلموه الى الاله حارس بوابة العالم السفلي بأمر من نتورتا امير العالم السفلي وبأمر من مردوخ الذي يقيم في ايساكيلا في بابل ، وعسى أن تعرف الباب والمزلاج انني بحماية هذين السيدين • تعويذة » • وقد وصلتنا حروز اخرى منها ماهو معمول ضد الشيطان « بازوزو » الموكول برياح الصيف اللافحة • ويحمل احد تلك الحروز المصنوعة من الحجر صورة بالنحت البارز تمثل هذا الشيطان : وجه مخيف يكشر عن انياب حادة ، له صدر كصدر طائر ويدان تشبهان يدي انسان لكنهما تنتهيان بمخالب ، وله ذيل طويل معقوف واربعة اجنحة • ويظهر فوق صورة الشيطان « بازوزو » صف من الكهنة العزامين وهم يلبسون في رؤوسهم اقنعة لحيوانات مختلفة •

كما وصلتنا حروز عمل بعضها خصيصا لحماية النسوة اثناء الحمل والرضاعة من شيطانة سماها البابليون « المشتو » التي صورت على حرز حجري برأس اسد وجسم امرأة وهي تقف على حمار وترضع حيوانين • وكان يعتقد ايضا ان الشيطانة « المشتو » تصيب الرجال بالامراض ولهذا تورد بعض النصوص المسمارية تفاصيل عن الطقوس والمراسيم التي كان يتوجب على كاهن التعزيم القيام بها لمعالجة المريض المصاب بفعل هذه الشيطانة • يذكر احد النصوص في هذا الصدد الآتي : « عليك بتطهير المكان اولا ثم خذ شيئا من الطين واصنع دمية للمشتو وضعها عند رأس الرجل المريض •

املأ المبخرة بالرماد ودس فيها خنجرا ثم اتركها عند رأس المريض ثلاثة ايام ٠ وفي اليوم الثالث ، عند انتهاء النهار ، خذ الدمية واطعنها بالخنجر ثم ادفنهـا في الزاوية عند الجدار » ٠

كان العزامون المختصون بطرد الارواح الشريرة يقومون بفحص المريض لمعرفة الروح الشريرة التي اصابته واختيار التعويذة المناسبة التـي كانـت تقرأ مع تأدية طقوس معينة ٠ وكانت عملية التعزيم تجري في المعبد او فـي بيت المريض ٠ وفي كل الاحوال تؤكـد النصوص المسمارية ذات العلاقـة ضرورة تطهير المكان قبل كل شيء ٠ وكان ايا ، اله الحكمة عند البابليين ، هو الاله الموكل بالسحر وبدوره علم مردوخ اله بابل اسرار السحر وفنونه ٠ ولهذا كان المرضى يتضرعون للاله مردوخ عن طريق الكاهن لان يخلصهم من فعل الارواح الشريرة التي يعانون منها ٠ ويظهر من التفاصيل التي تذكرهـا نصوص التعزيم ان الاله مردوخ كان يذهب بدوره الى ابيه الاله ايا ليعرض عليه حالة الشخص المستغيث وان اباه كان يخبـره بالاجـراءات الواجـب انجازها لشفائه ٠ كما يظهر من تلك النصوص ايضا ان اشعال النار اثنـاء التعزيم كان واحدا من الطقوس الفعالة لطرد الشياطين والارواح الشريرة من جسم المريض ٠ فبعد اشعال النار يقوم العزام بدعوة واستثارة الهـة النـار الثلاثة (گيرا ، گبل ، نوسكو) للانقضاض على تلك الارواح وطردها ٠

وهناك طرق سحرية اخرى كان يلجأ اليها العزامون لشفاء المريض منها ان يصنع العزام دمية من الشمع تشبه المريض ثم يدفنها في المقبرة مع دميـة اخرى تمثل الروح الشريرة التي سببت له المرض ٠ ان الغرض من هذه العملية السحرية تحقيق هدفين ، الاول القيام بدفن رمزي للروح الشريرة لاعادتها

الى مقر الاموات في العالم السفلي والثاني ايهامها بان المريض قد مات وانتهى امره . وفي احيان اخرى ، يلجأ السحرة الى اتباع طريقة « البديـل » اي توفير شيء آخر يحل فيه الشيطان او الروح الشريرة بدلا من جسم المريض . وهذا البديل في الغالب يكون حيوانا كالجدي مثلاً . فوسط قراءة التعاويذ واداء الطقوس السحرية يقدم العزام الجدي فدية وبديلاً للرجل المريض . وعندئذ يخرج الشيطان من جسمه ليحل في الجدي وبذلك يشفى من المرض . ومما تجدر الاشارة اليه انالاعتقاد بامكانية حلولالشياطين والارواح الخبيثة في اجسام بديلة هي الحيوانات له مايوازيه في انجيل متي (سفر ٨ : ٢٨ــ٣٢) حيث تقرأ : « ... وكان بعيدا منهم قطيع خنازير كثيرة ترعى . فالشياطين طلبوا اليه قائلين : ان كنت تخرجنا فأذن لنا ان نذهب الى قطيع الخنازيـر . واذا قطيع الخنازير كله قد اندفع من على الجرف الى البحر ومات في المياه . اما الرعاة فهربوا ومضوا الى المدينة ... » .

المراجـع

(١) المعلومات التي قدمناها عن العرافة في العراق القديم تمثل ملخصا مركزا لبحث مستفيض سبق أن نشرناه تحت عنوان « طرق العرافة في النصوص المسمارية » ، مجلة كلية الاداب ، العدد ٢٥ ، ص ٦٩٥–٧٠٧ .

(٢) الدكتور سامي سعيد الاحمد « معتقدات العراقيين القدماء في السحر والعرافة والاحلام والشرور » ، المؤرخ العربي ، العدد الثاني (١٩٧٥) .

(٣) طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (١٩٥٥) ص ٢٦٧–٢٧٦ .

Goetze, Old Babylonian Omen Texts, Yale Oriental Series X.

———, "Historical Allusions in old Babylonian Omen Texts", Journal of Cuneiform Stadies, (1947).

Saggs, The Greatness That was Babylon, (1962) P. 303 ff.

الفصل السادس

الأعياد والاحتفالات

د. فاضل عبد الواحد علي

استاذ السومريات ـ جامعة بغداد

شغلت الاعياد والاحتفالات حيزا مهماً في الحياة اليومية للانسان في وادي الرافدين . والاعياد كما هو معروف تقام في ايام محددة من السنة ويشارك فيها عامة الناس بينما تقام الاحتفالات بمناسبة معينة كأن تكون الانتهاء من بناء معبد لاله المدينة او عودة الجيش منتصرا من جبهة القتال او اية مناسبة اخرى مهمة تستوجب التقدير والاعتزاز .

قبل الدخول في تفاصيل الاعياد والاحتفالات في العراق القديم لابد لنا من الاشارة في البداية الى الجذور البعيدة التي ترتبط بها والتي عملت على تحديد اطرها العامة وتفاصيلها الدقيقة . هنا يقودنا الحديث الى عصور ما قبل التاريخ عندما كان انسان الكهوف والقرى الزراعية الاولى في صراع مستمر مع قوى الطبيعة من اجل ضمان غذائه ووجوده . وقد ادرك الانسان في تلك العصور المبكرة ان الطبيعة بخصبها وكثرة مياهها وحيواناتها عرضة لان تتغير فتختفي كل مظاهر الخصب مما يهدد حياته بصورة مباشرة . وتصور

الانسان من خلال مرحلة من مراحل تطوره الفكرى ان باستطاعته التأثير على الظواهر الطبيعية المحيطة به وبالتالي تسخيرها لصالحه لتفادى النتائج السلبية التي كانت تؤدى اليها تلك التغييرات . وهكذا كانت بداية ما يعرف بالسحر القائم على مبدأ التشبيه ، اي الاعتقاد بامكانية استحداث الشيء بتقليد عملية حدوثه . وقد ادى ذلك بدوره الى ان يقوم الانسان بطقوس سحرية يتقمص من خلالها ظاهرة طبيعية معينة او شيئاً معينا اصبحت الحاجة ملحة الى وجوده كأن يكون مثلا سقوط المطر او وفرة الصيد او تكاثر الحيوانات.

ان هذا الاعتقاد يفسر ايضا وجود رسوم الحيوانات والطيور والاسماك التي نفذها الانسان على جدران الكهوف وسفوح الجبال في مناطق مختلفة من شمال افريقيا واسبانيا وفرنسا . فوجود صور تلك الحيوانات على جدران الكهوف كان سيجعل، حسب اعتقاده، الحيوانات الاصيلة ذاتها تحت سيطرته اعتقاداً بامكانية التأثير على الاصل من خلال الشبيه والطقوس . وقد سجل انسان العصور الحجرية بعض ما كان يجري من طقوس سحرية من خلال المشاهد التي رسمها على جدران الكهوف منها مشهد يمثل سحره في ازياء تنكرية حيوانية .

وفي مرحلة لاحقة جسد انسان عصور ماقبل التاريخ القوى والظواهر الطبيعية بهيئة الهة تصورها على غرار البشر في جنسين مؤنث ومذكر . وكان منطقيا ان يعزو كل مظاهر الخصب والتكاثر في الطبيعة سواء بين الانسان او الحيوان او النبات الى قوى الخصب المتمثلة بالالهة الام التي صنع لها دمى تمثلها بهيئة امرأة حبلى ذات ثديين كبيرين وردفين ضخمين وهي صفات تجسدت في العصور التاريخية بالالهة إنانا (عشتار) آلهة الخصب والجنس . وبالمثل فقد كان منطقيا ايضا ان يعزو اسباب الجفاف واصفرار العشب وندرة المطر وقلة ما تدره الماشية من لبن الى اختفاء اله الخصب وهذا ما نتج عنه في العصور التاريخية اسطورة موت الاله في العالم السفلي لمدة معينة من السنة

وظهور ما يعرف بالحزن الجماعي على الالة دموزى (تموز) • وكان الفيضان السنوى الذى يهدد حياة الانسان ومزروعاته وممتلكاته في نظر الانسان القديم انعكاسا لغضب الهة المياه الازلية القديمة وان انحسار مياه الفيضان يعكس هو الاخر اندحار تلك الالهة امام قوى الهية فتية وهذا ما تجسد في العصور التاريخية في اسطورة الخليقة البابلية التي تحكي قصة ذلك الصراع وكيف انه انتهى بخلق الكون ثم الانسان •

غير ان مثل هذه التغييرات للظواهر الطبيعية لم تبطل ايمان الانسان بقوة السحر واعتقاده بامكانية التأثير على ظواهر الطبيعة من خلال الطقوس • فاذا كان الخصب يعزى الى القوى الخلاقة التي تتجسد في كل من إنانا (عشتار) وتموز فباستطاعة الانسان ان يستحضر اسباب الخصب والتكاثر في مجتمعه من خلال محاكاة زواج الهي الخصب وهذا ما ادى الى ظهور « الدراما » السنوية التي هي عبارة عن تقليد او محاكاة للالهة في اعراسها (وهو مايعرف في العصور التاريخية القديمة بطقوس الزواج المقدس) او فيموتها وبعثها (المعتقدات الخاصة بموت وبعث تموز) أو في صراعها مع بعضها وانتصار قوى الخير على الشر (قصة الخليقة البابلية) •

لقد ذكرنا في بحث سابق لنا عن هذا الموضوع بالذات « ان الفرد في العصور القديمة كان ينطلق في فهمه وتفسيره للظواهر الطبيعية والحضارية من منطق يختلف تمام الاختلاف عن منطقالانسان المعاصر • فانسان العصور القديمة كان حاضره آنذاك يرتبط بسلسلة احداث صنعتها قوى خارقة في البدء اى ان الابطال الذين صنعوا تاريخه كانوا الهة وهو لذلك تاريخ مقدس يجد الانسانالقديم نفسه ملزماً ليسفقط بمعرفته ولكنبأعادته منوقت لآخر، وهنا يكمن فرق جوهري في عقلية الانسان القديم والانسان المعاصر• فقد يجد الاخير ما يبرر تخليد او استعادة ذكرى معينة غير انه لا يجد مبررا لاعادة تمثيل وقائع تلك الحادثة •

وعلى النقيض من ذلك فقد كان امرا ضروريا وممكنا للانسان في العصور القديمة ان يعيد ما حدث في البدء عن طريق الطقوس • ذلك لان معرفة الانسان القديم بالاساطير اي بتاريخه القديم كان امرا ضروريا ليس فقط لانها تعطيه تفسيرا لاسرار الكون وعن كيفية وجوده بالذات فيهذا الكون ، وانما يستطيع من خلال استذكار الاساطير ومن خلال اعادة وقائعها ان يعيد ما صنعه الالهة والابطال والاجداد في الماضي » •

اعراس تموز والزواج المقدس

ذكرنا في بداية حديثنا ان مظاهر الخصب والتكاثر في الطبيعة تجسدت في العصور التاريخية القديمة بالهة الخصب والجنس إناثا (عشتار) وبحبيبها وزوجها الاله دموزى (تموز) • وقد وصلتنا قصائد سومرية عديدة تحكي قصة الحب بين الاله الراعي تموز وعشتار وكيف انه ضحى بالغالي والنفيس من اجلها وكيف ان قصة حبه تتوجت في النهاية بزواجه منها حيث عاشا سوية في بيتهما الجديد الذي سماه الشاعر السومري « بيت الحياة » • ولا يخفى ان هذه التسمية لها مدلولها في معتقدات سكان بلاد وادي الرافدين اذ ان الحياة توجد وتتجدد بوجودهما سوية وانها تنعدم بافتراقهما • لذلك كان منطقيا وضروريا من وجهة نظر الفرد في العصور القديمة ان تعاد وقائع ذلك الزواج الالهي كل عام فيقوم ممثلو الالهة من البشر كالملك او الكاهن بتقمص شخصية الزوج ـ الاله تموز بينما تقوم الكاهنة العظمى بدور الزوجة الالهة عشتار في احتفال كبير يعرف بين المختصين بأسم الزواج المقدس (Hieros Gamos) والذي كانت مراسيمه تشكل المحور الاساس من عيد رأس السنة السومرية المعروف بالمصطلح السومري (Zag - mug) .

هناك اشارات في النصوص المسمارية تعزز الافتراض القائل بان مراسيم الزواج المقدس ربما كانت تقام فيسومر فيوقت مبكر منعصر فجر السلالات•

ولكن ليس هناك من شك في ان الاحتفال بالزواج المقدس كان معروفا في زمن سلالة لكش الثانية وعلى وجه التحديد زمن الامير كوديا (في حدود ٢١٥٠ ق٠م) حيث ترد اشارات صريحة الى قيامه بدور الزوج للالهة باؤ في لكش والى تأدية الطقوس والمراسيم الخاصة بهذا الزواج كالاغتسال وتقديم هدايا الزواج والقرابين • وقد وصلتنا نصوص سومرية فيها تفاصيل وافية عن مراسيم الزواج المقدس من سلالة اور الثالثة وخاصة من الملك شولكي (٢٠٩٥ - ٢٠٤٨ ق٠م) وشو - سين (٢٠٣٨ - ٢٠٣٠ ق٠م)ومن زمن سلالة ايسن وخاصة من الملك ادن - دكان (١٩٧٤ - ١٩٥٤ ق٠م) •

يظهر من هذه النصوص المسمارية ان الملك كان المرشح الطبيعي للقيام بدور الزوج - الاله خلال الزواج المقدس باعتباره الممثل الشرعي للآلهة ، كما جرت العادة على اختيار واحدة من كاهنات المعبد لتقوم بدور الزوجة - الالهة• ومما يجدر ذكره في هذا الصدد انه عثر في المعبد المخصص للالهة (عشتار) في الوركاء على قلادتين كتبت على خرزة من القلادة الاولى عبارة « ابا بشتي الكاهنة محبوبة شو - سين ملك اور » وكتب على القلاده الثانية « كوباتم الكاهنة ، محبوبة شو - سين » ويظهر ان الكاهنة الاخيرة قد نالت استحسان الملك خلال تأديتها مراسيم الزواج المقدس اذ انها اصبحت احدى حريم قصره او (ملكة) على حد تعبير النص السومري •

جاء في احد النصوص المسمارية التي تعود الى الملك شولكي ان الزواج المقدس كان يقع في « يوم رأس السنة ، يوم الطقوس » و « يوم القمر الجديد » • ولما كان عيد رأس السنة يبدأ في الاول من نيسان لذلك يجوز لنا القول بان الزواج المقدس في هذا العصر (الالف الثالث والنصف الاول من الالف الثاني قبل الميلاد) يعتبر بداية لاعياد رأس السنة (آكيتو) ويشكل المحور الاساسي الذي تدور حوله تلك الاعياد • وكانت المراسيم الخاصة

بالزواج المقدس تقام في المعبد ، وعلى وجه التحديد في الجناح المعروف باسم كيبـــارو (giparu) وهو المكان المخصص ايضا لاقامة الكاهن الاعظم (enu) والكاهنة العظمى (entu) .

يمكن القول في ضوء التفاصيل التي تذكرها النصوص المسمارية ذات العلاقة بالموضوع ان الزواج المقدس كان يبدأ بوصول موكب الملك الى المعبد . ويصف احد النصوص وصـــول الملك شولكي الى معبد الالهة إنانا (عشتار) في الوركاء من اور في سفينة ومعه الهدايا والقرابين وقد احتشدت الجماهير لاستقباله . ويصف نص آخر كيف ان العروس ــ الكاهنة استعدت لهذه المناسبة فاغتسلت بالماء والصابون وطيبت جسمها بالدهان والعطور وفمها بالعنبر وزينت عينيها بالكحل وارتدت اجمل ثيابها وحليها . وعندما يلتقي العريس بعروسته تبدأ الاخيرة بترديد أغنية عاطفية هي في الواقع دعوة سافرة «للوصال » باعتباره الهدف الاساس الذي تدور حوله المعتقدات الخاصة بالزواج المقدس . ونقتبس في ادناه احدى تلك الاغاني التي انشدتها العروس بين يدى سيدها الملك شو ــ سين (٢٠٣٨ ــ ٢٠٣٠ ق.م) رابع ملوك سلالة اور الثالثة :

ايها العريس عزيز انت على قلبي
لذيذ « وصالك » حلو كالشهد
ايها الاسد عزيز انت على قلبي
لذيذ « وصالك » حلو كالشهد ...
ايها العريس دعني أقبلك
فقبلتي حلوة الذ من الشهد ..
دعني اتمتع بجمالك اللطيف
ايها الاسد دعني اقبلك
فقبلتي حلوة الذ من الشهد ..

نفسك ! اني اعرف كيف ادخل السرور الى نفسك :
ايها العريس تعال وبت عندنا حتى الفجر
قلبك ! اني اعرف كيف ادخل السرور الى قلبك :
ايها العريس تعال وبت عندنا حتى الفجر
ايها الاسد تعال وبت عندنا حتى الفجر
وانت مادمت تحبني
اتوسل اليك ان اقبلك
يا سيدي الاله يا سيدي الحافظ
يا شو ــ سين يا من يدخل السرور الى قلب انليل
اتوسل اليك ان اقبلك .

ولما كان الزواج المقدس يهدف اساسا الى الاستزادة من اسباب الخصب والرخاء وزيادة المحاصيل وتكاثر الحيوانات ، فاننا نقرأ في نص زمن الملك ادن ــ دكان ان الكاهــن اخذ بيد الملك « وجاء به الى حجر إنانا (عشتار) المقدس » ثم بدأ بترديد دعاء يسأل فيه الالهة ــ الزوجة ان تمنحه شارات الملوكية وتوطد حكمه في البلاد وان تسبغ نعمها وخيراتها على الناس في السهول والاهوار والغابات وفي ادناه نقتبس المقاطع مما جاء على لسان الكاهن :

عسى ان يستمتع سيدى الذي دعوتيه الى قلبك
الملك زوجك المحبوب ، بايام طويلة في حجرك المقدس
وعسى ان تمنحيه حكما صالحا وممجدا
وتمنحيه عرش الملوكية على اسس مستديمة
وتاجا مستديما واكليلا يرفع الرأس
وتمنحيه ــ من حيث تشرق الشمس الى حيث تغرب الشمس
من الجنوب الى الشمال
ومن البحر العلوى الى البحر السفلي

وعلى كل بلاد سومر واكد ـ العصا والصولجان
وعسى ان يرعى الناس حيثما استوطنوا
ويجعل الحقول منتجة مثلما يفعل الفلاح
وعسى ان يكثر حظائر الاغنام كالراعي الامين
وان ينمو الزرع ويكثر الحب في ظل حكمه ...
وعسى ان تجعل الملكة المقدسة للزرع من الحب اكواما مكدسة
وان ينمو الخس والرشاد عاليا في الحقول
وعسى ان تكون* حياة طويلة دائمة في القصر
وان تأتي مياه كثيرة الى دجلة والفرات
وعلى ضفافيهما عسى ان ينبت العشب عاليا وتكتسي المروج
وعسى ان تجعل ملكة الزرع المقدسة من الحب اكواما مقدسة
يا ملكتي يا ملكة الكون ، ايتها الملكة التي تحتضن الكون
عساه ان يستمتع بايام طويلة في حجرك المقدس

ومن الاهداف الاساسية الاخرى لاقامة الزواج المقدس هو تقرير المصير للملك والبلاد على يد الالهة ـ الزوجة . اذ كان الاعتقاد السائد لدى سكان بلاد وادي الرافدين ان الالهة وعلى رأسهم آنو وانليل يقررون شؤون الملوكية والبلاد واقدار الناس مرة كل سنة وان ما تقرره الالهة سوف يتحقق وغير قابل للتبديل . لذلك يكون امرا ضروريا ان تقوم الكاهنة بالدعاء لتحقيق مايصبو اليه الملك والشعب خلال السنة المقبلة . وهذه بعض المقاطع من دعاء توجهت به الكاهنة من اجل زوجها الملك شولكي وهي تقرر له المصير :

انت ايها الراعي المختار
انت يا مؤازر المعبد العظيم لانو
في كل الاحوال انت كفوء :
لأن ترفع رأسك على العرش العالي ــ انت كفوء

لان تجلس على عرش من اللازورد ـ انت كفوء
وتضع التاج على رأسك ـ انت كفوء
وتلبس ثيابا فضفاضة ـ انت كفوء
وترتدي بدلة الملوكية ـ انت كفوء
وتحمل الصولجان والسلاح ـ انت كفوء ..
فعسى ان تطول ايام قلبك المحبوب
هكذا قرر المصير لك الاله آنو ، فعسى ان لا يتغير
والاله انليل ، مقرر المصير ، فعسى ان لا يتغير ..

وتختتم مراسيم الزواج المقدس عادة باقامة احتفال كبير يشارك فيه عامة الناس وتعزف خلاله الموسيقى وتردد الاغاني وتقدم المأكولات والمشروبات ، اذ يصف احد النصوص السومرية زواج الملك ادن ـ دكان من عروسته التي كانت تقوم بدور الالهة إنانا (عشتار) فيذكر ان الملك كان يجلس على العرش والى جانبه العروس وانه كان يضع ذراعه حول كتفيها « وانها كانت تبدو مثل ضوء النهار وهي تعتلي العرش » على حد تعبير النص . ثم وضعت صنوف من الطعام والشراب امام العروسين وبدأت مواكب المحتفلين تمر امامهما وهم يرددون الاغاني العذبة على أنغام الطبل والقيثارة . « فكان القصر في عيد والملك في سرور والناس في نعيم » .

اعياد رأس السنة البابلية (آكيتو)

رأينا من خلال حديثنا عن الزواج المقدس كيف انه كان يشكل المحور الاساس لاحتفال رأس السنة (في السومرية Zag - mug) خلال الالف الثالث ومنتصف الالف الثاني قبل الميلاد وبحلول الالف الاول قبل الميلاد اصبح الزواج المقدس جزءا من عيد آخر اطول واكثر تعقيدا هو عيد آكيتو Akitu الذي هو عيد رأس السنة البابلية .

والحقيقة ان هذا العيد كان معروفا عند السومريين ايضا في الالف الثالث قبل الميلاد وتحت نفس التسمية تقريبا (Akiti) وكان يقام في المدن السومرية في اور في العصر السابق للسلالة الاكدية ، وفي الالف الاول صار عيد آكيتو واسع الانتشار ليشمل معابد معظم المدن في بلاد وادي الرافدين وكانت مراسيمه تدور حول نقطتين اساسيتين في معتقدات البابليين • الاولى قصة الخليقة البابلية التي تروى قصة الصراع بين الالهة القديمة بزعامة تيامة والالهة الفتية بقيادة مردوخ الاله الاعظم لبابل وهو الصراع الذي انتهى بمقتل تيامة وقيام مردوخ بشطر جسمها الى شطرين خلق منهما السماء والارض • والثانية هي الزواج المقدس الذي جئنا على تفاصيله في اعلاه •

تبدأ اعياد آكيتو في اليوم الاول من نيسان وتستمر احد عشر يوما • وكانت الايام الاربعة الاولى مخصصة لاقامة الصلوات وقراءة التراتيل والاناشيد الدينية في معبد ايساكيلا الخاص بالاله مردوخ • وفي مساء اليوم الرابع يقوم الكاهن بقراءة قصة الخليقة البابلية كاملة والتي تحكى ، كما قلنا ، قصة انتصار الاله مردوخ على تيامة وجيوشها •

اما اليوم الخامس فانه مخصص للقيام بطقوس التطهير • اذ يقوم كاهن متخصص برش المعبد بالماء المقدس وبترديد تراتيل معينة ثم يحرق البخور ويذبح كبشا ويمسح جدران المعبد بدمه لاجل ان يزيل ذنوب السنة بكاملها • بعد ذلك يلقى بالكبش في مياه النهر • وكان على هذا الكاهن ان يبقى خارج المعبد في العراء الى حين الانتهاء من احتفالات عيد السنة لانه اصبح في اعتقادهم نجسا من خلال تلك العملية •

وفي هذا اليوم ايضا يصل الملك الى المعبد ويقوم الكهنة بتقديمه الى تمثال الاله مردوخ ثم يترك لوحده مدة من الزمن • بعد ذلك يدخل كبير الكهنة فيخلع عنه تاجه وشارات الملوكية ويضعها امام تمثال الاله • عندئذ

.يركع الملك امام الاله ويردد اعترافا يؤكد فيه انه لم يذنب ولم يهمل وانه عمل على حماية بابل والحفاظ عليها وعلى معبدها العظيم ايساكيلا واقام الطقوس والشعائر الدينية على اتم وجه . بعد ذلك يصفع الكاهن الملك على وجهه ويعرك اذنه وكلما كانت الصفعة اقــوى كانت ضمانا اكيدا لرضــى الاله مردوخ وبركاته . والراجح ان هذا الاجراء من جانب الكاهن كان لتذكير الملك بطبيعته البشرية لكي لا يصيبه الغرور فالحصول على رضا الاله امر واجب وان استمراره في الحكم مرهون بموافقته . وفي مساء اليوم نفسه يشارك الملك والكهنة في نحر ثور ابيض ضحية للاله وفي ترتيل دعاء خاص بالمناسبة.

وفي اليوم السادس يصل موكب الاله نبو (ابن الاله مردوخ) الى بابل قادما من مدينة بورسبا المجاورة كما تصل الهة اخرى من نفــر والوركــاء وكوثى وكيش . اما مراسيم الايام الخمسة المتبقية من عيد آكيتو فانها لم تصل الينا لحد الان، ولكن هناك اشارات عديدة الى تفاصيل عن اعياد رأس السنة البابلية في نصوص مسمارية متفرقة تشير الى ان مشاركة الملك في هذه الاعياد امر واجب وانه اذا تعذر حضوره تلغى الاحتفالات مثلما حصل زمن الملك نبونائيد . من جهة اخرى كان عيد آكيتو يتضمن مسيرة كبرى الــى « بيت آكيتو » الذي ربما كان معبدا يقع على مقربة من قناة خارج اسوار المدينة . وكانت المسيرة الى « بيت آكيتو » تمر خلال بوابة عشتار المزينــة بالآجــر الملون تمثل الثيران والأتنــان . وكان الملك في مقدمــة المشاركين في هذا الموكب حيث انه « يمسك بيد الاله مردوخ » على حد تعبير النص البابلي ليقوده من معبده ايساكيلا الى «بيت آكيتو» . ويعتقد بعض الباحثين انه بعد وصول موكب الاله الى « بيت آكيتو » يجرى ترتيل قصة الخليقــة البابلية وتمثيل وقائعها للتأكيد على ضرورة انتصار قوى الخير المتمثلة بالاله

مردوخ على قوى الشر (تيامة) انطلاقا من الاعتقاد القائل بامكانية استحداث الشيء عن طريق تقليد عملية حدوثه من خلال الطقوس ، وهو ما اشرنا اليه في مقدمة حديثنا عن الاعياد والاحتفالات • كما يعتقد ايضا ان الايام المتبقية مـن عيد رأس السـنة البابلية كانت تتضمن طقوس الزواج المقدس وتقرير المصير للسنة المقبلة على النحو الذي اوجزناه عند حديثنا عن الزواج المقدس •

الاحتفال بالنصر

كان احراز النصر على الاعداء مناسبة عزيزة عند الملوك والمواطنين في بلاد وادي الرافدين ومدعاة لاقامة احتفالات كبيرة • كما ان كثيراً من الملوك خلدوا تلك الانتصارات في مسلات ونصب حجرية وصفائح برونزية تصورهم ينتزعون النصر من اعدائهم ويلحقون بهم الهزيمة • والحديث عن هذا الموضوع يقودنا الى عصر فجر السلالات والى الاثر المتعارف عليه بين المختصين « راية اور » التي يعود تاريخها الى حدود ٢٥٠٠ ق•م تصور هذه الراية عن طريق التطعيم بالفسيفساء مشهدين رئيسيين اولهما الحرب وثانيهما الاحتفال باحراز النصر•ففي المشهد الاول يظهر الملك السومري في عربته وهو يكتسح الاعداء، كما يظهر الجنود المشاة وهم يقتادون الاسرى ليمثلوا في النهاية امام الملك الذى ترجل من عربته بعد حسم المعركة • ويصور المشهد الثاني الملك جالسا وهو يرفع كأسا بيده وقد جلس امامه كبار رجال الدولة وبيد كل منهم كأس ايضا وهم يحتفلون باحراز النصر • ويظهر في نهاية المشهد امرأة تغني على انغام عازف القيثارة •

ومن القطع الفنية الشهيرة التي تسجل احتفالاً بالنصر المنحوتة التـي تمثل الملك اشوربانيبال (٦٦٨ -٦٢٦ ق•م) جالسا في حديقة قصره مـع

الملكة وهما يستمتعان بتناول المشروبات وسـماع الموسـيقى احتفاءا بالنصر الساحق الذي حققه الجيش الاشوري على العيلاميين • وفي الطرف الايسر من المنحوتة يظهر رأس الملك العيلامي تيومان يتدلى من احد الاشجار •

لقد كان احراز النصر مدعاة ايضا لتكريم الابطال من القواد والمقاتلين واقامة احتفال بالمناسبة • ومن اقدم الوثائق المسمارية التي تسجل هـذا التكريم « وثيقة النصر » للملك البابلي نبوخذ نصر الاول (١١٢٤ ـ ١١٠٣ ق•م) التي تسجل الانتصار العظيم الذى حققه البابليون بقيادة هذا الملك على ضفاف نهر اولاى ، احد فروع نهر كرخة • وتقديرا من الملك البابلي نبوخذ نصر الاول لقائد عرباته رتي ـ مردوخ ولافراد قبيلته (كرزيابكو) الذين شاركوا في المعركة فانه منحهم جملة من الحقوق والامتيازات جـاء ذكرها في الوثيقة وشهد على اعلانها اربعة عشر شاهدا من كبار رجال الدولة ذكروا باسمائهم ومناصبهم ومما تجدر الاشارة اليه ان هذا القائد كان قد قام بدور بطولي عندما اقتحمت العربات التي تحت قيادته صفوف الاعداء واكتسحتها فاستحق هو وافراد عشيرته التكريم والتقدير من الملك البابلي •

المراجـع

١ ـ لابد لنا مـن الاشـارة هنا الى ان المعلومات التي قدمناها عن المعتقدات الخاصة بالاعياد والزواج المقدس في بلاد وادي الرافدين هي في الواقع ملخص للتفاصيل التي اوردناها في كتابنا الموسوم «عشتار ومأساة تموز» والذي يجد فيه القارىء الكريم تفاصيل وافية عن اله الخصب تموز والهة الحب والجنس عشتار .

٢ ـ حول مزيد من التفاصيل عن الزواج المقدس والنصوص السومريـــة الخاصة به ، انظر :

Kramer, The Sacred Marriage Rite, Indiana, 1969.

٣ ـ حول عيد آكيتو ، انظر :،

Saggs, The Greatness That was Babylon, New York 1962 (P. 385 ff.)

الفصل السابع

الكتابة

د. بهيجة خليل اسماعيل

مديرة المتحف العراقي ـ بغداد

مقدمة :

تعد الكتابة المسمارية اهم محصلة حضارية كبرى حققها الانسان العراقي القديم ، وتأتي على رأس الدلائل المادية للنضوج الحضاري في قطرنا ، اذ كان لها الفضل الكبير في وضع اصول التاريخ المدون للبشرية ، كما تركت اثرا كبيرا على مجمل الحضارة الانسانية ، ولولاها لما استطاع الانسان ان يسجل علومه ومعارفه وتراثه وينقله الى الاجيال •

لقد عرفت الحاضرة العراقية الوركاء (اوروك تقع في جنوب شرقي السماوة) وقبل اية منطقة في العالم اصول التدوين وذلك قبل اكثر من خمسة آلاف سنة ، حيث عثر في الطبقة الرابعة (ب) من المدينة المذكورة وفي احد معابدها على اكثر من الف رقيم طيني تتضمن وثائق اقتصادية باقدم انواع الكتابة وبأبسط اشكالها وهي الكتابة الصورية Pictographic وذلك في حدود (٣٥٠٠ ق•م) في العصر المسمى « الشبيه بالكتابي Protoliterate ويشمل هذا الدور النصف الثاني من عصر الوركاء وعصر جمدة نصر •

ويظهر ان الحاجة هي التي دفعت بالسومريين الى استنباط الكتابة وذلك لتسجيل وضبط واردات المعابد وحساباتها وغير ذلك مما يتعلق بالشؤون الاقتصادية ، لان المعبد كان مركز الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية آنذاك .

نشأة الخط وتطوره

كان اختراع الكتابة من اهم مقومات الحضارة العراقية القديمة وقد ظهرت بوادرها في الالف الثالث ق.م وكانت في اول اطوارها تتألف من الفي علامة صورية . وبالنظر لكثرة العلامات المعقدة وصعوبة استخدام العلامات الصورية للتعبير عن معان كثيرة اخذ السومريون يبسطون ويختصرون في اشكالها وعلى سبيل المثال ان الكلمة السومرية (UDU) التي تؤدي معنى الغنم كتبت بما لايقل عن ٣١ علامة صورية في الطبقة الرابعة من عصر الوركاء ، اما في الطبقة الثالثة من هذا العصر فقد استخدمت لها ثلاث علامات ، وفي الطبقة الا حدث منها زمنا اصبحت العلامات المعبرة عن الغنم علامتين فقط واستمر الكتبة في اختزال العلامات حتى اصبح عددها في منتصف الالف الثالث ق.م اي اواخر عصر فجر السلالات الثاني حوالي ٨٠٠ علامة بدلالة النصوص التي عثر عليها في مدينة فارة (شروباك) .

وفي مطلع الالف الثاني ق.م اصبح عددها يتراوح بين ٥٥٠ ـ ٥٠٠ علامة مسمارية .

المراحل التطورية

لم يقتصر السومريون على اختراعهم اسلوب الكتابة بل طوروها وجعلوا منها اداة ناجحة للتدوين ونقل الافكار ومرت هذه الكتابة بمراحل وهي كالاتي :

١ ـ المرحلـــة الصوريـــة (Pictographic)

لقد بدأ الخط المسماري بهيئة صورية قوامها علامـــات تمثل الاشـــياء المراد تدوينها اي ان كل صورة تمثل كلمة فمثلا عبر الكاتب العراقي القديم عن كلمة سمكة ، برسم صورة لها كما عبر عن كلمة قـــدم برســـم صـــورة للقـــدم ولكن اذا اراد ذلك الكاتب التعبير عـــن انسان رسم له صورة موجزة له وهكـــذا •

وتعتبر هذه المرحلة من اقدم المراحل في تاريخ الكتابة وقد وصلتنا نماذج منها من الطبقة الرابعة من الوركاء مدونة بهذا النوع وتتضـــمن نصوصـــا اقتصادية وجداول باسماء المواد التي كانت كافية لتؤدي الغرض المطلوب •

وعثر ايضا على لوح من الحجر عليه كتابة صورية يضم نصا اقتصاديـــا مـــن مدينـــة كيشـــس (تـــل الاحيمـــر) •

٢ ـ المرحلـــة الرمزيـــة (Logogram / Ideogram)

اهتدى الكاتب العراقي الى ابتكار الطريقة الرمزيـــة لكي يتمكـــن بواسطتها من تدوين الافكار والاشياء المعنوية وذلك برسم صـــور لها بهيئة مختصرة ، فاصبحت العلامات لاتعبر عن الشيء الذي تصوره فقط بل تعبر عن افكار ذات صلة بما تمثله تلك العلامة او بعبارة اخرى استخدم الكاتب قيما جديدة لعلامات كانت قائمة سابقا ، مصدرهـــا افكار تتعلق بالمعنى الاصلي للشيء ذاته ، فمثلا اصبحت صورة القدم لاتستخدم لتدوين القدم او الرجل بل اتخذت لها معان جديدة مستمدة من معناها الاصلي مثل (ذهب ، وقف ، مسى ، قام ، اتى) وصارت صورة الشمس تعبر ايضا عن المعاني المشتقة منها كالضوء والحرارة والليل والنهار ، وبالمثل اصبحت علامة المحراث تعبر عن معاني اخرى مثل الفعل (حـــرث) وكذلك تعبر عن كـــل فـــلاح •

كما قاموا بدمج علامتين او اكثر فمثلا اذا اراد الكاتب التعبير عن الفعل (اكل)رسم صورة الفم وبداخلها قطعة من الخبز واذا اراد التعبير عـن الفعل (شرب) رسـم صورة الفم وبداخله صورة المـاء وبجمع المرحلتين الصورية والرمزية صار بالامكان التعبير عن معان وجمـل كثيرة ولكن بقيت الكتابة ناقصة بسبب استحالة التعبير بهذه الطريقة عن مختلف شؤون الحياة فدعتهم الحاجة لتلافي هذا النقص باستخدام العلامات بهيئة مقاطع لكتابة الكلمات والجمل المختلفة وهذه المرحلة هي :

٣ ـ المرحلـة الصوتيـة (Phonetic)

تمثل هذه المرحلة آخر مراحل التطور التي توصل اليها النساخ العراقي في اســتخدام الخط المسماري.لانهم لم يصلوا الى الطـور الهجائـي (Alphabetic) اي استخدام الحروف الهجائية • والمقصـودبالمرحلـة الصوتية هـو اعطـاء اصوات للعلامات تتناسب ولغتهم مجـردة عـن مدلولاتها الصورية والرمزية ، وهذه المرحلة ظهرت في الطبقة الثالثة مـن عصر الوركاء ، اذ كشف في هذه الطبقة على نص مسماري استخدم فيـه المصطلح السومـري ti لكـي يـدل علـى كلمـة « سهم » كما استخدم لفظ او صوت العلامة لاداء معنى كلمة «حياة»، ومن هنا يتضح لنـا ان لكل مـن العلامتين « سهم وحياة » لفظا متطابقا بالرغم من اختلاف معنيهما • وبهذه الطريقة اسـتطاع السومريون كتابـة الاسـماء والاشياء على هيئة مقاطع صوتية فمثلا اذا ارادوا ان يكتبوا اسم حسين كتبوه بهيئة مقطعية ḫu - se - en فالعلامة ḫu تعني سمكة والعلامة se تعني قرن والعلامة en تعني السيد • وهذا يعني انهم أخذوا لفظ او صوت العلامة بغض النظر عن معانيها في كتابة الاسم •

ومما ساعد على نشوء التطور المقطعي الصوتي هو ان العلامات من حيث قيمتها الصوتية كانت تضم نوعين من العلامات هما العلامات المتعددة الالفاظ (Homophones) بعضها ذو معنى وبعضها الاخر مجرد مقاطع صوتية ليس لها اي مدلول ، ونذكر على سبيل المثال ان العلامة الدالة على الفم لها الفاظ ومعان متعددة فتقرأ (ka) وتعنى (فم) وتقرأ (inim) وتعنى (كلمة) وكثير من العلامات المقطعية كان لها عدة اصوات اي ان المقطع كان يقرأ قراءتين او اكثر فالمقطع a يقرأ (a) ويقرأ (aplu) الابن البكر .

اما النوع الثاني فهي العلامات المختلفة صورة والمتفقة صوتا وتعرف بالمصطلح (Monophones) وعلى سبيل المثال توجد عشرون علامة ذات اشكال مختلفة في القيمة الصوتية (du) ولما كان للعلامة المسمارية الواحدة قراءات عديدة وكل قراءة تدل على معنى خاص لذلك اصبح لعدد كبير من العلامات المسمارية قراءات متشابهة ولتمييز الفرق بين العلامات ذات القراءات المتشابهة وضع علماء الدراسات المسمارية اسلوبا خاصا وهو اعطاء العلامات المتشابهة ارقاما للدلالة على تسلسلها بالنسبة للقراءة ولناخذ مثلا على ذلك ان العلامة (u) اعطيت لها الارقام (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، $u, \acute{u}, \grave{u}, u_4$) وهكذا . وبالنظر لصعوبة الكتابة المسمارية واحتوائها على هذا العدد الضخم من العلامات اضطر الكتبة القدماء الى استخدام بعض الوسائل التوضيحية للاستعانة بها في مهمة تعلم الكتابة وقراءة النصوص فاستخدموا العلامات الدالة (Determinative Signs) وهي علامات ورد البعض منها قبل الكلمات والبعض الاخر بعد الكلمات لتعيين المراد منها دون ان تقرأ في سياق الكلام واهم هذه العلامات هي التي تسبق اسماء الالهة والبلدان والشعوب واسماء الاعلام من ذكور واناث واسماء الانهار .

اما العلامات الدالة اللاحقة فتستخدم للدلالة على اسماء المدن والمناطق واسماء انواع الاسماك والطيور واسماء الخضروات وتوجد ايضا علامات تدل على الجمع وعلامة تستخدم للدلالة على التثنية .

والعلامات الدالة الرئيسة هي ما يلي :

١ ـ العلامات التي توضع قبل الكلمات :

𒀭	dingir	وهي تدل على لفظة اله وتوضع قبل اسماء الالهة .
𒆳	kur	توضع قبل اسماء البلدان والجبال
𒁹	diš	توضع قبل اسماء الذكور .
𒊩	mí	نوضع قبل اسماء الاناث .
𒀀𒇉	íd	تستخدم للدلالة على الانهار .
𒄑	giš	(خشب) وتستخدم للدلالة على انواع الاشجار والاخشاب والادوات المصنوعة من الخشب .
𒌷	uru	(مدينة) تستخدم للدلالة على اسماء المدن
𒉌	na4	(حجر) وتستخدم للدلالة على انواع الاحجار .
𒇽	lú	(رجل) وتستخدم للدلالة على الحرف والمهن .

٢ ـ العلامـــات التـــي توضـع بعـــد الكلمـــات :

sar (خضار) وتســتخدم للدلالة على انواع المخضرات .

ki (مكان) وتســتخدم للدلالة على اسماء المدن والمناطق .

ku_6 (سمكة) وتســتخدم للدلالة على الاسماك .

وغيرهـــــــــــــــــــــــــا .

ولابد لنا ان نذكر بان الكاتب العراقي استخدم ايضا مبـدأ التمـــم اللفظــي (Phonetic Complement) وكان الغرض منه تحديـد اللفظ الذي اراد تدوينه من قراءة العلامـــــة ، فالعلامـــــة التـــي تمثـــل صـــورة الجبل تقرأ بعدة قراءات فتقرأ kur ' šadu ' kašādu الخ ، فاذا اراد الكاتب اســـتخدامها لتدويـــن šadû كـــان يلحـــق بالعلامـــة kur العلامة ú واذا اراد اســـتخدامهـــا لتدويـــن الفعل akšud كان يلحق بالعلامة kur العلامة ud وهكذا وكـــان القصــــد منها تحديد لفظ العلامـــة للقارىء .

KUR = mātu بـــــلاد

KUR – ú = šadû جبـــــال

KUR = Kašādu يغلب ، يســـيطر

امـــا KUR – ud = akšud فتأتي في الكتابات الماكية بمعنى غلب ، سيطر ، احتل

وبمعنى آخر ان العراقيين استخدموا النهايات الصوتية وغيرها من وسائل الايضاح • بالاضافة الى ما اسلفنا من مراحل التطور التي مرت بها الكتابـة فقد حدثت تغييرات اخرى في شكلها فأخذت العلامات تفقد شكلها الصوري وذلك بسبب استخدام الكتبة قلما من القصب مثلث الرأس فبعد الشبه بين اشكالها واشكال الاشياء التي كانت تمثلها فأصبحت العلامات تشبه المسامير. ومـــن هنا جاءت التسمية الكتابة المسمارية (Cuneiform) المأخوذة من اللاتينيـــة (Cuneus) مسمار و (Form) « شكل » واصبحت العلامات تتكون من خطوط مستقيمة ، وافقية وعمودية ومائلة •

ومما يجدر بالتنويه ان الكتابة المسمارية بقيت الـى آخـر الفتـرات الزمنية خليطا بين الطريقة الرمزية وبين الطريقة المقطعية الصوتية وفيما يخص اتجاه الكتابة فانها كانت بالاصل تكتب من الاعلـى الى الاسـفل ثم اصبحت تكتب من اليسار الى اليمين اي عكس الخط العربي •

ظلت الكتابة المسمارية مستعملة في التدوين حتى بعد انتهاء آخر الادوار الحضارية في العراق وسقوط بابل في عام ٥٣٩ ق•م وقد وصلت الينا رقـــم طينية من الفترات المتأخرة نخص منها بالذكر قطعة ادبية فريدة مكتوبة بلهجة من لهجات اللغة السومرية والمعروفة عند الباحثين في الدراســـات القديمـة بلهجة (emesal) اي « لهجة النساء » ومؤرخة بســنة ١٥٠ ق•م وتحمل اسم الكاتب بيل أدنا Bēl - iddina الذي كان مساعدا لاحد الكهنة •ويظهر ان الخط بقي مستخدما من قبل الكهنة في تدوين ملاحظاتهم حول الفلك الى سنة ٥٠ ميلادية اذ حصلنا على نص فلكي من هذا التاريخ معروض حاليا فـي المتحف العراقي • وبهذا فان الكتابة المسمارية بقيت مستعملة في التدوين عبر مسيرة من الزمن تنوف عن ثلاثة الاف ســـنة •

استخدم الخط المسماري لتدوين لغتين هما اللغة السومرية واللغـــة

الاكدية ، والاكدية تفرعت الى لهجتين هما اللهجة البابلية التـي بدورهـا تفرعت الى لهجات واللهجة الاشورية التي تفرعت الى لهجات ايضا .

وتمثل اللغة الاكدية الفرع الشرقي من لغات اقوام الجزيرة العربيـة ، اما الفرع الغربي فيضم الكنعانية والفينيقية والارامية والعبرية .

كيف حلت رموز الكتابة المسمارية

يعود الفضل في حل رموز الكتابة العراقيـة القديمة (الكتابـة المسمارية) الى العلماء الذين تمكنوا من حل هذا اللغز والذيـن زاروا منطقة الشرق القديم بهدف التعرف على مواطنه الحضارية وآثاره الشاخصة .

وكان اولهم التاجر الرحالة الايطالي (بيترو ديلافالي Pietro Della Valle) الذي زار اطلال مدينة برسيبوليس الواقعة على بعد ٥٠ كم الى الشمال مـن مدينة شيراز والتي كانت عاصمة للملوك الاخمينيين ، فعثر على آجـرة مكتوبة من اليسار الى اليمين بكتابة مسمارية ، كما اثارت اهتمامه الكتابات المسمارية المنقوشة على الابنية والمنحوتات في تلك المدينة فقام باستنساخ خمسة رمـوز منها ، ورجع الى اوربا عام ١٦٢١ ، وبعد عودته نشر عن الكتابات التـي شاهدهـا .

وفي عام ١٧٦٥ قام العالم الالماني (كارسـتن نيبور) C. Niebuhr باستنساخ مجموعة من كتابات برسيبوليس ونشرها في عام ١٧٦٨ واثبت بان هذه الكتابات تضم نصا واحدا مكتوبا بثلاثة انواع من الخطـوط المسمارية وان هذه النصوص الثلاثة تكتب من اليسار الى اليمين ، وان احـد هـذه الانواع الثلاثة يضم ٤٢ علامة مسمارية واتخذ هذا النوع اساسا لمحاولة حل الخطوط المسمارية .

ومضى العلماء في بحوثهم الاخرى هذه الى ابعد من ذلك،حتى تسنى للعالم الباحث نيكسن O. Tychsen) الاستاذ في جامعة روستوك في عام ١٧٩٨ قراءة علامات والتوصل الى معرفة احدى العلامات المتكررة في النص ، وهي المسار المائل واثبت بأن هذه العلامة توضع لفصل الكلمات عن بعضها وتمكن نيكسن من البرهنة على ان هذه النصوص تمثل ثلاث لغات مختلفة ، واعقب هذه الخطوة نجاح الباحث الآثاري مونتر (F. Münter) في سنة ١٨٠٢ في اثبات كون كتابات برسيبوليس تعود الى السلالة الاخمينية ، وان لغتها متشابهة الى اللغة المدون بها الكتاب المقدس المعروف بـ (زند افيستا Zend Avesta) معتمدا بذلك على بعض الادلة التاريخية وعكف مونتر على دراسة هذا التشابه ومحاولة ايجاد نوع العلاقة التي تربط الكتابة المارة الذكر وبين ما جاء في الزند افيستا .

واخيرا استطاع ان يحدد العلامات التي تتألف منها كلمة (ملك) وهذه ساعدت كثيرا في التوصل الى حل الكتابة ، واكد ايضا على ان الكتابة تضم نصا واحدا وليس ثلاثة نصوص مختلفة وهذا النص مدون بثلاث لغات مختلفة .

كما افلح العالم الالماني ج . ف . كروتفند G.F. Grotefend الذي كان يعمل مدرسا للغة اليونانية في مدينة كوتنكن الالمانية ان يكمل العمل الذي قام به مونتر وان يتوصل الى فك الخط الاول الذي كان يضم ٤٢ علامة مسمارية والتي كانت تمثل حروفا هجائية وليست مقطعية ، وتمكن من قراءة بعض العلامات المنقوشة فوق رأس احد التماثيل التي تعود للاخمينيين وبعد دراسات ومقارنات مع الكتب التي ترد فيها اسماء حكام السلالة الاخمينية تمكن من التوصل الى معرفة بعض اسماء الاعلام التي حواها النص الاول والتي تشير الى اللغة الفارسية القديمة .

وفي ٤ ايلول من العام نفسه القى محاضرة امام جمعية العلوم لمدينـــة (كوتنكن) عرض فيها النتائج التي توصل اليها اثناء دراســـته وهـي ان ترتيب القاب الملوك الاخمينيين مشابهة لترتيب القاب الملـوك الساسانيـين ، وان الاسم الذي يرد في مقدمة النص هو اسم الملك وبعده تأتي الالقاب وهي على النحو التالي (الملك العظيم ، ملك الملوك ، ملك البلدان) ، وبذلـك استطاع ان يتوصل الى تعيين العلامات الخاصة باسماء الملوك والقابهم •

واستعان ايضا بنصين من الكتابة المسمارية التي تضم بعض اســماء الملوك ، حيث لاحظ ان العلامات في النص الاول تختلف عن تلك التي فـي النص الثاني ، وتبين له انهما يحويان اسمين لملكين مختلفين ، ولاحظ كذلـك ان مجموعة العلامات التي تؤلف اسم الملك في النص الاول جاءت في النص الثاني بعد مجموعة العلامات التي تمثل اسم والد الملك ، وبذلك استنتج ان اسم الملك في النص الاول هو اسم الاب في النص الثاني وهذا يعني ان النص الثاني يعود الى الابن والنص الاول لوالده وبذلك استطاع ان يحدد العلامات الخاصة باسم مؤسس السلالة وباسـم ابيـه وابنـه • وهـذه سـاعدت العلماء الذين قاموا فيما بعد بحل رموز هـذه الكتابـة •

واذا كان كروتفند قد وفق في ايجاد المفتاح لحل رموز الكتابـة المسمارية فان الفضل يعود الى الباحثين الذين استمروا في دراسة الخطـوط والتوصل الى نتائج اخرى ومنهم برنوف E. Burnouf الذي تمكن مـن قراءة علامات اخـرى وكذلك الاستاذ لاسـن Chr. Lassen الـذي استطاع ان يصحح بعض القراءات التي اخطأ فيها كروتفند •

ان كتابات برسيبوليس لم تساعد الباحثين على معرفة القيـم الصوتيـة لكل العلامات المسمارية وهذه الحقيقة تقودنا الى الحديث عن تلك الجهـود التـي بذلها (هنري رولنسـون Henri Rowlinson) الضابط الانكليزي

في الجيش الايراني في محاولته عام ١٨٥٣ لحل رموز الخط المسماري ، حيث قام باستنساخ نصين قصيرين من الكتابة المسمارية المنقوشة في جبل القند جنوب همدان ، هذا بالاضافة الى استنساخه الكتابة المدونة بثلاثة انواع من الكتابات المسمارية ، وبثلاث لغات وهي اللغة الفارسية واللغة العيلامية واللغة البابلية ، والتي تركها داريوس الاول على الاثر المعروف بحجر (بهستون) الواقع بالقرب من كرمنشاه ويبلغ ارتفاع هذا الاثر ٥٤٠م والكتابة منقوشة على جرف صخري عمودي ، وتقع على ارتفاع يتراوح من ١٣٠ ــ ١٤٠م وتتألف من خمسة حقول وتضم هذه الحقول التي تتألف من اكثر من اربعمائة سطر الاعمال السلمية والحربية التي قام بها الملك المذكور .

ان استنساخ مثل هذه الكتابة لم يكن بالامر السهل فقد لاقى رولنسون صعوبة في استنساخها فكان عليه ان يتسلق الى قمة الجبل ، ثم يتدلى بالحبال الى عمق ما بين ٥٠ ــ ٦٠ مترا لكي يصل الى الكتابة . وحيث لم يكن في استطاعته نصب منصة خشبية بهذا الارتفاع الشاهق قام رولنسون باستنساخ بعض من النص واخذ قالبا له ، ولكنه اضطر الى التوقف بسبب بعض الاشغال العسكرية وعاد مرة ثانية في سنة ١٨٤٤ لتكملة استنساخ النص . وفي عام ١٨٤٨ بعث رولنسون حصيلة اعماله الى الجمعية الاسيوية الملكية في لندن لنشرها .

اما بالنسبة الى النوع الثاني من الكتابات المسمارية والتي تتضمن اللغة العيلامية فقد جرت محاولات اخرى للتوصل اليها ، فقام الاستاذ نوريس Norris الانكليزي الجنسية بدراستها واستخدم لهذا الغرض كتابات بهستون التي سبق ان نشرها رولنسون واثبت بواسطتها النتائج التي توصل اليها . وبسبب ندرة النصوص المدونة بهذه اللغة فانها لاتزال قيد الدرس .

اما النوع الثالث من الكتابات المسمارية المدونة باللغة البابلية ، فقد كانت مشكلة حل رموزها مضنية للغاية ، حيث لاقى العلماء صعوبة في التوصل اليها بسبب تدوينها بعلامات مقطعية تزيد عن (٥٠٠) علامة مسمارية • ومما ساعد على حل رموز الكتابة البابلية هو ازدياد رغبة العلماء في اواسط القرن التاسع عشر في قراءة الكتابات المسمارية ، وكذلك الكشف عن مجاميع كبيرة من الرقم الطينية المدونة بهذا الخط اثناء التنقيبات التي اجراها الفرنسي اميل ـ بوتا Emil Botta في عام ١٨٤٣ في قصر الملك الاشوري سرجون في مدينة خرسباد والمنقب الانكليزي ليرد Layard الذي حالفه الحظ في العثور على عدد من القصور الاشورية في مدينة نمرود الاثرية • وكانت هذه القصور مزينة بمنحوتات من الرخام تصور الملك في اوضاع مختلفة وتحمل هذه الالواح نصوصا مكتوبة بالخط المسماري واللغة الاشورية ، تذكر الاعمال التي قام بها الملك المذكور وقسم منها معروض في المتحف العراقي وتبين من شكل العلامات الموجودة عليها بأنها لاتختلف عن علامات النوع الثالث من الخط المسماري المدون على حجرة بهستون ، فاثارت هذه النتائج اهتمام الباحثين لحل رموز النص البابلي ، وقد تكللت جهودهم بالنجاح حيث توفق العالم السويدي (لوفن شتيرن Lowenstern) في عام ١٨٤٥ في تعيين العلامات المكونة لاسم (ملك عظيم) وكذلك العلامة الخاصة بالجمع •

اما المحاولة الاخرى فقد جرت من قبل المستشرق ادوارد هنكس A. Hincks الذي استطاع في عام ١٨٤٧ تحديد الضمير بالاكدية (anaku) ويقابلها بالعربية (انا) واتضح له بأن هذه الكتابة مقطعية وليست هجائية بسبب كثرة العلامات الورادة في النص ، كما لاحظ ايضا انها ليست مقطعية صرفة بل ان البعض من مقاطعها يستخدم

للدلالة عن كلمة واحدة ، اي ما يعرف بالعلامات الرمزية ، كما عرف بأن هذه العلامات تتألف من حرف عله وحرف صحيح او بالعكس ، وتوصل الى قراءة اسماء الاعلام وذلك بالاستعانة باحد النصوص التي آلت اليه اثناء التنقيبات في مدينة نينوى . وهذا النص يضم اسماء اعلام مدونة في حقلين ، الحقل الاول يضم الاسماء بالعلامات الرمزية والحقل الثاني يضم الاسماء المدونة بالعلامات المقطعية . فشجع بذلك العلماء الباحثين وفي مقدمتهم رولنسون على مواصلة دراسته للنص البابلي المنقوش على جبل بهستون ، وتمكن من خلال استنساخ النص ودراسته من التعرف على القيم الصوتية لاكثر من ٢٥٠ علامة مسمارية ولعدد من الكلمات المدونة باللغة البابلية . وبجهود عدد آخر من الباحثين الذين تابعوا دراساتهم لحل رموز هذا الخط وقدموا خدمات جلى في هذا الحقل حيث قاموا بمقارنة نتائج ابحاثهم مع مفردات لغات اقوام الجزيرة العربية (اللغات الجزرية) توصل العلماء الى حل رموز الخط المسماري المدون باللغة البابلية .

وبالرغم من النتائج التي توصل اليها الباحثون في حل رموز الخط المسماري الا ان الشك بقي يساور عددا من المشككين بصحة المعلومات ، لذلك أرادت الجمعية الاسيوية الملكية Royal Asiatic Society التأكد من صحة المعلومات فوزعت على الباحثين في هذا النوع من المعرفة في عام١٨٥٧ اربع نسخ من كتابةآشوريةتعود الى الملك الاشوري(تجلاتبليزر الاول Tiglat - Pileser I) (١١١٥ — ١٠٧٧ ق.م) وهم (اوبرت J.Oppert) الاستاذ في جامعةالسوربون والعالم الايرلندي (هنكس Hincks) والمستشرقالانكليزي (تالبوت F. Talbot) والعالم الانكليزي (هنريرولنسون H. Rowlinson) لترجمة النص كل على انفراد وبعد شهرين وصلت النتائج في ظروف مختومة الى الجمعية السالفة الذكر فتشكلت لجنة من خمسة اعضاء وفتحت الظروف امامهم وبعد مقارنة

الترجمات الاربع اتضح ان النتائج متقاربة رغم وجود بعض الاختلافـــات البسيطة في قراءاتهم وبهذا اقرت المحافل العلمية الاعتراف بمولد علـم جديد اطلق عليه اسم علـم الاشوريات Assyriology نسبة الـى اللغة الاشورية لان العلماء اعتمدوا علـى النصـوص المسمارية التـي تعـود الـى الفترة الاشورية اي الى الالف الاول ق٠م في حل رموز الكتابـة المسماريـة ولايزال هذا الاسم مستخدما حتى الان على الرغم من معرفة الباحثين فيما بعد بأن اللغة الاشورية واللغة البابلية هما لهجتان تفرعتا من اللغة الأكديـة التي تعتبر اللغة الام للاقـوام الجزريـة ٠

وبمرور الزمن اصبح هذا العلم يدرس في الجامعات المشـهورة ذات العلاقة بحضارة وادي الرافدين والحضارات القديمة فاختص به كثير مـن العلماء الاجانب وبعض المواطنين العراقيين والعرب ٠

أنتشار الخط المسماري

لم ينحصر استخدام الخط المسماري في بلاد وادي الرافدين بل خـرج من موطنه الاصلي وانتشر الى مناطق اوسع فتأثرت به الاقوام التـي عاشت على اطرافه والبعيدة منه فاقتبست الكثير منه وتغذت من معينه ٠

ان اقدم انواع الكتابة ، هي الكتابة الصورية ، انتقلت الـى مدينـة شوشا عاصمة عيلام فظهر فيها خط صوري مشابه للخط العراقـي مع بعض الاختلافات البسيطة ولكن بعد مرور ٢٠٠ سنة على ظهوره في العـراق ظـل هذا الخط مستعملا في عيلام الى العصر الاكدي ، اي حتـى منتصف الالف الثالث ق٠م ثم استبدل بالخط المسماري المقتبس من الخـط المسـماري العراقي ، كما اقتبسـوا العلامات الرمزية والدالة وكذلك الارقام التـي ابتكرها العراقيون القدامى وسبقوهم في استعمالها ، وهناك الكثـير مـن

الشواهد المادية والكتابية في عيلام تشير الى ذلك ، كما حلت اللغة الاكدية محل اللغة المحلية في زمن الملك الاكدي نرام سين Naram Sîn (٢٢٩١ — ٢٢٥٥ ق.م) عندما ضم عيلام الى حكمه ، وخير دليل على ذلك الآجر المنقوش بالخط المسماري وباللغة الاكدية الذي تم العثور عليه في عيلام ، وكذلك المنحوتة التي وجدت في سربيل زهاب في هورين شيخان والمنقوشة بالخط المسماري ، وتعود الى احد الامراء الذين حكموا المنطقة في حدود منتصف الالف الثالث ق.م عليها كتابة بالخط المسماري وباللغة الاكدية وهي مشابهة لمنحوتات الملك نرام سين وهكذا بالنسبة الى المنحوتة التي تركها آنو — بانيني Anu banini وغيره ولا تشير هذه المنحوتات الى اقتباس الخط واللغة فقط وانما الى اساليب النحت الاكدي ايضا .

ولابد لنا ان نذكر ان منطقة عيلام تعتبر من الناحية الجغرافية امتدادا طبيعيا لسهول الرافدين ، كما ان هذه المنطقة تبعث وارتبطت ثقافيا وحضاريا بمقومات حضارتنا العريقة ، وكانت جسرا لنقل مفاهيم واسس الثقافة والحضارة العراقية الى الاقوام الايرانية التي اعقبت العلاميين او تلك التي غزت العراق في فترات ضعف سياسي كالكوتيين والميديين والفرس والاخمينيين والفرثيين والساسانيين .

وهناك ادلة كثيرة تشير الى اعتماد هؤلاء الاقوام على الكتابة المسمارية لفترة غير قصيرة من الزمن بدلالة المجاميع الكبيرة من الرقم الطينية والمنحوتات المكتوبة والآجر المدون بالخط المسماري التي عثر عليها في مواقع مختلفة من ايران ونخص منها بالذكر الكتابات التي تركها لنا دارا الاول ، والتي عرفت باسم بهستون المدونة بالخط المسماري وبلغات احداها اللغة البابلية التي سبق ان تكلمنا عنها ، كما ان فكرة تصوير دارا وتوزيع المناظر في صفوف على تلك المنحوتة مقتبسة عن فنون العراق . ونشير هنا ايضا الى الاختام الاسطوانية التي تحمل كتابة مسمارية والتي

ظهرت في قطرنا ، حيث ان فكرتها وفنونها انتقلت الى مناطـق متعـــددة في ايران ، منها سوسا وخوجة زمبيل وغيرها حيث ظهرت اختام مشابهة من حيث الموضوع والتقنية وتحمل كتابة مسمارية • وشاع الخط المسماري في البلدان القديمة من الوطن العربي حيث كشفت البعثة الايطالية التي بدأت التنقيب في عام ١٩٦٤ ـــ ١٩٧٩ في تل مارديخ (ابلا ـــ تقع هذه المدينة على بعـد ٥٥ كم جنوب غـرب حلب) عما يناهـز ١٦٥٠٠ نص كتابـــي مـدون بالخـط المســماري ، وتعـــود الـــى عصـــر فجـــر الســـلالات الثالـــث وهي ذات مضامين مختلفة ، منها معاجم لغوية مدونة بلغتين على غرار المعاجم اللغوية الحديثة ونصوص ادبية وعلمية واخـرى اقتصادية وادارية بالاضافة الى قوائم باسماء جغرافيـــة وغيرهـــــــــا •

وهذه النصوص كانت محفوظة في غرفة في قصر احد الملوك وربمـا في المكتبة الخاصة بالقصر حيث وجدت بعض الرقم منضدة فوق رفوف معمولة من الطين • وهذه الرفوف كانت ملاصقة للجدران وهـــي شبيهة بطريقة حفظ الرقم عند العراقيين القدامى كما هي الحال في التـــل الابيض في عقرقوف ومدينة نفر ونينوى وغيرها من المواقع العراقية •

وعثرت البعثة الالمانية في سوريا بالقرب من شيخ حماد وفي اعالـــــي الخابور على مجموعة من الرقم الطينية مدونة بالخـط المسماري وباللغـــة الاشورية تعود بتاريخها الى منتصف الالف الثاني ق•م ، وهـــي نصوص اقتصادية وادارية لاتختلف في مضامينها عن النصوص التي تم العثور عليهـا في تل علي (اتماني) الواقع قرب الحويجة ، هذا بالاضافة الى الكشف عـن تمثال يحمل كتابة مسماريـــة •

وتشير المدونات الكتابية التي تم العثور عليها في آسيا الصغرى والتي تعود بتاريخها الى مطلع الالف الثاني قبل الميلاد الى انتشار الخط المسماري مـــن بلاد آشور الى المستعمرات التجارية التي انشأها التجار الاشوريون في

كول تبه (كانيش) وبوغاز كوي (خاتوشا) وعلي شار (انكوفا) وغيرها ، حيث تم العثور على مجموعة مؤلفة من اكثر من ٢٨ الف رقيم طيني مكتوب بالخط المسماري وباللغة الاشورية القديمة . وتشمل رسائل متبادلة بين التجار واصحاب المشاريع ووكلائهم ، والتي تخص عقد الصفقات التجارية وكافة الاعمال المتعلقة بالامور الصيرفية ، وعقودا اقتصادية تتعلق بالمعاملات التجارية والمالية ، منها منح القروض وتتضمن قيمة القرض + الفائدة + الضمان الشخصي (الكفالة) والوقت المحدد لاطفائه ، ووثائق تخص الضرائب والتهريب وتنظيم القوافل التجارية ، ووثائق تبحث في الشؤون القضائية كالمنازعات وقرارات المحاكم بالاضافة الى وثائق تخص الاحوال الشخصية وغيرها .

وتشير النصوص المسمارية الخاصة بالتجار الى ان عددا كبيرا من رجال الاعمال التجارية في بلاد الاناضول كانوا يجيدون اللغة الاشورية ، وكانوا يفضلون كتابة الرسائل الى وكلائهم التجار في آشور بانفسهم ، وكانوا يكتبون بلغة بسيطة لاتتجاوز مقاطعها ١١٥ علامة وهذه العلامات كانت تدرس الى الاشخاص المعنيين لتساعدهم على القراءة والكتابة .

وانتشر الخط المسماري بين الحوريين والميتانيين وذلك في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد بدلالة العثور على ما يزيد عن اربعة الاف رقيم طيني في موقعي نوزي (يورغان تبه) وتل الفخار (كورو خاني) kurru - ḫani كلها قد كتب بالخط المسماري وهي ذات مضامين مختلفة منها عقود قضائية تخص الزواج والتبني والارث ومنها عقود اقتصادية وادارية ورسائل متبادلة بين الاشخاص .

كما عثر في رأس شمرة (اوغاريت) على الواح طينية مكتوبة بعلامات مسمارية باللغة الكنعانية وهي نصوص دينية واساطير شعرية .

واصبح الخط المسماري في القرن الرابع عشر ق٠م وسيلة لتدوين الوثائق المتبادلة بين ملوك وامراء اقطار العالم العربي القديم ٠ كما اصبحت اللغة الاكدية اللغة الدبلوماسية بدليل الكشف عن مجاميع من المراسلات الدبلوماسية ، تتضمن رسائل شخصية متبادلة بين هؤلاء الملوك وتعرف برسائل العمارنة ويمكن الاستدلال على ذلك من الرسائل المرسلة الى امينحوتب الثالث واخناتون من الملك الميتاني والملك الحثي وملك الاشيا (محتمل قبرص) وحكام سوريا وفلسطين وجميعها مكتوبة باللغة الاكدية ويذكر الاستاذ كنودتسن Knudtzon في كتابه « رقم من العمارنة » ان الكتاب المصريين في فترة حكم الملك امينحوتب الثالث وامينحوتب الرابع (اخناتون) كانوا يجيدون اللغة الاكدية بلهجتيها البابلية والاشورية ٠ فكانوا يكتبون الرسائل بتفويض من الملك الى الملوك والحكام الاشوريين باللغة الاشورية ويذكر ايضا ان من ضمن الرقم الطينية التي تم العثور عليها في العمارنة جداول تمثل نصوصا تعليمية الهدف منها تدريب المبتدئين على القراءة والكتابة واعدادهم للعمل في هذا المجال مستقبلا ، كما تم الكشف على بعض التآليف الادبية التي كتبت في بلاد بابل وارسلت الى مصر ومنها نسخة لقصة ادابا ، نركال وايرشكيكال وقصة المعركة لسرجون الاكدي ، وذلك لتدريب الكتبة المصريين من المتعلمين على قراءتها وفهمها ٠

وعثر ايضا في الالاخ (تل العطشانة في سوريا) على رقم طينية تعود بتاريخها الى القرن الرابع عشر ق٠م من ضمنها معاجم لغوية تتضمن الكثير من المفردات والمصطلحات الاكدية ونصوص ادبية ، ويبدو ان الغاية من هذه النصوص هي تدريب الكتبة السوريين على تعلم اللغة الاكدية ٠

لقد اصبح الخط المسماري وسيلة للتدوين في الاراضي الفلسطينية ايضا ويتضح لنا من احدى الرسائل التي عثر عليها في تل العمارنة والمرسلة من

قبل احد الملوك الكنعانيين والتي تعود بتاريخها الى مطلع القرن الرابع عشر قبل الميلاد ان الكاتب الكنعاني استخدم اللغة الاكدية في كتابة هذه الرسالة وضمنها بعض المفردات الكنعانية التي كانت قريبة الشبه بالمفردات العربية .

وانتقل الخط المسماري في اوائل القرن التاسع قبل الميلاد الى منطقة اورارتو في ارمينية وقد عثر على مجاميع من الرقم الطينية المدونة بهذا الخط في تلك المنطقة وهي ذات مواضيع شتى منها عقود اقتصادية وادارية وقضائية وقسم منها يشبه الى حد كبير الرقم الطينية التي عثر عليها في الوركاء وبابل والتي تعود الى نهاية القرن الرابع ق.م وجاءتنا نصوص مدونة بالخط المسماري والخط الارامي وتعود بتاريخها الى القرن السابع قبل الميلاد واخيرا لابد لنا من التنويه الى ان الاغريق الذين سكنوا بلاد بابل في القرن الثاني قبل الميلاد حاولوا تعلم اللغة البابلية كما ارسلوا اولادهم الى المدارس البابلية وتدرب هؤلاء الطلبة على استنساخ بعض النصوص المكتوبة بالسومرية والاكدية وعثر المنقبون على نماذج من هذه الرقم الطينية ، تتضمن نصوصا تعليمية وكتبت على وجه الرقيم تمارين بالخط السومري والاكدي وعلى ظهر الرقيم ما يقابلها بالخط الاغريقي ، وهذا الصنف من النصوص المدرسية عبارة عن نسخ وضعت لغرض التدريس وتدريب المبتدئين على الكتابة واللغة .

لقد ساعد الخط المسماري واللغة الاكدية على انتشار تراثنا الثقافي والحضاري في الوطن العربي وفي معظم اجزاء الشرق القديم ، فقد انتقلت الكثير من المفاهيم والمعتقدات الدينية والنتاجات الادبية التي نشأت في قطرنا الى بلدان العالم القديم ونخص بالذكر عبادة الاله تموز حيث ظهر ما يشابهها في المعتقدات الخاصة بالاله بعل عند الكنعانيين والاله اوسيريس عند المصريين كما ورد ذكر هذا الاله في التوراة ايضا .

اما بالنسبة للاداب فقد انتقلت ملحمة كلكامش الى الحثيين والحوريين

واليونانيين ، وتدل الدراسات على ان ملحمة كلكامش ترجمت الى لغـــات اخرى كالحثية والحورية بدلالة العثور على بعض اجزائها في بوغازكـــوي عاصمة الدولة الحثية ، كما انتقل الكثير من الاساطير وقصص الملاحم التـــي تشيد باعمال الالهة وبمآثر ابطالهم الى بلدان الشرق القديـم •

وبالنظر لسعة معرفة العراقيين القدماء بعلم الفلك لذلك كان اليونانيون على اتصال دائم بالمعارف البابلية حتـــى ان كتابهـــم ذكروا اسـماء بعض الفلكيين البابليين وفي هذا المجال نستشهد بسترابون حينما قال :

كان اليونانيون يجهلون احتساب مدة السنة الحقيقية وامورا كثـيرة مشابهة ، حتى انتشرت لديهم ترجمات يونانية عن الفلك البابلـي فاخـذ الفلكيون المعاصرون ينهلون معلوماتهم وما زالوا يستقون من هذه المعلومات حتى اليوم •

لذلك كان الكثير من الرياضيين والفلكيين والفلاسفة اليونـان قـــد قصدوا العراق لينهلوا من ينابيع المعرفـــــــــــة •

كما انتقل الى بلاد اليونان علم الرياضيات فنجد ان الكثير من المبادىء التي كانت تعزى الى رياضيي اليونان مثل فيثاغورس واقليدس كان قد سبقهم اليها الرياضيون البابليون بالف عام ، فالبابليون في الالف الثاني قبل الميـلاد اول من وضع اسس القوانين الرياضية اذ لم تكن من اختراع رياضيي الاغريق بل ان ما قـام به علماء الاغريق هو اعادة اكتشافها بعد مضي فترة تزيد عن خمسة عشر قرنا على اختراعها • وهكذا نجد ان كتابات العراقيين القدامـى لم تكشف النقاب عن فكرهم وحسب بل عن انجازاتهم ومقوماتهم الحضارية ايضـــــــــا •

ولعل الكاتب السومري احسن حينما ذكر في احد النصوص :

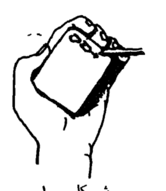
NAM. DUB. SAR RA AMA GÚ. DÉ. KE_4. E. NE
A.A. UM. ME. A - KE_4. ES

ان « الكتابة هي ام للخطباء واب للتلاميـــذ » .

الطين مادة الكتابة

ان ما يميز الكتابة التي اخترعها سكان وادي الرافدين ، هو اعتمادهـم على مادة الطين ، وقد استخدموا النوع النقي (الحر) من الطين الخالي مـن الشوائب كالاملاح والرمال والاعشاب . وكانوا يحصلون عليه اما مـن الشواطيء بعد انحسار الانهار ، او يقومون بتنقيته وصناعتـه بالشـكل المطلوب . وبالرغم من ذلك فقد وصلت الينا بعض الرقم تحمل مثل هـذه المواد الداخلية ، كما تم العثور على بعض الكتل الطينية من مدينة الوركـاء تحمل طبعة الشخص الذي قام بعجنها وتحضيرها لاجل استخدامها . وظلت مادة الطين مستخدمة للتدوين في العراق في جميع مراحل التاريخ ، كما شـاع اسـتخدامها لفترة محدودة في البلدان التي اتخذت الخط المسماري وسـيلة للتدوين ، كالعيلاميين والفرس والحثيين والاورارتيين ، وفي الوطن العربـي كسوريا وفلسطين ومصر ووصل استخدامها حتى جزيرة كريت .

اما طريقة الكتابة عليه فقد كان الكاتب يطبع العلامات المسمارية على الطين وهو مايزال طريا بواسـطة قلم مـن الخشـب او القصب مثلث الرأس (شكل ــ ١) فيقوم باملاء وجه الرقيم والحافة وبعد ان يجف الوجه يبـدأ باملاء الوجه الثاني (القفا) والحافة ايضا . وفي بعض الاحيان تكون الحافات خالية من الكتابة ، وبما ان مادة الطين تجف بسرعة لذلك وجب علـى الكاتب تدوين الرقيم كله قبل ان يجف الطين . اما اذا تعذر عليه ذلك خاصة بالنسبة

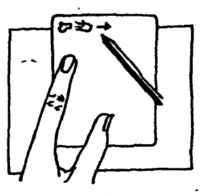


شكل ــ ١
كيفية الكتابة على الرقيم

الرقم الكبيرة التي يستغرق تدوينها فترة ليست بقصيرة ، فكان الناسخ يستخدم قطعة قماش رطبة يغطي بها الرقيم وقد وصلت الينا بعض النماذج من الرقم التي عليها طبعة قطعة القماش ، منها عقد اقتصادي من الموقع الاثري تل علي (الاسم القديم ناتماني Natamani الواقع بالقرب من الحويجة) ؛ واذا لم يكن الامر كذلك فلربما تمثل الطبعة طرف رداء لاحد الاطراف المتعاقدة كأن يكون الدائن او المدين او البائع او المشتري •

كما عثر على سدادات من الطين في اور ونمرود ونفر وغيرها تحمل كتابة وطبعات اختام يلاحظ فيها اثار القماش ايضا • وكان العراقيون يستخدمونها لختم فوهات الجرار لتوثيق محتوياتها • وتوجد بعض الرقم تحمل طبعة اصبع الكاتب التي تبدو واضحة على حافة الرقيم ، وتوضح كيف كان الكاتب يمسك بها عند الاستنساخ •

أما بالنسبة الى الرقم الكبيرة الحجم والتي من الصعوبة حملها بيد الكاتب فكانت حسب ما يذكر الاستاذ درايفر Driver في كتابه الموسوم « الكتابات السامية من الصورية الى الابجدية » توضع على مسند ، كأن يكون لوحا او طاولة من الخشب (شكل ــ ٢) وقد كشفت التنقيبات في بعض المواقع عن بقايا الواح خشبية مستطيلة الشكل مع ادوات مدرسية يعتقد انها استخدمت للغرض المذكور •



شـكل ـ ٢
وضع الرقيم على لوح أو مسـند

اشكال الرقم الطينية ومضامينها

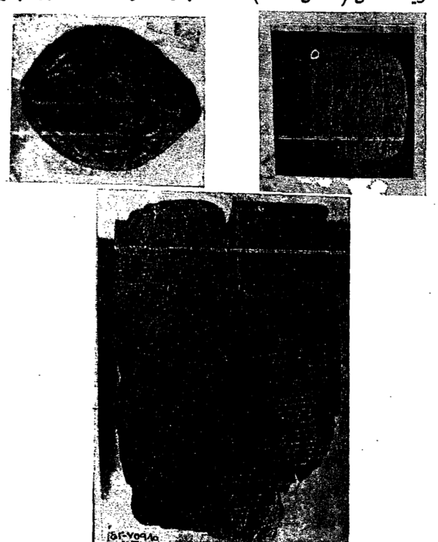
حصلنا على مجاميع كبيرة من النصوص المسمارية المدوّنة على الطـين ذات الاشكال والاحجام والمضامين المختلفة ،تقدر بمليون لوح ، محفـوظ قسم منها في المتحف العراقي ، والقسم الاخر نقل الى متاحف العالم ومعاهد الاثار من قبل المنقبين الاجانب الذين عملوا في العراق وبعضها في حيازة بعض الاشخاص الاجانب .

وما تزال فرق التنقيب الاثارية التي تعمل في المواقع الانقاذية والاحيائية والتنقيبية في مواقع شتى من قطرنا تكشف لنا عن المزيد من هـذه النصوص موسما بعد آخر ، ولايتسع لنا المجال للحديث بالتفصيل عن اشكال ومضامين جميع الرقم ، ولكن نكتفي هنا بالاشارة الى ابرزها .

سمي الرقيم باللغة السومرية بالمصطلح « دب dub » ويقابل ذلك باللغة الاكدية كلمة « طبو او تبو ṭuppu ، tuppu » اما اشـكال واحجام الرقم الطينية المكتشفة فتختلف حسب الفترات الزمنية والمواقـع ونوعيـة المضمون . وحسب معلوماتنا الحالية ان اصغر رقيم لايتجاوز حجمه ١ × ١ سم وهو عبارة عن وصل يحمل التاريخ الذي دون فيه الرقيم مع طبعه لختم وكتابة تشير الى مالك الختم . وقد عثر على هذا الرقيم في التنقيبات الاخيرة لفـرع الاثار في جامعة بغداد في (سبار ، بالقرب من المحمودية) وتوجد بعض الرقـم

الصغيرة التي تحمل سطرا او سطرين من الكتابة المسمارية تمثل وصـولات تسلم اكتشفت في بابل وتل الفخار بالقرب من كركوك ونينوى • واكبر الرقم لا يتجاوز حجمه ٥٠×٥٠ سم اما اشكال هذه الرقم فهي كالاتي :

١ ــ المربعة والمستطيلة وبعضها زوايا مستديرة او غير منتظمة وكذلك البيضوية الشكل (شكل ــ ٣) وهذه المجموعة ظهرت منذ العصور المبكرة.



شـكل ــ ٣
رقم باشكال واحجام مختلفة وتعود لفترات زمنية متباينة من ضمنها نص فلكـي

لاختراع الكتابة وكانت مسطحة الوجه ومحدبة الوجه الثاني (القفا) وعليها مضامين تبحث في مختلف شؤون الحياة اليومية نخص منها بالذكر العقود الاقتصادية والادارية والقضائية التي شملت حوالي٩٠٪ من مجموع النصوص المكتشفة لغاية الان . وتتناول معاملات البيع والشراء والايجار والرهن والقروض وعقودا تجارية ووصولات تسلم لكمية من المحاصيل الزراعية وبعض المعادن كالفضة والنحاس ، كما ان بعض مضامينها التفصيلية قدمت لنا معلومات عن اسماء الاعلام واصناف الحيوانات واسماء مدن ومواقع جغرافية وكما ان بعضا من العقود الاقتصادية تتعلق بالملكية الزراعية سواء منها مايخص بيع الحقول الزراعية القريبة من مصادر الارواء ام تلك التي تتناول تأجيرها . وفي ادناه اذكر ترجمة احد النصوص من العهد البابلي القديم ويعود الى زمن الملك « ابا لبيل الثاني Ibalpiel II (١٧٦٠ ق . م) الذي عثر عليه موخرا في مستوطن سليمة في حوض سد حمرين وهو خاص ببيع الحقول :

اشترى ابكوشا "Ipkuša" حقلا من خوبخي "Hubḫi"

ابن شاكي مانو "Šakimanu"

يقع الحقل بالقرب من قناة ماش ــ ماش "Maš - Maš"

ومحاذي لحقل نابي ايليشو "Nabi - ilišu" وابل كوبي "Apilkubi"

وقد دفع المشتري الى البائع ثمن الحقل بالفضة

تمت صفقة البيع برضاء الطرفين

وكتب العقد امام الشهود

ثم تاتي العقوبة المترتبة على كل من يخل بالعقد وهي :

اذا اخل احدهما بالعقد فعليه ان يدفع منين من الفضة الى الملك

ابالبيل ويسحب لسانه »

اما النصوص القضائية فتخص الاحوال الشخصية، كعقود الزواج والطلاق والتبني والارث وقضايا المحاكم وقد افادتنا في معرفة الكثير من العادات والتقاليد التي كانت سائدة في المجتمع آنذاك .

٢ ــ قرصية الشكل وهي نصوص مدرسية استخدمت لاغراض تدريب الطلبة على القراءة والكتابة وتضم علامة واحدة او اكثر في نفس الحقل واحيانا في حقول اخرى من نفس الرقيم مثال ذلك : مي ــ مي ، آ ــ آ ، دا ــ دى ــ دو ، اما النصوص الاخرى فتضم عبارات بسيطة متكررة ليتمكن الطالب من حفظها بسهولة وهذه النصوص على غرار القراءة الخلدونية للصف الاول الابتدائي . كما ان البعض منها يضم مقتطفات ادبية وعلمية وقانونية وتجارية كما هي في نصوص تل السيب وحداد في حمرين وتلول خطاب بالقرب من بغداد الجديدة وغيرها من المواقع الاثرية .

وتوجد نصوص تعليمية اخرى للمتقدمين في مراحل الدراسة حصلنا عليها من معبد نابو ــ شا ــ خاري في بابل وهي مستطيلة الشكل ومدونة عليها قوائم تعليمية وقسم منها مذيلة بما يعرف باسم الكولوفون ، تذكر الغرض الذي دون من اجله الرقيم ووجه اهدائه كأن يكون الى المعبد او الاله ومثال ذلك :

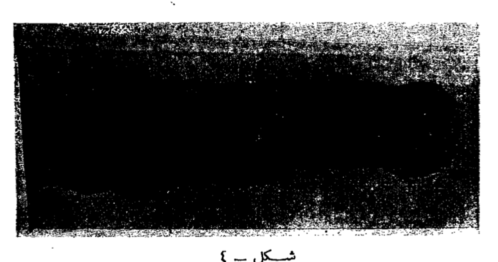
فلان ابن فلان
لاجل حياته ونجاحه في المدرسة
لحفظ جسمه وعقله .. الخ
كتب هذا الرقيم ووضع في معبد نابو ــ شا ــ خارى

ان هذه الرقم التعليمية اكدت لنا بأن وظيفة هذا المعبد لم تقتصر على الجانب الطقوسي فحسب ، وانما تكريس المكان للاغراض التعليمية في الوقت

نفسه ، انطلاقا من وظيفة المعبد في وادي الرافدين كمؤسسة دينية ودنيوية ساهمت في شتى مجالات حياة مجتمعاتنا القديمة الاقتصادية والاجتماعية والادبية والتعليمية .

بالاضافة الى ذلك هناك معاجم لغوية ظهرت منذ العهد البابلي القديم واستخدمت لتدريب الكتبة والمتعلمين على اللغة السومرية ، اذ كانت تضم كثيرا من المفردات والمصطلحات والجمل باللغة السومرية والى جانبها معناها باللغة الاكدية وقد عثرنا على نماذج كثيرة نخص منها بالذكر المجموعة التي وجدت مؤخرا في « بيت الكاهن » في مدينة آشور وتعود الى العهد الاشوري الحديث .

٣ ـ كروية الشكل (كرات طينية) ومثقوبة من الوسط تستخدم للتعليق (شكل ٤) قسم منها يمثل وصولات تخص تسلم مواد معينة والقسم الاخر عليه اسماء اشخاص ظهرت منذ العصر السومري القديم ، كما وجدت



شكل ـ ٤

كرات طينية (بلل) تمثل وصولات تسلم عثر عليها في تل حرمل وتعود بتاريخها الى العهد البابلي القديم (الالف الثاني ق.م)

افراص لمغازل دائرية الشكل مدونة ببضعة اسطر من الكتابــة المسماريـــة وجدت في مواقع مختلفة منها تل حرمل والديــــر •

٤ ــ مثلثة الشكل عليها ثقوب لغرض التعليق وتستخدم كبطاقات تعريفية مدونة ببضعة اسطر من الكتابة تبين مضمون الرقم التي كان يتم حفظها علــى رفوف قسم منها يحمل طبعات اختام ايضا ، وقد عثر على نماذج منها فــي احدى الغرف في سبار ، كما عثر في الاونة الاخيرة في مدينة لارسا على مثــل هذه البطاقات مع اكياس الصاغة وقسم منها يحمل نصوصا تعويذية •

٥ ــ مجسمات فخارية باشكال آدمية وحيوانية معظمها وجد داخل جرار من الفخار كانت توضع في زوايا الابنية ، عليها نصوص سحرية او تعويذيــة او تستخدم للتبرك والصلاة ، اما بعض العبارات المدونة فهي :

« اخرج ايها المرض الخبيث وادخلي ايتها العافية » •

« اخرج ايها الشيطان الخبيث وادخل ايها الملاك الطيب » •

« اخرج ايها المــوت وتعالــي ايتهــا الحيــــــاة » •

وقــد وجدت هذه المجموعة في مواقع كثيرة لفترات زمنيــة مختلفة منهـــا الوركـــاء ، نفــر ، بابـــل ، آشـــور ونمـــرود •

٦ ــ اسطوانية الشكل (شكل ــ ٥) وقد آلــت الينا نماذج بمختلف الاحجام وعليها حقلان او عدة حقــول من الكتابة وجد القســم الاعظـــم منها في بواطن واسس الجدران كالمعابد والقصور والاسوار وغيرهــا مـــن المنشآت قدمت لنا نصوصها معلومات عن الاعمال العمرانية والعسكرية التي قام بها الملوك منها اسطوانة تمثل حوليات الملك الاشــوري سنحاريب ٧٠٤ ــ ٦٨١ ق •م) عثر عليها في نينوى ، ومنها ما يثبت الاعمال العمرانية للملوك

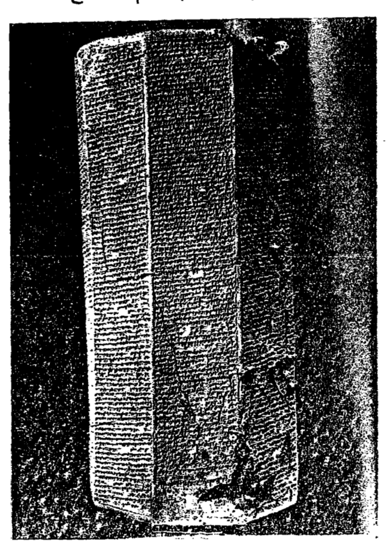


شكل ـ ٥
اسطوانة من الطين تتضمن كتابات لتعليم تلفظ اللغة وجدت في تل حرمل ويقدر زمنها من بداية الألف الثاني قبل الميلاد

كبناء المعابد والقصور او تجديد المعالم البنائية الرئيسة في العواصم والمدن ومن هذه النصوص ما عثر عليه في التنقيبات الاخيرة للمؤسسة العامة للاثار والتراث في شارع الموكب في بابل وتعود الى الملك نبوخذنصر الثاني (٦٠٥ ــ ٥٦٢ ق ٠ م) الخاصة بالتعليمات

الثلاث لشارع الموكب حيث يعطـــي المدون تفصيـــلا عـــن ارتفاعـات كل تعلية ، وهذه المادة الجديدة تفيدنا كثيرا في دراسة الجانب العماري لهذا الشارع ، والابنية المحاذية له لمعرفة ادواره البنائيـــة .

٧ ــ منشورية الشكل (شكل ــ ٦) وتضم ٨ اضلاع منها المنشور الذي

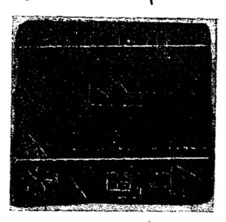


شـكل ــ ٦

عثر عليه بالقرب من زقورة ادد في آشور ويعود الى الملك الاشوري تجلاتبليزر الاول (١١١٥ — ١٠٧٧ ق٠م) ويحمل ٧٠٠ سطر من الكتابة المسمارية مبرمجة في اعمدة • اما مضمون هذا المنشور فيتناول الحملات العسكرية للملك المذكور وما تحقق عن تلك الحملات من انتصارات عسكرية على اعدائه ، وكذلك ذكر لعدد من المعابد التي قام بانشائها او تجديدها في مدينة آشور ، وهناك منشور آخر يحمل ٨٢٨ سطرا من الكتابة استخدم لتدوين القوانين الاشورية • وتوجد اشكال اخرى سداسية الشكل وذات (١٠) اطلاع ومعظمها تعود الى الفترة الاشورية • وكانت مثل هذه الاشكال تستوعب نصوصا مطولة بحيث انها تضاهي حجم كراس او كتيب •

٨ — مخروطية الشكل دون فيها نصوص تذكر اسم الملك والقابه وبناءه المعبد الذي وضع فيه مثل هذه الوثيقة التاريخية والاثرية ، وقد وصلت الينا نماذج منها من فترات مختلفة منها مخاريط وجدت في لكش وتعود الى زمن كوديا حوالي (٢١٤٤ — ٢١٢٤ ق٠م) •

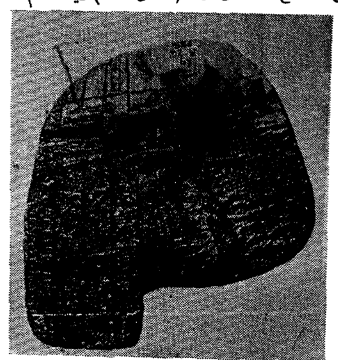
٩ — طابوق (آجر) منقوش او مختوم بكتابات مسمارية (شكل — ٧) تتضمن نصوصا بنائية وتذكر اسم الملك وهذه الآجرات على اشكال مختلفة



شكل — ٧
طبعة آجر تعود الى الملك الأكدي نرام — سين

وكتابات متباينة بالنسبة للعصور والازمنة منها الآجر الذي عثر عليـه بكميات كبيرة في بابل ويعود الى الملك نبوخذنصر الثاني من العهد البابلـي الحديث ومنها آجـر عليه نص تاريخي يعود الى الملك آشـور بانيبال (٦٦٨ ــ ٦٢٦ ق٠م) يخص توسيع ساحة معبد الاله نركال في مدينة سرارا عثر عليه في موقع تـل حـداد في حمريـــن ٠

١٠ــ اشكال مختلفة تحمل كتابة ، منها نموذج لرئة حيوان عليها كتابات ورسوم توضح مواضع معينة من الرئة (شكل ــ ٨) ويستخدم هذا الاثـــر



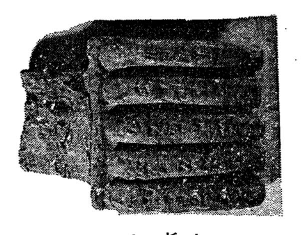
شـكل ــ ٨
نموذج لرئة حيوان عليها كتابة تستخدم للفأل

لقراءة الفأل عثر عليه في نمرود ويعود الى العهد الاشوري الحديث ، ونموذج آخر يمثل كبد الحيوان المضحى ويتناول فحص الكبد بطريقة الفأل يعود الــى الملك دادوشـا حوالي (١٨٠٠ ق٠م) من العهد البابلي القديـم ويحدثنـــا النــص :

« الجانب الايــــمن مــن المعـــدة غامــق اللــــون
القلب يقـــع في الجانب الايســــر غامـــق اللــــون
الاحشـــاء الملتويـــة عددهـــا ١٤ ٠ ٠ ٠ ٠ الـــــخ
النصـــــر لـــــي »

ثم ياتي اسم العراف والشهر الذي اعتلى فيه الملك دادوشا الغرش وفي الخاتمة يذكر الكاتب : « تم عمل هذا النموذج خلال حكم الملك دادوشا » .

بالاضافة الى اشكال اخرى من الطين تمثل ايادي حيوانات مكتوبـــة بالمسمارية من المحتمل انها تمثل يد الالهة عشـتار عثــر عليها في نمـــرود (شـــكل ــ ٩) ووصلت الينا خرائط مرسومة على الواح من الطين عليهـــا الانهار والبحار واقدم خارطة تعود بزمنها الى الالف الثالث ق٠م وخرائـــط اخرى منها خارطة نفر وتعود الى الالف الثاني ق٠م وخارطة بابـــل وسبار وغيرهـــــــــــا .



شـــكل ــ ٩
يد عشـتار عليها كتابة تعود للملك آشور ناصربال الثاني (٨٨٣ــ٨٥٩ ق٠م)

مواد اخرى متنوعة

بالاضافة الى مادة الطين استخدم العراقيون مواد اخرى للكتابة مثل :

١ ــ الحجر بانواعه المختلفة منها على سبيل المثال : صنارات من الحجر نقشت بكتابة بنائية اسماء الملوك الذين شيدوا المعابد الوارد ذكرها في الكتابات وجدت في مواقع مختلفة وتعود لفترات زمنية متباينة منها اور ونفر •

بطات وزن من حجر الديورايت الاسود باحجام مختلفة عليها كتابة تذكر مقدار وزنها ، اضافة الى عيار ذي شكل هرمي تشير الكتابة الى وزنه ايضا وجد في اور ويعود الى مطلع الالف الثاني قبل الميلاد •

٢ ــ رؤوس صولجانات من الحجر كانت توضع في المعابد تذكر الكتابة المنقوشة عليها اسم الملك ، اكتشفت في اور وخفاجي وغيرها •

٣ ــ تماثيل معمولة من حجر الديورايت الاسود مثل تمثال كوديا بحدود (٢١٤٤ــ ٢١٢٤ ق•م) حاكم مدينة لكش جالس على كرسي وفي مقدمة التمثال كتابة تذكر ان كوديا قد شيد معبدا للاله ننكرسو اله مدينة لكش من العهد السومري الحديث •

٤ ــ مسلات من الحجر (شكل ــ ١٠) منها مسلة حمورابي (١٧٩٢ ــ ١٧٥٠ ق•م) المشهورة نقشت على حجر الديورايت الاسود باربعة الاف سطر من الكتابة المسمارية (شكل ــ ١١) وتحمل ٣٠٠ مادة قانونية مكتوبة باللغة البابلية وتعد هذه الشريعة اول عمل قانوني منظم عالج مجالات متعددة ترتبط بواقع الوجود الاجتماعي البابلي القديم بهدف سيادة القانون والعدل لحماية الضعيف • ومسلة النصر للملك دادوشا حوالي ١٨٠٠ ق•م من العهد البابلي القديم وهي من حجر



شكل ــ ١٠
مسلة تعود الى الملك الآشوري ادد ــ نيراري الثالث
تذكر اعماله السلمية والحربية عثر عليها في تل الرماح

الكلس وجدت بالقرب من موقع تل اسمر في منطقة ديالى نقش
جانبا المسلة بـ ١٧ حقلا من الكتابة المسمارية وتضم هذه الحقول ٢٢١
سطرا وتذكر الاعمال العسكرية التي قام بها الملك ، ووصفا للمعركة
التي دارت بينه وبين العصاة وانتصاره في اليوم العاشر من المعركة على
خصمه « بونوعشتار Bunu - Ištar » واحجار غير منتظمة منقوشة



شكل ــ ١١
مسلة الملك البابلي حمورابي (١٧٩٢ ــ ١٧٥٠ ق . م)

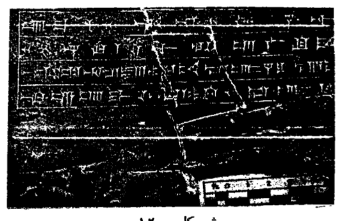
برموز الهة مختلفة ، وتعرف مثل هذه الاحجار باللغة الاكدية باسم Kudurru كودورو » اي احجار الحدود وهي عبارة عن رواقم تركز في الارض لتعيين الحدود بين مقاطعة واخرى ، ويوضع بعضها في المعابد كوثيقة لحقوق مالك الارض وتذكر اسم المالك وموقع قطعة الارض وعليها الادعية والتراتيل الدينية .

بالاضافة الى ذلك كتبوا على الاحجار الكريمة وشبه الكريمــة كالعقيق واللازورد والاخات وغيرها مثل الاختام الاسطوانية التي تشير الكتابة عليهــا الى مالكها،ودلاية من الفيروز على شكل شبه معين غير منتظم مدون على احد اوجههــا كتابة تعود الى الملك نينورتا ابل ايكور "Ninurta Apal Ekur" (١١٨٢ ــ ١١٥١ ق٠م) وخرزة من العقيق اليماني تشبه في شكلها عين القط عليها كتابة نذرية تعود الى الملك ادد ابلا ادنا "Adad - Apla - iddina" (١٠٦٧ ــ ١٠٤٦ ق٠م) احد ملوك بابل ومهداة الى الاله مردوخ ٠

واستخدم الكتبة الاشوريون مادة العاج بنطاق قليل وقد وصلتنا بعض النماذج مدونة بالخط المسماري منها تمثال صغير يعود الى الملك آشور ناصربال الثاني (٨٨٣ ــ ٨٥٩ ق٠م) عثر عليه في نمرود يحمل ثلاثة اسطر من الكتابة تذكــــر :

قصــر اشــور ناصــر بــال ، ملك العالم ، ملك الاشــوريين
ابــن توكلتــي نينورتــا ، ملك العالم ملــك الاشوريـــين
ابــن ادد نيراري ، ملــــك العالــم ، ملــك الاشوريـــين

وصحيفة من العاج نقشت باربعة اسطر من الكتابة تذكر اسم الملك الاشــوري سرجون (٧٢١ ــ ٧٠٥ ق٠م) وجدت في نمرود (شكل ــ ١٢) وعثر علــى



شــكل ــ ١٢
لوح من العاج عليه كتابة تعود الى الملك الآشوري سرجون (٧٢١ـ٧٠٥ ق٠م)

الواح من العاج في نمرود مستطيلة الشكل ومتصلة مع بعضها باسلاك من النحاس وتؤلف بمجموعها ما يشبه الكتاب (شكل ــ ١٣) • ويجب ان ننوه هنا بأن المصريين صنعوا الكتب ايضا عن طريق استخدام ورق البردي في الكتابة ، في حين اتجه العراقيون الى تدوين محتويات الكتب على هيئة سلسلة من الرقم كما حصل ذلك بالنسبة لقصة الخليقة وكلكامش وقانون حمورابي وغيرها •

كما وصلت الينا كتابة مدونة على بعض المعادن كالنحاس ومنها الاسطوانة التي تعود الى الملك نور ادد (١٨٦٥ ــ ١٨٥٠ ق٠م) احد ملوك سلالة لارسا تحمل نسبه واعماله وجدت في مدينة لارسا • وعلى البرونز ومنها تماثيل وجدت في اور ومواقع اخرى وهي على هيئة انسان واقف على قاعدة او ينتهي نصفه الاسفل بما يشبه المسمار حاملا على رأسه سلة تحوي التراب رمزا للمباشرة ببناء معبد جديد ، وتشير الكتابة المدونة عليها الى اسماء الملوك وألقابهم واسم الاله المقام لاجله المعبد • وكانت مثل هذه التماثيل توضع في اسس الابنية •



شكل ــ ١٣
الواح من العاج مستطيلة الشكل ومتصلة مع بعضها بأسلاك وتؤلف بمجموعها ما يشبه الكتاب وجدت في نمرود

وعثر في قرية باسطكي في محافظة دهوك على الجزء الاسفل من تمثال معمول من البرونز يعود الى عهد الملك الاكدي نرام سين (٢٢٩١ ــ ٢٢٥٥ ق٠م) وهذا التمثال يمثل شخصا جالسا على قاعدة وبجانبه لوح مكتوب بالمسمارية يشير الى اسم الملك نرام سين واعماله ٠

ولعل من المفيد هنا ان نتطرق الى ابرز اثر فريد في نوعه من البرونز وهو بشكل هلال وجد اثناء تنقيبات المؤسسة العامة للاثار والتراث في المواسم الاخيرة في مشروع احياء مدينة بابل نقش بسطرين من الكتابة المسمارية ويشير النص الى ان احدى النساء التي لاتنجب اهدت هذا الاثر الى الهة الحمل ايروا "Erua" المعروفة باسم شيروا "Šerua" ايضا بهدف مساعدتها على الحمل ٠

وجاءتنا بعض النصوص مدونة على الفضة كالاواني والرقم منها اللوح الذي يعود الى الملك اورلوما "Ur Lumma" ملك مدينة اوما ، وجد في تلول ام العقارب بالقرب من الناصرية ويعود بتاريخه الى منتصف الالف الثالث قبل الميلاد ويحمل كتابة تخص الاعمال التي قام بها والرقم الاخرى تعود الى الملك الاشوري اشور ناصر بال الثاني (٨٨٣ ــ ٨٥٩ ق٠م) وتوكلتي ننورتا الاول (١٢٤٤ ــ ١٢٠٨ ق٠م) عثر على البعض منها في تل بو مارية بالقرب من الموصل والبعض الاخر في اسس معبد الالهة عشتار والاله اشور في مدينة اشور وكانت هذه الرقم محفوظة داخل انية او داخل صندوق من حجر الكلس ووجدت معها مجموعة من الرقم المعمولة من الذهب والمدونة بالكتابات المسمارية وتعود الى الملوك الاشوريين وجميعها تحمل عبارات بنائية تذكر اسم الملك والاله المقام له المعبد وهذه الرقم صغيرة الحجم اكبرها قياسه ٥ر٤ × ٣ سم وحافاتها محدبة وزواياها مدورة وحسب المعلومات المتوفرة لدينا ان مجموع الرقم من الفضة (٨) والمعمولة من الذهب (٨) وجميعها نقلت في حينه الى خارج العراق عن طريق المنقبين الاجانب ومحفوظة

حاليا في جامعة ييل في الولايات المتحدة الامريكية والمتحف البريطاني في لندن ومتحف برلين في المانية الديمقراطية ما عدا رقيم واحد من الفضة محفوظ في المتحف العراقي • كما توجد خرز صغيرة معمولة من الذهب ومنقوشة بكتابة ايضا منها ما عثر عليه في معبد ننخرساك في العبيد وتعود الى الملك آني بدا (٢٤٥٠ ق•م) ملك اور وانية من الذهب منقوشة بالكتابة المسمارية تم الكشف عنها في المقبرة الملكية في اور وفي مدينة نمرود •

ان معظم اللقى الاثرية التي تحمل كتابة مسمارية ، والتي اشرنا اليها معروضة في قاعات المتحف العراقي ، اما البقية فمعروضة في متاحف العالم الشهيرة •

واخيرا لابد لنا ان نذكر ان هناك احتمالا لقيام العراقيين باستخدام الخشب للكتابة فقد ورد في احد النصوص من العهد الاشوري الحديث ذكر لنصوص كتبت على خشب الارز واخشاب اخرى ، كما جاء في كتابات الملك سرجون الاشوري (٧٢١ ـ ٧٠٥ ق•م) لاول مرة ذكر للكتابة على الجلود كما تدل على ذلك ايضا الصور الممثلة على المنحوتات الاشورية التي يظهر فيها كاتبان احدهما يحمل رقيما طينيا والاخر قطعة من الجلد •

المدارس

لايعرف بالضبط متى بدأ نظام المدارس في العراق القديم ، وتشير المعلومات الواردة في النصوص ، الى ان المدرسة كانت معروفة منذ بداية استخدام الكتابة وسيلة للتدوين (الالف الثالث قبل الميلاد) ولربما هناك فترة تسبق الفترة التي نتحدث عنها ولكن لم تصل الينا ادلة اثرية تؤكد ذلك•

يضم المتحف العراقي اعدادا كبيرة من الرقم الطينية التي تعود بتاريخها الى الفترة السومرية والفترات اللاحقة لها والمدونة بنصوص مدرسية ، وهي

تلقي الضوء على استخدامها لتدريب الطلاب المبتدئين • كما وردت في نصوص اخرى اشارات الى وجود المدرسة منذ العهد السومري كمؤسسة تعليمية بعضها امثلة او نصوص خصصت للاشادة باهمية المدرسة ومن هذه النصوص حزورة سومرية وهي كالاتي :

بيت باسس كالسماء
البيت الذي يشبه وزة واقفة على قاعدة متينة
يدخلها المرء بعيون مغلوقة
ويخرج منها بعيون مفتوحة
فما هي : الحل ـ المدرسة •

اطلق السومريون على المدرسة المصطلح (اى ـ دبا) é - dub - ba « اي بيت الالواح » ويقابلها في اللغة الاكدية (بيت طبي bīt ṭuppi) اما التلميذ فكان يعرف باسم (Dumu é - dub - ba) اي « ابن بيت الالواح » ومدير المدرسة او ناظرها يسمى اوميا Ummia وتعني الاستاذ اي رئيس الصنعة والحرفة وتقابل الاسطة في مفهومنا الحالي لان المدرسة كانت بالدرجة الاولى ذات هدف حرفي وهو تعليم اصول الكتابة اكثر مما هي مؤسسة اكاديمية ، وكان يديرها جماعة من الكتبة (مثل الكتاتيب) ، يقومون باعداد وتدريب المبتدئين لقاء اجور معينة ومنهم « الاخ الكبير » (šeš - gal) الذي ورد ذكره كثيرا في النصوص المسمارية والذي كان من الطلبة المتقدمين في الدراسة ويقوم بمساعدة الطلاب الجدد في تحضير واجباتهم اليومية •

وكانت المدارس في العصور المبكرة جزءا ملحقا بالمعابد وهي اشبه ما تكون بمؤسسة دينية لتدريب الكهنة والاشخاص الذين يلتحقون بوظائف الكتبة في خدمة المعابد والقصور غير انه وبمرور الزمن ونتيجة لانتشار الكتابة

والمعارف والعلوم انتشرت المدارس بشكل واسع . خاصه في بدايـــه الالف الثانـــي قبـــل الميـــلاد ، أي في العهـــد البابلـــي القديـم حيث ظهـــرت المدارس الرســـمية التـــي كانـــت تحت اشـــراف الدولـــة والمعبـــد ايضـــا ، وكان البعض منهـــا ملحقـــا بالقصـــور والبعض الاخر بالمعابد ، كما ان هناك بيوتا خاصة استخدمت كمدارس للتعليم كما هو الحال في مدينة نفر حيث وجدت ٣ بيوت سكنية الواحـــدة مجاورة للاخرى عثر فيها على مجاميع من الرقم الطينية من ضمنها مجموعة مـــن النصوص المدرسيه ، وفي مدينة اوروك في منطقة قصر سين كاشد وجـــدت مجاميع من النصوص المدرسية وكذلك في معبد اي ــ انا في الوركاء .

ومن الاماكن المعروفة التي ظهرت فيها المدارس في العصر البابلي القديم هي اور ، كيش ، لارسا ، سبار ، ادب ، كيسورا ، تـــل حرمل ، تل الديـــر وماري بدلالة العثور على مجاميع من النصوص المدرسية في هذه المواقـــع : قسم منها وجد في القصور مثلا في لارســـا في قصر الملك نور ادد والقســـم الاخر في المعابد في تل حرمل وغيره . وفي الاحياء السكنية في بيت امكيـــل ســـين .

كما وجدت ابنية يستدل من ترتيبها انها كانت مدارس ففي ماري عثر في احدى القاعات في القصر الكبير على صفوف المصاطب مشيدة باللبن وعثـــر بجانبها على ادوات مدرسية واحواض مياه كانت تستخدم مـــن قبل الطلبة لتحضير الرقم الطينية . ولعل خير ما يمثل المدرسة تلك البناية التي عثرت عليها المؤسسة العامة للاثار والتراث مؤخرا ففي تنقيبات تل السيب (حوض حمرين) تم العثور على بناية ، كان القسم الذي يشغل من قبل الطلاب عبارة عن ساحـــة مربعة الشكل تقريبا يحيطها من ثلاث جهاتها صفان من الطابوق ومستواهـــا بمستوى الارضية اضافة الى وجود دكتين احداهما دائرية الشـــكل لجلوس الاستاذ مستطيلة الشكل ربما تكون لمساعدة الشيشكال (الاخ الكبير) وجد

في جانب الاخيرة وعلى الارضية مجموعة من الرقم الطينية يتجاوز عددهـــــا مئتي رقيم مرتبة بشكل منتظم ومغلفة بطبقة من الطين ومادة عازلة تضم بعض الرقم مما كان مقررا لكل دارس من المواد الغذائية كالحبوب وغيرها وهـــذه البناية الحقت بها مجموعة من الابنية المتصلة مع بعضها ربما كانت محلا لاقامة الطلبة او ربمـــا كانت حـــي الكتبـــة .

ولدينا ادلة كثيرة تشير الى ان المدارس الملحقة بالمعابد اغلبها كانت فـي المعابد المكرسة لعبادة الاله نابــو اله الكتابة والقلم والــه الحكمة والمعرفـة وعلى سبيل المثال معبد اي ــ زيـدا الذي كان مكرسا لعبادة الاله نابــو في بور سيبا حيث وجدت فيه مجاميع من النصوص المدرسية والنصوص الخاصة بالترانيم والتراتيل الدينية وغيرها ، ومعبد الاله نابو في مدينة نمرود فـان معظم النصوص التي جاءتنا كانت من منطقة المعـبد او المنطقة القريبة منـــه وعلـى وجه الخصوص الغرف التي كان يسكنها كتاب المعبد ، وقد وجـدت الرقم مصنفة حسب مواضيعها الى (٥) اصناف وهي نصوص الفأل ، نصوص خاصة بالفلك ، نصوص دينية وتضم التراتيل والتعاويذ والصلوات والادعية، ونصوص مدرسية قسم منها يضم تآليف ادبية والقسم الاخر نصوص معجمية ، ورقم ذات مضامين مختلفة ومن ضمن الرقم رقيم يضم فهرست للرقم المحفوظة مدون عليه مضامين الرقم .

ومعبد الاله نابو ــ شا ــ خاري في بابل الذي عثر فيه على اكثر من ثلاثة الاف رقيم طيني ومعظمها نصوص تعليميـــة .

لم يقتصر التعليم في المدارس العراقية القديمة على تعلم الكتابة المسمارية واللغتين السومرية والاكدية بل ان هناك فروعاً مهمة من العلوم والمعارف كانت مـن المواضيع التـي تدرس للطلاب وخاصة للطلبة المتقدمين الراغبين فـــي

تكملة تحصيلهم العلمي منها الرياضيات ، الادب ، الموسيقى ، الفلك ، والطب والقانون وكانوا يتلقون مثل هذه العلوم في معاهد عالية خاصة اشبه ما تكون بدور العلم والحكمة ، وقد جاء في بعض النصوص الكتابية ذكر لوظائف بعض الاساتذة المختصين في مثل هذه الفروع منهم استاذ الهندسة والحساب والرياضيات والموسيقى بالاضافة الى الشعراء والادباء • اما التعليم فكان مقتصرا على الطبقة الغنية وكان آباء معظم الكتبة من الحكام والامراء وكبار موظفي الدولة ومن طبقات الكهنة وغيرهم وذلك بالنظر للكلفة الباهضة والفترة الطويلة التي يستغرقها التعليم •

وبالرغم من ان معظم المتعلمين كانوا من الذكور الا ان المرأة كان لها ايضا حظ ولو قليلا في التعلم فظهرت بعض الكاتبات الجيدات ومعظمهن كن من الكاهنات من صنف الناديتو وبنات الامراء والملوك •

حفظ الوثائق ونظام المكتبات

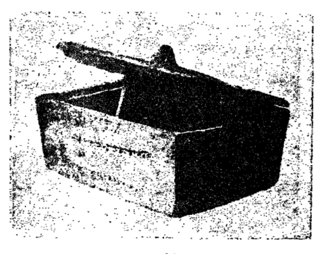
كانت الرقم تحفظ في سلال معمولة من الطين والقصب،ويوضع معها بطاقة تعريفية بموجب موادها المختلفة • وقد وجدت نماذج منها في تل قوينجق (في الموصل) وتل حرمل (بالقرب من بغداد الجديدة) • ويتم نقل الرقم الى مسافات بعيدة بواسطة السلال ايضا ، حيث جاء في احدى الرسائل التي عثر عليها في اشور والعائدة الى التاجر الاشوري انليل باني الذي كان مقيما في كانيش في الاناضول والمرسلة الى اخته يطلب فيها ان تبعث له جميع الرقم العائدة اليه والخاصة بالصفقات التجارية الى هناك وقد تم نقلها فعلا من اشور الى كانيش بواسطة السلال ، كما حفظت الرقم داخل جرار فخارية (شكل ــ ١٤) • وقد عثر في كيش على جرار مكسورة مرتبة حول جدران



شكل ـ ١٤
حفظ الرقم داخل جرار وجدت في كيش

بعض الغرف ، وفي داخل البعض منها مجموعة من الرقم صنفت حسب مضامينها كالنصوص القواعدية والدينية واللغوية وغيرها لذا فقد عرف مخزن حفظ الرقم باسم (جرة رقم) والموظف المسؤول عنها باسم (ابن جرة الرقم) •

وحفظت الرقم داخل صناديق من الطين ذات اغطية مدون عليها من الخارج عنوان الرقم (شكل ـ ١٥) • وفي البعض الاخر وضعت بطاقة تعريفية



شكل ـ ١٥
حفظ الرقم داخل صناديق معمولة من الطين

بمحتوياتها وكانت مثل هذه الصناديق تودع في ذمة شخص لقاء مبالغ تدفع له عرف باسم (رئيس او مدير صندوق الرقم) ومن المحتمل ان مثل هـــذه الصناديق استخدمت مقام خزانات الاضابير والسجلات المستخدمة في عصرنـا الحاضـــــر •

وكانت الرقم تودع في كوة داخل الجدران ايضا وقد تـم العثـــور في التنقيبات الاخيرة للمؤسسة العامة للاثار والتراث في بيت الكاهن في آشـــور على نصوص ادبية معجمية واللوح الرابع من قانون حمورابي داخـل تلـــك الكـــوة •

اما المجاميع الكبيرة من الرقم فكانت تحفظ في اماكن خاصة سميت باللغة السومرية « أي ــ دبا "é - dub - ba" » وباللغة الاكديـــة "bītṭuppi" وتعني (بيت الرقم) علما بأن المدرسة سميت بهذا الاسم ايضا •

كمـا ورد في النصوص المسمارية ذكر لبعض البيوتات التي كان يحفـظ فيها ارشيف الرقم عرف باسم (بيت الوثائق) لربما كان هـــذا البيت يشبه (مركز او قسم حفظ الوثائق) في الوقت الحاضر • وكان يقوم بادارته موظف عرف باللغة الاكدية بالاسم "šandabakku" اي امين الارشيف (الوثائق) •

وفي اواخر القرن السابع قبل الميلاد حفظت الرقم الخاصـــة بالشؤون التجارية في المصارف ومنها المصرف التجاري المعروف باسم « اكيبي واولاده » وكان يتم حفظ الرقم في البيوت السكنية ايضا ، خاصة بيوت الكهنة والكتاب والتجار او لدى اشخاص معينين بدلالة العثور في منطقة شمشارة في قضـاء رانية في احد البيوت على مجموعة من الرسائل الشخصية المتبادلة مع الملـــك الاشوري شمشي ادد الاول (حوالي ١٨٠٠ ق•م) اما بالنسبة الى الوثائـــق والعقود الرسمية الخاصة بالمعبد او القصر فكانت تحفظ في مكان خاص ملحق بهما ويقوم بادارتهما رئيس يكون من كبار موظفي الدولة ونود الاشارة في هذا

المجال الى رسالة الملك حمورابي المعنونة الى سين ادنام حاكم مدينة لارسة يذكر فيها « من اجل فض النزاع حول قطعة ارض راجع الوثيقة المحفوظة في القصر وسوف تفيدك كثيرا في حسم القضية » .

ومن هذا يتضح لنا بأن الوثائق الرسمية والقانونية كانت تحفظ في القصر . اما النصوص المدرسية او الخاصة بالطقوس والتراتيل الدينية فكانت تحفظ في المعابد والمدارس حيث عثر على مجاميع منها في معبد الاله اي ــ زيدا المكرس لعبادة الاله نابو « اله الكتابة والمعرفة » في مدينة نينوى وكذلك في معبد نابو ــ شا ــ خاري في بابل وحفظت الرقم في رفوف موازية للجدران حيث تم العثور في التل الابيض في عقرقوف على مجموعة من الرقم منضدة على الرفوف الواحدة بجانب الاخرى والبعض الاخر موضوعة الواحدة فوق الاخرى على غرار نظام ترتيب الكتب في المكتبات في عصرنا الحاضر ، وكانت مثل هذه الرفوف تغطى بحصير او تطلى بطبقة من القار لمنع تسرب الرطوبة الى الالواح .

وعثر ايضا في احدى الغرف في الموقع الاثري سبار على صفوف من الرقم الطينية وضعت على رفوف وربطت معها بطاقة تعريفية بواسطة حبل مبروم معمول من بعض الالياف النباتية .

وهكذا الحال في الوركاء ونفر وكيش وفارة وغيرها من المواقع . ربما كانت هذه بمثابة مكتبة او مركز لحفظ الرقم . الا ان اهم واكبر المكتبات هي المكتبة الملكية الغنية عن التعريف وهي مكتبة الملك الاشوري اشور بانيبال (٦٦٨ ــ ٦٢٦ ق.م) والتي تعتبر اول مكتبة منظمة وجدت في الشرق الاوسط ، تم الكشف عنها من قبل البعثة البريطانية التي كانت تنقب في مدينة نينوى وللاسف فقد نقلت في حينها الى لندن وتمثل الان اهم الكنوز المعروضة في المتحف البريطاني في لندن . ضمت هذه المكتبة ما يقارب (٢٥) الف رقيم طيني بالاضافة الى اعداد كبيرة من الكسر وهذه الرقم ذات مضامين مختلفة

منها ما يتعلق بالامور الدينية كالقصص والاساطير والملاحم والادعية والتراتيل الدينية ومنها ما يخص العلوم كالطب والكيمياء والرياضيات وعلم الفلك والتنجيم والتاريخ والجغرافية والبعض الاخر معاجم لغوية دونت باللغتين السومرية والبابلية ، قوائم باسماء الالهة والمواد بشتى انواعها ، قوائم باسماء البلدان والمدن والجبال والانهار والطيور والنباتات وغيرها كثير. وكانت المكتبة تضم اعدادا كبيرة من الرقم التي كانت موجودة في المدن الاخرى . اما كيفية جمع هذه الاعداد الكبيرة من الرقم من قبل الملك اشور بانيبال فيذكر انه كان يبعث بكتاب البلاط الاشوري يجوبون البلاد لغرض جمعها ، كما انه جند عددا كبيرا من الكتاب لاستنساخ وترجمة النصوص القديمة كما كان يراسل اتباعه في بلاد بابل بخصوص جمع الرقم . ومن الامثلة على ذلك رسالة مرسلة من قبل ملك اشوري لم يذكر اسمه ولكن يعتقد بانها تعود الى الملك المذكور الى احد اتباعه في بورسيبا حيث يقول :

انني بخير عسى ان تكون انت بخير ايضا . عندما تصلك رسالتي هذه استصحب معك ثلاثة اشخاص وكذلك الاشخاص المثقفين في مدينة بورسيبا وفتشوا عن جميع الرقم التي بحوزة اهالي بورسيبا والمحفوظة في بيوتهم وكل الرقم المودعة في معبد اي - زيدا معبد الاله نابو . فتشوا عن الرقم المهمة الموجودة هناك لقد كتبت الى الموظفين والمراقبين بخصوص الموضوع وسوف لا يمتنع اي شخص عن تزويدكم باي رقيم ترغبون في اخذه واذا شاهدتم نصا علميا او رقيما يخص الطقوس او النصوص التي تشير الى المعارك العسكرية والنصوص التي تحمل مفردات غنية وجميع النصوص التي تخص مدينة بورسيبا وتدفع عنها الاذى وكل ما تعتقدون ان القصر بحاجة اليه فاجلبوه .

ورسالة اخرى من احد الكتبة معنونة الى الملك آشور بانيبال يقول فيها الكاتب : سنسير على تعليماتكم الموجهة الينا بخصوص جمع الرقم المدونة باللغة السومرية ورسالة اخرى فيها تعليمات صادرة من الملك الى احد

موظفيه : اجلب الرقيم الذي فيه تعليمات رسمية من ملك بابل الى مدينة بورسيبا ورسالة موجهة من احد الكتبة الى الملك يذكر فيها : حسب اوامركم سوف اجلب الرقيم الطيني الخاص بالملك حمورابي علما بأن النسخة الاصلية لهذا الرقيم كانت قد تلفت لذلك كان الملك حمورابي قد امر باستنساخ نسخة جديـــدة لهـــا .

وبهذه الطريقة تم جمع واستنساخ النصوص الكتابية التي كانت محفوظة في كل من بلاد بابل واشور ، وبالفعل وجدت بعض الرقم تحمل كولـــوفون (تذييل) بخط دقيق تشير الى اصحابها منها رقيم يعود الى عائلة احـــد الكتبة يذكـــر :

فلان ابن فلان الكاتب الذي هو سليل الكاتب الاكبر والد الشخص فلان المشاور الرسمي في عهد الملك الاشوري اسر حدون . ويظهر ان الملك آشـــور بانيبال كان محبا وشغوفا بالعلم . فقد تعلم فن القراءة والكتابة منذ صغره لذلك امر بأنشاء مكتبة في قصره تضم مجاميع كبيرة من الرقم ذات المضامين المختلفة ليستقي منها هو ومن يريد الاستزادة من العلم من المثقفين وغيرهم . وقد ورد في احـــد نصوصـــــه ما يلـــــي :

« استقيت المعارف الخاصة بالكتبة وحذقت آيات السماء والارض ... ودرست ظواهر السماء ، وتمكنت ان احل قضايا صعبة في القسمة والضـــرب واتقنت فن الكتابة السومرية والكتابة الاكدية الصعبة جـــدا ، وكنت احـــب ان اقرأ الاحجار والانصاب المكتوبة من ازمان ما قبل الطوفان ... »

واخيرا لابد لنا من الاشارة الى ان استعارة الرقم من المكتبات كان مالوفا عند العراقيين القدماء ولا يختلف عن نظام الاعارة في عصرنا الحالـــي . حيث كان سابقا يسجل على رقيم صغير اسم النص المعار واسم الشـــخص الـــذي استعاره او تكتب اشارة على الرقيم نفســـه :

تمت استعارة هذا الرقيم من قبل الشخص الفلاني وهكذا • وقد عثر على رقيم من مدينة الوركاء يحمل الملاحظة التالية : لقد تمت استعارة النسخة الثانية لاحد الرقم من الملك سرجون الاشوري (٧٢١ ــ ٧٠٥ ق•م) تمت اعادته •

ورقيم آخر وهو عبارة عن بطاقة وضعت بجانب احد الرقم وتذكر : ان هذا الرقم استعاره الملك البابلي نبوبولاسر (٦٢٦ ــ ٦٠٥ ق•م) من الوركاء وهو بخصوص الالهة عشتار ولكن الرقيم لم يعد في حينه وفي مطلع القرن الثالث قبل الميلاد وجده احد الكهنة في مدينة عيلام وعاد به الى موطنه الاصلي اوروك • ويظهر ان هذا الرقيم سلب من مدينة بابل من قبل الفرس الاخمينيين عند غزوهم واحتلالهم لبابل •

وتوجد تعاليم للمكتبات تمنع من الاستيلاء على الالواح او اتلافها او تحويرها فكل من يزور او يحرف او يتلف او يسرق نصا فعليه غضب الالهة ولعنتها •• وهناك عقوبة على كل من يقوم بتزوير الكتابة وهي :

« وضع الرقيم المزيف على جبين المزيف » ويقصد بها اهانة الكاتب الذي قام بالتزوير •

المراجع

١ ـ طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، الجزء الاول ، بغداد ١٩٧٣

٢ ـ د. فاضل عبدالواحد علي : كتبوا على الطين ، مجلة كلية الاداب العدد ٢٧ بغداد ١٩٧٩

٣ ـ د. فوزي رشيد محمد : قواعد اللغة السومرية ، بغداد ، ١٩٧٢

٤ ـ عبدالهادي الفؤادي : دور الثقافة في العراق القديم ، بغداد ، ١٩٦١ رسالة غير منشورة .

٥ ـ د . بهيجة خليل اسماعيل : مسلة حمورابي ، بغداد ، ١٩٨٠

٦ ـ د. بهيجة خليل اسماعيل : دلاية فيروز من عهد الملك نينورتا ـ ابل ايكور ، سومر ، ١٩٧٦

٧ ـ د. بهيجة خليل اسماعيل : نبذة عن الكتابات المكتشفة في نوزي ، سومر ١٩٧٨

Driver G.R. Semitic writing from pictograph to Alphabet Oxford, 1976.

Dr. Bahija Khalil Ismail : Information über Tontafelfunde im gebiet des Hamrīn Staudammes, Akkadica 9, Brussel, 1978.

Dr. Bahija Khalil Ismail : Neuere Tontafelfunde im Irak, Archiv für Orientforschung, Beiheft 19, 1982.

Ellis R.S, : Foundation Deposits in Ancient Mesopotamia, Yale, 1968.

Klíma. J, Gesellschaft und Kultur des alten Mesopotamia.

King, L., Babylonian Boundary stones, 1927.

Gadd, C. J, Teachers and Students in the Oldest Schools. London, 1956.

الفصل الثامن

التراث اللغوي

د . عامر سليمان

كلية الآداب ــ جامعة الموصل

اقدم اللغات العراقية

عاش الانسان في العراق منذ ازمنة سحيقة في القدم ، تمتد الى ٦٠ الف سنة خلت او يزيد ، ومما لاريب فيه انه استخدمت خلال تلك العصور الطويلة لغة او مجموعة من اللغات تفاهم بواسطتها الانسان مع اخيه الانسان ، غير انه ليس لدينا اية معلومات عن تلك اللغة او اللغات نظرا لان الكتابة ، وهي وسيلة نقل اللغة وحفظها للاجيال التالية ، لم تكن معروفة خلال القسم الاعظم من تلك العصور ٠

وفي اواسط الالف الرابع قبل الميلاد ، اي قبل اكثر من خمسة الاف سنة ، اخترع الانسان العراقي القديم اول كتابة معروفة في العالم حتى الان وهي التي سميت من قبل الباحثين المحدثين بالكتابة المسمارية ، وكانت آلاف الالواح الطينية المكتشفة والمدونة بالكتابة المسمارية سجلا حافلا نقل لنا لغة العراقيين القدماء وكثيرا من افكارهم ومعتقداتهم وعلومهم ومعارفهم ٠

عثر على اقدم الالواح الطينية التي تحمل علامات كتابية صورية يمكن فهم لغتها في بلاد سومر ، القسم الجنوبي من العراق ، وترقى بتاريخها الى اواخر الالف الرابع قبل الميلاد (اي الدور الحضاري المعروف باسم دور جمدة نصر) •• ومن دراسة هذه الالواح وتحليل علاماتها الصورية ومقارنتها مع علامات الالواح التالية زمنيا تبين بان لغة كاتبيها كانت اللغة السومرية وهذا ما دفع بعض الباحثين للاعتقاد خطأ بان السومريين كانوا اول من استوطن ارض جنوبي العراق • غير ان العالم لاندزبركر (Landsberger) قام بتفنيد هذا الاعتقاد معتمدا في ذلك على دراسة وتحليل اقدم الاثار المادية المكتشفة في مدن جنوبي العراق وعلى التراث اللغوي الذي خلفه المستوطنون الاوائل لهذا الجزء من العراق في كل من اللغة السومرية واللغة الاكدية •

قام لاندزبركر بدراسة النصوص السومرية التي ترقى بتاريخها الى الالف الثالث قبل الميلاد فوجد ان فيها العديد من المفردات اللغوية الدخيلة التي لا تنتمي الى اللغة السومرية كما انها ليست من اللغة الاكدية التي انتشرت في المنطقة فيما بعد ولا الى اي من اللغات المعروفة • لذا افترض لاندزبركر بان هذه المفردات لابد انها تعود الى لغة كانت سائدة في المنطقة قبل استخدام اللغة السومرية واللغة الاكدية غير انها لم تحفظ للاجيال التالية لان الكتابة لم تكن معروفة حتى حينئذ شأنها في ذلك شأن اللغات القديمة الاخرى التي سبقت الاشارة اليها•• ومما يؤيد هذا الافتراض انغالبية المفردات الدخيلة هذه تمثل اسماء المدن الرئيسة واسمي النهرين العظيمين دجلة والفرات وبعض المفردات الخاصة باسماء عدد من الحرف والصناعات والادوات الاساسية في حياة الانسان • وبعبارة اخرى ظن لاندزبركر ان هذه المفردات ما هي الا بقايا لغة سكان القسم الجنوبي من العراق الاوائل الذين سبقوا السومريين والاكديين في استيطان المنطقة واليهم يرجع الفضل في وضع اللبنات الاساسية للحضارة العراقية القديمة التي ازدهرت في الالف الثالث

قبل الميلاد وقد عرفت آثار هؤلاء السكان من قبل الآثاريين بآثار طور العبيد، نسبة الى تل العبيد الذي اكتشفت فيه ولاول مرة آثار ترقى بتاريخها الى الالفين الخامس والرابع قبل الميلاد .. وحيث ان تلك الآثار وما يماثلها من حيث الفترة الزمنية والدور الحضاري قد وجدت على اطراف القسم الجنوبي من نهر الفرات ، فقد اطلق على السكان الذين خلفوها لنا اسم (الفراتيون الاوائل) Proto Euphrates والى هؤلاء نسبت المفردات اللغوية الدخيلة آنفة الذكر ، وقد ايد هذا الرأي (Gelb) واضاف اليه من الادلة ماعززه من الناحيتين اللغوية والتاريخية .

وفيما يلي قائمة باهم المفردات اللغوية التي يعتقد انها تنتمي الى لغة الفراتيين الاوائل والتي وجدت ضمن النصوص السومرية ومما تجدر ملاحظته ان بعض هذه المفردات قد انتقل الى اللغات التالية وظل مستخدما فيها حتى الوقت الحاضر :

اللفظ بالحرف العربي	اللفظ بالحرف اللاتيني	المعنى
إنگار	engar	فلاح
آپن	apin	محراث
نِمبار	nimbar	نخلة
سولومب	sulumb	تمر
تِبيرا	tibíra	نحاس ، تعدين
سِمُگ	simug	حدّاد ، نحّاس
نَگار	nagar	نجّار ـ ومنها كلمة نجّار العربية

اللفظ بالحرف العربي	اللفظ بالحرف اللاتيني	المعنى
مَلاخ	malaẖ	ملاّح ـ ومنها كلمة ملاّح العربية
پَخار	paẖar	فخّار ـ ومنها كلمة فخّار العربية
دَمگار	damgar	تاجر
إشبار	ishbar	حائك
أشگاب	ashgab	اسكافي ، جلاّد ومنها كلمة اسكافي

اما اسماء المدن والمواضع والانهار فيرى مؤيدو هذا الرأي ان اسماء معظم المدن المهمة في بلاد سومر واكد ترجع الى لغة الفراتيين الاوائل ومنها ابتداء من الجنوب :

الاسم القديم		الاسم حاليا
اريدو	Eridu	اريدو (ابو شهرين)
اورُم	Urum	اور
اوروك	Uruk	الوركاء
كُلاّب ، كلابا	Kullab	
لارسام	Larsam	لارسا (سنكرة)
لگاشو	Lagashu	لجش (تل الهباء)
گِرسو	Girsu	تلّو
نينا	Nina	سرغل

الاسم القديم		الاسم حاليا
سِرارا	Sirara	
باد تِبيرا	Bad - Tibira	تلول المدينة في منطقة لجش
اومّا	Umma	تل جوخة
شُروپّاك	Shuruppak	تل فارة
أدَب او اودب	Adab, Udab	بسمي
نِپُّر ، نبروا	Nippur, Nibrua	نفّر
كيش	Kesh	
مَرَد	Marad	ونة والصدوم
لَراك	Larak	تل الولاية !
إِسن	Isin	ايشان بحريات
كيش	Kish	تلول الاحيمر
سِپّار	Sippar	ابو حبة
أكشَك أو اوپي	Akshak, Upi	
أكّد	Akkad	
بارسِپ او بورسپا	Barsip	برس نمرود
اشنونا	Eshnunna	تل اسمر
توتوب	Tutub	خفاجي

يضاف الى هذه الاسماء اسما النهرين العظيمين دجلة (إدِ گنا) Idigna والفـرات (بُرانُن) Buranun أو بورُنُنّا Burununna الـذي انتقل الى الاكدية على هيئة پوراتي Purati أو پراتُم Puratum

اللغة السومرية

ومع ان لغة الفراتيين الاوائل تمثل لغة اول من استوطن ارض جنوب العراق الا ان اللغة السومرية تبقى اقدم اللغات العراقية ، بل العالمية ، طراً من حيث تاريخ التدوين • فقد تمكن الباحثون من تحليل العلامات الصورية البسيطة المدونة على الواح الطين المكتشفة في كل من الوركاء (الطبقة الثالثة والثانية) وجمدة نصر والعقير والتي ترقى بتاريخها الى اواخر الالف الرابع قبل الميلاد وتبين بانها تمثل اولى المحاولات في تدوين اللغة السومرية ، وانها ، أي العلامات المنقوشة على هذه الالواح ، عبارة عن ثلاث علامات صورية بسيطة متكررة عدة مرات ترمز الى اسم الاله السومري (انليل) اله الجو والهواء والفعل (يعيش ، يمنح الحياة) •

وعلى الرغم من ان اللغة السومرية هي اقدم اللغات العراقية من حيث تاريخ التدوين الا ان الباحثين لم يتعرفوا عليها وعلى هوية الاقوام التي استخدمتها ، وهم السومريون الا في فترة متأخرة نسبيا اي في اواسط القرن التاسع عشر الميلادي ، فقد كان الاعتقاد السائد لدى الباحثين حتى حينئذ ان لغة جميع النصوص المسمارية المكتشفة في مدن العراق القديمة هي لغة الاقوام البابلية والاشورية، وفي عام ١٨٥٢م اثار احد الباحثين حقيقة وجود بعض النصوص المسمارية المكتشفة في مدينة نينوى وهي تضم جداول ثنائية اللغة ، تمثل اللغة الاولى فيها ماكان يعرف باللغة البابلية أو الاشورية اما اللغة الثانية فجديدة ولا علاقة لها باللغة البابلية او الاشورية الا من حيث اسلوب الكتابة وقد اطلق هذا العالم ، وهو رولنصن الانكليزي الجنسية ، على هذه اللغة الجديدة اسم (اللغة الاكدية) واشار الى ان هناك نصوصا اخرى اكتشفت في بلاد بابل وهي مدونة بهذه اللغة الجديدة فقط وخلص الى القول بان اصحاب تلك اللغة، اي الاكديين وفق هذه التسمية هم الذين

اخترعوا الكتابة المسمارية وبذلك اثبت رولنصن حقيقة وجـود الاقوام السومرية ولغتها غير انه سماها خطأ باسم آخر •

وفي عام ١٨٦٩ اشار يوليوس اوبرت الى ضرورة تسمية الاقوام التي سماها رولنصن بالاقوام الاكدية بالاقوام السومرية وتسمية لغتهم بأسم (اللغة السومرية) (Sumerian Language) مستندا في ذلك على ماجاء في اللقب الملكي الذي استخدمه عدد من الملوك والحكام الاوائل الذين تفاخروا بانهم كانوا ملوك (بلاد سومر واكد) •

ومع ان التسمية التي اقترحها اوبرت كانت دقيقة وصحيحة كما ثبت ذلك فيما بعد ، الا ان غالبية الباحثين لم يأخذوا بها في حينه واستمروا في استخدام التسمية الاولى وهي اللغة الاكدية للاشارة الى اللغة السومرية لفترة ليست بالقصيرة ،بل ان احد الباحثين اليهود وهو جوزيف هاليفي انكر وجود الشعب السومري واللغة السومرية اصلا على الرغم من جميع الادلة المادية المتوفرة ونشر مقالات متتابعة حول رأيه هذا وقال بان مايشار اليه باللغة السومرية ما هو في الواقع الا لغة من ابتداع الكهنة البابليين •• ثم تتابعت الاكتشافات الاثرية في مدن العراق المختلفة وكشف عن المئات من النصوص المدونة باللغة السومرية فقط وبدأت الدراسات العلمية لهذه اللغة ولقواعدها معتمدة على النصوص ثنائية اللغة اولا ومن ثم النصوص السومرية •• ومنذ مطلع القرن العشرين ظهرت بحوث عدة تبين خواص هذه اللغة وقواعدها •

تشير الدراسات اللغوية التي تمت الى اللغة السومرية بان اللغة السومرية لغة منفردة لاتشبه اللغة الاكدية (البابلية ــ الاشورية) او غيرها من اللغات المحلية التي عرفت في العراق القديم سواء في التراكيب والقواعد اللغوية ام المفردات او حتى الاصوات •• بل ان اللغة السومرية لاتنتمي

الى ايه عائلة من العائلات اللغوية المعروفة حتى الان .. وقد نتج عن هـذا الغموض الذي يكتنف أصل اللغـة السومرية وعـدم انتمائها الى أية مـن العائلات اللغوية ان اختلف الباحثون في تحديد اصل السومريين وموطنهم الاول وظهرت آراء ونظريات عدة حول ذلك وكان اعتماد جل تلك الاراء على وجود بعض اوجه الشبه بين اللغة السومرية وبين بعض اللغات العالمية الاخرى كاللغة التركية واللغة الهنغارية والقوقاسـية ولغـة سـكان التبت وغيرها .. غير ان اوجه الشبه في جميع تلك الحالات لاترقى الى درجـة القرابة أو الانتماء الى عائلة لغوية واحدة . ويبدو ان اللغـة السومرية هي لغة تنتمي الى عائلة لغوية قديمة كانت فروعها معروفة في المنطقة ثم انقرضت فروع تلك العائلة اللغوية من قبل ان تخترع الكتابة وسيلة لتدوين وحفظ اللغة .. وكانت السومرية كما يبدو هي اللغة الوحيدة من افراد تلك العائلة التي وجدت طريقها للتدوين بفضل ابتداع الكتابة قبل ان ينقرض الشعب السومري وتموت لغته .. لذلك ظلت اللغة السومرية منفردة بين بقيـة اللغات التي وجدت طريقها للتدوين .

اهم خصائص اللغة السومرية

اللغة السومرية من اللغات التي تتصف بظاهرة الالصاق Agglutination والالصـاق هو القدرة على تكوين الفاظ ذات معان جديدة بلصق كلمتين او اكثر الى بعضها البعض . مثال ذلك تصاغ كلمة (لوگال Lugal) السـومرية وتعني (ملك) من كلمـة (لـو Lu) بمعنى رجـل و (گال gal) بمعنى عظيم فتصبح (الرجل العظيم) اي (الملك) . كما ان اللغة السومرية لغة غير قابلة للتصرف اي انها ليست من اللغات المعربة كاللغات العربية القديمة واللغات الهندية الاوربية .. وجذورها بصـورة عامة لاتتغير اما وحدتها القواعديـة الاساسية فهي المركب اللفظي وليس

الكلمة المفردة .. وتميل ادواتها القواعدية للاحتفاظ بينيتها مستقلة اكثر من ميلها نحو الاتصال بجذور الكلمات اتصالا وثيقا .

ومن قواعد اللغة السومرية الصوتية اسقاط الحرف الصحيح ان هو جاء في نهاية الكلمة ولم تتبعه اداة نحوية تبدأ بحرف علة .. اما اذا اعقبته اداة نحوية مبتدئة بحرف علة فعندما يتكون من الحرف الصحيح وحرف العلة مقطع صوتي جديد .

وتتألف الجذور السومرية بصورة عامة من مقطع واحد وان كانت هناك جذور مؤلفة من اكثر من مقطع واحد . ولاتفرق اللغة السومرية بين الاسم المذكر والاسم المؤنث قواعديا الا اذا كانت طبيعة الاسم مذكرة او مؤنثة وقد تضاف اداة خاصة لتحديد جنس الاسم في حين هناك تفريق واضح بين العاقل وغير العاقل من الاسماء يتبع غالبا واقع الحال ، اما العدد فليس هناك سوى المفرد والجمع وللاشارة الى الجمع يضعف الاسم او تضاف اليه اداة نحوية خاصة بالجمع .

والفعل في اللغة السومرية نوعان : اصلي ومركب وكل الافعال على ثلاثة اصناف متعد ولازم ومبني للمجهول وللفعل زمنان ماض ومضارع اضافة الى صيغة الامر .

والصفات في اللغة السومرية قليلة وغالبا مايستعاض عنها بتعابير في حالة الاضافة وقلما تستعمل اسماء الصلة وادوات العطف بل توضع الكلمات الى جانب بعضها دون روابط .

وتتألف الجملة السومرية من :

١ ـ سلسلة من المركبات الاسمية تتعلق بالمسند اما كفاعل او كمفعول به ثان او كمفعول به يدل على زمان او مكان (ظرف) او مفعول به .

٢ ـ الادوات القواعدية التي تعبر عن هذه العلاقات .

٣ ـ المسند المؤلف من الجذر الفعلي المسبوق باداة جذرية وسلسلة من الاصناف التي تعيد باختصار توضيح العلاقة بين الجذر والمركبات الاسمية وتزخر اللغة السومرية بالمفردات الدخيلة منها الاكدية التي دخلت السومرية منذ فترة مبكرة ومنها مايعود الى تراث الفراتيين الاوائل .

وفي اللغة السومرية ثلاثة حروف علة طويلة يعبر عنها بالحروف اللاتينية ū ، ē ، ā وثلاثة قصيرة يعبر عنها بالحروف u ، e ، a اما الحروف الصحيحة فهي ستة عشر حرفا ولا توجد بينها حروف حلقية ، باستثناء حرف الخاء ، او حروف مشددة كالتي نجدها في اللغة الاكدية .

كانت اللغة السومرية ، كما اشرنا ، لغة الاقوام السومرية التي وجدت في القسم الجنوبي من العراق منذ الالف الرابع قبل الميلاد . وظلت تستخدم لغة للتخاطب فترة طويلة شملت الالف الثالث قبل الميلاد باكمله وجزءاً من الالف الثاني في حين ظلت تستخدم لغة للتدوين لفترة اطول من ذلك بكثير حيث جاءتنا نصوص سومرية من الالفين الثاني والاول قبل الميلاد ، غير ان استخدامها للتدوين خلال الالفين الثاني والاول قد اقتصر احيانا على تدوين بعض النصوص الدينية او العلمية ذات الاهمية الخاصة كما ظل الكتبة يعكفون على استنساخ النصوص السومرية القديمة لاهميتها الدينية او العلمية وظلوا يؤلفون الجداول او القوائم ثنائية اللغة ليسهل عليهم فهم تلك النصوص .

ويميز الباحثون عدة مراحل مرت بها اللغة السومرية معتمدين في ذلك على النصوص المكتشفة حتى الان .

- المرحلة البدائية (٣٠٠٠ - ٢٦٠٠ ق • م) ومعظم نصوص هذه الفترة مقتضبة وبسيطة وذات طابع اقتصادي •
- مرحلة العصر السومري القديم (٢٦٠٠ - ٢٣٥٠ ق • م) ، وجل نصوص هذه المرحلة اقتصادية وملكية وقد عثر عليها في مدينة لجش بالدرجة الاولى •
- المرحلة السرجونية والكوتية (٢٣٥٠ - ٢١٥٠ ق • م) ونصوصها قليلة ولا سيما من الفترة الكوتية •
- مرحلة العصر السومري الحديث (٢١٥٠ - ٢٠٠٠ ق • م) وغالبية نصوص هذه الفترة التي تميزت بسيادة الاقوام السومرية في عهد سلالة اور الثالثة جاءت من مدينة لجش واوما ودريهم واور ومعظمها نصوص اقتصادية وبعض النصوص قانونية •
- مرحلة العهد البابلي القديم بحدود (٢٠٠٠-١٦٠٠ق•م) وتضم نصوصها المستنسخات الادبية والنصوص ثنائية اللغة (المعاجم اللغوية) • ونصوصها اقتصادية وقضائية وتناجات ادبية واستنساخات للملاحم والاساطير •
- مرحلة مابعد العهد البابلي القديم (١٦٠٠ - ١٠٠ ق • م) ومعظم نصوص هذه الفترة عبارة عن استنساخات لنصوص سومرية من الفترات السابقة وبعض النصوص الملكية والنتاجات الادبية الكشية ولغتها متأثرة باللغة الاكدية •

أما اللهجات السومرية التي لابد وان ظهرت تحت تأثيرات الظروف المحلية والفترات الزمنية ، فلا سبيل للتعرف عليها من خلال النصوص المتوفرة لدينا • مع ذلك ، ذكرت النصوص السومرية نفسها تسميات معينة للهجات سومرية منها :

- لهجة المخاطبة ، او اللهجة الاعتيادية وهي أهم اللهجات وتعد من قبل الباحثين اللهجة الرئيسة •
- اللهجة (اللغة) الكبيرة او اللهجة (اللغة) العالية •
- اللهجة (اللغة) المنتخبة او اللهجة (اللغة) الشـاذة •

اضافة الى ذلك ، وردت تسميات مختلفة للهجات بعض فئات واصناف الناس منها :

- لهجة السفاتة •
- لهجة رعاة الغنم •
- لهجة الكهنة

كما كانت هناك لهجة اخرى سميت بلهجة النسـاء والتي اطلق عليها باللغـة الاكديـة « لغة العـراك » « لشـان صـلت » Lishanu siltu وقد ظهرت في اوائل العهد البابلـي القديـم وكانت تستخدم غالبا عنـد الحديث عن النساء في النصوص الادبية ثم اصبحت لغة الكتابات الادبية في مرحلة مابعد العهد البابلي القديم •

اللغة الاكـدية

ا ـ التسمية :

« اللغة الاكدية » تسميه مشتقة من اسم الاقوام الاكدية ، وهي اولى الاقـوام الجزرية او « الاقوام العربيـة القديمـة » وهي التسـمية التي استخدمت هنـا بديلا مـن التسـمية القديمـة « الاقـوام السـامية » المعروفـة التـي اسـتوطنت اواسـط وجنـوبي العـراق منـذ مطلـع الالف الثالث قبل الميلاد على اقل تقدير • وفي مطلع القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد (حدود ٢٣٧٠ ق • م) اسست دولتها التي عرفت بالامبراطورية الاكديـة والتي وحدت ولاول مـرة جميع مـدن واقاليم وادي الرافدين

بوضعها في دولة واحدة . وقد استخدمت تسمية « اللغه الاكدية » لاول مرة من قبل العالم رولنصن عام ١٨٥٢ م ، كما سبق والمحنا . للدلالة على اللغة الثانية التي تضمنتها النصوص ثنائية اللغة المكتشفة في مدينة نينوى وغيرها ثم تبين خطأ هذه التسمية حيث اتضح ان لغة تلك النصوص هي في الواقع لغة الاقوام السومرية . وبعد ان عرف تاريخ الاكديين وتاريخ دولتهم الاكدية استخدمت التسمية بمعنى ضيق ومحدود للدلالة على لغه الاقوام الاكدية التي شادت الامبراطورية الاكدية وخلفت لنا بعض النصوص . ومنذ الخمسينيات من هذا القرن اتسع مدلول التسمية وغدت تستخدم للدلالة على جميع اللهجات المتفرعة عن اللغة الاكدية والتي انتشرت فيما بعد في بلاد بابل وآشور منذ اواسط الالف الثالث قبل الميلاد حتى اواخر الالف الاول قبل الميلاد عندما تضاءل استخدام اللغة الاكدية ثم تلاشى امام اللغة الارامية وغيرها من اللغات التي استخدمت في وادي الرافدين بديلا عن اللغة الاكدية ، اي ان مصطلح « اللغة الاكدية » بهذا المفهوم الواسع اصبح يدل على جميع اللهجات (اللغات) التي تكلمت بها الاقوام الاكدية والبابلية (الامورية) والاشورية والكلدية واستخدمتها للتدوين . كما يدل المصطلح ايضا على جميع اللهجات المتفرعة عن هذه اللهجات الرئيسة التي استخدمت في مناطق معينة وفترات زمنية محددة كاللهجة الاكدية التي استخدمت في بلاد عيلام واللهجة الاكدية في منطقة كبدوكيا في اسيا الصغرى ولهجة رسائل العمارنة في مصر ولهجة نوزي في منطقة ارابخا (كركوك) التي كانت متأثرة الى درجة كبيرة بالاقوام الخورية وغيرها من اللهجات الاقل اهمية .

ومن الجدير بالاشارة هنا ان البحوث والدراسات اللغوية القديمة نسبيا ، اي تلك الصادرة في القرن الماضي والنصف الاول من القرن الحالي ، اطلقت على لغة النصوص المسمارية المكتشفة في بلاد بابل واشور

اسم (اللغة الاشورية) او « اللغة البابلية » نسبة الى مناطق اكتشافها . ونظرا للتشابه الكبير بين اللغتين والذي تنبه اليه الباحثون منذ البداية واعتقادهم بان كلتا اللغتين تنتميان الى اصل مشترك واحد ، فقد شاع استخدام مصطلح « اللغة الاشورية ـ البابلية » او « اللغة البابلية ـ الاشورية » كما سمي العلم المختص بدراسة هذه اللغة وبنصوصها المسمارية ، وما يزال يسمى ، بعلم « الاشوريات Assyriology » .

ولابد من الاشارة ايضا الى الخطأ الشائع في تسمية لغة النصوص المسمارية باسم « اللغات المسمارية » في حين ان الكتابة هي غير اللغة وقد تكتب اكثر من لغة واحدة بواسطة كتابة واحدة كما هي بالنسبة للكتابة المسمارية التي استخدمت لتدوين اللغة السومرية واللغة الاكدية ، كما استخدمت بعد اجراء بعض التعديلات عليها لتدوين لغات غريبة اخرى . او كما تستخدم الكتابة العربية لتدوين اللغة الفارسية واللغة التركية .

ب ـ اصول اللغة الاكدية :

واللغة الاكدية بالمفهوم الواسع هذا تمثل الفرع الشمالي الشرقي من عائلة اللغات الجزرية . وتضم هذه العائلة اللغوية مجموعة كبيرة من اللغات المهمة التي انتشرت وسادت معظم انحاء الشرق الادنى القديم منذ اقدم عصوره التاريخية وحتى الان وهي اللغة الاكدية ، بلهجاتها البابلية والاشورية المختلفة ، واللغة الكنعانية ، بلهجاتها الاوغاريتية والعبرية والفينيقية ، واللغة الارامية ، بلهجاتها الارامية القديمة وارامية الدولة والارامية اليهودية والنبطية والمندائية ، واللغة العربية الشمالية والجنوبية وبعض لغات الحبشة . ويكاد يجمع الباحثون على ان الموطن الاول للاقوام التي تكلمت بهذه اللغات هي شبه الجزيرة العربية التي شهدت في عصور سحيقة في القدم استخدام « اللغة العربية الام » ومن ثم بدأت

هجرات الاقوام العربية القديمة الى خارج حدود شبه الجزيرة العربيـــة • وكان من بين تلك الهجرات هجرة الاقوام الاكديـة والبابلية (الاموريـة) والاشورية الى وادي الرافدين • وقد تميزت لغات هذه العائلة اللغويـــة بجملة خصائص مشتركة منها :

١ ـ ان هـذه اللغات تعتمد اعتمادا كبيرا على الاصـوات الصامتـة (الصحيحة) لاعلى الاصوات المتحركـة (العلّة) • أي ان المعنى الرئيس للكلمة يرتبط بالاصوات الصامتة فيها ، اما الاصوات المتحركة فهي لا تعتبر في الكلمة الا عن تحوير هذا المعنى وتعديله •

٢ ـ تزخر هذه المجموعة من اللغات بالاصوات الحلقية كالعين والحاء والهاء والاصوات المضخمة ، كالصاد والطاء •

٣ ـ يرجع معظم المفردات اللغوية الى اصل او جذر ثلاثي ، وهناك بعض المفردات ذات اصول ثنائية ، ومن هذا الجذر البسيط نشـتق صيغا وصورا مختلفة فيها معنى الاصـل وزيادة وذلك بتحوير حركات الاصـل البسيط او باضافة زيادات الى اوله او وسطه او آخره •

٤ ـ ما يميز الفعل في هذه اللغات انه محدود الزمن فالاصل في الزمن هو كمال الحدث في الماضي وعدم تمام الحدث في الحاضر بالنسبة للمتكلم • وقد يستخدم الزمن الحاضر للمستقبل بعد اضافة ادوات خاصة بذلك •

٥ ـ ليس في هذه اللغات الا جنسان هما المذكر والمؤنث •

٦ ـ هناك ظاهرة غريبة هي علاقة العدد بالمعدود العكسية من الثلاثة الى العشرة اي ان العدد يذكر مع المعدود المؤنث ويؤنث مع المذكر •

٧ ـ تتشابه هذه اللغات بوجه العموم بالاساليب النحوية ومن ذلك تصريف الافعال وميزانها واشتقاقها وتتشابه في مفردات اللغة الاساسية •

ومع هذه الخصائص المشتركة بين افراد عائلة اللغات الجزرية « اللغات العربية القديمة » هناك اختلافات فرعية املتها ظروف كل لغة من هذه اللغات والتأثيرات التي تعرضت لها والحياة التي عاشتها ، وقد تمكن الباحثون من وضع قواعد عامة تبين هذه الاختلافات ولا سيما فيما يختص بتغير بعض الاصوات الصامتة في لغة دون غيرها كما سيتبين ذلك من مقارنة المفردات اللغوية الاكدية مع المفردات العربية •

جـ ـ تاريخ اللغة الاكدية

تشير الدلائل الاثارية والنصوص المسمارية الى ان الاقوام الاكدية كانت قد سكنت القسم الوسطي والجنوبي من العراق منذ اقدم العصور التاريخية المعروفة وربما منذ اواخر عصور ما قبل التاريخ ، غير انها لم تتمكن من السيطرة على زمام الحكم والسلطة السياسية حتى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد • ومن هذه الدلائل ان اسماء العديد من حكام وملوك المدن السومرية في عصور فجر السلالات (من حدود ٣٠٠٠ الى قيام الدولة الاكدية في ٢٣٧٠ق • م) وردت بصياغة اكدية فمثلا نجد ان نصف اسماء حكام سلالة كيش الاولى ، وهي اول سلالة حكمت بعد الطوفان حسبما جاء في جداول الملوك السومريين ، هي اسماء اكدية كما اننا نجد في المدونات السومرية من عصور فجر السلالات العديد من المفردات الاكدية الدخيلة في اللغة السومرية وان دلّ هذا على شيء فانما يدل على وجود الاقوام الاكدية واستخدامها اللغة الاكدية الى درجة اثرت في اللغة السومرية السائدة ، وفي اواخر عصور فجر السلالات وقبيل قيام الدولة الاكدية ، وصلت اللغة الاكدية من الاهمية الى درجة ان الملك السومري الشهير لوكال زاكيزي دوّن نصا على تمثاله الخاص باللغة الاكدية • ومنذ قيام الدولة الاكدية ، دخلت اللغة الاكدية طورا جديدا حيث بدأ استخدامها في تدوين النصوص التاريخية

والمعاملات اليومية وغدت لغة الدولة الرسمية الى جانب اللغة السومرية ثم اخذت تحل محل اللغة السومرية شيئا فشيئا غير انها لم تقض عليها بل ظلت اللغة السومرية مستخدمة في النصوص الادبية والعلمية والدينية الى اواخر ادوار الحضارة العراقية القديمة كما سبق واشرنا الى ذلك .

وكان الاحتكاك بين اللغتين السومرية والاكدية ، وكلتاهما تحتل مكانة واهمية في نفوس العراقيين القدماء ، شديدا وأفرز نتائج غاية في الاهمية . فالى جانب تأثير كل من هاتين اللغتين بالاخرى تأثيراً واضحا من حيث استخدام المفردات والمصطلحات الفنية والقانونية ومن حيث اساليب التعبير بل وحتى القواعد النحوية ، فقد كان لهذا الصراع اثره في تحفيز الكتبة الذين استخدموا اللغة السومرية او اللغة الاكدية على حد سواء أو الكتبة الذين عكفوا على استنساخ النصوص القديمة الى تأليف قوائم او جداول لتعليم المبتدئين العلامات المسمارية المختلفة وقيمها الصوتية ومعانيها الرمزية في كل من اللغتين السومرية والاكدية . وكانت تلك القوائم والجداول التي تطورت فيما بعد لتسجيل مفردات لغوية سومرية والى جانبها معانيها باللغة الاكدية او مصطلحات لغوية فنية او قانونية او جمل وعبارات سومرية والى جانبها معانيها باللغة الاكدية اولى المحاولات في تأليف المعاجم اللغوية . وقد افادت هذه المحاولات الباحثين المحدثين كثيرا في فهم ومعرفة ما غمض عليهم من مفردات اللغة السومرية او الاكدية .

وعلى رغم من سقوط الدولة الاكدية وسيطرة الاقوام الكوتية الغازية على بلاد اكد وتسلمها زمام الحكم لفترة تزيد عن مائة سنة ، الا ان اللغة الاكدية ظلت اللغة المستخدمة الى جانب اللغة السومرية في المعاملات الرسمية والخاصة . ولم يؤثر على اللغة الاكدية غزو الاقوام الكوتية التي لابد ان تكلمت لغة اجنبية غريبة في بداية امرها الا انها ما لبثت أن استخدمت اللغة الاكدية حتى ان اسماء العديد من الملوك الكوتيين جاءت بصيغ اكدية ، بل

ان المعلومات المتوفرة لدينا لا تشير الى ان الكوتيين الغزاة قد استخدموا لغتهم الخاصة في بلاد اكد على الاطلاق وهذا يشير دون شك الى قوة اللغة الاكدية ورسوخها وتغلغلها في النفوس . وقد تكررت هذه الظاهرة ، وهي ظاهرة غلبة اللغة الاكدية على لغة الاقوام الغازية ، في فترة الاحتلال الكشي لبلاد بابل لفترة طويلة وبقاء اللغة الاكدية اللغة الرسمية الخاصة في جميع ارجاء بلاد بابل بل وانتعاشها .

وتشير الرقم الطينية التي ترقى بتاريخها الى عهد سلالة اور الثالثة (٢١١٣ – ٢٠٠٦ق . م) التي قامت في اعقاب طرد الاقوام الكوتية من بلاد اكد ، الى انتعاش اللغة السومرية على حساب اللغة الاكدية نظرا لان حكام سلالة اور الثالثة كانوا من الاقوام السومرية فدونت لذلك معظم نصوصهم الملكية باللغة السومرية . ومع ذلك ظلت اللغة الاكدية تحتفظ بمكانة بارزة الى درجة ان ثلاثة من حكام هذه السلالة السومريين كانوا يحملون اسماء ذات صيغ اكدية .

وبتدفق الاقوام الامورية نحو بلاد بابل ، وهي من الاقوام الجزرية القديمة التي قدمت بلاد بابل سالكة الطريق المحاذي لنهر الفرات ، اتسع نطاق استخدام اللغة الاكدية حيث ان هذه الاقوام التي انتشرت في العراق في اعقاب سقوط سلالة اور الثالثة واسست لها عددا من الدويلات والممالك المهمة التي انضمت اخيرا تحت حكم سلالة بابل الاولى في عهد ملكها الشهير حمورابي ، لم تستخدم لغتها الامورية التي تنتمي هي الاخرى الى عائلة اللغات العربية القديمة ، بل استخدمت اللغة الاكدية بلهجتها البابلية القديمة في جميع المكاتبات والمعاملات الرسمية والشخصية وان معلوماتنا عن اللغة الامورية مستمدة من بعض المفردات والمصطلحات والصيغ اللغوية التي دخلت اللهجة البابلية القديمة ، ولا سيما في منطقة مملكة ماري على نهر الفرات ، ومن تحليل اسماء بعض الاشخاص ذات الصيغ الامورية ، وهي

كثيرة في النصوص المكتشفة في مدينة ماري ، ومن اللهجات الامورية الاخرى التي انتشرت في سوريا .

وكما كانت عليه الحال ابان الغزو الكوتي لبلاد اكد ، ظلت اللغة الاكدية اللغة الرسمية المستخدمة ابان الغزو الكشّي لبلاد بابل في اعقاب سقوط سلالة بابل الاولى . اضافة الى ذلك ، فقد شاع استخدام اللغة الاكدية خلال حكم السلالة الكشية ، الذي استمر اكثر من اربعة قرون ، وتجاوز حدود بلاد بابل واشور ووصل الى وادي النيل ، كما سنشير الى ذلك فيما بعد .

وفي بلاد اشور ، استخدمت اللغة الاكدية منذ اقدم العصور التاريخية المعروفة لدينا من خلال النصوص المدونة وقد تميزت اللهجات التي انتشرت في بلاد اشور بخصائص معينة دفعت بعض الباحثين الى عدّها لغة مستقلة عن مجموعة اللهجات البابلية . وكانت اللهجات الاشورية ، ولا سيما اللهجة الاشورية الحديثة ، اولى اللهجات الاكدية التي عرفت في العصر الحديث حتى غلب اسم الاشوريين ولهجاتهم على اللغة الاكدية في معظم الكتب والبحوث القديمة نسبيا .

وظلت اللغة الاكدية بلهجتها البابلية الحديثة والمتأخرة (الكلدية) ، تستخدم في عهد الدولة البابلية الحديثة (٦٢٦ - ٥٣٩ق . م) غير انه بدأ تأثير اللغة الارامية يزداد شيئا فشيئا الى ان وصل انتشار استخدام اللغة الارامية في بلاد بابل واشور ان قضي على اللغة الاكدية وتلاشى استخدامها وحلت محلها اللغة الارامية بخطها الابجدي البسيط مقارنة مع الكتابة المسمارية المعقدة .

وعلى الرغم من وقوع بلاد بابل واشور لفترة طويلة من الزمن تحت الحكم الاجنبي الفارسي الاخميني ثم المقدوني والسلوقي فالفرثي فالساساني،

واتتشار اللغة الفارسية في فترة الاحتلال الفارسي واليونانية في فترة الاحتلال السلوقي ولا سيما في اوساط الطبقة الحاكمة والمتنفذة ، الا ان اللغـــة الاكدية ظلت تستخدم ولكن في نطاق محدود حيث استخدمت في تدوين بعض النصوص الدينية والعلمية والفلكية والرياضية ، وظلت كذلك حتى اواخر القرن الاول الميــلادي حيث بطل استخدامها واســتخدام الكتابـة المسمارية نهائيا ودخلت طي النسيان لمئات من السنين الى ان تم الكشف عنها ثانية في العصر الحاضر •

د ـ انتشار اللغة الاكديـة

لم يقتصر استخدام اللغة الاكدية على حدود بلاد بابل واشــور بل تعداهما الى عدد من البلدان والاقاليم المجاورة والبعيدة • فقد اثبتت التحريات الاثرية التي اجريت في المواقع القديمة في كل من بلاد عيلام واسيا الصغرى وسوريا ومصر ان اللغة الاكديـة بخطها المسماري كانت معروفـة في هذه البلدان في فترات معينة من تاريخها القديم •

ففي بلاد عيلام ، انتشر استخدام اللغة الاكدية والخط المسماري منذ اواسط الالف الثالث قبل الميلاد ولا سيما ابان السيطرة الاكدية على بلاد عيلام نفسها حتى ان جميع النصوص المسمارية المكتشفة في مدينة سوسا عاصمة بلاد عيلام والتي تمت قراءتها حتى الان مدونة باللغة الاكدية مما يشير الى مدى انتشار استخدام هذه اللغة في بلاد عيلام كما يشير في الوقت نفسه الى تواجد الاقوام الاكدية في بلاد عيلام بحيث غلب استخدام لغتهم الاكدية الخاصة على اللغة العيلامية المحلية •

وفي منطقة كبدوكيا في اسيا الصغرى ، تم العثور على مئات من النصوص المسمارية المدونة باللغة الاكدية بلهجتها الاشورية القديمة وتشير هــذه النصوص الى ان عددا من المراكز او المستوطنات الاشورية القديمة كانت

قد تأسست في كبدوكيا في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد وكانت من بين تلك المراكز مدينة كانش (كول تبة حاليا) • وقد استخدم التجار الاشوريون في هذه المراكز لغتهم الاكدية وخطهم المسماري ولابد أن اثر هؤلاء التجار في السكان المحليين كما يظهر جليا في اقتباس الخط المسماري ، بعد تحويره ، من قبل الحثيين الذين جاءوا المنطقة فيما بعد •

كما استخدمت اللغة الاكدية في عدد من المدن والممالك السورية القديمة ولاسيما في تدوين المعاهدات والاتفاقيات التي كانت تبرم مع الدولة الأشورية كما استخدمت في المكاتبات الرسمية مع فراعنة مصر •

وتعد الرسائل الملكية المكتشفة في موقع العمارنة (عاصمة الملك المصري اخناتون) اروع الامثلة على مدى انتشار استخدام اللغة الاكدية وخطها المسماري في بلدان الشرق الادنى القديم • فقد دونت هذه الرسائل التي كان قد بعث بها ملوك الممالك السورية والدولة الحثية والدولة الكشية الى اخناتون فرعون مصر بالخط المسماري العراقي واللغة الأكدية مع العلم ان اللغة الاكدية لم تكن لغة رسمية لا في مصر ولا في الدويلات والممالك السورية وان مجرد استخدامها في المكاتبات الرسمية التي كانت تتم بين حكام وملوك الشرق الادنى القديم في اواسط الالف الثاني قبل الميلاد دليل قاطع على ان اللغة الاكدية كانت قد احتلت مركزا مرموقا وبارزا بين لغات الشرق الادنى القديم على الرغم من عدم وجود دولة قوية آنئذ لا في بلاد بابل ولا في بلاد اشور تتمكن من فرض استخدامها في البلدان والاقاليم التابعة لنفوذها • اي ان اللغة الاكدية بخطها المسماري كانت في تلك الفترة اشبه باللغة الدبلوماسية التي يتفاهم بها الحكام والملوك الذين يتكلمون لغات مختلفة ويستخدمون انظمة كتابية مختلفة ايضا •

اللهجات الاكدية

قد لا يعبر مصطلح « اللهجات الاكدية » تعبيرا دقيقا عما يقصد به في هذا المجال . فما يقصد باللهجة عادة لسان فريق من الناس مراعى فيه قيود صوتية خاصة تلاحظ عند الاداء ، كتدقيق الحرف او تفخيمه ، همزه او تليينه ، سرعته او ابطائه ، امالته او عدم امالته . في حين يقصد باللغة الالفاظ الموضوعة لتمييز المعاني الموضوعة لها اكمل تمييز . لذا فان اكثر ما تظهر فيه اللهجة وتلمس في افواه الناطقين بها والسنة المتكلمين وهذا ما لا يتوفر لدينا بالنسبة الى اللغة الاكدية ولهجاتها المختلفة التي نعرفها من خلال نصوصها المدونة فحسب .

ومع ذلك ، فقد استخدمنا مصطلح « اللهجات الاكدية » للدلالة على اللغات التي تعرفنا عليها من خلال النصوص المدونة وميزنا بين لغة النصوص بالنسبة الى المناطق التي انتشرت فيها والفترات الزمنية التي استخدمت خلالها وكذلك بالنسبة الى بعض الخصائص والميزات التي ظهرت على لغة النصوص بتأثير الظروف الخاصة التي تعرضت لها اللغة في هذه المنطقة او تلك وفي فترة زمنية محددة . وقد تكون لغة النصوص المعروفة لدينا مختلفة تمام الاختلاف عما كان سائدا على السنة المتكلمين غير انه لا سبيل الى معرفة اللهجات المحلية الا من خلال ما تعكسه من تأثيرات على لغة النصوص .

ومن المعروف ان اللغة الاكدية تعرضت خلال تاريخها الطويل المزدحم بالاحداث الجسام والتقلبات الكثيرة الى العديد من المؤثرات الداخلية والخارجية كما انها خاضت صراعا عنيفا مع عدد من اللغات المحلية ، كاللغة السومرية ، واللغات الاجنبية ، كلغة الاقوام الكشية والخورية والفارسية واليونانية والارامية وغيرها . ومن البديهي ان تأثرت اللغة الاكدية بهذه المؤثرات وكانت نسبة التأثير ونوعه تختلف من منطقة الى اخرى ومن فترة زمنية الى اخرى . ولم يقتصر هذا التأثير على دخول مفردات لغوية جديدة

الى اللغة الاكدية ولكن تعداه الى الاساليب النحوية واساليب نطق بعض الاصوات والحركات ونسبة المحافظة على القواعد النحوية وشيوع او بطلان استخدام او اتباع اساليب وقواعد معينة وغير ذلك من التأثيرات .

وكان من نتائج ذلك ان امكن تمييز عدد من اللهجات الاكدية المختلفة عن بعضها البعض في صيغتها المدونة ويبقى البعض الاخر خافيا علينا اما لان بعض اللهجات لم تأخذ طريقها للتدوين اصلا او انها لم تؤثر على لغة التدوين أو لان يد التنقيب والكشف لم تصل بعد الى النصــوص التي تشير اليها وتعرفنا بها وفيما يلي تعريف موجز باللهجات الرئيسة التي ميزها الباحثون استنادا الى زمان ومكان انتشار اسـتخدامها ، كما يسـتدل على ذلك من النصوص المسمارية المكتشفة وقد تضاف اليها لهجات اخرى في المستقبل اذا ما اظهرت نتائج التنقيب نصوصا جديدة تحمل سمات خاصة بها .

اولا ــ اللهجة الاكدية القديمة :

وهي اقدم اللهجات الاكدية المدونة ، وعنها تفرعت جميــع اللهجات الاخرى في الفترات الزمنية التالية ، استخدمت اللهجة الاكدية من قبل الاقوام الاكدية نفسها منذ قدومها العراق حتى نهاية سلالة اور الثالثة في اواخــر الالف الثالث قبل الميلاد . ويمكن التمييز بين لهجة نصوص ما قبل العصر السرجوني ولهجة النصوص التي ترقى بتاريخها الى الفترة التالية من ذلك حتى نهاية سلالة أور الثالثة .

وتظهر على هذه اللهجة التأثيرات السومرية بشكل واضح جدا بل ان النصوص الاكدية من هذه الفترة الزمنية مليئــة بالمفردات والمصـطلحات السومرية .

ومنذ اواخر عهد سلالة اور الثالثة ، تبدأ علامات الافتراق عن اللهجات التي استخدمت في القسم الوسطي والجنوبي من العراق أي في بلاد بابل

واللهجات التي استخدمت في القسم الشمالي من العراق ، اي بلاد اشور ، بالظهور • وقد عرفت المجموعة الاولى من اللهجات باللهجات البابلية في حين اطلق على المجموعة الثانية اسم اللهجات الاشورية ••

ثانيا — اللهجات البابلية Babylonian Dialects

١ — البابلية القديمة Old Babylonian

وهي لهجة بلاد بابل خلال العهد البابلي القديم (٢٠٠٠ — ١٦٠٠ ق • م) وهي الفترة التي تميزت بتدفق الاقوام الامورية وسيطرتها على الحكم في العراق وتأسيسها عدد من الدويلات والممالك التي انتهت بتوحيدها في دولة واحدة على رأسها الملك حمورابي • لذلك كانت لهجة هذه الفترة متأثرة باللهجة الامورية التي لم تستخدم للتدوين • وقد كشفت التنقيبات الاثرية عن عشرات الالوف من النصوص المسمارية الاكدية المعروفة باللهجة البابلية القديمة منها ما هو غاية في الاهمية ، كقوانين حمورابي وقانون اشنونا ، وبعض النصوص القانونية والادبية والدينية والاقتصادية والرياضية •

ونظرا لوفرة نصوص هذه الفترة وتوزعها على عدد كبير من المدن والمناطق ، يمكن تمييز عدد من اللهجات المحلية ضمتها تلك النصوص • فهناك لهجة المنطقة الجنوبية الموثقة بنصوص مكتشفة في مدينة لارسا ولهجة مملكة ماري على نهر الفرات التي تظهر عليها تأثيرات اللهجة الامورية بشكل واضح ولاسيما في اسماء الاعلام ، ولهجة نصوص بلاد عيلام ولهجة منطقة ديالى التي تأسست فيها مملكة اشنونا وغيرها •

ومن الجدير بالاشارة ان العلماء المختصين يعدون اللهجة البابلية القديمة بمثابة اللهجة الاكدية الكلاسيكية نظرا لمحافظتها على معظم الصيغ

والاشكال النحوية الصحيحة ومنها محافظتها على حركات الاعراب والتميم وبعض الصيغ النحوية التي توقف استخدامها فيما بعد ٠

٢ ــ البابلية الوسيطة Middle Babylonian

اطلق الباحثون على لهجة بلاد بابل خلال فترة حكم السلالة الكشية (القرن السادس عشر وحتى القرن الثاني عشر قبل الميلاد) اسم اللهجة البابلية الوسيطة وقد تضاءل في اواخر هذه الفترة استخدام حركات الاعراب وطرأت عليها بعض التغيرات الجديدة نتيجة استخدامها من قبل الاقوام الكشية الغريبة ٠

وقد نشطت حركة التأليف والاستنساخ في هذه الفترة ووصل الينا العديد من النصوص الادبية الرائعة المستنسخة عن نصوص اقدم مثل ملحمة جلجامش وقصة الطوفان المعنونة « اتراحاسيس » وقصة ايوب البابلي الى جانب النصوص الطبية والفلكية والكتابات الخاصة بالتنجيم وطائفة من الاثبات او المعاجم يتضمن بعضها بعض المفردات الكشية وما يقابلها باللغة الاكدية ٠

٣ ــ البابلية الحديثة New Babylonian

تتمثل اللهجة البابلية الحديثة بالنصوص الاكدية التي ترقى بتاريخها الى الفترة بين ١٠٠٠ ق٠م حتى سقوط الدولة الاشورية في حدود ٦٠٠ ق ٠ م ٠ والمكتشفة في بلاد بابل وتحمل هذه النصوص تأثيرات ارامية واضحة وتتميز بفقدان حركات الاعراب ٠

٤ ــ البابلية المتأخرة Late Babylonian

وهي اللهجة التي استخدمت في بلاد بابل خلال العصر البابلي الحديث (٦٢٦ ــ ٥٣٩ ق ٠ م) وحتى زوال استخدام اللغة الاكدية في بلاد بابل واشور في حدود التاريخ الميلادي ٠

وفي هذه الفترة كانت اللغة الارامية اخذة بالانتشار كما كان حال الخط الارامي الابجدي ذي الرموز القليلة والبسيطة مقارنة مع العلامات المسمارية الكثيرة والمعقدة وعلى الرغم من محاولات كهنة بلاد بابل اليائسة في المحافظة على اللهجة البابلية وتقليد الاساليب القديمة الا ان اللغة الاكدية كانت في طريقها للزوال . وقد استخدم الكهنة في محاولاتهم هذه صيغا وأساليب لم تكن تستخدم في لغة التخاطب اطلاقا .

ثالثا ــ اللهجات الاشورية Assyrian Dialects

انتشر استخدام اللغة الاكدية في بلاد اشور منذ الالف الثالث قبل الميلاد ، غير انها تميزت ببعض الخصائص التي اكتسبتها في بلاد اشور نتيجة تعرضها لمؤثرات داخلية وخارجية تختلف عن تلك التي تعرضت لها في بلاد بابل . ويميز الباحثون ثلاث لهجات اشورية رئيسة استخدمت في بلاد اشور في ثلاث مراحل زمنية متتابعة هي :

١ ــ الاشورية القديمة Old Assyrian

وتمثل هذه اللهجة بنصوص الفترة ٢٠٠٠ ــ ١٧٥٠ ق . م وعدد هذه النصوص قليل ومعظمها نصوص ملكية اكتشفت في بلاد اشور الاصلية اضافة الى الرسائل والوثائق الرسمية الكثيرة المكتشفة في المراكز التجارية الاشورية في منطقة كبدوكيا في آسيا الصغرى . وبديهي ان هناك بعض الاختلافات بين لهجة النصوص المكتشفة في بلاد اشور نفسها وتلك المكتشفة في منطقة كبدوكيا .

٢ ــ الاشورية الوسيطة Middle Assyrian

وتمثلها النصوص الاكديـة التي تعود الى النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد . ومن اهم هذه النصوص القوانين الاشورية الوسيطة المكتشفة في مدينة اشور والعديد من النصوص القانونية الاخرى وبعض

الرسائل والنصوص الادبية والملكية ومعظم النصوص الادبية والملكية تحمل تأثيرات بابلية .

٣ ـ الآشورية الحديثة New Assyrian

لقد وصل الينا اعداد كبيرة جدا من النصوص المدونة باللهجة الاشورية الحديثة منها ماهو غاية في الاهمية التاريخية ، كالمراسلات الملكية والمعاهدات والاتفاقات والرسائل الشخصية المكتشفة في العواصم الاشورية ولا سيما مدينة نينوى والنمرود ومنها الوثائق الاقتصادية والقانونية وفي اواخر هذه الفترة تظهر على اللهجة تأثيرات ارامية قوية جدا .

وهناك لهجة اكدية اخرى استخدمت في الفترة بين (١٤٠٠ ـ ٦٠٠ ق . م) لتدوين النصوص الادبية والحوليات الملكية في كل من بلاد بابل واشور ولم تكن لغة هذه النصوص تستخدم للتخاطب بل اقتصر استخدامها على التدوين فقط . لذلك حوت بعض الاساليب والصيغ النحوية التي لاتستخدم في اللغة الاكدية الاعتيادية اطلاقا .

ومع الاختلافات الموجودة بين اللهجات الاكدية البابلية والاشورية ، الا انه من اليسير على الباحث المتخصص في احدى اللهجات ان يقرأ نصوصا مدونة بلهجة اكدية اخرى ان هوالم الماما بسيطا بخصائص تلك اللهجة . فالتباين الموجود بين اللهجات الاكدية هو بالتأكيد اقل من التباين الموجود بين اللهجات العربية نظرا لان المساحة التي انتشرت فيها اللهجات العربية هي اوسع بكثير من المساحة التي انتشرت فيها اللهجات الاكدية الرئيسة وان لذلك اثره في زيادة او نقصان اوجه الاختلاف بين لهجات اللغة الواحدة .

و ـ تدوين اللغة الاكدية

(أ) الكتابة المسمارية واللغة الاكدية

من المعروف ان للنظام الكتابي المستخدم في تدوين اللغة ، اية لغة ، اثرا كبيرا على دقة التعبير عن اصوات تلك اللغة واسلوب نقل الفاظها الى الغير ، فالنظام الكتابي المستخدم لتدوين اللغة مهما بدا صادق التعبير ودقيق النقل فانه عاجز عن نقل اصوات اللغة المحلية نقلا دقيقا كاملا وان ظن الكاتب والقاريء ذلك . فمحاولات الكاتب والقاريء المستمرة لمطابقة الرموز المستخدمة في الكتابة مع الالفاظ والاصوات المحلية تدخل الشعور في النفس بان هذه الرموز تمثل في الواقع اللغة المحلية تمثيلا دقيقا في حين ان تمرير هذه الرموز ببعض الاختبارات يشير الى غير ذلك . فمثلا ، اذا مااستخدمت كتابة ما لتدوين اللهجات المحلية ، ولاسيما تلك اللهجات التي لم يسبق تدوينها والتعارف على اسلوب كتابتها وقراءتها ، لتبين بان الكتابة غير قادرة في احيان كثيرة على نقل اصوات اللهجة وسيصعب على القاريء قراءة مادون من الفاظها ان لم يكن ملما الماما كاملا باسلوب نطق تلك اللهجة ، فاذا مااستخدم الحرف العربي مثلا ، المعروف بكثرة رموزه وملاءمته لنقل اصوات اللغة العربية ، والذي وجد اصلا لتدوينها ، لتدوين بعض اللهجات المحلية التي لم يسبق تدوينها ، كاللهجة البدوية او الموصلية لتبين بوضوح عجزه عن التعبير عن كثير من الاصوات والالفاظ بشكل دقيق على الرغم من ان هذه الاصوات والالفاظ لاتختلف كثيرا عن اصوات والفاظ اللغة العربية الفصحى او اللهجات العربية الاخرى التي سبق تدوينها ، كاللهجة البغدادية او المصرية ، والتي تعارف الناس على اسلوب قراءتها واعتادوا على طريقة نقل اصواتها للغير .

اما اذا كانت الكتابة المستخدمة لنقل اصوات والفاظ اللغة العربية هي كتابة وجدت اصلا لتدوين لغة اخرى تختلف عن اللغة المراد تدوينها ،

كما هي الحال عندما تدون اللغة التركية مثلا بالحرف العربي او عندما دون الاكديون والبابليون والاشوريون لغتهم الاكدية بواسطة الكتابة المسمارية التي وجدت اصلا لتدوين اللغة السومرية ، فأن نسبة الدقـة في التعبير عن اصوات تلك اللغات تقل كثيرا .

فقد جاءت علامـات الكتابة المسمارية الصورية والرمزية ومقاطعهـا الصوتية مطابقة لما كان موجودا فياللغة السومرية منمفردات الى درجة كبيرة ومعبراً عن الاصوات التي احتوتها اللغة السومرية نفسها . لذا كانت الكتابة المسمارية ملائمة لنقلاصواتها ومعبرة عن الفاظها، اما فيحالة استخدام الكتابة المسمارية لتدوين اللغة الاكدية ، وهي لغة تختلف تمام الاختلاف عن اللغة السومرية باصواتها والفاظها ومفرداتها واسلوب نطقها ، فان دقة التعبير تقل كثيرا . واللغة السومرية تكاد تخلو من الاصوات الحلقية والاصوات المشددة أو المضـخمة . لذا جاءت العـلامات المسـمارية خالية من العـلامات المعبرة عن هذه الاصوات . وعندما اراد الاكديون تدوين لغتهم بواسطة الكتابة المسمارية واجهوا صعوبات جمة في التعبير عن اصوات والفاظ لغتهم حيث ان اللغة الاكدية على العكس من اللغة السومرية تزخر بالاصـوات الحلقية والمشددة شأنها في ذلك شأن بقية افراد عائلة اللغات العربية القديمة التي تنتمي اليها ، كاللغة الارامية واللغة العربية . ولنا ان نفترض ان اللغـة الاكدية بصيغتها التي نطق بها الاكديون كانت تضم الاصـوات التي يرمز لها عادة بالرموز حوعوغوتوطوصوضوظوثوذ اسوة ببقية اللغـات العربية القديمة ولاسيما اللغة العربية . وحيث ان الكتابة المسمارية لا تضم علامات تعبر عن هذه الاصوات ، فقد أضطر الكتبـة للتعويض عن هذا النقص اما باستخدام علامات ذات مقاطع صوتية قريبة من حيث النطق الى تلك الاصوات الاكدية اوانهم خصصوا بعض العلامات المسمارية للتعبير عنها وتعارفوا على ذلك أو انهم استحدثوا علامات جديدة لسـد النقص

الموجود في الكتابة المسمارية وتشير النصوص المسمارية الاكدية الى انهم فعلوا ذلك جميعا فاستخدموا المقاطع الصوتية التي تضم صوت ت او د للتعبير عن صوت ط الاكدي ، كما استخدموا العلامات الخاصة بحروف العلة للاشارة الى بعض الاصوات الحلقية القريبة منها من حيث النطق وخصصوا بعض المقاطع الصوتية لتدوين الاصوات الحلقية والمشددة • وكان من نتائج استخدام الكتابة المسمارية في تدوين اللغة الاكدية ان فقدت اللغة الاكدية تدريجيا بعض خصائصها الصوتية في صيغتها المدونة على اقل تقدير ، وابتعدت عن بقية افراد عائلتها التي استخدمت نظما كتابية اكثر ملاءمة للتعبير عن اصواتها •

وقد يتساءل المرء عن كيفية قراءة النصوص الاكدية من قبل الاكديين انفسهم وهل انهم تجاوزوا النقص الموجود في الكتابة المسمارية ولفظوا المفردات الاكدية باسلوب اللفظ الاكدي الاصيل وبغض النظر عما عبرت عنه العلامات المسمارية ام انهم غيروا في اسلوب لفظهم ونطقهم المفردات الاكدية المدونة ؟ اي هل انهم لفظوا ونطقوا الاصوات الحلقية والمشددة ام انهم خففوا تلك الاصوات وقرأوها كما يقرأ الاوربي لغتنا العربية المدونة بالخط اللاتيني ؟ ان الاجابة على هذه التساؤلات ليست بالأمر الهين ويبدو لنا ان الاكديين حافظوا على اسلوب لفظ لغتهم الاكدية الى درجة كبيرة ، في الفترات المبكرة من تدوينها على اقل تقدير ، وتجاوزوا النقص الموجود في العلامات المسمارية لاسيما ان الكتابة لم تكن منتشرة انتشارا واسعا بين الاقوام الاكدية لتؤثر تأثيرا واضحا على اسلوب نطق الالفاظ وتغير منها مما جعل تأثير الكتابة على الاسلوب الكتابي فحسب •

الى جانب هذه التاثيرات السلبية التي افرزتها الكتابة المسمارية على اللغة الاكدية فان لهذه الكتابة تاثيرات ايجابية غاية في الاهمية حيث انها

تميزت عن غيرها من الكتابات التي استخدمت لتدوين اللغات العربيـة القديمة (السامية)بانها تعبر دائما عن الحركات في الكتابة ، وذلك لانهـا كتابة مقطعية وليست ابجدية ، وان كانت لاتفرق كثيرا بين الحركات الطويلة والقصيرة . وقد افادت هذه الميزة كثيرا في دراسة قواعد اللغة الاكدية وفهم نصوصها فهما دقيقا .

(ب) الحرف العربي واللغة الاكدية

وهكذا اخذ الاكديون الكتابة المسمارية ودونوا بواسـطتها لغتهم الاكدية منذ اواسط الالف الثالث قبل الميلاد فكانت اللغة الاكديـة بذلك اولى اللغات العربية القديمة التي وجدت طريقهـا الى التدوين والحفظ ، فقد كان لطبيعة المواد التي استخدمت للكتـابة المسـمارية ، وهي الطين والحجر بالدرجة الرئيسة ، اكبر الاثر في الحفاظ على النصوص الاكديـة لالاف من السنين بصيغتها وشكلها الاصـلي دون ان تتعرض للمؤثرات الخارجية خلافا لما قاسته نصوص بعض اللغات الاخرى التي دونت على مواد سريعة التلف ، كورق البردي والرق والقرطاس ، والتي تعرضت اما للفقدان والتلف الكامل او للاستنساخ تلو الاستنساخ وما قد يطرأ عليها نتيجـة ذلك .

وظلت اللغة الاكدية تدون بواسطة الكتابة المسمارية حتى اواخـر الالف الاول قبل الميلاد ثم بطل استخدامها واستخدام الكتابة المسمارية وغابت في بطون التلال والمواقع الاثرية لمئات من السنين ولم يعد يعرف عنها وعن المتكلمين بها شيء يذكر . ومنذ القرن الثامن عشر الميلادي ، بدأت محاولات العلماء الاوربيين في حل رموز الكتابة المسمارية ومن خلالهـا التعرف على اللغات التي دونت بواسطتها وكانت في مقدمتها اللغة الاكدية ، وبعد أن حلت رموز الكتابة المسمارية في اواسط القرن التالي وعرفت اللغة

الاكدية كان على العلماء ان يجدوا طريقة مناسبة لنقل محتواها الى القاريء المعاصر بديلا عن الكتابة المسمارية المعقدة التي لا يعرف علاماتها الا عدد قليل من العلماء المتخصصين . فكان طبيعيا ان يستخدم العلماء الاوربيون الحرف اللاتيني لنقل اصوات اللغة الاكدية الى القاريء المعاصر على الرغم من عدم ملاءمة هذا الحرف لنقل اصوات اللغة الاكدية . فاللغة الاكدية شبيهة باللغة العربية وفيها العديد من الاصوات الحلقية والمشددة وغيرها من الاصوات التي لاوجود لها في اللغات الاوربية وقد قاسى الاكديون انفسهم من مشكلة نقل تلك الاصوات بواسطة الكتابة المسمارية التي وجدت اصلا لتدوين اللغة السومرية ، كما ألمحنا الى ذلك ، وتضاعفت المشكلة وزادت تعقيدا في العصر الحاضر عندما بدأ الاوربيون بنقل اصوات اللغة الاكدية التي وصلتنا من خلال النصوص المسمارية الى الحرف اللاتيني الذي يخلو هو الاخر من الرموز التي تعبر عن البقية من الاصوات الاكدية القريبة من اللغات الاخرى وقد اضطر الاوربيون الى ابتداع رموز واشارات جديدة اضيفت الى الحرف اللاتيني لكي يمكن بواسطتها التعبير عن بعض تلك الاصوات . ومن الرموز والاشارات المضافة ومايقابلها بالحرف العربي الرموز التالية :

ق = q ‘ K

ع = ‘

د = ,

خ = ḫ

ص = ṣ

ش = š.

ط = ṭ

اما اذا اريد بيان اصول وجذور المفردات الاكدية وما يقابلها في اللغة العربية او غيرها من اللغات العربية القديمة فلابد من اســتخدام الرموز التالية للاشارة الى الاصوات التي اختفت من اللغة الاكدية نتيجة استخدام الكتابة المسمارية :

ث	t =
ظ	ṭ ' z =
ح	ḥ =
غ	ğ ' g =
ذ	d =
ض	ḍ =

وبهذه الطريقة ، استطاع الاوربيون نقل اصـوات اللغة الاكدية الى القراء المعاصرين وغدت الطريقة التي ابتدعوها بما فيها من رموز تعـارفوا على استخدامها هي الطريقة الوحيدة والشائعة لنقل اللغة الاكدية حتى بين العلماء والمتخصصين العرب وغدت النصوص الاكدية المنقولة بواســطة الحرف اللاتيني برموزه واشاراته المستخدمة الكثيرة نصوصا تبدو غريبة على كثير من القراء باستثناء المتخصصين في دراسة اللغة والكتابات الشرقية كما اثرت هذه الطريقة على اسلوب نطق وتلفظ الاصوات والالفاظ الاكدية التي حاول الكتبة القدماء نقلها الينا حيث ان الغربيين لا يحسنون نطـ العديد من الاصوات الحلقية والمشددة .

وحيث ان اللغـــة الاكديـــة هـــي مـــن اللغـــات العربيـــة القديمـــه « الجزريـــة » التـــي تنتمـــي اليهـــا لغتنـــا العربيـــة وان الحـــرف العربـــي الابجـــدي هـــو اكثـــر الحـــروف ملاءمـــة لنقـــل اصـــوات هذه اللغـــات ، لذا فأن اســـتخدامـــه لنقـــل اصـــوات اللغة الاكدية الى القاريء المعاصر سيقضي على العديد من المشاكل والصعوبات التي تواجـه

الباحث عند نقله اصوات اللغة الاكدية بواسطة الحرف اللاتيني وسوف لن يضطر الى ابتداع رموز واشارات جديدة تعبر عن الاصـــوات الحلقيـــة والمشددة وغيرها من الاصوات التي لاتوجد رموز لها في الحرف اللاتيني بل سيكون من اليسير على الباحث ان يعبر حتى عن الاصوات التي اهملت نتيجة استخدام الكتابة المسمارية في تدوين اللغة الاكدية حيث ان الحرف العربي يضم معظم الاصوات التي يفترض انها كـانت موجودة في اللغـــة الاكدية وفي اللغة الجزرية (الأم) ومثال ذلك رموز الاصوات : ض ، ظ ، ث ، خ ، غ ، ذ . ولتوضيح ذلك نورد فيما يلي بعض المفردات الاكديـــة مدونة بالحرف اللاتيني والحرف العربي من أجل المقارنة :

الكلمة الاكدية بالحرف العربي	جذر الكلمة	المعنـــى	الكلمة الاكدية بالحرف اللاتيني
أخُ	أخ	أخٌ	aḫu
طابُ	طيب	طيبٌ	ṭâbu
طَباخُ	طبخ	قَتَل (طَبَخ)	ṭabāḫu
شَطارُ	شطر	كَتَب ، سَطَّر	šaṭāru
صَلمُ	صلم	اسود ، ظلام	ṣalmu
قَلو	قلى	يحرق ، يقلي	qalû

اما بالنسبة للاصوات الاكدية التي لايوجد مايعبر عنها بواسطة الحرف العربي فهي صوت الباء المخففة p والتي يقابلها في العربية صوت الفاء ، والكاف الثقيلة g التي يقابلها صوت الجيم وبالامكان استخدام البـــاء والكاف الفارسية پ و گ للاشارة الى ذلك .

ان نقل اللغة الاكدية الى القاريء المعاصر بواســـطة الحرف العربي

سيوضح للقاريء بشكل جلي الترابط القوي بين اللغتين العربية والاكدية وبالتالي سيعمل على تحفيز المتخصصين باللغة العربية لدراسة اللغة الاكدية والافادة منها في فهم وتفسير ماغمض فهمه وتفسيره من مفردات لغوية او تراكيب واساليب نحوية نظرا لان اللغة الاكدية هي اولى اللغات العربية القديمة المدونة • اضافة الى ذلك ، فان وضوح الترابط اللغوي بين الاكدية والعربية سيشجع على دراسة اللغة الاكدية وقراءة نصوصها ومقارنتها مع ماهو متوفر لدينا من تراث مدون باللغة العربية •

ذ ـ اللغة الاكدية واللغة العربية

ليس غريبا ان يلاحظ الباحث في قواعد اللغة الاكدية التشابه الكبير بين اللغة العربية واللغة الاكدية ، فكلتا اللغتين تتفرعان من اصل شجرة واحدة كان منبتها الاول في شبه الجزيرة العربية ، تلك هي شجرة اللغات الجزرية «العربية القديمة» ولقد امتدت اغصان تلك الشجرة لتغطي معظم انحاء الشرق الادنى القديم منذ اقدم العصور التاريخية المعروفة حتى الآن •

ومع التشابه العام بين هذه اللغات ، فان هناك اختلافات كثيرة في التفاصيل املتها الظروف التي تعرضت لها كل لغة من هذه اللغات في حياتها الطويلة بعد تفرعها عن الاصل وقد حاول الباحثون المتخصصون ان يضعوا تلك الاختلافات في حدود قواعد عامة مستندين في ذلك على دراساتهم اللغوية المقارنة •

وبالنسبة الى اللغة الاكدية التي انتشرت في العراق منذ مطلع الالف الثالث قبل الميلاد وحتى اواخر الالف الاول قبل الميلاد ، فان ارتباطها التاريخي والجغرافي مع اللغة العربية وثيق الى درجة كبيرة تستوجب منا الاهتمام بدراسة قواعدها دراسة مفصلة وعقد المقارنات بينها وبين اللغة

العربية للتعرف من خلال ذلك على اوجه التشابه بينهما ومدى ارتباطهما بيعضهما .

ولسنا هنا في مجال البحث في قواعد اللغة الاكدية ولكن يبدو من المفيد ان نشير الى بعض اوجه الشبه الرئيسة بين قواعد اللغتين الاكدية والعربية وبشكل موجز جدا .

فاذا اخذنا الاسم في اللغة الاكدية فان معناه يحدد ، كما في اللغة العربية ، بالجنس والعدد وحالة الاعراب . فمن حيث الجنس يكون الاسم اما مذكرا او مؤنثا وليس هناك جنس محايد كالذي نجده في اللغات الاوربية . وليس للاسم المذكر علامة خاصة به في حين تلحق معظم الاسماء المؤنثة تاء التأنيث التي تضاف الى جذع الاسم المذكر قبل حركة الاعراب تماما كما هي الحال في اللغة العربية . وقد يكون الاسم في حالة المفرد او المثنى او الجمع ، ويصاغ الاسم المثنى بزيادة الف ونون او ياء ونون اما الجمع فيصاغ امابمد حركة الاعراب لتصبح واوا في حالة الرفع ، وياء في حالتي النصب والجر او باضافة الف ونون الى الاسم المفرد قبل حركة اعرابه . وبالنسبة الى جمع المؤنث فالقاعدة الاساسية في ذلك مشابهه لجمع المؤنث السالم في اللغة العربية حيث تتم باضافة الف وتاء الى جذع الاسم تلحقها حركة الاعراب المناسبة . وحركات الاعراب في الاسم ثلاث هي الضمة والفتحة والكسرة يلحقها التميم . ويقصد بالتميم الصوت الذي يعبر عنه حاليا بصوت الميم الذي يلحق الاسم والصفة في حالة المفرد وحالات جمع المؤنث وذلك بعد حركة مباشرة . وكان التميم يستخدم في العصور الاولى بشكل منتظم ولاسيما في العهد البابلي القديم ثم بدأ يتناقص استخدامه تدريجيا حتى تلاشى في العصور المتاخرة . وعلى الرغم من الشبه الكبير بينه وبين التنوين في العربية فان التميم هو غير التنوين .

وتتبع الصفة الاسم الموصوف من حيث التذكير والتأنيث وتتفق معه من حيث العدد وحالة الاعراب .

وفي اللغة الاكدية انواع عدة من الضمائر فهناك الضمائر الشخصية المنفصلة والضمائر الشخصية المتصلة بالاسم او الفعل . وقد يكون الضمير في حالة الرفع او النصب او الجر كالاسم تماما .

اما بالنسبة للفعل في اللغة الاكدية فينقسم من حيث قوة احرفه الى صحيح ومعتل ومن حيث اصله الى ثلاثي ورباعي ومن حيث معناه الى متعد ولازم . وللفعل في اللغة الاكدية اربع صيغ رئيسة هي الصيغة البسيطة والصيغة المضعفة والصيغة السببية وصيغة المبني للمجهول ويمكن اشتقاق صيغ ثانوية من هذه الصيغ الاربع باضافة المقطع تَ ta او تَن tan الى الفعل .

وللفعل في اللغة الاكدية اربعة ازمنة اضافة الى صيغة الامر هي الزمن المضارع (او الحال) والزمن الماضي والزمن التام والحالة المستمرة . ويصرف الفعل باضافة الضمائر الشخصية المتصلة الى بدايته ونهايته في حالتي الماضي والمضارع وبذلك فان اللغة الاكدية تختلف عن بقية اللغات العربية القديمة ، ومنها اللغة العربية في تصريف الفعل الماضي حيث تلحق الضمائر باول الفعل الماضي .

اما بالنسبة للتشابه بين مفردات اللغة الاكدية واللغة العربية فكبير جدا . فاصول وجذور معظم الافعال والمفردات اللغوية واحدة وان اختلفت بعض اصوات اللغتين وفق قواعد لغوية معينة كتبدل الشين في الاكدية الى سين في العربية والضاد الى صاد والغين الى خاء والذال الى راء وسقوط اغلب الحروف الحلقية في اللغة الاكدية واحلال حروف العلة بدلا عنها ، كما يلاحظ تغير بسيط في المعنى العام للكلمة اما الاساس فهو واحد في كلتا اللغتين وفيما يلي بعض الامثلة على ذلك :

الكلمة العربية	الكلمة الأكدية	
أب	آبُ	abu
امة	أَمةُ	amtu
بيت	بيتُ	bîtu
قضى ، دان	دانُ	dânu
ذكر	زَكارُ	zakâru
طاب	طابُ	tâbu
ارسل ، طرد	طَرادُ	tarâdu
لب ، قلب	لِبُّ	libbu
لسان ، لغة	لِشانُ	lišanu
مرض	مَراصُ	marāṣu
مرض	مُرصُ	mursu
نفس ، حياة	نَپِشتُ	napištu
حمى ، نصر	نَصارُ	naṣāru
نهر	نارُ	nâru
نور	نورُ	nûru
فم ، فو	پو	pû
فتح	پِتو	pitû
مسك ، ضبط	صَباتُ	ṣabātu
صغير	صِخرُ	ṣiḫru
قرب	قِريبُ	qirību
كبر ، ربى	رَبو	rabû
كتب ، سطر	شَطارُ	šatāru
سلم	شَلامُ	šalāmu

التراث اللغوي

لقد كان للعمر الطويل الذي عاشته اللغة الأكدية لغة تدوين وتخاطب وللانتشار الواسع الذي شهدته وللصراع العنيف الذي خاضته مع اللغات الاخرى المحلية والاجنبية ، اثر واضح في دخول الكثير من المفردات اللغوية الاكدية الى تلك اللغات وبالعكس فمنذ الفترات المبكرة من وجود الاكديين في العراق ، دخلت مفردات اكدية عديدة في اللغة السومرية ، وفي الفترات التالية ، ولاسيما في الفترات التي اعقبت سقوط الدولة الاشورية والدولة البابلية الحديثة ، انتقل العديد من المفردات اللغوية الى اللغات الاجنبية التي تنشر استخدامها في العراق وبقية انحاء الشرق الادنى القديم كاللغة اليونانية والفارسية والارامية . وقد تنتقل المفردات الأكدية الدخيلة في هذه اللغات الى لغات اخرى ، كما حدث ذلك بالنسبة لبعض المفردات التي انتقلت بواسطة اللغة اليونانية الى اللغات الاوربية ، او المفردات التي انتقلت من خلال اللغة الارامية أو الفارسية الى العربية . وحيث ان اللغة الأكدية لم تكن معروفة للباحثين اللغويين قبل القرن التاسع عشر الميلادي لذا اكتفت المعاجم اللغوية ، ومنها المعاجم العربية ، في عد تلك المفردات الغريبة من « الدخيل » او « الاعجمي » او ارجاع اصولها ، في احسن الاحوال ، الى احدى اللغات التي كانت معروفة انذاك كاللغة الفارسية او السريانية او العبرية او اليونانية .

اضافة الى ذلك ، هناك الكثير من الرواسب اللغوية العراقية القديمة التي يمكن ملاحظتها في اللهجات الدارجة سواء في اسلوب اللفظ او المفردات اللغوية وتلاحظ هذه الرواسب بشكل خاص في اسماء بعض النباتات والالات والادوات الزراعية وماله علاقة بالحرف والصناعات اليدوية التي كانت معروفة منذ الازمنة القديمة غير ان ليس هناك دراسات متكاملة تجمع تلك

الرواسب وتبين اصولها القديمة باستثناء الجهود القيمة التي بذلها استاذنا المرحوم طه باقر في كتابه الاخير «من تراثنا اللغوي القديم» والذي جمع فيه عددا من المفردات اللغوية السومرية والاكدية التي دخلت لغتنا العربية .

ونورد فيما يلي قائمة باهم المفردات اللغوية العراقية القديمة التي دخلت اللغة الانكليزية وبعض اللغات الاوربية الحديثة الاخرى عن طريق اللغة اليونانية .

لفظ الكلمة بالحرف العربي	لفظ الكلمة بالحرف اللاتيني	المعنى	الكلمة الانكليزية
خَرُبَ	ḫaruba	خرنوب ، خروب	Carub
كَركَنُ	kurkanu	كركم	Crocus
كَمَنُ	kamanu	كمون	Cummin
گَصُّ	gaṣṣu	جبس ، جص	gypsum
زُپُ	zupu	حشيشة الزوفاء	hyssop
لَدَنُ	ladanu	لاذن	ladanum
مُرُّ	murru	مر	myrrh
نَپتُ	naptu	نفط	naphtha
آزُپِرَنُ	azupiranu	زعفران	saffron

وهناك مفردات لغوية اخرى دخلت اللغات الاوربية الحديثة ، ومنها اللغة الانكليزية ، وهي ترتبط ارتباطا وثيقا بالتراث اللغوي العراقي القديم ومن هذه المفردات :

الكلمة الاكدية بالحرف العربي	لفظ الكلمة بالحرف اللاتيني	المعنى	الكلمة الانكليزية
گـُخل ُ	guhlu	الكحول	Alcohol
قلات	qalāti	ملح القلي	Alkali
قان ُ	qānu	قصب	Cane, Canor
		عصا القياس	dragoman
تَرگُمان ُ	targumānu	ترجمان	horn
كَرن ُ	Karnu	قرن	mesquin
مُشكين ُ	muškênu	فقير (فرنسية)	meschino
		بخيل (ايطالية)	
مِنا	mina	من	mina
لِبِت ُ	libittu	آجرة ، طابوقة	plinth
شِقل ُ	šiqlu	شاقل	shekel
كَرش ُ	karšu	كرز	cherry

اضافة الى ذلك ، فان الدراسات اللغوية الحديثة بينت ان هناك الكثير من المفردات اللغوية الدخيلة في اللغة العربية ، والتي حار اللغويون في معرفة اصولها سابقا ، ترجع باصولها الى التراث اللغوي العراقي القديم • وقد قام الاستاذ الفاضل المرحوم طه باقر بجمع وتصنيف هذه المفردات وبيان اصولها في كتابه القيم المشار اليه سابقا •

وفيما يلي نماذج منتخبة من هذه المفردات :

الكلمة العربية	الاصل العراقي القديم		الملاحظـات
آجر	أگُرُّ	agurru	
اجاص	انگاش	angaše	
ارجوان	آرگَمانُ	argamanu	
اسكافي	آشكاپُ	aškapu	
اسكفة	آسكُپَّتُ	askuppatu	
اسفين	سُپِّنُ	suppinu	
الآس	آسُ	asu	
اشكاره	إِشكارُ	iškaru	
اكو ـ ماكو	اكو ـ ماكو	akū, makū	العامية بمعنى يوجد ـ لا يوجد
بارية	بُرُ	buru	نوع من الحصر (عامية) آلـة
تبلية	تَبالُ	tabālu	يرقى بواسطتها الى اعلى النخلة
ترجمان	تَرگُمانُ	targumānu	
جص	گَصُّ	gaṣṣu	
جمار	گِشِمارُ	gišimmāru	
خلال	تُخَلُّ	tuhallu	بلح لم ينضج بعد
خمط	خَماطُ	hamātu	اخذ بسرعة
خمش	خَماشُ	hamāšu	
دبس	دِشبُ	dišbu	عسل
زمبيل	زَبِّلُ	zabbilu	
سعف	سِپّاتُ	sappâtu	
سمسم	شَمَشَمُّ	šamašammu	
شاقل	شِقلُ	šiqlu	
عدن	إِدِنُّ	edinnu	

الكلمة العربية	الأصل العراقي القديم		الملاحظات
فلش . . .	پَلاشُ	palâšu	خرب او نقض الحائط
قفة	قُپُّ	quppu	
قنب	قُنَّبُ	qunnabu	
كبة	كِپَّةُ	kippatu	
كتان	كِتُ	kitu	
	كِتِنُ	kitinu	
كحل	گُخلُ	guḫlu	
كر	كُر	Kur	
كرز	اكَرشُ	Karšu, karsu	
كرسي	كُسُّو	Kussû	
كركم	كُركَنُ	Kurkanu	
كلك	كَلَكُّ	Kalakku	
كمثرى	كَمِشَرُّ	Kamešarru	
كمون	كَمَنُ	Kamanu	
لوبياء	لُبُّ	lubbu	
مر	مَرُّ	marru	
مسكين	مُشكِينُ	muškênu	
مشط	مُشطُ	mušṭu	
من	مِنَ	mina	
نجار	نَگَر	nagar (naggàru)	
نفط	نَپطُ	naptu	
نير	نيرُ	nīru	
هبش	خَبَاشُ	ḫabâšu	دق الحبوب
هيكل	إِكَلُّ	ekallu	

أسماء معظم اشهر السنة المتداولة في العراق والاقطار المجاورة والتي تسمى خطأ بالاشهر الرومية او السريانية ترجع باصولها الى تراث العراق العظيم ومنها :

نيسان	نيسانُ	nīsanu
ايار	أَيّارُ	ayyāru
تموز	تَمّوزُ	tammuzu
آب	آبُ	abu
ايلول	اُولُلُ	ululu
تشرين	تِشْرِتُ	tišritu
شباط	شِباطُ	šibāṭu
آذار	أَدّارُ	addaru

كما يرجع الى التراث اللغوي العراقي القديم اسماء العديد من المدن والانهار ، منها :

اربيل	أربا ـــ إيلُ	Arba - Ilu
بابل	باب ـــ إيلُ	Bāb-Ilu (Ka-Dingir -ra)
الخابور	خَبَرُ	Ḫabaru
الباليخ	بَليخُ	Baliḫu
الفرات	بُراتُم	Buranun Puratum
الزاب الاسفل	زابُ شَبَلُ	Zabu Šaplu
الزاب الاعلى	زابُ إيلُ	Zabu elu

دجلة	إدِگنا	Idigna
تكريت	تِكرِتا	Tikrita
نينوى	نِنُوآ	Nīnua
عانة	آناةْ	A-nāt
هيت	إيتو	Itu

المراجـــع

طه باقر ، من تراثنا اللغوي القديم ، بغداد ، ١٩٨٠

طـه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضـارات القديمة ، بغداد ، ١٩٧٣ .

هاري ســـــاكز ، عظمـة بابـل ، ترجمـــة : د . عامر سليمان ، لندن ١٩٦٢ .

د . سامي سعيد الاحمد ، المدخل الى تاريخ اللغات الجزريــة ، بغداد ، ١٩٨١ .

د . عامر سليمان ، الكتابة المسمارية والحرف العربي ، الموصل ، ١٩٨٣

د . فاضل عبدالواحد علي ، الخط المسماري واللغة الاكدية ، مجلــة كلية الاداب ٣٢ (١٩٨٢) ، ١٨٩ ـ ٢٠٤

صموئيل كريمر ، السومريون ، ترجمة د . فيصل الوائلي ، شيكاغو ، ١٩٦٣ .

د . فوزي رشيد ، قواعد اللغة السومرية ، بغداد ، ١٩٧١

W. von Soden, Grundriss der Akkadischen Grammatik, Roma, 1952.

I. M. Diakanoff, Semito - Hamitic Languages, Moscow, 1965.

L. A. Lipin, The Akkadian Language, Moscow, 1973.

الفصل التاسع

الأدب

د . فاضل عبد الواحد علي

استاذ السومريات ـ جامعة بغداد

مقدمـــة

كان لاجدادنا القدماء منجزات عديدة في ميادين الفكر والعمران اسهمت في تطوير حياة الانسان نحو الافضل. ولكن يبقى فضل العراقيين القدماء في تعليم الناس الكتابة في مقدمة تلك المنجزات العظيمة التي افادت منهـا الشعوب القديمة. فبواسطة الكتابة تدون الكلمة وتحفظ وتنقل من السلف الى الخلف وهذا هو التاريخ في ابسط معانيه . وبقدر مايتعلق الامر بالادب في العراق القديم ، فقد خلف لنا اجدادنا الاوائل تركة ضخمة مدونة على رقم الطين في اللغة السومرية والاكدية ، وهي ايضـا تركة غنية تتميز بالاصالة والتنوع . فالباحث في ادب بلاد وادي الرافدين يجد نفسه امام نتاجات ذات موضوعات مختلفة مثل الاساطير المتعلقة بخلق الكون والانسان والظواهر الطبيعيـــة واساطير الموت والعالم السفلي وملاحم البطولة والبحث عن الخلود . وهناك التآليف التي لها طابع الحكمة كالامثال والنصائح والمناظرات الفلسفية التـي تدور حول العدالة الإلهية والمفاهيم والقيم الاجتماعية . كما وصلتنا نصوص

عديدة في ادب التراتيل والصلوات والادعية وبعض القصص ذات طابع السخرية وهناك ايضا مجموعة من قصائد الغزل وخاصة تلك التي تسجل قصة حب الاله الراعي تموز من الالهة عشتار ، ومجموعة من المرثيات التي تسجل في الواقع احداث تاريخية تتعلق بالكوارث التي حلت ببعض المدن مثل اكد واور . يضاف الى ذلك نماذج متفرقة من النتاج الادبي يصعب حصرها كأن تكون ترنيمة مما انشدت احدى الامهات لطفلها الرضيع عند النوم او اغنية لسماك كان يرددها عند متابعة الصيد .

وتتفاوت هذه النتاجات الادبية في الطول فاحيانا تتكون من عدة مئات من الاسطر او الابيات مدونة على رقيم كبير جدا او عدة رقم واحيانا اخرى تتكون من اسطر قليلة لاتتجاوز العشرين منقوشة على رقيم صغير . وبالرغم من كثرة الوثائق المسمارية المكتشفة في المدن الاثرية في العراق والتي يزيد عددها على نصف مليون ، فان نسبة قليلة منها فقط مدونة باعمال ادبية بينما تتكون الغالبية من نصوص اقتصادية وهي تشكل ٩٠٪ من الوثائق المسمارية المكتشفة . ولهذا يقدر بعض المختصين عدد النصوص الادبية في حدود خمسة الاف رقيم او يزيد على ذلك بقليل .

من المعروف ان السومريين استعملوا الكتابة لاول مرة حوالي ٣٠٠٠ق.م وان فترة مضت تقدر بخمسة قرون قبل ان تتطور ويشيع استعمالها وتصبح اداة طيعة لتدوين النتاج الادبي السومري الذي كان يتداول شفاها . على ان اقدم النصوص الادبية السومرية المعروفة لحد الان يعود تاريخ تدوينها الى حدود ٢٤٠٠ق . م وهي اسطورة مدونة على اسطوانة من الطين مقسمة الى عشرين عمود . والاسطورة تتعلق باله الجو والرياح انليل واخته ننخرساك كما ترد فيها الاشارة الى الهة اخرى مثل اينانا وانكي وننورتا . ان المفردات والمصطلحات والاسلوب وكذلك التركيب العام لهذه الاسطورة تشبه النماذج الأدبية السومرية المعروفة في العصور اللاحقة مما يدل بوضوح على تطور وتواصل مستمرين للحركة الادبية في بلاد وادي الرافدين

ولذلك فالنتاج الادبي في العراق يسبق غيره في القدم مما هو معروف عند المصريين القدماء والكنعانيين والاغريق •

يعتبر النتاج الادبي لبلاد وادي الرافدين مرآة صادقة تعكس كثير من المعتقدات الدينية للسكان وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية • فمن خلال دراسة قصة الخليقة البابلية على سبيل المثال يستطيع الباحث ان يشخص الصفات الاساسية التي ترتكز عليها الديانة في العراق القديم ويستخلص صورة واضحة عن تصور الاقدمين لآلهتهم والصفات التي اضفوها عليهم • ثم ان الصراع العنيف الذي تتحدث عنه هذه الاسطورة والذي جرى بين الالهة القديمة والالهة الحديثة انما يعكس ضمنا الظروف والظواهر الطبيعية القاسية التي سببت معاناة صعبة للفرد العراقي القديم كظاهرة الطوفان السنوي في حين اتسمت قصة الخليقة في وادي النيل بالهدوء لانها كانت وليدة ظروف طبيعية غير عنيفة •

وبالرغم من ان الاساطير الخاصة بالكون والالهة تشغل حيزا كبيرا في الادب العراقي القديم وان كثيرا من القضايا التي عالجوها لم تكن على اساس فكر موضوعي ومنطقي ، الا ان هناك افكارا ومعتقدات سومرية وبابلية لا تبدو بعيدة عن منطق العلم • فقصص الخليقة في العراق القديم تؤكد على ان الكون كان في البدء كتلة واحدة لكن الاله انليل (او مردوخ) شطره الى قسمين خلق منهما السماوات والارض • ثم ان كثيرا من المعتقدات السومرية والبابلية تركت بصمات واضحة في معتقدات اقوام عديدة وعلى وجه الخصوص في معتقدات العبرانيين • فعملية خلق الكون والانسان وقصة الفردوس المفقود وقصة الطوفان التي وردت في سفر التكوين لها ما يناظرها في التآليف السومرية والبابلية • كما ان موضوعات توراتية اخرى مثل قصة ايوب ونشيد الانشاد لسليمان والافكار الخاصة بالموت والعالم السفلي هي الاخرى ذات جذور سومرية وبابلية •

لقد كان مبدأ التشبيه من المبادىء الاساسية التي تتصف بها ديانة سكان بلاد وادي الرافدين ، اذ انهم شبهوا الهتهم بالبشر واضفوا عليها جميع الصفات البشرية فهي عندهم ترضى وتغضب ، تحب وتكره ، تتزاوج وتنجب ، لذلك تظهر آثار هذا المبدأ بشكل واضح في الاسطورة حيث يشخص الالهة تماما مثلما يشخص البشر في اية قصة . وقد ترفع الحجب بين الالهة والانسان في الاسطورة احيانا فنجد الالهة تتحدث وتتعامل مع الانسان الذي يكون في مثل هذه الحالات اما احد الحكماء الاتقياء او احد الملوك . واكثر من ذلك فان بعض الاساطير تصف كيف ان الهة الجنس والخصب عشتار وقعت صريعة في حب كلكامش ، الذي كما نعرف من الملحمة ، لم يكن من الناس الاعتياديين لان ثلثين منه اله وثلثه الاخر بشر . ومع ذلك فان الالهة تتميز دائما بالسمو والرفعة والقدسية وقبل هذا وذاك بالخلود الذي استأثرت به منذ بداية الخليقة .

ومن الامور الطبيعية ان يعكس النتاج الادبي العراقي القديم نمط الحياة التي كان يعيشها الشعراء والادباء في تلك العصور وان تكون الصور والتشابيه التي جاءوا بها منتزعة من واقع حياتهم اليومية في المدينة والريف وفي الهور والسهل والجبل . فالنصوص الادبية تتحدث عن خصب الارض وفيض النهرين العظيمين وعن النخلة شجرة العطاء ، كما تتحدث عن السماء وجمال النجوم حتى انهم جسدوا الهة الحب والجمال عشتار بالزهرة اجمل الكواكب السماوية . واذا اراد الاديب السومري مدح الملك فانه يقارنه في القوة والبأس بصور مستوحاة من واقع الطبيعة فيشبهه بعنز الجبل او بالجواد او بمخلب النسر . اما اذا اراد هو ان يشكو ويتظلم ويعبر عما يكابده من حزن وقهر نجده يشبه نفسه بحال الثور الذي ينوء بحمل النير او الحمامة التي تنوح في بلد غريب او بالقارب الذي يتقاذفه الموج بعيدا عن شاطىء الامان .

ومما يقال عن النتاج الادبي في بلاد وادي الرافدين انه حافظ على اصالته ولم يتعرض الى تغيير اوتحوير • والفضل في ذلك يرجع الى الامانة التي اتصف بها النساخ القدامى انفسهم ، اذ انهم حرصوا على استنساخ الاعمال الادبية في مصادرها الاصلية القديمة كما حرصوا على مطابقتها وتدقيقها • وكان الناسخ يذيل مايستنسخ بالعبارة المأثورة « كتب ودقق وفق النسخة الاصلية » ثم يذكر اسمه واحيانا اليوم والشهر الذي اتم فيه الاستنساخ ولامر من قام به • وكمثال على ذلك نقتبس التذييل الذي كتبه الناسخ في نهاية القصة البابلية الساخرة عن فقير من نفر والتي سنأتي على ذكرها في موضع لاحق • ينص التذييل على ما يلي :

« كتبه ودققه وفق النسخة الاصلية نابو ـ رختو ـ أصر ، الناسخ المساعد ، عضو مجمع نابو ـ اخا ـ ادن امين القصر ، لمطالعة قدري نركال• كل من يأخذ هذا الرقيم عسى ايا (اله الحكمة) ان يأخذه بأمر من نابو (اله الخط) الذي يسكن معبد اى ـ زيدا ، وعسى الا يكون له نسل او خلف • في شهر آذار اليوم ٢١ سنة خاناني (تقابل سنة ٧٠١ ق•م أي خلال حكم الملك سنحاريب) حاكم تل ـ بارسب (تل احيمر جنوب كركميش في اعالي الفرات) اياك ان تأخذ الرقيم او تكسر رقم المكتبة فان ذلك محرم عند الاله ايا ملك مياه العمق » • ومن جهة اخرى فان استخدام الخط المسماري كوسيلة للتدوين في العراق القديم وهو خط صعب تمرست فيه طبقة محدودة من النساخ ، كان من العوامل التي اسهمت في ان يحافظ النتاج الادبي على طابعه القديم والاصيل على مر العصور التاريخية •

ثم ان النتاج الادبي في بلاد وادي الرافدين كان حصيلة ابداع الادباء والشعراء السومريين والبابليين • اذ من المعروف ان السومريين تكلموا لغة ملصقة لم يستطع العلماء ارجاعها الى عائلة لغوية محددة في حين تعود البابلية الى عائلة اللغات الجزرية شأنها في ذلك شأن العربية والارامية • وقد ترجم البابليون بعض الاعمال الادبية السومرية الى البابلية مثل قصة نزول إنانا (عشتار)

الى العالم السفلي والرقيم الثاني عشر من ملحمة كلكامش • وفي بعض الاحيان كان النص السومري يترجم الى البابلية سطرا بسطر فيكون النص المدون عندئذ ثنائي اللغة • وجدير بالذكر ان النصوص لم تقتصر على التآليف الادبية بل شملت نماذج اخرى كالتآليف ذات الطابع الديني مثلا • واذا كان البابليون قد اخذوا كثيرا من المصطلحات والمفردات اللغوية السومرية كما اخذوا الهيكل العام للقصة والملحمة والاسطورة السومرية ، الا انهم من جهة اخرى اضافوا الى ذلك الهيكل « لحما ودما » فخلقوا منه ادبا جديدا في شكله قديما في اصوله • وخير مثال نسوقه في هذا الشأن ان ملحمة كلكامش كان قوامها اربع قصص سومرية تدور حول كلكامش وانكيدو بالدرجة الاولى • لكن رجال الادب البابليين خلقوا من تلك القصص المتفرقة ملحمة جديدة في الاسلوب والموضوع والهدف •

ويلاحظ الباحث في النصوص الادبية من وادي الرافدين انها تعتمد اسلوب التكرار والاعادة في بعض الاحيان خاصة عند رواية خبر على لسان رسول الى واحد او اكثر من شخوص الاسطورة • فالالهة إنانا (عشتار) على سبيل المثال اوصت وزيرها تشوبر بانها عازمة على النزول الى العالم السفلي، مستقر الاموات وان عليه في حالة تأخرها عن العودة ان يذهب الى الاله انليل ويقول له « ايها الاب انليل لا تدع ابنتك الطاهرة تموت في العالم السفلي، لاتدع معدنك الثمين يغطيه تراب العالم السفلي ، لاتدع لازوردك يكسر على يد حجار، لاتدع بقستك تقطع على يد حطاب، ولا تدع العذراء اينانا تموت في العالم السفلي » • ولذلك نجد رسول الالهة يكرر هذا المقطع ثلاث مرات اخرى اثناء تنقله بين الالهة « انليل وننا وانكي » طلبا لنجدة سيدته واخراجها من العالم السفلي ولا شك في ان التكرار يكون مملا احيانا الا انه من جهة اخرى لا يخلو من فائدة للباحث في النصوص المسمارية اذ يساعد على ترميم الاجزاء المفقودة عندما يتعرض النص الى الكسر وهي ظاهرة كثيرة الحدوث بالنسبة لألواح الطين •

واخيرا فقد انتشر النتاج الادبي لوادي الرافدين الى مناطق عديدة من بلدان الشرق الادنى القديم ولاقى استحسانا كبيرا من رجال الادب فيهـا . وقد اظهرت الدراسات التي اجريت في مجال المسماريات خلال الثلاثين سنة المنصرمة ان كثيرا من التآليف والافكار الادبية انتشرت من العـراق القديم الى سوريا وفلسطين ومصر واسيا الصغرى وصولا الى بلاد اليونان وكان في بين ما اكتشف من نصوص مسمارية مدونة في اللغة الاكدية في تل العمارنة (مصر) نسخةمن القصة البابلية المعروفةبقصةادبا التيسنأتي علىذكرها فيمابعد. كما عثر على رقيمين من القصة البابلية الساخرة التي بطلها فقير من مدينة نفر في سلطان تبه وهو احد تلول مدينة حران في اعالي نهر الباليخ . وجدير بالذكر ايضا انه عثر على بعض اجزاء من ملحمة كلكامش في بوغازكوى عاصمـة الحثيين في اسيا الصغرى وعثر على ترجمة حثية واخرى خورية لاجزاء من هذه الملحمة .

ومن المعروف ان النتاج الادبي في العراق القديـم سـواء المدون في السومرية ام البابلية ، كتب اما شعرا او نثرا . وبقدر مايتعلق الامر بالشعر السومري والبابلي فانه يلتزم بالوزن دون القافية شأنه في ذلك شأن الشعر اليوناني واللاتيني والعبراني اما الوزن (العروض) في الشعر البابلي فيقوم على اساس تجزئة الكلمات الى مقاطع طويلة وقصيرة ، ثم تجمع لتكون مايقابل التفعيلات في الشعر العربي ومن هذهيتكون شطرا البيت (الصدر والعجز). والملاحظ فيالمؤلفات الشعريةالسومرية والبابليةانالنساخيتركونفراغا علىرقيم الطين احيانا بين الصدر والعجز مما يسهل مهمة الباحث في سرعة تشخيص النصوص الشعرية وتمييزها عن الكتابات النثرية . وبطبيعة الحال فان البيت الواحد قد لايكفي لاكتمال المعنى وعندئذ يصار الى وحدات شعرية اكبر تصل الى بيتين او اربعة (رباعيات) واحيانا اكثر من ذلك لتكون مايشبـه الدور أو الموشح ..

نماذج من الادب العراقي القديم

قصة الخليقة البابلية

تعتبر اسطورة الخليقة البابلية واحدة من ابرز القصائد الشعرية في الادب الديني ، وهي المصدر الاساسي في دراسة معتقدات البابليين بشأن خلق الكون والانسان . وقد وصلتنا قصة الخليقة البابلية مدونة على سبع رقم من الطين يرجع تاريخها الى العصر البابلي القديم في حدود ١٨٠٠ ق.م ، علما بان هناك قصصا عن الخليقة مدونة في السومرية تسبق هذا التاريخ بعدة قرون .

تذكر قصة الخليقة موضوعة البحث انه في البدء لم يكن هناك شيء يذكر سوى العماء المكون من عنصرين الهيين اولهما مذكر يتمثل في المياه العذبة « ابسو » وثانيهما مؤنث وهي المياه المالحة « تيامة » وانه نتيجة لامتزاج هذه المياه مع بعضها ولد الالهان لخمو ولخامو ثم ولد بعدهما انشار وكيشار اللذان ولدا الاله آنو وهو الذي صار الها للسماء فيما بعد .

وهكذا بدأ عدد الاحفاد يتزايد وبدأ صخبهم يقض مضجع جدهم الاعلى « ابسو » كما ان سلوكهم لم يكن مرضيا بالنسبة له . فهم على مايبدو ارادوا ان ينظموا ويديروا الكون وفق اهوائهم بينما كانت الالهة القديمة وعلى رأسها ابسو تدبر لها المكايد للقضاء عليها مستعينا بذلك بمشورة وزيره مومو . غير ان الالهة اكتشفوا المؤامرة التي كانت تدبر ضدهم فلاذوا باله الحكمة ايا لينقذهم من الخطر المحدق بهم . وتذكر قصة الخليقة البابلية ان الاله ايا عمل تعويذة القاها على ابسو مما سبب له سباتا عميقا وحينئذ انقض عليه وقتله .

ولما سمعت زوجته الالهة تيامة بنبأ مصرعه ثار غضبها وراحت ترغي وتزبد مهددة بالانتقام من قتلته . ووقف عدد من الالهة الموالين لأبسو الى

جانب زوجته وكونوا بذلك جماعة منشقة على بقية الالهة وراحوا يعدون العدة ويهيئون اسلحتهم الرهيبة لشن حرب ضد الالهة الفتية .

عندما سمع هؤلاء بمخطط تيامة الرهيب لشن حرب كاسحة عليهم ، اصابهم الذعر وراحوا يفتشون عن وسيلة تنقذهم من دمار محقق . وكان لابد لهم من ان يجدوا قائدا يجمع صفوفهم لمواجهة تيامة وجيشها الرهيب ، فعمت الفوضى بين الالهة الفتية وهي لا تعرف ماذا تفعل . واخيرا وبعد الاخذ والرد والبحث وقع الخيار على الاله مردوخ ، اله مدينة بابل العظيم ليقود المعركة ضد تيامة وجيوشها .

وتدبر اله الحكمة ايا الموقف ، وهو الذي كان قد انقض على زوج تيامة وقتله ، فجاء الى ابنه مردوخ طالبا منه ان يتولى قيادة الالهة في معركتها المصيرية ، ولابد لنا قبل ان نأتي على تفاصيل المعركة الحاسمة كما ترويها قصة الخليقة البابلية ، ان نرجع قليلا الى وراء والى الرقيم الاول على وجه التحديد لنتعرف على المزايا والخصائص الفذة التي كان يتمتع بها مردوخ الذي قدر له ان يكون الاله القائد والمنقذ للالهة الفتية في صراعها من اجل الوجود . فنحن نقرأ عن الاله وصفاته ما يأتي :

« كان فاتن القوام وكانت عيناه تشعان بالحياة
اجل ! كانت مشيته مشية العظماء
فلما رآه ابوه الاله ايا الذي ولده
انشرح صدره وتوردت وجنتاه وامتلأ قلبه بالسرور
ولم لا ! فقد جاء كامل الاوصاف يوازي الهين في العقل
اجل ! لقد كان ممجدا بين الالهة وكان الاعظم بينهم
كان كامل الاعضاء والاطراف الى حد لا يصدقه عقل
فلا احد يفهمه ولا عقل يدركه »

تلك كانت المزايا الخارقة التي اتصف بها الاله مردوخ والتي جعلته موضع ثقة الالهة التي توسمت فيه القائد البطل والمنقذ الذي يستطيع اخراجها من محنتها امام جحافل تيامة . ويبدأ الرقيم الرابع من اسطورة الخليقة البابلية بمبايعة الالـه مردوخ باعتباره قائدها الاوحد الذي لا نظير له :

« واقاموا له عرشا فاخرا
فتصدر المجلس قبالة آبائه الالهة
وعندئذ بايعوه قائلين : انت الاعظم اجلالا بين الالهة
فقرارك لا يدانيه شيء وامرك هو امر السماء
ومنذ هذا اليوم ستكون كلمتك ثابتة لا تتغير
فمن شئت ان ترفع او تخفض فامره منوط بيديك
أجل ! ستكون كلمتك هي الصحيحة وسيكون قرارك معصوما من الخطأ
ولن يتخط حدودك اي من الالهة ..
يامردوخ انت بالحق من يثأر لنا
ها نحن نبايعك على ملوكية الكون باجمعه
وعندما تأخذ مكانك في المجلس ستكون كلمتك هي العليا
وسوف لن تقهر اسلحتك بل انها ستحطم اعداءك
ياسيدنا انقذ حياة من وضع ثقته فيك
وعسى ان تزهق حياة كل اله اقترف المعصية »

هكذا بايع الالهة مردوخ قائدا لهم . وعندئذ قام القائد من مجلسه وتناول قوسه وصولجانه ثم علق القوس والجعبة الى جنبه . وفي هذا الموضع من الرقيم الرابع تبدأ قصة الخليقة البابلية بذكر تفاصيل المعركة التي قادها مردوخ نيابة عن الالهة الفتية . وتبدأ الاسطورة اولا بالحديث عن الاسلحة المدمرة التي اعدها القائد لهذا النزال فهي تذكر مانصه :

« جعل الرياح الاربع تتمركز في اماكنها لكي لا يفلت احد منها
الريح الجنوبية والشمالية والشرقية والغربية
وعلى مقربة من جنبه ظل يحمل الشبكة ، هدية ابيه آنو
ثم اطلق الريح الشريرة والريح الدوارة والاعصار
والريح الرباعية والريــح الســباعية والعاصــفة الهوجاء وريح اخرى
لا نظير لها
اجل ! لقد اطلق كل الرياح التي جاء بها ، الرياح السبع .
كلها وقفت خلفه لتهيج احشاء تيامة
ثم استدعى البطل عاصفة ـ الطوفان ، سلاحه العظيم .
وامتطى العربة العاصفة ، الكاسحة المرعبة .
وشد اليها فريقا من اربعة :
القاتل ، والحاقد ، والدواس ، والخطاف
لهم انياب قاتلة تحمل السم
كانوا متمرسين في الدمار ، ماهرين في الخراب
وجعل الى يمينه « القارع » المرعب في المعركة
والى يساره « الضارب » الذي يدرأ كل الطامعين »

وتقدم البطل مردوخ وخلفه جنوده في كافة الصنوف وقد حمى جسده بدرع هو « الرعب » ووضع على راسه هالة هي « الرهبة » واطبق شفتيه على تعويذة سحرية وحمل بيده نباتا يقذف السم . واستمر مردوخ في التقدم الى ان صار ، ومن حوله جنده ، على مقربة من تيامة . وعندئذ راح يخاطبها بلهجة ساخرة اثارت غضبها وجعلتها تفقد رشدها :

« وعندما سمعت تيامة ذلك
صارت كالمجنونة ، لقد فقدت صوابها
واطلقت صرخة عالية من شدة الغضب

فارتجفت رجلاها من الاعماق
ثم راحت تقرأ رقية وتلقي بسحرها
في حين كان الهة المعركة يشحذون اسلحتهم
ثم التقى الاثنان ، تيامة ومردوخ ـ احكم الالهة
فشد كل منهما على الاخر في نزال فردي ثم التحما في المعركة
وعندئذ اطلق في وجهها الريح الشريرة التي كانت تتبعه
فلما فتحت تيامة فاها لتبتلعها
ادخل فيه الريح الشريرة لكي لا تستطيع ان تطبق شفتيها
وحالما هاجمت الريح الشريرة جوفها
انتفخ جسمها وانتفخ شدقاها
انذاك اطلق مردوخ سهما مزق جسمها
اجل لقد قطع احشاءها وشطر قلبها
ولما تم له قهرها انقض عليها واخمد انفاسها

ثم تذكر قصة الخليقة البابلية ان مردوخ شطر جسم تيامة الى شطرين خلق منهما الارض والسماء وانه اسر من كان معها من الالهة وعلى رأسهم كبير قوادها كنكو . بعد ذلك تم خلق الكواكب والاقمار والمياه والاشجار والنباتات . ثم قرر مردوخ خلق الانسان ليقوم بخدمة الالهة ويقدم لهم القرابين لكي تشعر هي بالراحة التامة ، فبارك الالهة الفكرة على ان يخلق الانسان من دم احد الالهة . عندئذ جيىء بالاله كنكو قائد قوات تيامة ، فذبحوه ومزجوا دمه بالطين وخلقوا منه الانسان .

قصة الطوفان

الطوفان حادثة روتها المآثر السومرية والبابلية في روايات ثلاث رئيسية تتشابه في خطوطها العامة وفي كثير من تفاصيلها . واول تلك الروايات نسخة مدونة في السومرية يسمى بطلها زيوسدرا (Ziusudra) الذي انقذ البشرية

من الفناء اثناء الطوفان العظيم الذي شمل الارض برمتها حسب اعتقاد الاقدمين • والرواية الثانية تتمثل في الرقيم الحادي عشر من ملحمة كلكامش حيث نقرأ عن رجل اسمه اوتنابشتم (Utnapishtim) قام ببناء سفينة ضخمة حمل فيها مااستطاع من الناس والحيوانات والطيور والمتاع • والرواية الثالثة وهي اكثرها تفصيلا تعرف بقصة « اتراخاسيس (Atrahasis) نسبة الى اسم الرجل الذي يقوم بدور مشابه لنظيريه زيو سدرا واوتنابشتم •

يظهر من قصة الطوفان التي بطلها اترا خاسيس ، ان الطوفان كان اخر سلاح تلجأ اليه الآلهة للحد من تكاثر البشر بغية القضاء على صخبهم الذي صار يقض مضجع الالهة ويسبب انزعاجها• ويظهر أيضا ان اله الجو والرياح انليل كان المحرض على القيام بسلسلة من الاجراءات المتلاحقة الغرض منها جميعا اهلاك الناس والفتك بهم ، فقد استطاع انليل في المرة الاولى اقناع الالهة بانزال الامراض والاوبئة بين الناس في كافة ارجاء البلاد حيث تذكر قصة اتراخاسيس بهذا الخصوص مانصه :

« ولم تمض بعد الف ومئتا سنة
حتى توسعت البلاد وتكاثر الناس
وصارت البلاد تخور مثل الثور
فانزعج الاله انليل من ضجيجهم
اجل ! لقد سئم انليل صخبهم
فقال مخاطبا الالهة العظيمة :
لقد اصبح صخب الناس شديدا عليّ
وحرمني ضجيجهم من النوم
فلنأمر بانتشار الوباء بين الناس »

ولم تجد الالهة بداً من الموافقة على طلب انليل وفوضت نمتار الموكول بالامراض والاوبئة تنفيذ خطتها وسرعان ماانتشر الوباء في البلاد واخذ يلتهم الناس التهاما ، عندئذ استنجد اتراخاسيس باله الحكمة ايا داعيا اياه ان يخلص الناس من البلاء الذي هم فيه •

وكانت وصية ايا بهذا الشأن ان يقوم الناس ببناء معبد للاله نمتار وان يقدموا له الهدايا والنذور « وعندئذ سوف يرفع نمتار يده عنهم » على حد تعبير النص البابلـــي •

ثم تذكر قصة اتراخاسيس ان الناس سرعان ماتكاثرت اعدادهم مـــرة اخرى وان ضجيجهم تزايـــد في البلاد على النحـــو الذي رأيناه في المـــرة السابقة ، فقرر انليل ان يرسل عليهم الجفاف والقحط والمجاعة • ولذلك أصدر اوامره الى الاله أدد لان يحبس المطر والى ايا اله العمق ان يمنع تدفق المياه والى نيسابا الهة الحنطة « ان تمنع فيض ثديها » وامر بان تهب الريح لتلفح وجه الارض وان تتلبد الغيوم ولكن دون ان تنهمر قطرة من مطر وهكذا حلت المجاعة بين الناس لمدة ست سنوات متوالية ، اذ تذكر قصة الطوفان عن ذلك:

« في العلى جعل الاله ادد مطره نزرا
وفي الاسفل سدت الانهار واوقف تدفق المياه من « العمق »
وانقصت الحقول غلالها
ومنعت الالهة نيسابا فيض ثديها
فاصبحت الحقول السوداء بيضاء
وصارت الحقول الواسعة لا تعطي غير الملح
وهكذا تمرد رحم الارض
فلم تنبت البقول ولا الحبوب
وانزلت الامراض على الناس

فاصبحت الارحام ضامرة فلم تلد مولودا
وعندما حلت السنة الثانية
اصابهم الجـرب
وعندما حلت السنة الثالثة
تشوهت ملامح الناس بفعل الجـوع
وعندما حلت السنة الرابعة
قصرت سيقانهم وضمرت
وانكمشت اكتافهم العريضة الواسعة
فصاروا يسيرون محدودبين في الشوارع
وعندما حلت السنة الخامسة
اصبحت البنت تطيل النظر الى امها وهي تدخل
تاركة اياها خارج البيت
وعندما حلت السنة السادسـة
اتخذوا من البنت عشاء لهم
واتخذوا من الولد غداء لهم
لكنهم لم يشبعوا .. حتى التهم كل جار جاره
وغطت وجوههم غشاوة كانها النبت المصفر
وكان الناس احياء ولكن على حافة الموت »

ثم تذكر قصة الطوفان لاتراخاسيس ان الاله ايا اشفق على النـاس فسمح بتدفق المياه من المحيط السفلي لارواء الارض وتخليص الناس من الجفاف. وقد عرض الاله ايا نفسه بسبب ذلك الى غضب الاله انليل الذي صمم في هذه المرة على ان تؤدي جميع الالهة القسم لارسال الطوفان الاعظم وتدمير الارض ومن عليها ، غير ان اله الحكمة ايا الذي عرف بحبه للناس لم يتفـق مع انليل والالهة الاخرى ورفض ان يربط نفسه بتأدية القسم العظيم وبدلا

من ذلك فانه انذر رجلا تقيا وحكيما من سكان مدينة شروباك (فاره) بوجوب الاستعداد للحدث الخطير الذي بات يهدد اهل الارض ، فها هو اله الحكمة ايا يخاطب رجل الطوفان ويقول :

هدم بيتك وابن سفينة
اترك المال وانشد الحياة
انبذ المال وانقذ النفس
واحمل في السفينة بذرة كل المخلوقات الحية
اما السفينة التي سوف تبني
فاضبط مقاييسها واجعل عرضها مساويا لطولها
واختمها مثل « ابسو » (مياه العمق)

وتلقى رجل الطوفان امر الاله بالطاعة فبدأ على الفور بحشد كل الطاقات لانجــاز المهمة ، وبعد سبعة ايام من العمل المتواصل استطاع العمال اكمال بناء السفينة التي اطلق عليها اسم « منقذة الحياة » :

« وفي اليوم الخامس اقمت هيكلها
وكانت مساحة قاعدتها « ايكو » واحدا
وطول كل من جوانب سطحها ١٢٠ « ذراعا » ،
هكذا حددت ابعادها وهيكلها
لقد جعلت فيها ستة فواصل
وبهذا قسمتها الى سبعة طوابق
ثم قسمت ارضيتها الى تسعة اقسام
وغرزت فيها مسامير خشب لمنع الماء
ثم زودتها بالمرادي والمؤن
وسكبت ستة « سارات » من القير في الكور
وسكبت ايضا ثلاث « سارات » من الزفت

وبعد ان انتهى رجل الطوفان من بناء السفينة جاء دور تحميلها بالمؤن والبشر والحيوانات حسب تعليمات اله الحكمة ايا، ويذكر الرقيم الحادي عشر من ملحمة كلكامش ان الاله "يا امررجل الطوفان « اوتنابشتم » ان يحمل في سفينته بذرة كل المخلوقات ويعطي احد الرقم من قصة الطوفان «اتراخاسيس» تفاصيل وافية في هذا الشأن اذ جاء على لسان الاله ايا وهو يخاطب رجل الطوفان قوله:

« ترقب الوقت المحدد الذي سوف اخبرك به
ثم ادخل السفينة واغلق بابها
احمل فيها شعيرك ومتاعك واموالك
وزوجتك وصاحبك وقريبك والعمال الماهرين
واني سأرسل اليك حيوان البرية وكل حيوان وحشي
يأكل العشب في البرية
وانها سوف تنتظر عند بابك »

ثم جاء الطوفان الهائل : رعد يشق عنان السماء ، اعاصير مدمرة تعصف وتزمجر « مثل نهيق حمار الوحش » فيضان عارم تخور مياهه مثلما يخـور الثور وظلام دامس ودمار في كل مكان من الارض حتى ان الالهة نفسهـا تراجعت لهوله مذعورة الى اقصى السماوات . ويقول الكاتب البابلي بهذا الخصـوص :

« ولما حان ذاك الوقت المعين
وانزل الموكل بالشرور مطر الهلاك في الليل
تطلعت الى الجـو
فكان الجو مكفهرا مخيفا للنظر
وعندئذ دخلت السفينة واحكمت غلق بابها
ثم اسلمت دفة السفينة الى الملاح بوزور ـ اموري
وعند اطلالة الفجر

ظهرت في الافق سحابة سوداء
كان الاله أدد يرعد في داخلها
بينما كان شوللات وخانيش يسيران في مقدمتها
ثم اقتلع ايراكال دعائم السد للمياه السفلى
وانطلق ننورتا ليجعل المياه تطغى فوق السدود
ورفع انوناكي المشاعل فاضاءت بنورها الارض
ولماوصل الرعب من الاله ادد الى عنان السماء
وتحطمت الارض الواسعة مثلما يتحطم الاناء
استحال كل نور الى ظلمة
وظلت ريح الجنوب تهب يوما كاملا
وزادت سرعتها وهي تهب حتى اجتاحت الجبال
وفتكت بالناس مثل حرب ضروس
فلم يستطع المرء ان يرى اخاه
ولم يكن بالمستطاع تمييز الناس من السماء
حتى ان الالهة ذعرت لهول الطوفان
فأخذوا يتراجعون الى خلف حتى وصلوا سماء آنو »

واستمرت الحال على هذا المنوال سبعة ايام وسبع ليال جاء الطوفان خلالها على كل مافي الارض من مخلوقات « فاصبح الناس يملأون البحر كأنهم صغار السمك» على حد تعبير رجل الطوفان. ومن جهة اخرى فقد كان هلاك الناس على هذا النحو مدعاة لندم شديد وحزن عميق من الالهة وخاصة تلك التي عرفت بحبها للناس مثل الاله ايا والالة عشتار . ثم هدأ البحر وسكنت العواصف وانتهى الطوفان، وفي هذا الشأن يقول اوتنابشتم انه تطلع الى البر من السفينة بعد هدوء العواصف والمياه فوجد « ان السكون يخيم في كل مكان

وان البشر جميعا تحولوا الى طين » ثم يصف مشاعره وقد زال عنه الخطر واصبح قاب قوسين او ادنى من النجاة فيقول :

« ثم فتحت نافذة في السفينة فسقط النور على وجهي
فسجدت وجلست باكيا
والدموع تجري على وجهي
ثم اخذت اتطلع الى سواحل البحر الواسع
فبانت الارض من مسافة اثنى عشر ميلاً مضاعفا »

وفي تلك الاثناء استقرت السفينة على جبل اسمه نيسير وعندئذ اخرج اوتنابشتم حمامة واطلقها :

« فراحت الحمامة ولكنها لم تلبث ان رجعت
لقد رجعت الحمامة لانها لم تجد محطا لها
وعندئذ اخرجت السنونو واطلقته
فراح السنونو ولكنه لم يلبث ان رجع
لقد رجع السنونو لانه لم يجد محطا له
ومن ثم اخرجت الغراب واطلقته
فراح الغراب ولكنه عندما رأى المياه انحسرت
اكل وحام ونعق ولم يرجع »

وعندما خرج رجل الطوفان من السفينة لاول مرة بعد اربعة عشر يوما من دخوله ، سكب الماء المقدس على قمة الجبل ونصب القدور ليعد الطعام قرباناً للالهة وسرعان مافاحت رائحة الطعام فشمتها الالهة « وتجمعوا حول مقدم القربان كالذباب » وهنا يجد القارىء نفسه امام مشهد جديد ومثير حيث يتجمع الالهة العظام حول رجل الطوفان بعد ان انتهوا من التهام القربان ليستمع بعضهم من البعض الاخر عما حل بالناس من دمار ومالحق

الارض من خراب نتيجة احداث الطوفان وليرفعْ بعضهم صوته عاليا احتجاجا على « الخطيئة التي اقترفها انليل بحق الناس » عندئذ شعر انليل بجسامة الخطأ الذي ارتكبه ضد بني البشر فصعد الى ظهر السفينة « منقذة الحياة» ووقف بين رجل الطوفان وزوجته ثم لمس ناصيتيهما ومنحهما الخلود قائلا :

« ما كان اوتنابشتم قبل الآن الا بشرا

ولكن من الان سيكون اوتنابشتم وزوجه مثلنا نحن الالهة »

ملحمة كلكامش

واحدة من اشهر الملاحم الشعرية في تاريخ اداب الشعوب القديمة وقد ذاع صيتها وانتشرت نسخ عديدة منها في انحاء واسعة من الشرق الادنى القديم وترجمت من البابلية الى لغات قديمة كالحثية والخورية . ومما زاد في روعة ملحمة كلكامش انها تتناول موضوعا انسانيا محضاً وتتعامل مع اشياء من عالمنا الدنيوي مثل الانسان والطبيعة ، الحب والمغامرة ، الالفة والصداقة والصراع لتكون منها جميعا فصولا تمهيدية لموضوع الملحمة الرئيسي الا وهو حقيقة الموت المطلقة . واذا كانت الملحمة قد انتهت نهاية محزنة خيبت آمال كلكامش وبني البشر قاطبة ، فانها من جهة اخرى لم تكن نهاية شديدة القسوة ومحطمة لتطلعات الانسان الى الخلود ورفضه حقيقة الموت . ذلك لان الملحمة قدمت البديل وان كان من دون شك دون طموح كلكامش بكثير ، لكنه يبدو منطقيا ومعقولا . فاذا كان الخلود امرا مستحيلا لان الالهة استأثرت به منذ اللحظات الاولى للخليقة ، فباستطاعة كلكامش وأي انسان آخر ان يخلد باعماله ومنجزاته فيبقى ذكره ما بقي الدهر .

من المعروف تاريخيا ان كلكامش كان الملك السادس في سلالة الوركاء الاولى وانه حكم في حدود ٢٦٥٠ ق . م ولاشك في انه كان ملكا عظيما وبطلا

شجاعاً بحيث صار رمزاً للقوة والاقدام والمغامرة • ومعروف ايضا ان هناك مالايقل عن اربع قصص سومرية تدور حول هذا البطل ومآثره تسبق في تاريخها ملحمة كلكامش المدونة في اللغة البابلية • ولاشك في ان هذه القصص ، اضافة الى قصة الطوفان السومرية ، كانت المصدر الذي استمدت منه الملحمة مادتها الاصلية • يضاف الى ذلك ان الرقيم الثاني عشر من الملحمة البابلية لا يعود بالاصل اليها وانما هو مجرد ترجمة حرفية لاسطورة سومرية تدور حول « كلكامش وانكيدو والعالم السفلي » • كل هذا يشد الملحمة البابلية الى اصولها السومرية البعيدة ، لكنها فيما عدا ذلك تبقى نتاجا ادبيا متميزا وفريدا في هدفها وموضوعها •

عثر على ملحمة كلكامش ضمن المؤلفات المحفوظة في مكتبة اشور بانيبال في نينوى • كما عثر في مدن اخرى على بعض رقم الطين التي تحتوي على اجزاء منها والراجح ان اول تدوين للملحمة البابلية كان في العصر البابلي القديم في حدود ٢٠٠٠ ـ ١٦٠٠ ق٠م وانها صارت بشكلها النهائي الذي نعرفه حاليا في الفترة ١٥٠٠ ـ ١٢٥٠ ق • م

يبدأ الرقيم الاول من الملحمة بذكر مآثر كلكامش ومنجزاته العمرانية في مدينة الوركاء ، ويصفه بانه كان ذا قوة خارقة ولم يكن له نظير في القتال وان ثلثين منه اله وثلثه الاخر بشر • غير ان اهل الوركاء اخذوا يتضرعون الى الالهة لتخلق غريما لكلكامش يكون « نظيرا له في البأس وقوة اللب وعندئذ يكون الاثنان في صراع مستديم لتهنأ المدينة بالسلام والاطمئنان » •

استجابت الالهة لدعوات اهل الوركاء فخلقت انكيدو الصنديد الذي كان يجوب البراري مع الظباء وحمر الوحش يأكل العشب ويتزاحم معها عند موارد الماء • لقد وهبته الالهة شعرا كثاً يكسو كل جسمه وجعلت رأسه طويلا كالمرأة وله ظفائر تشبه السنابل • وذات يوم ابصر به الصياد وهو يرد الماء

فذهب الى ابيه وقصى عليه قصة ذلك المخلوق الغريب الذي ماانفك يحول بينه وبين صيده لانه يخرب ماينصب من شباك ويطمر مايحفر من اوجار . ففال الاب لابنه الصياد ان يذهب الى كلكامش ويخبره بقصة هذا الانسان القوى المتوحش ويطلب منه ان يعطيه فتاة بغياً لكي يغوى بها انكيدو لتروضه ومن ثم تستدرجه الى الوركاء . وفعل الصياد ماامر به ابوه واعطاه كلكامش الفتاة البغي فاخذها وراحا ينتظران مجيء انكيدو عند مورد الماء . ولما جاء انكيدو مع الظباء الى المورد كشفت له الفتاة عن مفاتن جسمها فتعلق انكيدو بها واغراه جمالها وبقي معها « ست ايام وسبع ليال » على حد تعبير النص البابلي :

ولكن ماذا حدث بعد ذلك ؟ تذكر الملحمة مانصه :

« وبعد ان شبع من مفاتنها
وجه وجهه الى إلفه من حيوان البرية
فما أن رأت الظباء انكيدو حتى ولت هاربة
وهربت من قربه وحوش البرية
ذعر انكيدو ووهنت قواه
خذلته ركبتاه لما أراد اللحاق بألفه من حيوان البرية
اضحى انكيدو خائر القوى لا يطيق العدو كما كان يفعل من قبل ولكنه
صار فطنا واسع الحس والفهم
رجع وقعد عند قدمي البغي
وصار يطيل النظر الى وجهها » .

ولما رأت الفتاة ان انكيدو استسلم للامر الواقع عرضت عليه الذهاب معها الى مدينة الوركاء حيث يعيش البطل الصنديد كلكامش . فقبل انكيدو وقال للفتاة انه متلهف لرؤية كلكامش ومنازلته .

هنا تنتقل الملحمة الى كلكامش وهو يقص على امه حلما رآه في نومه •
لقد رأى نجمة تهوي على الارض في مدينة الوركاء لكنه لم يستطع رفعها من الارض رغم ماأوتي من قوة • ورأى الناس يجتمعون حولها ويقبلونها • ففسرت له امه مغزى حلمه بان غريما له سيظهر عن قريب وسيكون مماثلا له في البأس والقوة لكنه سيصبح رفيق العمر الذي لا يخذله •

وصل انكيدو بصحبة الفتاة الى الوركاء فتملكه العجب مما رآى فيها من مظاهر الحياة الجديدة التي لم يألفها في البراري مع الحيوانات • وكان عليه ان يتعلم كيف يأكل ويشرب ويدهن جسده بالزيت ويتعطر بالطيب ويرتدي ملابس نظيفة • بعد ذلك سار انكيدو ومن خلفه الفتاة في اسواق الوركاء حيث رآه الناس واعجبوا بمنظره وحسن قامته :

« سار انكيدو الى الامام وخلفه البغي
ولمادخل الوركاء ذات الاسواق الواسعة
تجمع الناس حوله
حين وقف في شارع الوركاء ، في موضع السوق
تجمهر الناس حوله وقالوا عنه :
انه مثيل لكلكامش في البنية
ولكنه اقصر قامة واقوى عظما
انه اقوى من في البرية وذو بأس شديد
لقد رضع لبن حيوان البر في البادية
وفي الوركاء لن تنقطع قعقعة السلاح (بعد الان)
فرح الابطال وهللوا قائلين :
لقد ظهر بطل ند" وكفوء للبطل الجميل
اجل ! ظهر لكلكامش الشبيه نظيره ومثيله »

وفي المساء ، وبينما كان كلكامش يهم بدخول بيت الهة الحب « اشخارا (عشتار) » اعترضه انكيدو ومنعه . عندئذ اشتبك البطلان في سوق المدينة وبمرأى من الناس ، واستمرا في صراع عنيف اهتزت له الجدران وتحطمت لعنفه الابواب : . .

« رأى كلكامش انكيدو الهائج
الذي ولد في البادية ويجلل رأسه الشعر الطويل
فانقض عليه وهاجمه
تلاقيا في موضع سوق البلاد
سد انكيدو باب البيت بقدميه
ومنع كلكامش من الدخول الى الفراش
امسك احدهما بالاخر وهما متمرسان في الصراع
وتصارعا وخارا خوار ثورين وحشيين
حطما عمود الباب وارتج الجدار »

ويبدو من سياق النص ان الغلبة في ذلك النزال كانت لكلكامش اذ بقيت قدماه ثابتتين على الارض وكان على وشك ان يرفع انكيدو الى اعلى . ولكن فجأة هدأت سورة غضبه فاستدار ومضى تاركا انكيدو لحاله . ولا شك في انه فعل ذلك بدافع من شعوره بالاقتدار ولانه أراد ان يتخذ من غريمه صديقا حميما ومساعداً في مقارعة الخطوب بعد ان عرف عن كثب مقدار قوته وبأسه في النزال ، لذلك سرعان ماتصالح الاثنان وتبادلا قبلات المودة وصارا صديقين حميمين لا يفترقان .

وذات يوم كشف انكيدو لصديقه كلكامش عما يعانيه من ضعف ووهن ومايكابده من حزن واسى يكاد يخنق انفاسه . فاشفق عليه كلكامش واراد على مايبدو ان يغير له نمط حياته الرئيسية في المدينة وينقله الى اجواء البراري والغابات التي اعتادها انكيدو من قبل ان يأتي الى الوركاء . لذلك عرض

كلكامش على رفيقه ان يسافرا سوية الى غابات الارز البعيدةالتي كان يحرسها العفريت الهائل خمبابا ٠

وبعد الاخذ والرد وافق انكيدو على مصاحبته ٠ هنا تنتقل الملحمة الى ذكر الاستعدادات والاجراءات التي لابد من اتخاذهـا لانجاز تلك الرحلة البعيدة ٠ فقد اوعز كلكامش الى السباكين ليصنعوا مايحتاج اليه من سيوف وفؤوس ٠ وكان لا بد من ان يأخذ موافقة مجلس الشيوخ في مدينته ، فهـو اعلى سلطة فيهـا واستشارته واجبـة في مثـل هذه الحالات ٠ واخـيرا فلابد ايضا من ان تبارك الالهة مثل هـذه المغـامرة المحفوفـة بالاخطار ٠

قال كلكامش مخاطبا مجلس الشيوخ في الوركاء :

« اسمعوا ياشيوخ الوركاء ذات الاسواق
اريد انا كلكامش ان ارى من يتحدثون عنه
ذلك الذي ملأ اسمه البلدان بالرعب
عزمت ان اغلبه في غابة الارز
وسأسمع البلاد بانباء ابن الوركاء
فتقول عني : ما اشجع سليل الوركاء وما اقواه
سامد يدي واقص الارز فاسجل لنفسي اسما خالدا » ٠

لكن شيوخ المدينة لم يعطوه موافقتهم وكانوا يخشون عليه من اخطار تلك المغامرة خاصة وان غابات الارز يحرسها العفريت خمبابا الذي « زفيره عباب الطوفان وفمه نفاث السنة اللهب وانفاسه الموت الزؤام » ٠ لكـن كلكامش ابى ان ينصاع واصر على منازلة خمبابا وقتله ٠ وعندئذ لم يجـد شيوخ الوركاء بدا من مباركة سفره ومن الدعوة له بسلامة العودة الـى مدينتـه ٠ وهكـذا امـروا لـه بسـلاحه : السـيف والفـأس والقوس والجعبة ثم خاطبوه قائلين :

« ايها الملك كنا نطيعك في مجلس الشورى
فاستمع الينا وخذ بمشورتنا ايها الملك
لا تتكل على قوتك وحدها ياكلكامش
تبصر في امرك واحم نفسك
دعه يتقدم في الطريق وابق على نفسك
دع انكيدو يسير امامك فانه يعرف الطريق وقد سلكه
انه يعرف الطريق الى غابة الارز دعه يتوغل في مسالك خمبابا
وان من يسير في الطليعة يحمي صاحبه
ليأخذ الحذر ويتبصر في حماية نفسه
وعسى شمش ان يجعلك تنال رغبتك
وعساه يرى عينيك ماقاله فمك
وان يفتح لك السبيل المسدود
ويفتح الطريق لمسراك ويمهد مسالك الجبال لقدميك »

بعد ذلك قصد كلكامش وانكيدو معبد الالهة ننسون في الوركاء لتبارك الرحلة وتدعو لهما بالنجاح في المهمة . وفعلت الالهة ننسون ماأراد كلكامش بعد ان قدمت الصلوات واحرقت البخور الى الاله شمش . هنا ينخرم النص وتأتي فجوة كبيرة كانت تحتوي بالاصل على تفاصيل مالاقاه كلكامش وانكيدو من اهوال ومنازلتهما عفريت الغابة . ويبدو من بقايا النص انهما قطعا مسافةطويلة تقرب من١٦٠٠ كم قبل ان يصلا الى جبال الارز. هناك وجدا حارسا وضعه خمبابا عند مدخل الغابةفقتلاه. وبعد ان دخلا الغابة راحا يتجولان في ارجائها متتبعين المسالك التي يسير فيها عفريت الغابة ، واخيرا وبينما كان كلكامش يقطع اشجار الارز سمع خمبابا وقع فأسه الثقيلة فغضب وصاح وزمجر وتهيأ للهجوم على الصديقين اللذين تملكهما خوف شديد فاخذا يتضرعان الى الاله شمش ليمد لهما يد العون.وسرعان مااستجاب شمش

لدعائهما فسخر لنجدتهما الريح العاتية . وعندئذ استطاع به الصديقان التغلب عليه فراح يتضرع لهما لان يبقيا عليه . وكاد كلكامش ان يستجيب لـه لكن انكيدو اصر على قتله .

عاد الصديقان الى الوركاء بعد ان قتلا خمبابا ، واقاما احتفالا كبيـرا بالمناسبة . ولما رأت الالهة عشتار البطل كلكامش بملابسه الجديدة البراقة اعجبت به ايما اعجاب وعرضت عليه ان يتزوجها . لكن البطل سخر منهـا بشدة وراح يعدد لها عشاقها الذين خانتهم وتنكرت لهم . فغضبت الالهة عشتار وطلبت من ابيها آنو اله السماء، ان ينزل الثور السماوي في الوركاء ليقضي على كلكامش . ولكن كلكامش وانكيدو استطاعا منازلة الثور وقتله .

بعد ذلك سار الصديقان في شوارع الوركاء وكان كلكامش يسـأل الصبايا ويقول :

« من الامجد بين الابطال ومن الازهى بين الرجال ؟ فيجبنه : كلكامش الامجد بين الابطال ، كلكامش زين الرجال » .

تتحدث الملحمة في بداية الرقيم السابع عن حلم رآه انكيدو وعن مرضـه المفاجيء . لقد رأى انكيدو الالهة تجتمع لتقرر موته لانه ساهم في قتل خمبابا والثور السماوي فانتابه حزن شديد وراح يلعن تلك الساعة التي رأى فيهـا الصياد والبغي فلولاهما لبقي سعيدا في حياته يجوب البراري مع الظباء وحمـر الوحش.ثم اشتد به المرض وعاودته احلام مزعجة ورأى فيها صوراً مخيفة من عالم الاموات « ارض اللارجعة التي حـرم ساكنوها من النور ، حيث التراب طعامهم والطين قوتهم ».واخيرا مات انكيدو فحزن عليه كلكامش حزنا شديدا وبكاه بكاء مرا ورثاه بعبارات تفيض الما وحسرة :

« اسمعوني ايها الشيوخ واصغوا الـي
من اجل انكيدو خلي وصاحبي ابكي

وانوح نواح الثكلى
انه الفأس التي في جنبي وقوة ساعدي
والخنجر الذي في حزامي والمجن الذي يدرأ عني
وفرحتي وبهجتي وكسوة عيدي
لقد ظهر شيطان رجيم وسرقه مني
ياخلي ياأخي الاصغر الذي اقتنص حمار الوحش في التلال
والثور في الصحاري
انكيدو ياصاحبي ، واخي الصغير
الذي اقتنص حمار الوحش في النجاد والنمر في الصحاري
فأى سنة من النوم هذه التي غلبتك وتمكنت منك ؟
طواك ظلام الليل فلاتسمعني »

لكن انكيدو لم يرفع عينيه على حد تعبير النص البابلي « فراح كلكامش يزأر حوله كالاسد وكاللبوءة التي اختطف منها اشبالها ، وصار يروح ويجيء امام الفراش وهو ينظر الى انكيدو » ، وبدافع من حبه ووفائه لرفيق العمر انكيدو نادى كلكامش على صناع المدينة وامرهم ان يصنعوا له تمثالا صدره من اللازورد وجسمه من الذهب . ففعلوا ذلك ووضع كلكامش التمثال على منضدة واخذ يبكي صديقه ويرثيه .

صار شبح الموت يلاحق كلكامش ويفزعه عندما ادرك ان الموت سيقهره آجلاً ام عاجلا مثلما قهر نظيره انكيدو . فلبس جلد سبع وهام على وجهه في البوادي قاصدا رجل الطوفان اوتنابشتم ليسأله عن سر حصوله على الخلود من الالهة . وبعد مسيرة طويلة ومضنية وصل كلكامش الى بوابة جبال ماشو التي يحرسها الرجل العقرب وبعد ان سمح له بالدخول ، سار كلكامش مسافة اخرى الى ان وصل الى بيت صاحبة الحانة التي توجست منه خيفة أول الامر لكنها اشفقت عليه في النهاية ودلته على الملاح اورشنابي الذي

يوصله بسفينته الى اوتنابشتم • وعبر كلكامش بحر الموت بمساعدة الملاح وذهب الى حيث يقيم رجل الطوفان وزوجته •

قص كلكامش على اوتنابشتم ماحل برفيقه انكيدو وروى له كيف ان شبح الموت صار يلاحقه منذ ذلك الحين وانه جاء يسأله عن سر حصوله على الخلود • هنا يبدأ رجل الطوفان بالحديث عن قصة الطوفان الاعظم التي تشبه القصة التوراتية المعروفة ، وكيف انه استطاع انقاذ نسل البشرية من الفناء بسفينة رست بعد انتهاء الطوفان على قمة جبل اسمه نيسير • وقال اوتنابشتم انه خرج بعد ذلك من السفينة وقدم القرابين فتجمعت الالهة من حوله وانها قررت ان تكافئه وزوجته بالخلود فصار في مصاف الالهة •

ثم تساءل رجل الطوفان وقال مخاطبا كلكامش : ولكن من الذي سيجمع الالهة من اجلك لتمنحك الحياة الابدية ؟ ومن جهة اخرى اراد رجل الطوفان ان يفهم كلكامش انه يسعى وراء شيء مستحيل على الرغم من ان ثلثين منه اله وثلثه الاخر بشر • لذلك فانه اختبر كلكامش وطلب منه امرا ليس بمقدور اي انسان فعله ذلك هو عدم النوم ستة ايام وسبع ليال • فقبل كلكامش الرهان املا في الحصول على الخلود ، لكنه سرعان ماغط في نوم عميق • ولما استفاق وجد أنه نام عدة ايام اشرتها زوجة اوتنابشتم على الحائط كما احصتها عدا بأرغفة من خبز وضعتها عند رأسه •

هكذا فشل كلكامش في اجتياز الاختبار • وعندئذ امر اوتنابشتم ملاحه ان يرجع كلكامش الى مدينته الوركاء فلا جدوى في بقائه بعد ذلك• ولما ركب كلكامش السفينة بصحبة اورشنابي واوشك على الابحار اشفقت عليه زوج اوتنابشتم وعز عليها ان يرجع خاوي اليدين• فطلبت من زوجها ان يعطيه شيئا ما يأخذه معه في طريق عودته • فاقترب رجل الطوفان من

كلكامش وكشف له عن سر من اسرار الالهة وهو ان يغوص الى قاع البحر ويستخرج نباتا شوكيا يمنح آكله شبابا دائما ومتجددا . وغاص كلكامش الى الاعماق بعد ان ربط بقدميه احجارا ثقيلة . ثم استخرج النبات الذي تسميه الملحمة « يعود الشيخ الى صباه كالشباب » وكان كلكامش فرحا به اشد الفرح حتى انه قرر ان يعطى منه اهل مدينته الوركاء ليأكلوا منه ، ثم مكث ومعه اورشنابي عند بئر ليرد ويغتسل . هناك شمت الحية رائحة النبات فتسللت واختطفت النبات وبذلك ضاعت فرصة كلكامش الاخيرة لنيل الخلود .

نصيحة صاحبة الحانة لكلكامش :

« الى اين تسعى ياكلكامش
ان الحياة التي تبغي لن تجد
حينما خلقت الالهة العظام البشر
قدرت الموت على البشرية
واستأثرت هي بالحياة
اما انت ياكلكامش فليكن كرشك مملوءا على الدوام
وكن فرحا مبتهجاً مساء
واتم الافراح في كل يوم من ايامك
وارقص والعب مساء نهار
واجعل ثيابك نظيفة زاهية
واغسل رأسك واستحم في الماء
ودلل الصغير الذي يمسك بيديك
وافرح الزوجة التي بين احضانك
وهذا هو نصيب البشرية »

كلكامش وانكيدو والعالم السفلي

وهناك اسطورة سومرية تدور ايضا حول انكيدو وكلكامش تعرف باسطورة « انكيدو وكلكامش والعالم السفلي » • تذكر الاسطورة ان البطل كلكامش حصل على هدية من الهة الخصب والحب إنانا (عشتار) تتكون من قطعتين تسمى الاولى في السومرية «بوكو» والثانية « مكو » ولايعرف مدلول التسميتين على وجه التحديد• ويبدو انكلكامش اسرف في استعمال هديته فالحق الضرر ، بطريقة او باخرى ، بسكان مدينة الوركاء • فتعالت « صرخات النسوة » ، على حد تعبير النص السومري ، واذا بالقطعتين تسقطان من يد كلكامش في العالم السفلي • وعندئذ تملك كلكامش حزن شديد وراح يبكي عند بوابة العالم السفلي على هديته المفقودة • ولما سمع بكاءه صديقه ورفيقه المعروف انكيدو تطوع للنزول الى هناك من اجل استرجاع القطعتين « بوكو » و « مكو » •

طلب كلكامش من صديقه انكيدو ان يحترس عند نزوله الى العالم السفلي اي عالم الاموات ، لان هناك محرمات ينبغي عليه تجنبها ومنها عدم ارتداء الملابس النظيفة او لبس النعل او استعمال العطور وحمل السلاح •• وبعكسه فان «صرخة العالم السفلي» سوف تمسك به ويبقى محتجزا في عالم الاموات :

« اذا كنت ستنزل الان الى العالم السفلي
فاني ساقول لك كلمة فاستمع لها
انها وصية اقدمها اليك فخذ بوصيتي
لاتلبس ثوبا نظيفا
لئلا يهجم عليك ذوو السلطة مثل الاعداء
ولاتمسح جسمك بالزيت الفاخر من الاناء
لئلا يتجمعوا من حولك بسبب عطرك

لا ترم بالعصا في العالم السفلي
لئلا يحيط بك من اصابتهم عصاك
ولا تحمل عصا بيدك
لئلا تهيج الاشباح من حولك
ولا تلبس نعلا في قدميك
ولا تحدث ضجة في العالم السفلي
لا تقبل الزوجة التي تحب
لاتضرب الزوجة التي تكره
لاتقبل الطفل الذي تحب
ولاتضرب الطفل الذي تكره
لئلا تمسك بك صرخة العالم السفلي »

ونزل انكيدو الى العالم السفلي ولكنه ، على مايظهر من الاسطورة ،لم يتمسك باية وصية من وصايا رفيقه كلكامش فامسكت به « صرخة العالم السفلي » ولم يعد بمقدوره الصعود الى دنيا الاحياء مرة ثانية . وحاول كلكامش مساعدة رفيقه انكيدو لاخراجه من عالم الاموات . فقصد الاله انليل في معبده في مدينة نفر ولكن انليل لم يستجب لاستغاثة كلكامش . بعد ذلك قصد اله الحكمة انكي واستنجد به لانقاذ صديقه . فاستجاب له انكي وطلب من الاله اوتو (شمش) ان يحدث فتحة في العالم السفلي ليخرج منها شبح انكيدو ،وهو كل ماتبقى منه بعد ان اصبح حبيسا في عالم الاموات .

تعانق كلكامش مع صديقه او بالاحرى مع شبح صديقه انكيدو . وهنا يبدأ كلكامش بتوجيه السؤال تلو الاخر الى صديقه عما شاهده في العالم السفلي . وفي هذا الموضع من الاسطورة السومرية ينخرم النص الذي يتضمن في ضوء البقايا القليلة اسئلة واجوبة بين الصديقين ولحسن الحظ ان يكون بمقدورنا معرفة جزء لابأس به من خاتمة الاسطورة السومرية من خلال الرقيم

الثاني عشر من ملحمة كلكامش الذي هو بدوره ترجمه للاسطورة السومرية موضوعة البحث ونقتبس في ادناه الجزء الاخـير من تلك الخاتمة التي تعتبر من المصادر المهمة عن معتقدات سكان وادي الرافدين بخصوص الموت والعالم السفلي :

« وتدخل ايا من اجله في الامر
فقال لنركال البطل الباسل :
ايها البطل الباسل ، يا نركال ...
افتح على الفور ثقباً في العالم السفلي
من اجل ان تصعد روح انكيدو من العالم السفلي
لعله يخبر اخاه بما يجري في العالم السفلي
فاستمع نركال البطل الباسل الى ايا
وماكاد يفتح ثقباً في العالم السفلي
حتى انطلقت روح انكيدو مثل هبة ريح من العالم السفلي
فتعانقا وقبل كل منهما الاخر
وجلسا يتبادلان الحديث والحسرات
فقال كلكامش : اخبرني ياصديقي ، اخبرني ياصديقي ؛
اخبرني بما يجري في العالم السفلي الذي رأيت
فقال انكيدو : سوف لا اخبرك ، سوف لااخبرك
واذا كان لابد من اخبارك بما يجري في العالم السفلي
فعليك ان تجلس وتبكي .
(ثم قال انكيدو لكلكامش) :
ان جسمي الذي كنت تلمسه عندما كان قلبك يغمره الفرح
اصبح الان يلتهمه الدود كما لوكان ثوباً بالياً .
اجل ! ان جسمي الذي كنت تلمسه عندما كان قلبك يغمره الفرح

اصبح الان .... يملأ التراب

وعندئذ صاح كلكامش : ياويلتاه وراح يتمرغ في التراب

اجل ! صاح كلكامش ياويلتاه وراح يتمرغ في التراب وهو يقول :

هل رأيت الذي لم يكن له ولد ؟

اجل لقد رأيت .. (النص مخروم)

هل رأيت الذي كان له ولد واحد ؟

اجل رأيت ، انه ممد اسفل الجدار ويبكي بمرارة

وهل رأيت الذي كان له ولدان ؟

اجل رأيت ، انه يقيم في بناء من الآجر ويأكل الخبز

هل رأيت الذي كان له ثلاثة اولاد ؟

اجل رأيت انه يشرب الماء من قربة ماء « العمق »

وهل رأيت الذي كان له اربعة اولاد ؟

اجل رأيت ... وهو مسرور القلب

هل رأيت الذي كان له خمسة اولاد ؟

اجل رأيت ، لقد كان مبسوط اليد مثل كاتب طيب ويسمح له بدخول القصر

ويستمر الحوار بين كلكامش وشبح رفيقه انكيدو فيسأله عمن كان له ستة وسبعة اولاد الى ان يقول كلكامش :

هل رأيت من سقط صريعا في المعركة ؟

اجل رأيت ، لقد كان ابوه وامه يسندان رأسه وكانت زوجته تبكي عليه

وهل رأيت الذي ترك جسده غير مدفون في البرية .

اجل رأيت ، ان روحه لاتجد الاستقرار في العالم السفلي

هل رأيت روح الذي لايوجد من يعنى به ؟

اجل رأيت ، كان يأكل حثالة ماتبقى في الماعون وقطع الخبز الملقاة في الازقة .

نزول عشتار الى العالم السفلي

هناك اسطورة تحكي قصة نزول الالهة عشتار الى العالم السفلي وقد وصلتنا منها نسختان واحدة مدونة في السومرية والثانية في الاشورية. وليس في الاسطورة مايوضح على وجه التأكيد السبب الذي دفع الالهة عشتار الى القيام بتلك الرحلة الى عالم الاموات . ومهما كان السبب الحقيقي فانه لم يكن بكل تأكيد من اجل اطلاق سراح زوجها الاله تموز لسبب بسيط لانها هي التي سلمته الى شياطين العالم السفلي بديلا عنها وهناك بين الباحثين من يعتقد بأنها قامت بتلك الرحلة من اجل اخراج ارواح الموتى المحتجزة هناك .

وعلى اية حال فاننا نقرأ في الاسطورة موضوعة البحث ان الالهة عشتار عقدت العزم على النزول الى العالم السفلي ارض اللارجعة الذي كان تحت امرة اختها الالهة ايرشكيجال ، وانها لبست تاجها وشاراتها الخاصة . ثم اخبرت وزيرها نتشبور انه في حالة تأخر عودتها من هناك فعليه ان يطلب النجدة من الاله انليل فان لم يفعل شيئا فليذهب الى الاله القمر (سين) فاذا اعتذر فعندئذ يذهب الى اله الحكمة ايا الذي سيهرع لنجدتها من دون شك.

وصلت عشتار الى البوابة الاولى للعالم السفلي وطلبت من رئيس الحراس ان يفتح لها وإلا فأنها « ستحطم الابواب والمزاليج وتبعث الاموات ليلتهموا الاحياء » على حد تعبير النص الآشوري . فطلب منها الحارس الا تقدم على شيء من ذلك حتى يخبر اختها ايرشكيجال . وبعد ان فكرت اختها في الامر لمعرفة الاسباب التي تكمن وراء زيارة اختها

المفاجئة اوعزت للبواب ان يسمح لها بالدخول • وعندئذ رحب بها البواب قائلا : « ان عالم اللارجعة مسرور بحضورك ياسيدتي » لكنه سرعان ماجردها من تاجها اثناء ما كانت تهم بالدخول من البوابة الاولى • فاعترضت الالهة عشتار على ذلك بشدة لكنه اجابها ان ذلك اجراء تحتمه « نواميس العالم السفلي » • وهكذا فان البواب يجردها من بعض حليها وثيابها عند كل بوابة من البوابات السبع الى ان اصبحت عارية تماما عند البوابة الاخيرة • فكما رأينا من اسطورة « انكيدو وكلكامش والعالم السفلي » سابقة الذكر أن « نواميس العالم السفلي » تحرم على من ينزل اليه ارتداء الثياب ولبس الحذاء والتزين بالحلي واستعمال الطيب ومن يفعل عكس ذلك فان صرخة « العالم السفلي » تمسكه على حد تعبير الاسطورة •

وعلى اية حال فحالما عبرت الالهة عشتار ، البوابة السابعة وجدت نفسها وجهاً لوجه امام اختها ايرشكيجال التي كانت تتفجر غضبا • ولعل سبب ذلك الغضب انها كانت تخشى من ان تقوم عشتار باطلاق ارواح الموتى في العالم السفلي وبالتالي فانها تحرمها من رعاياها من الاموات وانذاك يكتب عليها « النواح على الرجال الذين تركوا زوجاتهم خلفهم ، وعلى الصبايا اللواتي اختطفن من احضان عشاقهن وعلى الاطفال الذين جيء بهم قبل الاوان » على حد تعبير الاسطورة • لذلك امرت ايرشكيجال وزيرها ان يأخذ عشتار ويسلط عليها ارواحا شريرة تحيلها الى جثة هامدة •

وكان طبيعيا ان تتحسس الالهة في السماء وكذلك البشر وسائر المخلوقات في الارض بان حادثا وقع لالهة الخصب عشتار التي بدونها تتوقف عادة مظاهر الحياة والتجدد والتكاثر • فتذكر الاسطورة بهذا الخصوص ان وزير الالهة تملكه حزن عميق فارخى شعره وارتدى ثياب الحداد اسفا عليها • اما في الارض فقد توقفت كل مظاهر الخصب والتكاثر حيث « ابتعد الثور عن اتانه وهجر الزوج زوجته » بسبب ماحل بالهة الخصب عشتار •

تتفق النسختان السومرية والآشورية من الاسطورة موضوعة البحث على ان الفضل في اعادة الحياة الى عشتار يرجع الى اله الحكمة ايا . اذ تذكر النسخةالسومرية انهعندما علمايا بالامر سارع الى خلقماردين اعطى للاول منهما «طعام الحياة» وللثاني «ماء الحياة» وامرهما بالنزول الى العالم السفلي فينثرا الماء والطعام على جسدها من اجل ان تعود اليها الحياة مجددا . اما النسخة الاشورية فانها تذكر بهذا الخصوص ان اله الحكمة خلق ماردا اسمه اسو ـ شو ـ نامر (حرفيا ـ منير مظهره) ويظهر من مدلول اسمه ومن التفاصيل اللاحقة ان الاله ايا حباه بالحسن والجمال في سبيل ان تعشقه الالهة ايرشكيجال حالما تراه . وهذا ماحدث حسبما تذكر الاسطورة . فعندما رأته ملكة العالم السفلي استحوذ عليها سحره واذهلها جماله وابدت استعدادها لان تفعل كل شيء في سبيل ارضائه . عندئذ فاجأها اسو ـ شو ـ نامر وطلب منها ان تؤدي له « قسم الالهة العظيمة » وهو قسم يلزم من يؤديه من الالهة الايفاء غير المشروط بكل مايطلب منه . فاستجابت له ايرشكيجال وادت قسم الالهة . بعد ذلك خاطبها المارد قائلا :

«فلتأمر لي سيدتي بهذه القربة، قربة ماء الحياة لارتوي منها» . عندئذ ادركت ايرشكيجال انها وقعت في خدعة مرسومة وتوضح لها السر الذي يكمن وراء مجيئه الى مملكتها . لذلك تملكها غضب شديد وراحت تصب اللعنات على اسو ـ شو ـ نامر وتقول : « تعال يا أسو ـ شو ـ نامر فأني سألعنك لعنة كبرى ، فعسى ان تكون فضلات المدينة طعامك وبواليعها شرابك ، وظلال حيطانها مأواك وعتبات ابوابها مسكنك » .

وعلى اية حال ، لم تجد ايرشكيجال مفراً من اعطائه قربة ماء الحياة فاخذها ونثر من مائها على جسد الالهة عشتار فعادت اليها الحياة من جديد .

اما النسخة السومرية من الاسطورة فانها تذكران ان الالهة اينانا (عشتار) عادت الى الحياة بعد ان ان نثر عليها الماردان ماء الحياة وطعام الحياة . بعد ذلك تهيأت الالهة عشتار للخروج من العالم السفلي والعودة الى مملكتها في السماء . فمرت بالبوابات السبع التي دخلت منها وكان يعاد اليها في كل بوابة ما اخذ منها من حلي او ثياب . لكن اختها ايرشكيجال ارسلت معها عددا من الشياطين لضمان الحصول على بديل يأخذ مكانها في العالم السفلي . اذ ان نواميس عالم الاموات لاتسمح بخروج احد منه الامقابل بديل يحل محله .

وسارت الالهة عشتار من مدينة الى اخرى ومعها الشياطين لالقاء القبض على بديل تختاره الالهة بنفسها . واخيرا وصل موكب عشتار الى كولاب احدى ضواحي الوركاء، حيث رأت زوجها تموز هناك . وتذكر النسخة السومرية في الاسطورة ان الالهة إنانا (عشتار) صوبت اليه « نظرات الموت » واشارت الى من كان معها من الشياطين ان يأخذوه بديلا عنها الى عالم الاموات .

ولكن من المعروف ان الاله تموز كان رمزا للقوة الخلاقة التي تبعث الحياة في المظاهر الطبيعية وقت الربيع عندما يظهر العشب وينمو الزرع وتتكاثر الماشية . ولهذا كيف يمكن التوفيق بين حقيقة موته وبين ضرورة وجوده لتجديد الحياة في الطبيعة . الجواب يكمن في نص سومري اخر حول تموز يذكر ان اخته كششن ـــ انا ، التي عرفت بحبها الشديد لاخيها وبتفانيها من اجله ،تطوعت لان تأخذ مكانه نصف عام في العالم السفلي ليتسنى له الخروج وبعث الحياة في الطبيعة في موسم الربيع . ولا شك في ان نزول تموز الى عالم الاموات نصف عام وبعثه في النصف الاخر يعكس تأثيرا واضحا على الاسطورة الاغريقية الخاصة بموت وبعث الاله ادونيس .

اسطورة ادبـــا

من المؤلفات الادبية البابلية التي تدور حول حتمية موت الانسان مايعرف باسطورة ادبا التي تذكر انه كان في مدينة اريدو رجل تقي متعبد اســمه ادبا وان اله الحكمة « ايا » وهبه حكمة واسعة وجعله مثلا للانسان الصالح ، فكان محبا للناس ، يساعدهم في اعمالهم ويساهم في توفير الطعام والشراب لسكان مدينته وكان رجلا زاهدا يخشى الالهة ويقدم لها القرابين باستمرار .

وبينما كان ادبا يصطاد السمك في قاربه ذات يوم هبت « ريح الجنوب» فقلبت القارب رأسا على عقب . وعندئذ غضب ادبا فأمسك بالريح الجنوبية وكسر جناحها مما سبب توقفها عن الهبوب . ولما علم آنو ، اله السماء ،بالامر طلب احضار ادبا امامه على الفور عندئذ تملك ادبا الخوف وخشى العاقبة فلاذ باله الحكمة يسأله العون للخروج من المأزق . فنصحه الاله ان ينتر شــعره ويلبس ثوب حداد عند صعوده الى السماء وانه سوف يلاقي عند بوابة آنو الهين يدعيان دموزى وكزيدا . فاذا ماسألاه عن سبب حزنه وجــب عليه ان يقول لهما ان الهين اختفيا من الارض وانه حزين على فقدهما.واذا ما سألاه عن اسميهما وجب عليه ان يردد اسم دموزي وكزيدا . فعندئذ سوف يشعر هذان الالهان الحارسان بالامتنان لادبا لاحاسيسه الطيبة نحوهما وسوف يشفعان له عند اله السماء آنو .

واهم من هذا وذاك فقد قال اله الحكمة لأيا ان آنو سيقدم له عند مثوله امامه «خبز الموت وماء الموت» فعليه الا يقربهما. ولكن عندما يقدم له ثوبا فعليه ان يلبسه وان يأخذ كذلك الزيت ويدهن به جسده. ثم طلب اله الحكمة من ادبا بان يتمسك بوصيته ولايخالفها مهما كلف امر . واصعد ادبا الى السماء. ومر بالحارسين عند بوابة آنو فجرى بينه وبينهما سؤال وجواب على النحو الذي توقعه اله الحكمة ايا . ثم جيء به امــام آنو فســأله عن السبب الــذي دفعه الى كسر جناح ريح الجنوب فاجابه ادبا قائلا :

« كنت اصطاد السمك وسط البحر
وكان البحر صافيا كالمرآة
ولكن ريح الجنوب هاجت وعصفت فاغرقتني
وفي سورة الغضب انزلت عليها اللعنة »

ثم تذكر القصة ان كلاً من الحارسين دموزي وكزيدا ، اللذين اعجبا بعواطف ادبا نحوهما ، تشفعا له عند الاله آنو وطلبا ان يعفو عنه ويقدم له وفاء لتلك المشاعر « خبز الحياة وماء الحياة » فوافق آنو وامر له بما ارادا . ولكن ماذا حدث ؟ تذكر قصة ادبا مانصه :

« عندما جلبوا له خبز الحياة لم يأكله
وعندما جلبوا له ماء الحياة لم يشربه
ولكن عندما جلبوا الثوب فانه لبسه
والزيت فانه دهن به جسده
وانذاك نظر اليه آنو باستغراب ثم ضحك منه وقال :
تعال يا ادبا وقل لي لماذا لم تأكل او تشرب ؟
انك لن تحصل على الحياة الابدية
(طالما) ان ايا امرك الا تأكل او تشرب »

ثم التفت آنو الى الحراس وقال لهم عبارته المأثورة : « خذوه وردوه الى ارضه » . واخيراً سخر اله السماء من نصيحة اله الحكمة الذي امر ادبا ان يتصرف على النحو الذي فعل وقال ضاحكا :

« مَنْ مِنْ الهة السماء والارض على كثرتهم
اعطى مرة مثل هذه الاوامر ؟
ومن منهم يستطيع ان يجعل امره يفوق أمر آنو ؟

وهكذا عاد ادبا من السماء الى الارض خاوي اليدين بعد ان فوت على نفسه وعلى البشرية جمعاء فرصة ثمينة للحصول على الخلود .

اسطورة ايتنــا

اسطورة بابلية طريفة تدور حول ايتنا ، احد ملوك سلالة كيش الاولى (تل الاحيمر حاليا) وصعوده الى السماء على جناحي نســر . وللاسطورة مقدمة تمهد للموضوع فتتحدث عن نسر وثعبان عقدا عهد صداقة وتعاون بينهما وقد بارك شمش ، اله العدل ، ذلك العهد ، اذ تذكر الاسطورة بهذا الخصوص مانصــه :

« واديا القسم امام البطل شمش قائلين :
كل من يتعدى حدود الاله شمش
عسى الاله شمش ان يوقع به الشر ويسلمه الى الجلاد
اجل ! كل من يتعدى حدود الاله شمش
عسى ان يسد في وجهه مسالك الجبال
وان تصيبه السهام في الصميم
وعسى ان يقع في الفخ وتحل به لعنة شمش »

وهكذا صارا صديقين حميمين حتى انهما كانا يقتسمان الطعام بينهما كل يوم . ومرت الايام وكبر فراخ النسر واوشكوا على الطيران . وعندئذ بدأت نفســه تزيــن لــه خيانــة صــديقه الثعبــان والاقــدام علــى أكــل صــغاره ثم الهــرب الــى الاجــواء البعيــدة . وعلــى الرغــم مــن نصيحة ابنائه له وتحذيرهم من مغبة خيانة العهد الذي قطعــه على نفســه ، الا انه اقدم على اكل صغار الثعبان . فذهب الاخير باكيا الى الــه العــدل شمش طالبا الانتقام له من النسر الذي فر هاربا في الفضاء البعيد . فأشفق اله العدل على الثعبان وعلمه طريقة يستطيع بها ايقاع النسر في الفخ ومن ثــم الانتقام منه . وفعل الثعبان حسبما قال له الاله واستطاع ان يمسك بالنسر ويحطم جناحيه ويرميه في حفرة عميقة .

هنا تنتقل الاسطورة الى الحديث عن ايتنا ، ملك كيش حيث يأتي ذكره

وهو يناشد الاله شمش لان يدله على وسيلة للحصول على « نبات النسل » ليكون له ولد يحمل اسمه . فاستجاب اله العدل لدعائه وارشده الى الحفرة التي كان يقبع فيها النسر . فذهب ايتنا وانقذ النسر وضمد جراحه . واعترافا منه بالجميل فقد وافق النسر على ان يحمل ايتنا على ظهره ويصعده الى السماء حيث يوجد «نبات النسل» عند آنو ، اله السماء.اذ قال النسر لايتنا :

« ساحملك الى العلى ، الى سماء آنو
فضع صدرك على صدري
ويديك على ريش جناحي
وساعديك من حولي »

وتذكر الاسطورة ان ايتنا اعتلى ظهر النسر . وان الاخير شعر بوطأة ثقله اول الامر لكنه مع ذلك انطلق به الى اعلى دونما صعوبة . ومن الطريف ان نقرأ ان النسر كان يتبادل الحديث من حين لاخر مع صديقه ايتنا وهو يحمله عبر الاجواء العالية . اذ كلما ارتفع النسر بصاحبه مسافة ميل كان يلتفت اليه ويسأله عمايرى تحته من اشياء وكيف يراها :

« وعندما حمله عاليا مسافة ميل واحد
قال النسر لايتنا :
انظر ياصديقي كيف تبدو الارض
وتطلع الى البحر على جانبي (الجبل الكوني) ـ ايكور
(فأجاب ايتنا) : اصبحت الارض تبدو كأنها تل صغير
وصار البحر الواسع مثل نهير
وعندما حمله عاليا مسافة ميلين
قال النسر لايتنا :
انظر ياصديقي كيف تبدو الارض
(فأجاب ايتنا) تبدو الارض وكأنها حفرة صغيرة

وبعد ان صعدا الى سماء آنو
ذهب الى بوابة آنو وانليل وايا
وقدم النسر وايتنا فروض الطاعة سوية »

في هذا الموضوع من الاسطورة ينخرم النص دون ان نتعرف على نهاية هذه الاسطورة الطريفة وعلى اية حال فان للاستاذ سُبايزر ملاحظة طريفة بهذا الخصوص اذ يقول ان ايتنا لابد وان يكون قد وصل الى غايته وحصل بالفعل على « نبات النسل » بدليل ان قائمة الملوك السومرية تذكر ابنا له اسمه بالخ خلفه في الحكم .

ادب الحكمة

هناك ضرب آخر من ضروب الادب العراقي القديم يمكن تسميته «ادب الحكمة » (Wisdom Literature) الذي يشمل تآليف متنوعة تهدف الى الحكمة والموعظة وتتطرق احيانا الى قضايا فكرية وفلسفية تتعلق بالانسان وماتقدر له الالهة من ثواب او عقاب ومن اسباب النجاح او او الفشل في الحياة . وهناك قصيدتان بابليتان تعتبران على قدر كبير من الاهمية ادبيا وفكريا لانهما تدوران حول«الانسان المعذب» و«العدالة الالهية» وهما من المواضيع التي عني بها الكتاب والمفكرون السومريون والبابليون عناية خاصة . فقد كان الاعتقاد السائد عند الفرد في بلاد وادي الرافدين ان الالهة خلقت البشر ليقوموا بخدمتها : يخصونها بالعبادة ويقدمون لها القرابين ويبنون لها المعابد.ولا شك في ان الفرد كان يطمح بالدرجة الاولى الى ان تمنحه الالهة مقابل تقواه وسلوكه الحسن ، العون والحماية والسعادة في الحياة . ولهذا كانت طاعة الاوامر الالهية والقيام بالطقوس والشعائر والعبادات وتقديم القرابين من الامور التي تمسك بها العراقيون القدماء واعاروها اهمية بالغة.

غير ان قاعدة « طاعة الالهة » تساوي « حياة سعيدة » لم تكن مضمونة

بهذه الدرجة من السهولة . لذلك كان للفرد السومري والبابلي ، مثل غيره من القدماء ، نصيبه من هموم الدهر واحزانه : الفقر والمرض وكوارث الطبيعة المختلفة .

هنا اثار بعض الناس من السومريين والبابليين سؤالا كان لا بد منه : ان الالهة هي التي خلقت الكون فكيف يمكن اذا ان تحدث مثل هذه الامور ويسود الشر على الخير في حياة بعض الاتقياء من الناس ؟

وكان جواب الكهنوت على هذا السؤال وامثاله ان الالهة نفسها لم تخل من صفات شريرة عندما اتبعت طريق العنف والبطش والخداع في خلال المراحل الاولى للخليقة كما يتضح ذلك جليا من قصة الخليقة البابلية ، لذلك تصوروا ان هذا الكون تسيره منذ البدء نواميس الهية لا تتمثل بعناصر الخير (كالصدق والعدل والسلام) فقط ولكن بعناصر الشر ايضا (كالزور والكذب والنفاق) . وبتعبير اخر فان عنصر الشر موجود في الالهة وبالضرورة في البشر ايضا الى حد يقول عنه المثل السومري : ماولدت امرأة قط ابنا بريئا .

ولكن اذا ماقبل الفرد في وادي الرافدين بمثل هذا التعليل فانه بقي يسأل بالحاح سؤاله التقليدي التالي : لماذا لا يكون الشر اذا من نصيب الاشرار والخير من نصيب الأخيار ؟ وبتعبير اخر كيف يمكن ان يصيب البؤس والفقر والمرض شخصا تقيا ورعا في حين يرفل غيره من الاثمين والمعتدين بثياب السعادة وينعمون بالغنى والعيش الرغيد ؟ . ومهما تعددت صور الاجابة على مثل هذا السؤال من قبل رجال الدين السومريين والبابليين فخلاصة الامر ان التقوى هي الطريق الى النجاح والسعادة وان على الانسان ان يتشبث بالالهة دائما وفي مختلف الظروف لانها لابد وان تمد اليه يد العون آجلاً أم عاجلا . وبتعبير اخر كان الاعتقاد السائد بين القدماء في وادي الرافدين يؤكد على ان الخير لابد ان ينتصر على الشر في نهاية المطاف وان على الرجل الصالح المبتلى في الحياة الدنيا ان يصبر ولا ييأس من عطف الالهة ورحمتها .

قصيدة العدالة الالهية

يقودنا الحديث هنا الى القصيدةالبابلية المعروفة بين المختصين بمسماريات بقصيدة « العدالة الالهية » التي تتألف من سبعة وعشرين مقطعا يحوي كل مقطع منها على احد عشر بيتا • ومن المحتمل ان زمن تدوينها يعود الى نهاية العصر الكشي •

تتخذ القصيدة شكل حوار مطول (على غرار مانجده في سفر ايوب) بين رجل معذب وصديق له حكيم يحاول ان يواسيه ويهون عليه عذابه والامه وان يخرجه من حالة اليأس والقنوط الى الايمان برحمة الالهة وقدرتها عنى تخليصه من عذابه •

يبدأ المعذب حواره مع صديقه الحكيم بالحديث عن همومه وآلامه وعما اصاب جسده من وهن وكيف ان الدنيا اسودت في عينيه وانه صار لا يرى املا في الخلاص • ورغم ذلك فانه منذ صباه كان يتعبد الى الالهة ويقدم لها القرابين ، لكنها ادارت له ظهرها وجعلت اعز اصدقائه يتنكر له وسلطت عليه ادنى الناس مكانة ومنزلة • هنا يتساءل المعذب فيقول : لماذا ان الالهة لا تحمي اولئك الذين لا يستطيعون حماية انفسهم ؟

يستمر الحوار سجالا بين المعذب وصديقه الحكيم • فالاول يطرح في كل مرة جانبا من المعاناة التي كان يعيشها على شكل صور ومشاهد ينتزعها مرة من المجتمع البشري حيث الظلم والنفاق الاجتماعي ومرة من عالم الحيوان حيث تسود شريعة الغاب • ويشعر القارىء من خلال التفاصيل التي يطرحها المعذب انه كان دائما يضرب على وتر واحد الاوهو حقيقة وجدوى العدالة الالهية • من جهة اخرى تتجلى فطنة وبراعة صديقه الحكيم في مقدرته على الاتيان بالحجة ـ وان بدت غير مقنعة للمعذب احيانا ـ وفي « فلسفة » المظاهر السلبية التي يطرحها صديقه قياسا على القيم الاجتماعية الفاضلة

والتعاليم الدينية المعروفة . ولمزيد من التوضيح نقتبس ادناه بعضا من مقاطع القصيدة :

المعذب :

اين الناصح الذي اقص عليه عذابي ؟
اراني قد انتهى امري وتسلط عليّ الشقاء
فعندما كنت طفلا صغيرا اختطف القدر ابي
وذهبت امي التي ولدتني الى « ارض اللارجعة »
لقد تركني ابي وامي دون من يتكفل رعايتي

الصديق :

ياصديقي الموقر ، ان ماتقوله يبعث الكآبة والحزن
اراك وجهت فكرك الى الشر ياصديقي العزيز
حتى انقلب فهمك الدقيق للامور كفهم المعتوه
وجعلت من بشاشة وجهك عبوسا
لقد سلم آباؤنا لمصيرهم المحتوم وساروا في طريق الموت
وكما قيل منذ القدم انهم يعبرون نهر خُبر ...
ان من يقوم على خدمة الالهة يكون له ملاك يحميه
وان الانسان المتواضع الذي يخشى الهته يحظى بثروة طائلة

المعـــذب :

ياصديقي ان فكرك نهر لا ينضب منبعه
انه البحر المتلاطم الذي لا تنقص مياهــه
دعني اسألك سؤالا فاستمع واصغ لحظة الــي
لقد صار جسدي حطاما واعتلاني الهزال
وخذلني التوفيق وذهبت عني الطمأنينة
وهنت قواي وفقدت النعيم والخير

اظلم وجهي من كثرة الحزن والبكاء
نقصت غلال حقلي ونضب شرابي
اريد ان اعرف ، كيف سأنال السعادة ؟

الصديق :

(النص مخروم في هذا الموضع ولكن مابقى منه يشير الى ان الصديق الحكيم يحث صاحبه المعذب على التشبث بعطف ورحمة الالهة) •

المعـذب :

••• دعني اسألك سؤالا
هل يقدم السبع المفترس الذي يلتهم احسن اللحم
قرابين الى الالهة بغية ارضائها ؟
هل قدم الذهب الى الالهة « مامي » ؟
وانا هل انقطعت عن تقديم القرابين ؟ لقد قدمت الصلوات الـى الهي •
وقرأت التبريكات على الاضاحي لالهتي

الصديق :

يا من اشبهه بالنخلة ، شجرة الخير والعطاء ، يا أخي الاعز
يامن اعطيت الحكمة ، ياحلية من ذهب
انك ثابت كالارض ، لكن حكمة الالهة صعبة الادراك
انظر الى حمار الوحش المتباهي في السهل
فالسهم يلاحقه لانه يدوس الحقول ويتلف مزروعاتها
والسبع الذي ضربته مثلا
لكن الحفرة بانتظاره جزاءاً للجريمة التي اقترفها
والغني الذي كدس الثروات الطائلة

من ادراك انه لن يموت حرقاً على يد الملك قبل حلول اجله ؟
اترغب ان تسلك طريق هؤلاء ؟
كلا ! الأجدر بك ان تسعى وراء الجزاء الدائم لالهك

المقطعان الاخيران (٢٦-٢٧ من قصيدة « العدالة الالهية » البابلية) :

الصديق :

ان « نارو » ، ملك الالهة الذي خلق البشر
وصاحب العظمة « زولومار » الذي استخلص طينتهم
والسيدة « مامي » الملكة التي صورتهم
جعلوا قول الباطل من نصيب البشر
لقد منحوهم والى الابد الكذب دون الصدق
فهم يتحدثون دائما بالاجلال عن الثرى
فيقولون عنه « انه ملك وان الثراء يصاحب ظله في كل مكان »
لكنهم يؤذون الفقير وكأنه لص
انهم يفترون ويتآمرون عليه لقتله
ويجعلونه يقاسي صنوف العذاب كما لوكان مجرما
ثم يأتون به ليلاقي حتفه المفزع ويخمدون انفاسه
كما تخمد النار .

المعذب :

انك لرجل رحيم ياصديقي ، انظر الى احزاني
ساعدني تفحص علتي واعرفها
انني رجل متواضع ، عاقل ومتضرع
لكنني لم اجد عونا في يوم ما
انني ان سرت في ساحة المدينة كنت متواضعا
صوتي واطيء وكلماتي خافتة

لاارفع رأسي وعيني لاتفارق الارض
لكنني كالعبد لا استطيع ان اتعبد مع اصحابي
فليمدني الاله الذي خذلني بالعون
ولترني الالهة التي خذلتني الرحمة

قصيدة « لامتدحن رب الحكمة »

ومن القصائد البابلية الشهيرة التي تعرضت الى موضوع الانسان المعذب القصيدة الموسومة « لامتدحن رب الحكمة » نسبة الى مطلعها والتي تشبه في اطارها العام قصة ايوب في التوراة . ان هذه القصيدة التي ربما دونت في الاصل على اربعة رقم بحالة جيدة من الحفظ ، تضم مايقرب من ٤٥٠ بيتا ضاعت منها اجزاء قليلة بسبب تهشم النص . وقد دونت مثل سابقتها «العدالة الالهية » في العصر الكشي وهي تدور حول رجل بابلي اسمه شمشي ــ مشري ــ شكان . ويظهر واضحا من القصيدة ان هذا الرجل كان تقيا يخشى الالهة ويقيم الطقوس ويحسن الى الناس وانه احتل مناصب عالية في الدولة كما كانت له ثروة طائلة ولكن فجأة نجده وقد ساءت به الاحوال وتنكر له الدهر واصابه اليأس والقنوط . لقد تركته الالهة وحيدا لامعين له واشتد عليه غضب وخنق سيده الملك وراح الطامعون من رجال الحاشية يحيكون ضده شتى انواع المؤامرات للاطاحة به واحتلال مكانه ، واخيرا وليس اخرا نجده وقد اقصي من كل المناصب وتنكر له الاصدقاء وكرهه الاصحاب وصار اهله يعاملونه وكأنه غريب بينهم وبلغت به الحال درجة المذلة على يد عبيده :

« لقد تخلى عني الهي واختفى
وخذلتني الهتي وابتعدت عني
وفارقني الملاك الصالح الذي كان يلازمني
والروح حارستي لاذت بالفرار قاصدة غيري

ذهبت قوتي ووهنت رجولتي
راحت هيبتي ومنعتي
فأل مخيف يحدق بي من كل جانب
والملك اغتاظ قلبه مني ولم يهدأ
ورجال الحاشية يتآمرون عليّ
لقد اجتمعوا فيما بينهم وقالوا بهتانا ...
انا الذي كنت امشي مشية النبلاء ، تعلمت كيف انسل خفية
انا صاحب المقام الرفيع صرت مثل العبد
فلا احد من الناس يستمع الي في الطريق
ولا عين تنظر الي اذا مادخلت القصر
مدينتي تعبس في وجهي كما لو كنت عدوا ...
صديقي صار عدوي
ورفيقي صار شيطانا ماكرا
صاحبي يدينني بشدة
خلاني يصقلون اسلحتهم باستمرار
وعبدي يشتمني علانية في المجلس
ومعارفي حالما يرونني يعبرون الى الجانب الاخر
أهلي يعاملونني كأني غريب ...

ولم يقتصر الامر عند هذا الحد بالنسبة للمعذب البابلي شمشي ــ مشري شكان . ففي الرقيم الثاني (٤٩ــ١٠٧) من القصيدة البابلية موضوعة البحث ، نجده يتحدث ، ضمن اشياء كثيرة، عن تعرضه الى مزيد من العذاب والشقاء بسبب ابتلائه بشتى انواع الامراض التي تجسدت في أرواح واشباح شريرة جاءت تهاجمه من مستقرها في عالم الاموات ومياه العمــق (ابســو) . ثم

يذكر بعد ذلك ماسببته له تلك الاشباح والارواح من امراض بدنية وعذاب ليس بمقدور انسان تحمله ، فهو يقول :

لقد جعلت الحمى تدب في اطرافي وجعلت بدني يرتجف
حطمت قوامي المشوق مثلما يتحطم الجدار
وحنت جسمي القوى مثلما تحنى حزمة القصب ..
وتلبس الشيطان « الو » بجسدي كأنه رداء
نوم ينطبق على كالشبك
عيناي تحدقان ولكن لا تبصران
اذناى مفتوحتان ولكن لا تسمعان
استحوذ الوهن علي
جسمي يرتعش
وقد غل الشلل يدي
وحل العجز في ركبتي
حتى نسيت قدماي الحركة ...
آلامي اعجزت العزام
وفألي حير العـــراف
فلاطارد الارواح قادر على تشخيص مرضي
ولا العراف يدري متى ينتهي سقمي
لاالهي يقدم العون فيأخذ بيدي
ولا الهتي ترحمني بالسير الى جانبي
قبري ينتظرني ولوازم الدفن جاهزة
اجل ! لقد انتهت المناحة علي حتى قبل ان اموت ...

هذه بعض من مقاطع قصيدة « لامتدحن رب الحكمة » جسد فيها الرجل البابلي صورة لعذابه الروحي والجسدي ، وهي من دون شك منتزعة مـــن

واقع رجل مبتلى اضناه الدهر بصروفه وفعل به المرض مافعل.ولكن وعلى الرغم من تلك المعاناة فانه بقي مؤمنا بعدالة القدر وبان اليوم المنشود سيأتي ومعه رحمة الاله شمش على حد قوله.وبالفعل كان اشتداد الازمة نذيرا بدنو الفرج، حيث بدا في الافق المدلهم بصيص خافت من نور كان ايذانا ببداية النهاية . وقد تمثل ذلك بسلسلة من الاحلام رآها الرجل المعذب في منامه.وكان آخرها انه رأى رجلا قال له انه رسول من الاله مردوخ يحمل له البشرى بالخلاص . ثم يستمر شبشي ــ مشري ــ شكان في ذكر تفاصيل شفائه واستعادة اعضائه الحياة مجددا . وتنتهي قصيدته بذكر تفاصيل ذهابه الى مدينة بابل قاصدا معبد الاله مردوخ ومتنقلا بين بواباته العديدة حيث اقام الصلوات الى الالــه البابلي كما قدم الذبائح والهدايا والنذور .

حوار بين سيد وعبده

هناك حوار بابلي اخر بين سيد وعبده نظم على شكل قصيدة ايضا في هذا الحوار يطــرح السيد على عبده في كل مــرة . فيوافقه العبد على الفــور ويأتيه بالدليل المنطقي الذي يدعمها . ولكن ماهي الالحظات حتى يتراجع السيد في رأيه فيؤيده العبد ويأتيه بالدليل على عدم جدوى الفكرة اصلا . لذلك ولاسباب اخــرى اختلــف الباحثــون في تحديد الهــدف الــذي يرمي اليه الحوار . فبعضهم اعتبره مجرد ضرب من ضروب السخرية . وقال آخرون انه يهدف الى التشكك بالقيم الاجتماعية والدينية زمن تدوين الحوار (في حدود ١٠٠٠ ق.م) باسلوب ساخر يثير التساؤل عند القارىء . وفي اعتقادنا ان هذا الحوار لا يخلو من مغزى فلسفي مفاده ان الخير والشر مفهومان نسبيان فليس هناك خير مطلق او شر مطلق.فقد يبدو امر ما خيراً لأول وهلة لكنه يحمل في باطنه كل بذور الشر.وبغية تسليط مزيد من الضوء على هذا الحوار نقتبس في ادناه بعضا من مقاطعه :

السيد : اسمعني ايها العبد

العبد : اجل ياسيدي ، اني مصغ اليك

السيد : هيىء عربتي احضرها من اجل ان اذهب الى القصر

العبد : افعل ياسيدي ، افعل . انه سوف ... من اجلك ويعفو عنك

السيد : لا ايها العبد ، انني لن اذهب الى القصر

العبد : لا تفعل يا سيدي ، لا تفعل ، لانك اذا ذهبت الى القصر فانه سيرسلك الى ... ويبعثك في طريق لا تعرفه . انه سيسبب لك الشقاء والاحزان .

***

السيد : اسمعني ايها العبد

العبد : اجل ياسيدي ، اني مصغ اليك

السيد : احضر لي في الحال ماء لاغسل يدي لاني اريد ان آكل

العبد : كل ياسيدي ، كل . فالاكل بانتظام يشرح القلب ...ان الاله شمش يحضر مأدبة كل من يأكل بيدين نظيفتين .

السيد : لا ايها العبد ، لن آكل .

العبد : لا تأكل يا سيدي ، لا تأكل طالما ان الجوع من بعد الشبع والعطش من بعد الشرب يأتي لكل انسان .

***

السيد : اسمعني ايها العبد

العبد :اجل ياسيدي ، اني مصغ اليك

السيد : عزمت على ان اقوم بعصيان

العبد : افعل ياسيدي ، افعل . فاذا لم تقم بعصيان فمن اين تحصل على ثيابك ومن سيملأ لك كرشك ؟

السيد : لا ، ايها العبد ، لن اقوم بعصيان مهما كان الامر ٠

(العبد : لا تفعل ياسيدي ، لاتفعل) ان من يقوم بعصيان اما ان يقتل او يسلخ جلده او تسمل عيناه ، او يحتجز او يرمى في السجن

***

السيد : اسمعني ايها العبد

العبد : اجل ياسيدي ، اني مصغ اليك

السيد : اريد ان احب امرأة

العبد : افعل ياسيدي ، افعل ٠ فالرجل الذي يحب امرأة ينسى احزانه وهمومه

السيد : لا ايها العبد ، لن احب امرأة

العبد : لا تفعل ياسيدي ، لا تفعل ٠ المرأة بئر ـــ بئر ، انها حفـــرة وخندق المرأة خنجر من حديد صارم يقطع عنق الرجل ٠

***

السيد : اسمعني ايها العبد

العبد :اجل ياسيدي ، اني مضغ اليك

السيد : عزمت على ان اقرض الناس واساعدهم

العبد : افعل ياسيدي ، افعل ان من يقرض الناس تبقى حنطته خالصة ويكون ربحه جسيما ٠

السيد : لا ، ايها العبد ، لن اقرض الناس

العبد : لاتفعل ياسيدي ، لاتفعل ٠ ان من يقرض الناس كمن يحب امرأة ٠٠٠ فاسترجاعها امر عسير مثل ولادة طفل٠ثم انهمسياكلون حنطتك وينزلون عليك لعناتهم دون هوادة ويحرمونك من الفائدة على حنطتك ٠

***

السيد : اسمعني ايها العبد

العبد : اجل ياسيدي ، اني مصغ اليك

السيد : اريد ان اساعد بلادي

(العبد : افعل ياسيدي ، افعل) ان من يساعد بلاده ... توضع حسناتـــه امام الاله مردوخ .

السيد لا ، ايها العبد ، لن اساعد بلادي

العبد : لاتفعل ياسيدي ، لاتفعل . اصعد فوق الاطلال القديمة وتمشى هناك. وانظر الى جماجم الاسبقين واللاحقين فايهم الاشرار وايهم الابرار ؟

***

السيد : اسمعني ايها العبد

العبد : اجل يا سيدي ، اني مصغ اليك

السيد : اذا ماهو الخير في هذه الدنيا ؟

(العبد) : ان يدق عنقي وعنقك ونرمى في النهـر ، ذلـك هـو الخـير في الدنيا

ترى من يستطيع ان يطاول السماء

ومن يستطيع ان يحتوي العالم السفلي ؟

السيد : ايها العبد ، اني سأقتلك وادعك اولا ..

العبد : ان سيدي لن يستطيع العيش من بعدي حتى لوكان ذلك لثلاثة ايام .

المناظرات

ويقع ضمن تآليف ادب الحكمة « المناظرات » التي تعرف في السومرية بالمصطلح "adamanduja" وفي المناظرة السومرية او البابلية يتبارى عادة اثنان من الالهة او البشر او الظواهر الطبيعية في محاولة لان يثبت احدهما افضليته على الاخر . تحتوي المناظرة في الغالب على مقدمة اسطورية يليها تمهيـــد للدخول في تفاصيل الموضوع . بعد ذلك يبدأ احد المتناظرين بالحديث عن

نفسه ومحاسنه ومزايـاه على خصمه • ثم يرد نظيره الاخر بالمثل وهكـذا يستمر الاثنان في المناظرة حتى يضطرا الى الاحتكام عند شخص ثالث فيصدر حكمه بتفضيل احدهما على الاخر • وتنتهي المناظرة بقبول الطرفين قـرار التحكيم وبزوال اسباب الخصام وحلول الصداقة والوئام بينهما •

ومن الامثلة السومرية على ذلك نذكر مناظرة الصيف والشتاء ، الهـة الماشية والهة الحنطة ، الطير والسمكة ، الشجر والقصبة ، الفضة والنحاس ، المعول والمحراث•كما ان هناك مجموعة من المناظرات السومرية تتعلق بالمدرسة السومرية والطلبة والنساخ • ومن الامثلة البابلية نذكر مناظرة بين الطرفـاء والنخلة ، الثور والحصان ، الحية والنسر ، الكلب والذئب •

امثال بابلية

تكون الامثال والحكم والنصائح بطبيعة الحال جزءا اساسيا من ادب الحكمة وقد وصلتنا مجموعة منها مدونة في اللغة السومرية والبابلية ومـن عصور تاريخية مختلفة • ولا يخفى ان البحث في موضوع الامثال على وجـه الخصوص يعتبر من الامور الشائكة احيانا ذلك لانها تكون مقتضبة عادة فيصعب على المرء فهم المعنى المقصود منها•ومع ذلك فهناك امثال كثيرة نستطيع ان نفهم مغزاها بوضوح تام وهي ان دلت على شيء فانما تدل على مدى ادراك الاقدمين لمـا كان يجري من احداث في حياتهم اليومية ومقدرتهم على استخلاص التجربة والعبرة المفيدة سواء كان ذلك في المجالات الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية• ونورد في ادناه عددا من الامثال البابلية المختارة :

* لذة الخمر تذهب وعثاء الطريق
* ارم كسرة للكلب يهز لك ذيله
* الفقراء هم الصامتون وحدهم في سومر
* اطع كلام امك كأنه امر الهي

* المال مثل الطير لا يعرف موطنا ثابتا
* لن يترك العدو بوابة مدينة ضعيفة السلاح
* لاكسب بدون تعب
* اذا احس بقرب اجله قال لآكل جميع ماعندي ، واذا تعافى قال لاقتصد
* هل تضرب الثور اذا كان دائبا على السير
* اذا خرجت تصطاد الطيور بدون شبكة فلن تصيد شيئا
* من تحب عليك ان تتحمل ثقل نيره
* ساكن البلد الغريب مثل العبد
* اذا اسأت الى صديقك فما عساك ان تفعل مع عدوك
* الزوجة المبذرة اشد ضررا من جميع الشياطين.

ادب السخرية

على الرغم من غزارة النتاج الادبي في العراق فان هناك ندرة واضحة في التآليف التي تحمل طابع الهزل والسخرية . ومهما كانت الاسباب في ذلك فالحقيقة هي ان هذا النوع من التآليف الادبية لا تقتصر ندرته على حضارة وادي الرافدين وانما تبدو واضحة ايضا في آداب الامم القديمة الاخرى كمصر مثلا . ولهذا فمن الصعب ان نعزوها الى طبع في الفرد او الكاتب السومري والبابلي . اذ ان هذا النوع من التآليف يكون عادة قليلا في كل الازمان اذا ما قيس بالوان الادب الاخرى .

ومما لاشك فيه انه كان عند السومريين والبابليين قصص وحكايات طريفة ونوادر مضحكة يقصونها ويتندرون بها في مجالسهم . ولاشك ايضا في ان مادونه النساخ القدامى من تآليف لا يمثل الاجزاء من التراث الادبي المتداول في مجتمعهم انذاك ، وان قسطا كبيرا منه لم يصل الينا اما لانه لم يدون اولانه

مازال مطموراً بين الاثار . واخيرا فان بعد الزمن واندثار اللغات التي دونت بها تلك التآليف الادبية (كالسومرية والاكدية) يجعل من غير السهل على الباحث المعاصر احيانا ان يتحسس ذلك المغزى الدقيق الذي ربما تعمده الاديب القديم من اجل ان يضفي على تعبيره طرافة النكتة ودقة الملاحظة .

وفي غضون السنوات القليلة الماضية نشرت نصوص وتراجم ادبية سومرية وبابلية ، منها ماهو الجديد كليا ومنها ماهو المنقح وقد اصبح من الممكن بفضل ذلك ان نستشف شيئا ولو بسيطا عن جوانب من ادب الهزل والفكاهة عند قدماء العراقيين . فهناك مجموعة من الاقوال الدارجة البابلية التي لا يخلو بعضها من متعة لطرافة الموضوع وحسن التصوير . ومما هو جدير بالملاحظة ، ان معظم هذه الاقوال نسج حول الحيوانات كالاسد والثعلب والفيل ... وهي بذلك تذكرنا بقصص الحيوان في الادب العربي القديم ، وقد رأينا من المناسب ان نقتبس بعضا من تلك الاقوال زيادة في الايضاح

اقوال بابلية ساخرة

* طارد النمس مرة فارا ، فاراد الفأر ان يختفي منه فدخل غار حية فلما ألفى نفسه ازاء هذا الخطر الجديد ارتج عليه فقال للحية : ارسلني اليك الحاوي مع التحيات

يحاول الاديب البابلي ان يصور هنا حال من يخرج من مأزق ليقع في اخر ، فالمعروف عن النمس والافعى ان لهما شهية كبيرة لازدراد الفئران . والادهى من ذلك ان الفأر اراد ان يستعطف الافعى على ما يبدو ولكن ارتج عليه فذكر الحاوي الذي تكرهه الافعى اكثر من اي شيء اخر لانه يطاردها دائما .

* طارد الكلب مرة نمسا فهرب منه ودخل في« بربخ » فلاحقه الكلب ودخل خلفه في الفوهة فحبس وافلت النمس منه .
يمثل الكلب هنا حال الاحمق المتهور الذي تؤدي به تصرفاته الى ان يقع في المأزق .

* وقفت مرة بعوضة على ظهر فيل وهو يمشي . فقالت له :
هل اثقلت عليك ياأخي ؟ فان كنت فعلت ذلك فانني سأنزل عند بلوغنا مورد المــاء .
فاجابها الفيل :
من انت ؟ لم احس انك كنت فوق ظهري ولن اعرف عندما ستنزلين .

* بال الثعلب مرة في البحر ، فنظر الى البحر وقال متعجبا متباهيا :
أكُلُّ هذا البحر من بولي ؟
فهذا القول وسابقه يضربان على وتر واحد هو الا نعير اهتماماً لتوافه الامور. فالفيل لا يهمه انبقيتالبعوضة امنزلت والبحر لا يزيده بول الثعلب . وربما كان المغزى من القولين شيئا اخر وهو ان الغرور اذا اصاب القوي تعالى على من دونه واذا اصاب الضعيف نسى قدر نفسه.

* أسرّ الحصان في اذن الأتان :
عساك ان تلدى مهرا عداء مثلي ، فلا تجعليه كالحمار الذي ينوء بحمل الاثقال .
من الواضح ان الحمار كان عند الاقدمين ايضا رمزا للشقاء والمعاناة في هذه الدنيا سواء في غبائه أم في تحمله مشقة العمل .

* ابصر احد الكهنة اسدا في البادية وهو في طريق عودته الى المدينة فتملكه الرعب والهلع .
ولما نجا من الاسد وبلغ المدينة رأى عند بابها تمثال اسد رابض فهجم عليه ولطمه على وجهه قائلا : ما كان يفعل اخوك في البادية ؟

ومن القطع الادبية الطريفة رسالة سومرية قصيرة كتبت على لســـان قرد الى امه•ويظهر من الرسالة ان القرد كان يتجول مع مرضه بين المدن التي خص بالذكر منها مدينتي اور واريدو•ولكن على الرغم مما هو معروف عن هاتين المدينتين من مظاهر البهجة وكثرة الخيرات فانه كاد ان يموت جوعا من اكل الفضلات ••

« الى امي لودي ــ لودي

قل :

هكذا يقول القرد (اوكو ــ دل ــ بي)
ان « اور » مدينة البهجة والمسرات
و« اريدو » مدينة الرخاء
ولكنني مع ذلك اجلس وراء باب قاعة الموسيقى اكل الفضلات •
فعساني لااهلك من الجوع
لم اذق طعم الخبز والجعة
فابعثي برسول منك على عجل » •

قصة الرجل الفقير من نفر

غير ان اطرف ما اكتشف لحد الان من التآليف ذات الطابع الهزلي في العراق القديم قصة ذلك الفقير المسـمى جميل ــ ننورتـا ، التـي عثـر عليها مدونة على عدة رقم وجد منها اثنان في سلطان تبه (احد تلول حـران الواقعة في اعالي نهر الباليخ) • وهناك كسرة من رقيم ثالث وجدت في مكتبة اشور بانيبال في نينـوى • ويرجـع تاريـخ كتابـة الرقيـم الاول الـى سـنة ٧٠١ ق•م والـى اليـوم الحـادي والعشـرين مـن شـهر اذار من تلـك السـنة على وجـه التحديد حسـبما ذكر في تذييل الناسـخ •

ان العثور على قصة جميل ــ نتورتا في نينوى وكذلك في سلطان تبه ربما يفسر بانه دليل على الشهرة الواسعة التي نالتها القصة بسبب طرافتها خاصة عندما نعرف، ان حوادث القصة تدور حول شخص من مدينة نفر في جنوب العراق • ولذلك فانه من غير المستبعد ان تكون اقدم النسخ منها كتبت في احد مراكز التدوين العديدة في هذه المدينة ومنها انتشرت الى المدن الاخرى •

تدور قصة جميل ــ ننورتا حول رجل فقير يسكن مدينة نفر اراد ان يتقرب الى حاكم المدينة عساه ان يجد حظوه عنده ويتخلص من فقره وبؤسه • وذات يوم خطرت بباله فكرة غريبة هي ان يبيع ثوبه الذي لا يملك سواه ويشتري بثمنه عنزة يقدمها هدية الى حاكم المدينة • اقتاد جميل ــ ننورتا عنزته الى بيت الحاكم وطلب من البواب ان يستأذن له من سيده ليقابله • ولما مثل جميل ــ ننورتا بين يديه وبخه الحاكم توبيخا عنيفا وامر بطرده على الفور •

شعر جميل ــ ننورتا بوطأة الاهانة فعقد العزم على الانتقام لنفسه من الحاكم • ولم يكتم ذلك سرا بل همس في اذن البواب وهو يقتاده الى خارج البيت بانه سوف يكيل لسيده الصاع ثلاثة اضعاف • ولما نقل البواب ذلك الى سيده ، ضحك الحاكم ملء شدقيه استخفافاً به وبوعيده • ولكن ما جريات القصة اثبتت ، كما سنرى بعد قليل ، ان ذلك الفقير المعدم كان على قدر كبير من المكر والدهاء وانه في الاخير سوف يقتص من الحاكم بمثل ما توعد ••

توجه جميل ــ ننورتا حال خروجه من بيت الحاكم الى قصر الملك لا ليطلب مالا او طعاما ولكن ليستأجر عربة من عربات القصر ليوم واحد فقط • ويبدو انه تظاهر امام الملك بسعة الحال ، فتعهد بدفع مقدار معين من الذهب الخالص اجرة لتلك العربة • وتذكر القصة ان الملك حقق له رغبته فأمر خدمه ان يشدوا له على احدى العربات التي انطلق بها جميل ــ ننورتا الى نفر • ومن الطريف ذكره

ان جميل تنورتا توقف في طريقه واصطاد بعض الطيور مقلدا بذلك اغنياء الناس ممن يخرجون للصيد في عرباتهم وكأنه يريد بذلك ان يضفي على نفسه مسحة النبلاء من أهل عصره • وسرعان ماوصلت اخبار النبيل الصياد الى اسماع الحاكم الذي خف الى استقباله والترحيب به •

ومما زاده قدرا في عين الحاكم ادعاؤه بان الملك بعثه الى نفر ومعه صندوق من الذهب لمعبد انليل اله المدينة • لذلك حرص الحاكم على حسن تكريمه وضيافته فأقام له وليمة ذبح فيها الخراف المسمنة وانزله في بيته وهو لا يدري بانه ذات الفقير البائس الذي طرده بالامس • ويبدو من سياق القصة البابلية ان جميل ـ تنورتا كان قد جلب معه صندوقا اودعه امانة في عهدة الحاكم •

بعد ان انتهى الضيف والحاكم من تناول العشاء ، جلس الاثنان يتسامران وقد تعمد جميل ـ تنورتا الاطالة في الحديث حتى ادرك الحاكم النعاس فغط في نوم عميق • انذاك قام جميل ـ تنورتا وفتح الصندوق ليوهم الحاكم بان لصا فتحه وسرق ما فيه من ذهب • ثم شق جميل ـ تنورتا ثيابه عمدا ، وانقض على الحاكم بالضرب على رأسه وجسمه حتى اخمص قدميه وكان الحاكم يصرخ تحته من شدة الالم • وكان طبيعيا ان تقع على الحاكم مسؤولية سلامة ضيفه وما معه لا سيما وهو مبعوث الملك ، فاضطر الى ان يعوضه ضعف ذهبه المزعوم وان يعطيه عددا من الثياب مقابل ثوبه الممزق • واخيرا خرج جميل ـ تنورتا من بيت الحاكم ولكن ليعود مرة اخرى وفي زي اخر •

في هذه المرة تقمص جميل ـ تنورتا شخصية طبيب ، فحلق رأسه تشبها باطباء ذلك العصر وحمل معه بعض الحاجيات مما كان يحمل الاطباء معهم •

ثم جاء الى بيت الحاكم واخبر البواب بانه طبيب من مدينة ايسن جاء خصيصا لمعالجة سيده ، وعندما ادخله على الحاكم كشف له الاخير عما به من رضوض وكدمات فاخبره جميل ـ تنورتا بانعلاجه لايتم الافي غرفةمظلمة.فنقل الحاكم الى غرفة خاصة ثم شد جميل ـ تنورتا الحبال من حوله واخذ يضربه ضربا مبرحاً والحاكم يستغيث دون جدوى ... فكانت هذه المكيدة الثانية ..

استطاع جميل ـ تنورتا ان يخرج من القصر دون ان يكتشف احد سره ولكن سرعان ماارسل الحاكم حشدا غفيرا من الناس خلفه . فاختبأ تحت قنطرة بعيدا عن انظارهم ، وبقي هناك يفكر في طريقة يستطيع بها الايقاع بالحاكم للمرة الثالثة . واخيرا اهتدى الى الوسيلة اذ نادى على احد المارة واعطاه مكافأة ليذهب الى بيت الحاكم ويخبرهم انه يعرف مكان الرجل المطلوب . فذهب المبعوث وفعل حسبما امره جميل ـ تنورتا . فخرج الناس خلفه وكان الحاكم واحدا منهم . ثم تجمعوا ، فركض الرجل وركضوا خلفه ويظهر انالحاكم كاناخر القوم، ربما لانه لا يقوى على الركض بسبب آلامه. وعندما مر الناس على القنطرة بقي الحاكم لوحده فانقض عليه جميل ـ تنورتا وجعل يضربه حتى وقع مغشيا عليه .

نود هنا انتلفت عنايةالقارىء الكريمالىانبعضالقصص مما هو معروف في الف ليلة وليلة يشبه منحيثالموضوع والاطار العام قصة جميل ـ تنورتا التي جئنا على ايجازها . من ذلك قصة الفتى الذي ارسلته امه ليبيع عجلا في السوق فوقع في شراك جماعة من المحتالين الذين اوهموه بان مايسميه هو عجلا لم يكن في الواقع سوى عنزة اشتروها منه بثمن بخس . وعندما رجع الفتى الى امه واكتشف انه وقع في شراك المحتالين عزم على الانتقام لنفسه منهم .

وهكذا يبدأ بتدبير المكايد لرئيس المحتالين الواحدة بعد الاخرى على غـرار ما رأينا في قصة جميل ــ ننورتا٠ترى هل ان التشابه مجرد صدفة ام انه جاء نتيجة تأثر واضح بالاصول البابلية القديمة ؟

متفرقـــات

يجد الباحث ضمن التآليف الادبية في وادي الرافدين مجموعة كبيرة من التراتيل والصلوات وقصائد الرثاء والمناحات ، مدونة أما في السومرية اوالبابلية واحيانا في كلتا اللغتين (السومرية وترجمتها البابلية) ويتضح من هذه النصوص ان السومريين والبابليين رفعوا دعواتهم وصلواتهم الى الالهة وخضوها بالعبادة والتقديس وقدموا لها القرابين وشيدوا لها المعابد والزقورات العالية ويتجلى واضحا للباحث الدور الكبير الذي كانت تشغله المعتقدات الدينية في المجتمع العراقي القديم ومدى التزام الفرد في تأدية الطقوس والشعائر الدينية واحترام الالهة والانصياع الى اوامرها ٠

ولا شك في ان هذه النصوص الادبية ذات الطابع الديني كانت من تأليف كهنة المعبد ٠ وهناك من الادلة مايثبت ايضا ان لكاهنات المعبد دورا بارزا في تأليف القصائد الدينية٠ ونذكر منهن انخيدو ــ انا ابنة الملك الشهير سرجون الاكدي التي كانت تشغل منصب كاهنة عظمى في معبد اله القمر سين في اور وقد وصلنا منها قصيدة في السومرية نظمتها في مديح اينانا (عشتار) الهة الحب والحرب ٠ كما حرص ملوك وادي الرافدين وفي مختلف العصور التاريخية على رفع التراتيل والادعية والصلوات الى الالهة وبحوزتنا نماذج عديدة منها تعود لمشاهير الملوك السومريين والبابليين والاشوريين ٠ وهناك نماذج من هذه التآليف، قيلت على لسان افراد من عامة الناس حتى ان احدها كتب بشكـــل رسالة من فتاة الى الالهة (Nintinugga) تشكو فيها من شلل اصاب

احدى ساقيها وقد نذرت الفتاة نفسها للخدمة في معبد الالهة لتقوم بكنسه وتنظيفه اذا ماشفيت من مرضها .

وهناك مجموعة من قصائد الرثاء والمناحات التي عبر فيها شعراء العصور القديمة عما شاهدوه من اثار الخراب والدمار التي لحقت بالمدن جراء الهجمات التي قام بها الاعداء . ومن تلك التآليف ما يسمى (مرثية اكد) وهي العاصمة التي ازيلت من الوجود نتيجة الهجوم الوحشي الذي تعرضت له البلاد على يد الكوتيين و « مرثية اور » التي تتحدث عن اعمال القتل والتخريب على يد العيلاميين اثناء غزوهم البلاد في حدود ٢٠٠٦ ق . م .

ترتيلة بابلية للالهة عشتار

من زمن الملك عمي ــ ديتانا (١٦٨٣ ــ ١٦٤٧ ق.م) :

الحمد للالهة ، لاشد الالهات رهبة
والاجلال لسيدة الخلق ، العظمى بين الالهة
الحمد لعشتار ، لاشد الالهات رهبة
والاجلال لسيدة الخلق ، العظمى بين الآلهة
التي ترفل باللذة والحب
المفعمة بالحيوية والسحر والرغبة
عشتار التي ترفل باللذة والحب
المفعمة بالحيوية والسحر والرغبة
حلوة الشفتين وفي فمها يكمن سر الحياة
يامن بظهورها يكتمل السرور
ذات الجلال والحجاب
قوامها جميل وعيناها مشرقتان

الالهة ـ تمسك بيدها مصير كل شيء
ومن نظراتها تنبعث الفرحة والعظمة والطمأنينة
الرحيمة الودودة التي تتصف بالرضا
وتصون المرأة : امة ، وحرة ، ووالدة
يامن يتوجه اليها المرء بالدعاء ، ويذكر اسمها بين النساء
من ذا الذي يضاهيها في العظمة ؟
عشتار من ذا الذي يضاهيها في العظمة ؟
ارادتها قوية وعظيمة
هي المنشودة من بين كل الالهة ، فمقامها عظيم
وكلمتها مبجلة وجليلة بينهم
انها ملكتهم وهم ينفذون اوامرها
كلهم يسجدون امامها ويستقبلون سنى نورها
هي التي يعبدها الرجال والنساء حق عبادة
كلمتها مطاعة في مجلس الالهة ، انها العليا
وهي التي تسندهم امام ملكهم آنو
تركن الى العقل والحكمة
وتتبادل المشورة مع انو سيدها
انهما يجلسان سوية في قاعة العرش
وفي القاعة المقدسة ، منزل الافراح
يجلس قدامها الالهة في اماكنهم ويصغون بامعان الى اقوالها

***

اما الملك الذي اختاروه واحبوه في قلوبهم
فانه يقدم بسخاء اضاحيه المقدسة

عمي ــ ديتانا يقدم امامهم العجول والظباء
انها القرابين المقدسة من يديه
والالهة عشتار مسرورة لأن تطلب له من زوجها آنو
حياة طويلة مستديمة
لقد منحت عشتار وصممت أن تعطي
واخضعت له باوامرها
جهات العالم تحت قدميه
وصممت على ان تربط
جموع الناس كلها الى نيره •

المراجـع

١ ــ الاستاذ طه باقر ، مقدمة في ادب العراق القديم ، بغداد ١٩٧٦

٢ ــ طه باقر ، ملحمة كلكامش (الطبعة الرابعة) بغداد ١٩٨٠ .

٣ ــ Lambert, Babylonian Wisdom Literature, Oxford, 1960.

٤ ــ Pritchard (ed.), Ancient Near Eastern Texts, Princeton, 19.

٥ ــ Kramer, The Sumerians, Chicago, 1963.

٦ ــ د . فاضل عبدالواحد علي ، عشتار ومأساة تموز ، بغداد ١٩٧٣ .

٧ ــ د . فاضل عبدالواحد علي ، الطوفان ، بغداد ١٩٧٥ .

٨ ــ د . فاضل عبدالواحد علي ، « من ادب الهزل والفكاهة عند السومريين والبابليين » ، سومر ٢٦ (١٩٧٠) ص ٩٠ فما بعد .

٩ ــ نود الاشارة الى اننا اعتمدنا هنا ترجمة الاستاذ الدكتور داود سلوم للاقوال البابلية الساخرة المنشورة في كتابه الموسوم : كتاب قصص الحيوان في الادب العربي القديم ، بغداد ، ١٩٧٩ ص ٤٩ ــ ٥١ .

١٠ ــ كما نود الاشارة ايضا الى انا اعتمدنا ترجمة الاستاذ طه باقر للامثال البابلية ، انظر المرجع رقم (١) ص ١٥٧ ــ ١٦١ . كما ان كافة المقاطع المقتبسة من ملحمة كلكامش هي من ترجمة الاستاذ الفاضل ايضا ، انظر المرجع رقم ٢ .

المحتوى

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغـداد

(١٤٩٣) لسنة ١٩٨٤

دار الحرية للطباعة ـ بغداد
١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٥ م

